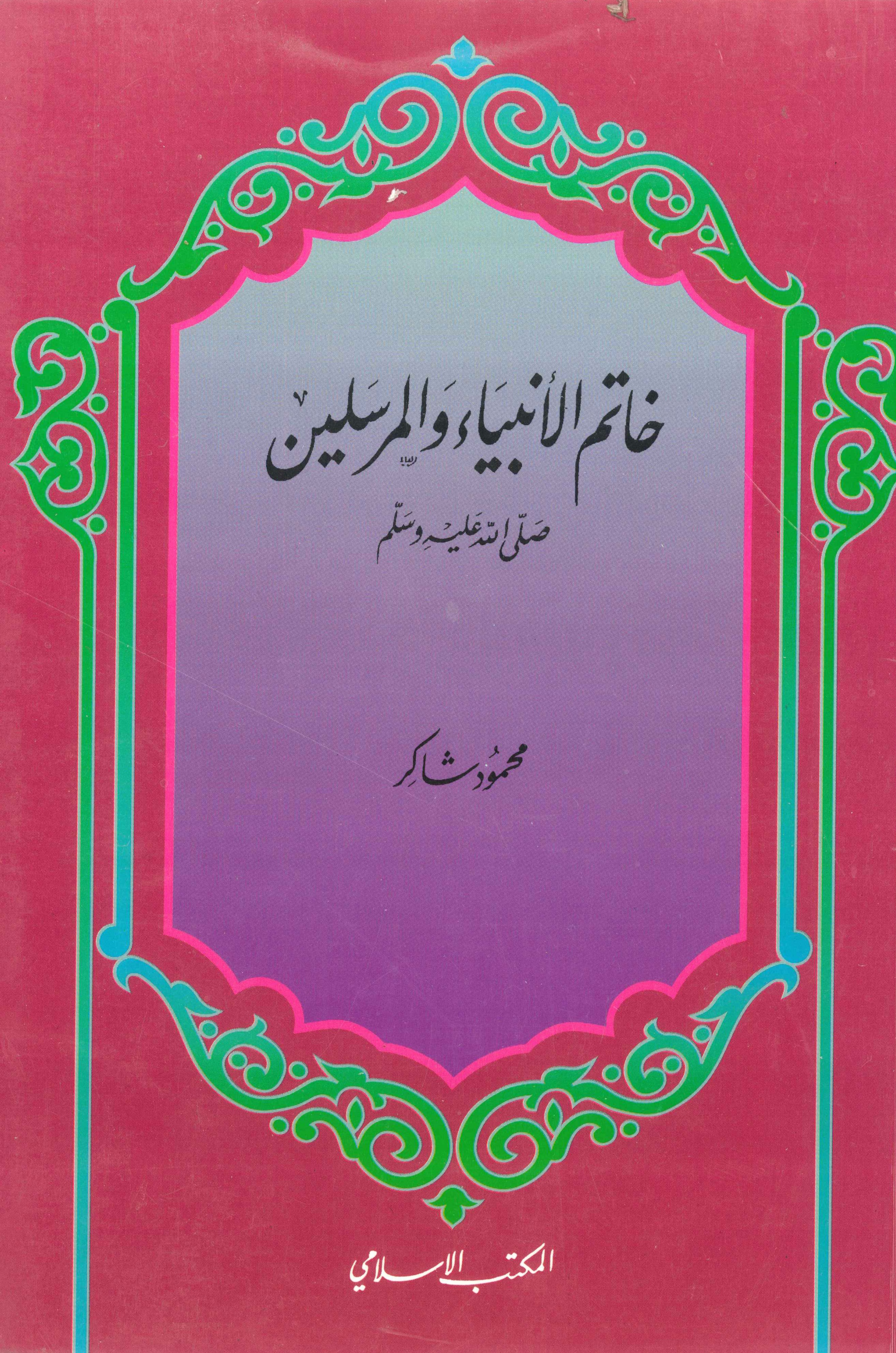

خاتم الأنبياء والمرسلين
صلى الله عليه وسلم
محمود شاكر
المكتب الإسلامي

خاتم الأنبياء والمرسلين

صلى الله عليه وسلم

محمود شاكر

المكتب الإسلامي

الطبعة الأولى
١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

المكتب الإسلامي

بيروت : ص.ب : ١١/٣٧٧١ - هاتف: ٤٥٦٢٨٠(٠٥)
دمشق : ص.ب : ١٣٠٧٩ - هاتف: ١١١٦٣٧
عمّان : ص.ب : ١٨٢٠٦٥ - هاتف: ٤٦٥٦٦٠٥

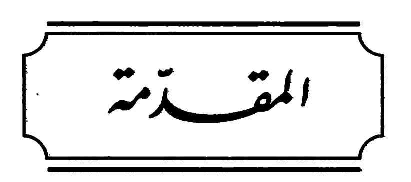
بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله سبحانه وتعالىٰ:

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب].

وقال الله سبحانه وتعالىٰ:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء].



المقدمة

الحمد للّه ربّ العالمين، والصلاة والسلام علىٰ سيدنا رسول الله محمد بن عبدالله خاتم الأنبياء والمرسلين، وعلىٰ آله وصحبه أجمعين، وعلىٰ مَن تبعه وسار علىٰ دربه واقتفىٰ أثره إلىٰ يوم الدين، **أما بعد:**

فإن حكمة الله سبحانه وتعالىٰ قضت أن يخلق الكون، فأمره أن يكون فكان.

قال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس].

وقال سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾ [القمر].

وقال سبحانه وتعالىٰ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾﴾ [الأنعام].

وقال سبحانه وتعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾﴾ [الروم].

وقال سبحانه وتعالىٰ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ...﴾ [الأعراف: ٥٤].

وقال سبحانه وتعالىٰ: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾﴾ [لقمان].

وقضت حكمة الله سبحانه وتعالىٰ أن يخلق الملائكة، وكان ذلك.

وقضت حكمة الله سبحانه وتعالىٰ أن يخلق الجنّ، فخلقهم، وكان ذلك قبل خلق آدم عليه السلام بألفي عام، فأفسدت الجنّ، وسفكت الدماء، فبعث لهم ملائكةً طردتهم من الأرض إلىٰ جزائر في البحر. وقيل: إنه قد وُجد خلق في الأرض قبل آدم عليه السلام، وأطلق بعضهم علىٰ ذلك الخلق اسماً لمجموعتين منهم: (الطمّ) و(الرمّ).

وقضت حكمة الله سبحانه وتعالىٰ أن يخلق خلقاً آخر من البشر، فقال لملائكته ما اقتضت حكمته في هذا الخلق، ولكن خفيت علىٰ الملائكة حكمة المشيئة الربانية، فقالوا لربهم: أتجعل فيها من يُفسد فيها؟ وقد قالوا هذا لا اعتراضاً علىٰ أمر الله بالخلق، والإنقاص من شأن هذا المخلوق، وإنما تذكروا ما قام به الجنّ من فسادٍ وسفكٍ للدماء، وما قامت به (الطمّ) و(الرمّ) من تصرّفات.

قال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة]. وسؤال الملائكة هذا لربهم العزيز الحكيم، إنما كان علىٰ سبيل المعرفة والرغبة في الاستطلاع عن وجه الحكمة، لا علىٰ وجه الاعتراض علىٰ أمر الله بالخلق. وجاءهم الجواب ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

خلق الله سبحانه وتعالىٰ آدم عليه السلام وهو أبو البشر، وعلّمه أسماءً كثيرةً تبياناً لأهمية هذا المخلوق وإظهاراً لمكانته، ومما علّمه سبحانه وتعالىٰ اسم كل طائرٍ، وكل دابّةٍ علىٰ سطح الأرض إضافةً إلىٰ أسماء الملائكة. ولم تكن الملائكة بحاجةٍ إلىٰ معرفة هذه الأسماء ما داموا ليسوا في الأرض لذا لم يعرفوها، وعرض سبحانه وتعالىٰ هذه الطيور وهذه الدواب أصحاب هذه الأسماء علىٰ ملائكته وقال لهم: أنبئوني بأسماء هذه المخلوقات إن كنتم صادقين، فقالوا: لا علم لنا إلا ما علّمتنا إياه.

قال سبحانه وتعالىٰ: ﴿أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ

﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [البقرة]. فأما ما أبدوه أنهم قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠]. وأما الذي كتموه أنهم قالوا: لن يخلق الله خلقاً إلا كنّا أعلم منه وأكرم عليه منه.

كرّم الله سبحانه وتعالىٰ هذا المخلوق آدم عليه السلام أعلىٰ صُوَر التكريم، إذ أمر الملائكة أن يسجدوا له.

قال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [البقرة].

لقد سجد الملائكة امتثالاً وطاعةً لربّ العالمين، ولكن إبليس لم يسجد، ولم يكن هو من جنس الملائكة ـ وإن كان معهم ـ فلو كان من الملائكة لسجد، ولم يكن ليَعصي، إذ أن من صفة الملائكة أنهم لا يعصون أوامر الله.

قال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَـٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [التحريم].

فعصيان إبليس عن طاعة ربه، واستكباره، وعدم سجوده يدلّ علىٰ أن إبليس ليس من الملائكة، إذ هو من الجنّ، وإن كان ساعتذاك مع الملائكة.

لقد كرّم الله سبحانه وتعالىٰ آدم عليه السلام وشرّفه، فقد خلقه بيده الكريمة، ونفخ فيه من روحه، وعلّمه الأسماء، وأمر الملائكة بالسجود له، فهذه أربع تشريفات كريمات من ربّ العالمين لعبده آدم عليه السلام.

قال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ

سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾ [الحجر].

لما خلّق الله سبحانه وتعالىٰ آدم عليه السلام ألقىٰ عليه النوم، ثم خلق حوّاء من ضلع من أضلاعه اليسرىٰ، وهو الضلع الأقصر، فلما استيقظ آدم عليه السلام رأىٰ حوّاء، ومال إليها وألفها، إذ كانت مخلوقةً من جزءٍ من أجزائه، واحتجُّوا لذلك بقول النبيّ ﷺ: «إن المرأة خُلقت من ضلعٍ أعوجٍ. فإن ذهبتَ تقوّمها كسرتَها، وإن تركتَها وفيها عوَج استمتعتَ بها»[1].

قال عبدالله بن عباس رضي الله عنهما: إنما سُمّي آدم بهذا الاسم لأن الله سبحانه وتعالىٰ خلقه من أديم الأرض كلها أحمرها، وأسْوَدها، وطيّبها، وخبيثها، لذا كان في ولده الأحمر، والأسود، والطيّب، والخبيث. والمرأة إنما سُمِّيت بـ(حوّاء) لأنها خُلقت من ضلعٍ من أضلاع آدم، فكانت مخلوقةً من شيءٍ حيٍّ، فلا جرم سُمِّيت بـ(حوّاء)[2].

وأكرم الله سبحانه وتعالىٰ آدم عليه السلام وزوجته حوّاء أيضاً فأسكنهما الجنّة، وأعطاهما ـ جلّت قُدرته ـ التوجيه اللازم.

---

(١) «التفسير الكبير»: الفخر الرازي. تفسير سورة النساء، الآية الأولىٰ.
(٢) المصدر السابق نفسه.

قال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [البقرة].

وقيل: إن الجنة التي أُدخلها آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ هو وزوجته، هي في السماء، وهي جنّة المأوىٰ، كما قيل: بل هي جنّة في الأرض إذ أُمر ألا يأكل من شجرة فيها، وفي جنّة الخلد لا يوجد شجرة يُمنع الأكل منها، ولأنه نام فيها وأُخرج منها، ودخل إبليس عليه فيها، وهذا مما يُنافي أن تكون جنّة الخلد. فهي إذن جنّة أعدّها الله سبحانه وتعالىٰ لآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ وزوجته حوّاء، وجعلها دار ابتلاءٍ، وليست هي جنّة الخلد التي هي دار جزاءٍ.

وقيل: هي في السماء، ولكنها ليست جنّة المأوىٰ إذ أُمروا بالهبوط منها.

قال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾﴾ [البقرة].

وقال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [البقرة].

وقال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الأعراف].

وقال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ [الأعراف].

وقال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾ [طه].

قيل: إن كلمة (هبط) قد تأتي بمعنىٰ: يقع ويتحطّم.

قال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [البقرة].

وقيل: كما أن كلمة (هبط) قد تأتي بمعنىٰ: نزل.

قال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿قِيلَ يَـٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَـٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَـٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾﴾ [هود].

وقيل: إن كلمة (هبط) قد تأتي بمعنىٰ: انتقل.

قال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ﴾ [البقرة: ٦١] أي: انتقلوا من سيناء إلىٰ مصر.

ويحتجّ أصحاب هذا القول بما رواه عبدالله بن أحمد بن حنبل في «الزيادات» عن هدبة بن خالد، عن حماد بن سلمة، عن حُميد، عن الحسن البصري، عن يحيىٰ بن ضمرة السعدي، عن أُبيّ بن كعب، قال: إن آدم لما احْتُضر اشتهىٰ قطفاً من عنب الجنّة، فانطلق بنوه ليطلبوه له، فلقيتهم الملائكة فقالوا: أين تريدون يا بني آدم؟ فقالوا: إن أبانا اشتهىٰ قطفاً من عنب الجنة. فقالوا لهم: ارجعوا فقد كفيتموه. فانتهوا إليه فقبضوا روحه وغسّلوه، وحنّطوه وكفّنوه، وصلّىٰ عليه جبريل ومن خلفه الملائكة ودفنوه، وقالوا: هذه سنّتكم في موتاكم[1].

ويبدو أن كلمة (هبط) سواء أكانت دفعاً من أعلىٰ، أم نزولاً، أم انتقالاً، فهي الحركة من أعلىٰ إلىٰ أدنىٰ.

وكذلك كانت أقوال في تلك الشجرة التي أغرىٰ إبليس ـ عليه لعنة الله ـ آدم عليه السلام بالأكل منها، فقيل: هي الكرم، وقيل: هي الحنطة، وقيل: هي النخلة، وقيل: هي التين. وقال أبو العتاهية: كانت شجرةً مَن أكل منها أحدث، ولا ينبغي في الجنّة حدث[2].

روىٰ مجاهد وسعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما أنها البُرّ والسنبلة. وروىٰ السّديّ عن ابن عباس وابن مسعود: أنها الكرم؛ وعن مجاهد وقتادة:

---

(١) «قصص الأنبياء»: ابن كثير.

(٢) المصدر السابق نفسه.

أنها التين؛ وقال الربيع بن أنس: كانت شجرةً من أكل منها أحدث، ولا ينبغي أن يكون في الجنّة حدث. واعلم أنه ليس في الظاهر ما يدلّ على التعيين، فلا حاجة أيضاً إلىٰ بيانه؛ لأنه ليس المقصود من هذا الكلام أن يُعرّفنا عين تلك الشجرة، وما لا يكون مقصوداً في الكلام لا يجب علىٰ الحكيم أن يُبيّنه؛ بل ربما كان بيانه عبثاً لأن أحدنا لو أراد أن يُقيم العذر في التأخُّر، فقال: شُغلت بضرب غلماني لإساءتهم الأدب، لكان هذا العذر أحسن من أن يذكر الغلام نفسه، ويذكر اسمه وصفته، فليس لأحدٍ أن يظنّ أنه وقع هاهنا تقصير في البيان(١).

لقد أُبيحت لآدم وزوجته حوّاء كل ثمار الجنّة... إلا شجرة... شجرةً واحدةً، وربما كانت ترمز للمحظور الذي لا بُدّ منه في حياة الأرض. ودون محظور لا تنبت الإرادة، ولا يتميّز الإنسان المطيع المريد من الحيوان المسوق، ولا يُمتحن صبر الإنسان علىٰ الوفاء بالعهد، والتقيد بالشرط. فالإرادة هي مفرق الطريق. والذين يستمتعون دون إرادةٍ، هم من عالم البهيمة، ولو بدوا في شكل الآدميين.

قال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ [البقرة: ٣٦].

وبالتعبير المصوّر (أزلّهما) إنه يرسم صورة الحركة التي يُعبّر عنها. وإنك لتكاد تلمح الشيطان وهو يُزحزحهما عن الجنّة، ويدفع بأقدامهما فتزلّ وتهوي.

عندئذٍ تمّت التجربة فنسي آدم عهده، وضعُف أمام الغواية. وعندئذٍ حقّت كلمة الله، وصرح قضاؤه.

قال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾﴾ [البقرة]. وكان هذا إيذاناً بانطلاق المعركة، في مجالها المقدّر لها، بين الإنسان والشيطان إلىٰ آخر الزمان.

---

(١) «التفسير الكبير»: الفخر الرازي.

نهض آدم من عثرته، بما رُكّب في فطرته، وأدركته رحمة ربه لتي تدركه دائماً عندما يثوب إليها، ويلوذ بها.

قال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [البقرة].

وتمّت كلمة الله الأخيرة، وعهده الدائم مع آدم وذريته... عهد الاستخلاف في هذه الأرض، وشرط الفلاح فيها أو البوار.

قال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [البقرة]. وانتقلت المعركة الخالدة إلىٰ ميدانها الأصيل في الأرض، وانطلقت من عقالها، ما تهدأ لحظةً ولا تفتر. وعرف الإنسان في فجر البشرية كيف ينتصر إذا شاء الانتصار، وكيف ينكسر إذا أراد الخسارة.

وبعد، فلا بدّ من عودةٍ إلىٰ مطلع القصة. قصة البشرية الأولىٰ.

لقد قال الله سبحانه وتعالىٰ للملائكة: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]. وإذن فآدم عليه السلام مخلوق لهذه الأرض منذ اللحظة الأولىٰ.

لعلّني ألمح أن هذه التجربة كانت تربيةً لخليفة الله آدم عليه السلام وإعداداً له. كانت إيقاظاً للقوىٰ المذخورة في كيانه. كانت تدريباً له علىٰ تلقّي الغواية، وتذوُّق العاقبة، وتجرُّع الندامة، ومعرفة العدوّ، والالتجاء بعد ذلك إلىٰ الملاذ الأمين.

وأُهبط آدم عليه السلام وزوجته حوّاء إلىٰ الأرض.



في الأرض

أُهبط آدم عليه السلام وزوجته حوّاء في الأرض في مكانٍ متوسطٍ من الكرة الأرضية، في جزيرة العرب. قال ابن أبي حاتم: حدّثنا أبو زرعة، حدّثنا ابن أبي شيبة، حدّثنا جرير، عن سعيد، عن ابن عباس، قال: أُهبط آدم عليه السلام بأرضٍ يُقال لها: (دحنا) بين مكة والطائف.

وعن الحسن، قال: أُهبط آدم عليه السلام بـ(الهند)، وحوّاء بـ(جُدّة)، وإبليس بـ(دستميان) من البصرة علىٰ أميالٍ، وأُهبطت الحيّة[1] بـ(أصبهان). رواه ابن أبي حاتم أيضاً.

وقال السّديّ: نزل آدم بالهند، نزل ومعه الحجر الأسود، وقبضة من ورق الجنّة، فبثّها في الهند فنبتت شجرة الطيب هناك.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: أُهبط آدم بـ(الصفا)، وحوّاء بـ(المروة). ورواه ابن حاتم أيضاً[2].

وفي «صحيح مسلم» من حديث الزهري عن الأعرج، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خير يومٍ طلعتْ فيه الشمس يوم الجمعة، فيه وُلد آدم، وفيه أُدخل الجنّة، وفيه أُخرِج منها، وفيه تقوم الساعة».

وفاة آدم عليه السلام:

لما حضرت آدم الوفاة عهد إلىٰ ابنه (شيث) وعلّمه ساعات الليل والنهار، وعلّمه عبادات تلك الساعات، وأعلمه بوقوع الطوفان بعد ذلك.

---

(١) الحيّة: الأفعىٰ التي دلّت حوّاء علىٰ الأكل من الشجرة.

(٢) «قصص الأنبياء»: ابن كثير.

ونسب بني آدم اليوم تنتهي كلها إلىٰ ولده شيث، وقد انقرض نسب أبناء آدم الآخرين.

وتوفي آدم عليه السلام يوم الجمعة، وجاءته الملائكة بحنوطٍ وكفنٍ من الجنّة، وعزّوا فيه ابنه ووصيه (شيث) عليه السلام. وقال ابن إسحاق: وكسفت الشمس والقمر سبعة أيامٍ بلياليهن.

وروىٰ ابن عساكر من طريق شيبان بن فروخ، عن محمد بن زياد، عن ميمون بن مهران، عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «كبّرت الملائكة علىٰ آدم أربعاً». وكبّر أبو بكر علىٰ فاطمة أربعاً، وكبّر عمر علىٰ أبي بكر أربعاً، وكبّر صهيب علىٰ عمر أربعاً.

واختلف في عمر آدم عليه السلام. فعن ابن عباس رضي الله عنهما، وعن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: «أن عمره اكتتب في اللوح المحفوظ ألف سنة».

ولما مات آدم عليه السلام قام بعده ولده شيث عليه السلام، وكان نبيّاً بنص الحديث الذي رواه ابن حبّان في «صحيحه» عن أبي ذرّ مرفوعاً: «أُنزل عليه خمسون صحيفةً».

مهد الأمة:

قضت حكمة الله سبحانه وتعالىٰ أن يكون مهد الأمة وسط الكرة الأرضية، حتىٰ يسهل انتشار البشر في مختلف الجهات، وحتىٰ تتوزّع الدعوة إلىٰ الدين الحقّ في جميع النواحي، لذا أُهبط آدم عليه السلام وزوجته حوّاء في المنطقة الوسطىٰ للعالم، وأقام في جزيرة العرب في منطقة مكة اليوم، وأنجب الأبناء، فتوسّعوا في المنطقة، ومنها توزعت البشرية.

وقضت حكمة الله سبحانه وتعالىٰ أن يُرسل للبشرية الأنبياء والرسل، لعبادة الله ومُبشّرين ومُنذرين، وسُرُجاً منيرةً للحق.

بعث الله سبحانه وتعالىٰ خمسة وعشرين نبياً ورسولاً إلىٰ خلقه في هذه المنطقة الوسطىٰ للعالم، ولم يبعث في غيرها إذ انتشر منها النور، وانطلقت منها الدعوة، لذا كانت مهوىٰ الأفئدة ومحطّ الأنظار، لذا طمع فيها الآخرون، وعمل علىٰ استعمارها أعداء الله.

١ ـ بعث الله سبحانه وتعالىٰ آدم عليه السلام في منطقة مكة إذ أُهبط فيها.

٢ ـ وبعث إدريس عليه السلام في منطقة مكة أيضاً إذ لا تزال مركز البشر.

٣ ـ وبعث نوحاً عليه السلام في منطقة بابل في جنوبي العراق، حيث توزّع البشر، وانتقل شيث بن نوح عليه السلام إلىٰ تلك الجهة.

٤ ـ وبعث هوداً عليه السلام إلىٰ قوم عاد في منطقة الأحقاف في جنوبي جزيرة العرب، إذ أقام قوم عادٍ هناك بعد طوفان نوح، وعودة أولئك الذين نجوا من الطوفان بعد أن استوت سفينة نوح عليه السلام علىٰ جبل (الجودي) في شرقي تركيا اليوم. ويُطلق عليه اليوم جبال (أرارات)، ويصل ارتفاعها إلىٰ ٥١٦٥ متراً عن سطح البحر.

٥ ـ وبعث صالحاً عليه السلام إلىٰ قوم ثمود في منطقة وادي القرىٰ شمال غربي المدينة المنوّرة في جزيرة العرب، حيث أقام قوم ثمود هناك بعد طوفان نوح.

٦ ـ وبعث إبراهيم عليه السلام في جنوبي العراق في منطقة بابل، التي بُعث فيها نوح عليه السلام تأكيداً لدعوة نوح عليه السلام مُنذراً بما أصاب الذين كذّبوا نوحاً، ورفضوا الدعوة إلىٰ الله فكان نصيبهم الغرق، ومُبشّراً بنجاة الذين يؤمنون ويقبلون دعوة الله كما نجا الذين صدّقوا نوحاً عليه السلام، وقد أسلم لوط عليه السلام وهاجر مع عمّه إبراهيم عليه السلام باتجاه الشمال مع مجرىٰ نهر الفرات حتىٰ بلدة (حرّان)[1] في جنوبي تركيا اليوم، حيث يُقيم عمّه (هاران) والد (لوط) عليه السلام، ثم عاد فاتجه جنوباً إلىٰ حلب، حمص، دمشق (أقام قليلاً في بلدة برزة ضاحية دمشق)، ثم سار إلىٰ منطقة فلسطين اليوم، وأقام في البلدة التي عُرفت باسمه (الخليل) إذ هو إبراهيم الخليل عليه السلام. ثم سافر إلىٰ مصر، ولم يلبث أن رجع إلىٰ بلدة (الخليل).

---

(١) مدينة حرّان: نسبةً إلىٰ عمّه (هاران)، وتقع علىٰ نهر البليخ رافد الفرات، وتبعد اثنين وعشرين كيلومتراً عن الحدود السورية.

٧ ـ وبعث إسماعيل عليه السلام وهو ابن سيدنا إبراهيم عليه السلام بعثه في منطقة مكة المكرمة. ورفع إبراهيم وإسماعيل عليه السلام القواعد من البيت. قال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾ [البقرة].

٨ ـ وبعث إسحاق عليه السلام وهو ابن إبراهيم عليه السلام، بعثه إلىٰ منطقة (الخليل) منطقة والده، وهي جنوب بيت المقدس.

٩ ـ وبعث يعقوب عليه السلام وهو (إسرائيل)، وابن إسحاق، بعثه إلىٰ منطقة (الخليل) منطقة والده إسحاق، وجدّه إبراهيم.

وسافر إلىٰ مدينة (حرّان) حيث يقيم خاله (هاران)، وتزوّج ابنتَي خاله، وهما: (ليا) و(راحيل). ولم يكن قد حُرِّم الجمع بين الأختين.

١٠ ـ وبعث يوسف عليه السلام وهو ابن يعقوب. ويوسف عليه السلام صاحب الرؤيا المشهورة. وفي القرآن الكريم سورة تحمل اسمه (سورة يوسف). ولقي يوسف عليه السلام البغضاء من إخوته أبناء خالته (ليا)، إذ ألقوه في البئر، وأخرجه أفراد قافلة تجارية مارّة من هناك، فأخذوه إلىٰ مصر، وباعوه هناك، واشتراه عزيز مصر. وارتفع مكان يوسف عليه السلام، وبُعث رسولاً في مصر. وسُجن هناك، وتوفي في مصر.

١١ ـ وبعث لوط عليه السلام إلىٰ منطقة الغور، وكان قد نشأ في منطقة (الخليل) مع عمّه سيدنا إبراهيم عليه السلام، ثم انتقل بإذن عمّه إلىٰ منطقة الغور، ونزل مدينة سدوم، وهي الآن في جنوبي البحر الميت (بحيرة لوط) تحت المياه بستة أمتارٍ.

١٢ ـ وبعث شعيب عليه السلام في بلاد مدين، شمال غربي جزيرة العرب، غرب مدينة تبوك (الأيكة)، ودعا قومه، فآمن من آمن، وجاءت صيحة من السماء فأزهقت أرواح الذين أصرُّوا علىٰ كفرهم. أما شعيب عليه السلام والذين آمنوا معه فقد ذهبوا إلىٰ مكة، وماتوا فيها، وقبورهم غرب الكعبة.

١٣ ـ وبعث أيوب عليه السلام في بلاد الشام، في منطقة حوران جنوبي سورية اليوم.

١٤ ـ وبعث ذا الكفل (بشر بن أيوب) في بلاد الشام، في غرب منطقة حوران منطقة أبيه.

١٥ ـ وبعث يونس بن متّىٰ إلىٰ مدينة نينوىٰ عاصمة الآشوريين، وهي في بلاد العراق إلىٰ الشرق من مدينة الموصل.

١٦ ـ وبعث موسىٰ بن عمران في مصر، إذ كان بنو إسرائيل قد دخلوا مع أهليهم مصر أيام يوسف بن يعقوب عليهما السلام، وولد موسىٰ عليه السلام هناك، وخرج وقومه من مصر وقد تبعه فرعون وجنده، فغرق فرعون ومن معه بأمرٍ من الله، ونجا موسىٰ عليه السلام وقومه، وانتقلوا إلىٰ بلاد الشام.

١٧ ـ وبعث هارون عليه السلام، وهو أخو موسىٰ بن عمران، وكان فصيح اللسان، يُجيد الكلام، ويُحسن التعبير، وقد بُعث مُؤيّداً لأخيه. وقد طلب موسىٰ عليه السلام ذلك من ربّه فأُجيب طلبه.

١٨ ـ وبعث إلياس عليه السلام إلىٰ أهل بعلبك في بلاد الشام، في منطقة لبنان اليوم.

١٩ ـ وبعث اليسع عليه السلام في بلاد الشام، في المنطقة الوسطىٰ والتي هي الآن بين سورية ولبنان وفلسطين، إذ أقام في بلدة بانياس.

٢٠ ـ وبعث داود عليه السلام في بلاد الشام، في منطقة مدينة رام الله في فلسطين. وقد قتل ملك العمالقة جالوت.

٢١ ـ وبعث سليمان عليه السلام في بلاد الشام، في منطقة بيت المقدس. وهو ابن داود عليه السلام.

٢٢ ـ وبعث زكريا عليه السلام في بلاد الشام، في منطقة بيت المقدس، عند مدينة (بيت لحم).

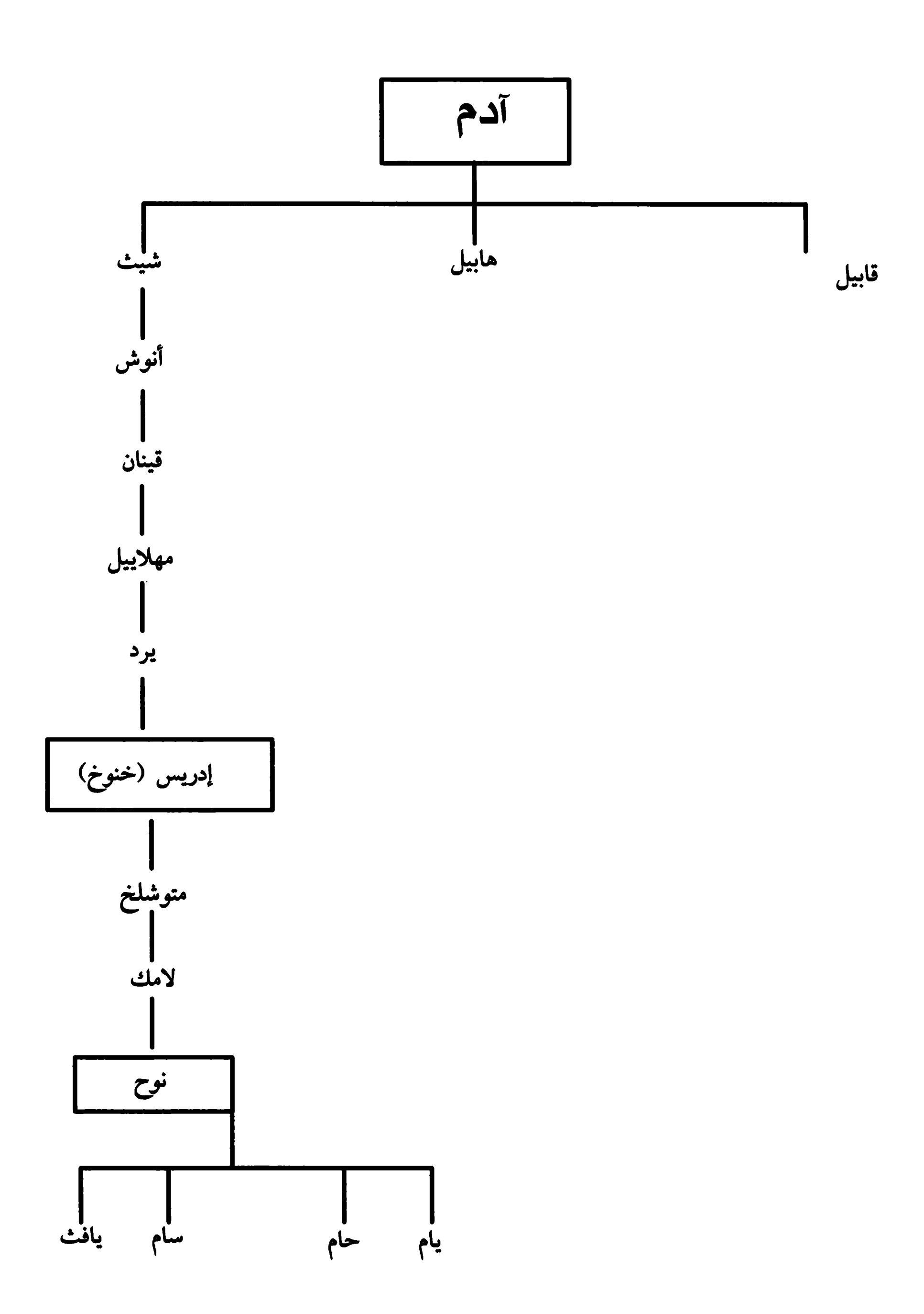
٢٣ ـ وبعث يحيىٰ بن زكريا عليه السلام في بلاد الشام، في منطقة بيت المقدس.

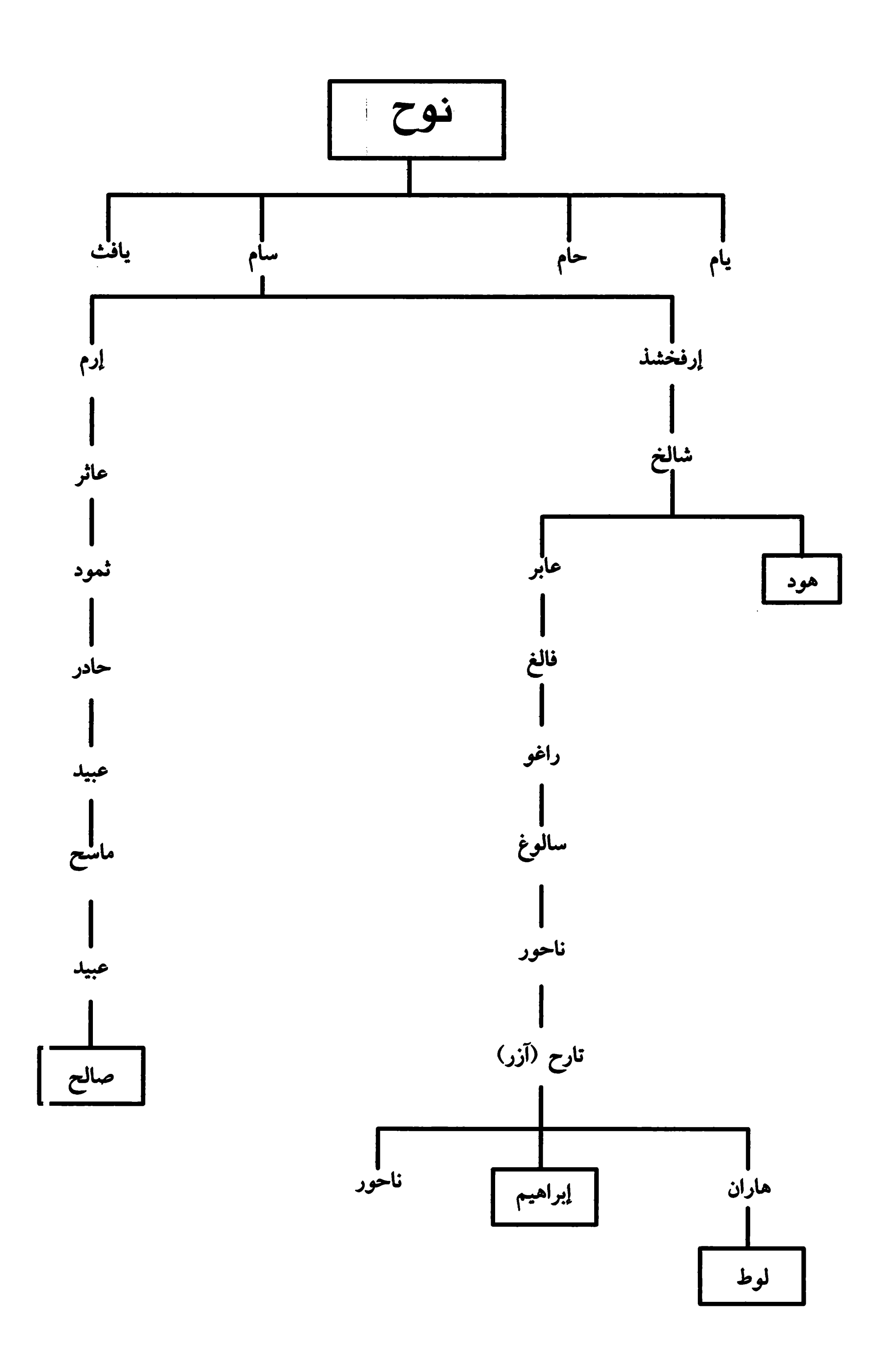
٢٤ ـ وبعث عيسىٰ عليه السلام وهو ابن مريم بنت عمران. وكانت بعثته في بلاد الشام، في منطقة بيت المقدس. ورُفع إلىٰ السماء وعمره ثلاث وثلاثون سنة. إذ حرص بعض اليهود علىٰ قتله فرفعه الله سبحانه وتعالىٰ. وقد دلّ اليهود علىٰ مكان عيسىٰ عليه السلام فذهب إلىٰ المكان بعضهم فشُبِّه برجلٍ في المكان فأُلقي القبض عليه وقُتل وصُلب. وقيل إن الذي قُتل وصُلب يدعىٰ (جرجس).

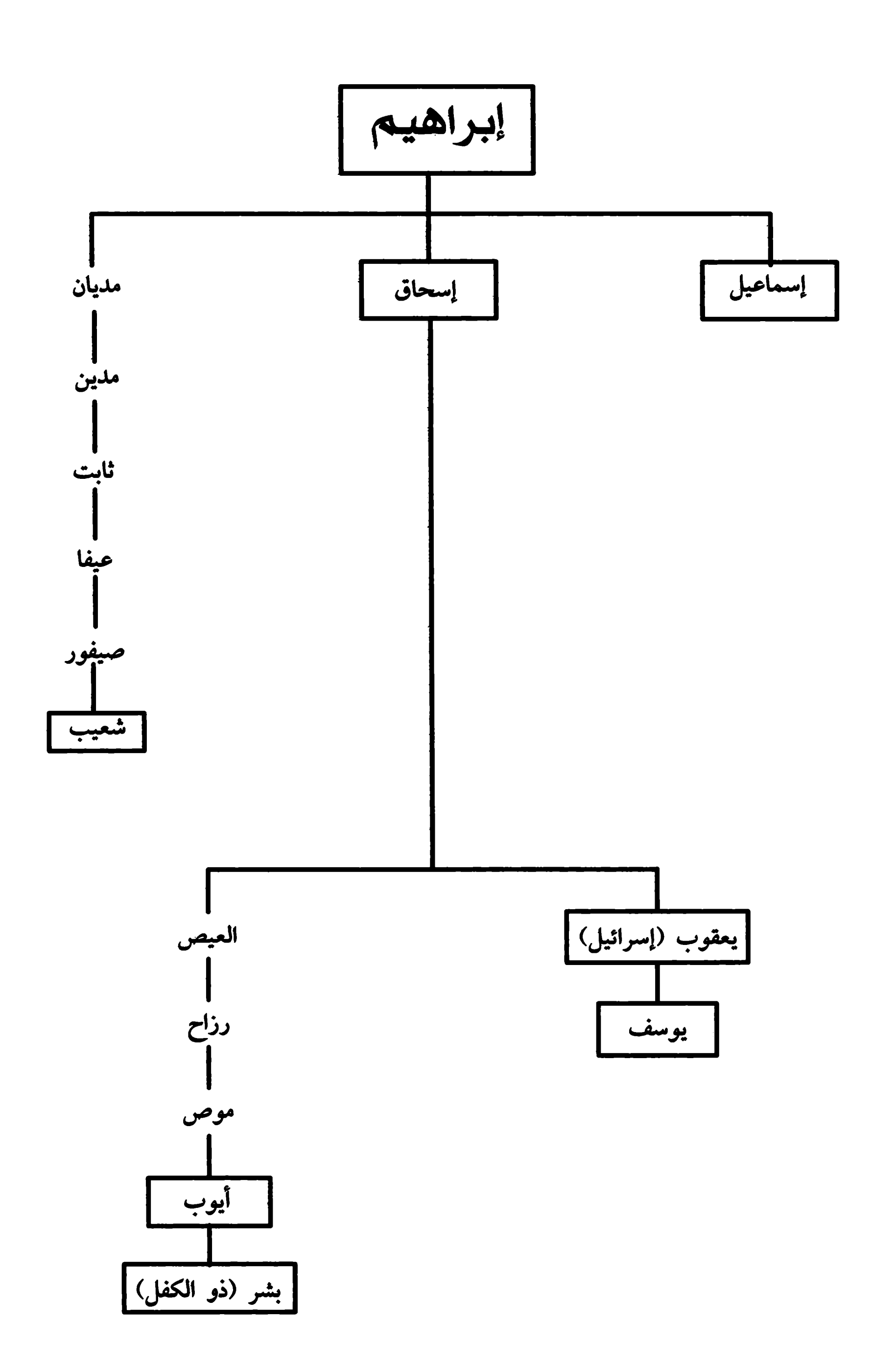
٢٥ ـ وبعث محمداً عليه السلام، وهو خاتم الأنبياء والرسل، وهو موضوع بحثنا.

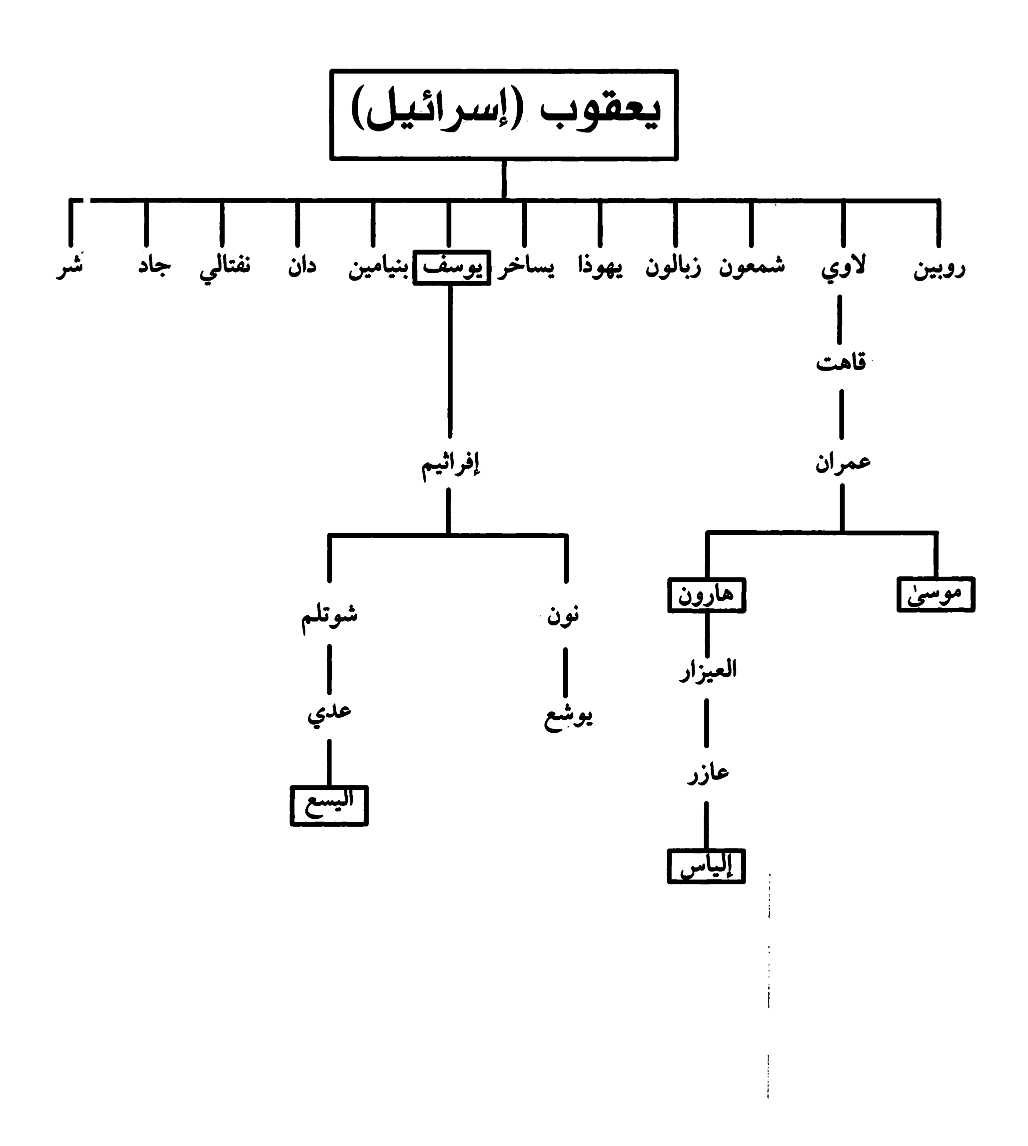
وهكذا فإن بعثة الأنبياء والرسل جميعاً كانت في هذه المنطقة، منطقة جزيرة العرب وما حولها من بلاد الشام، والعراق، وشمالي مصر. ولا نبيّ ولا رسول كان خارج هذه الدائرة.

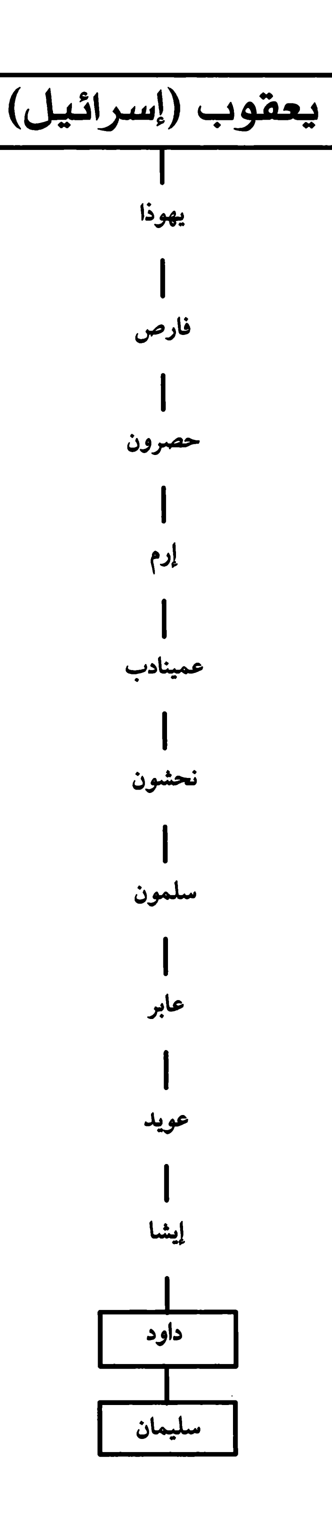


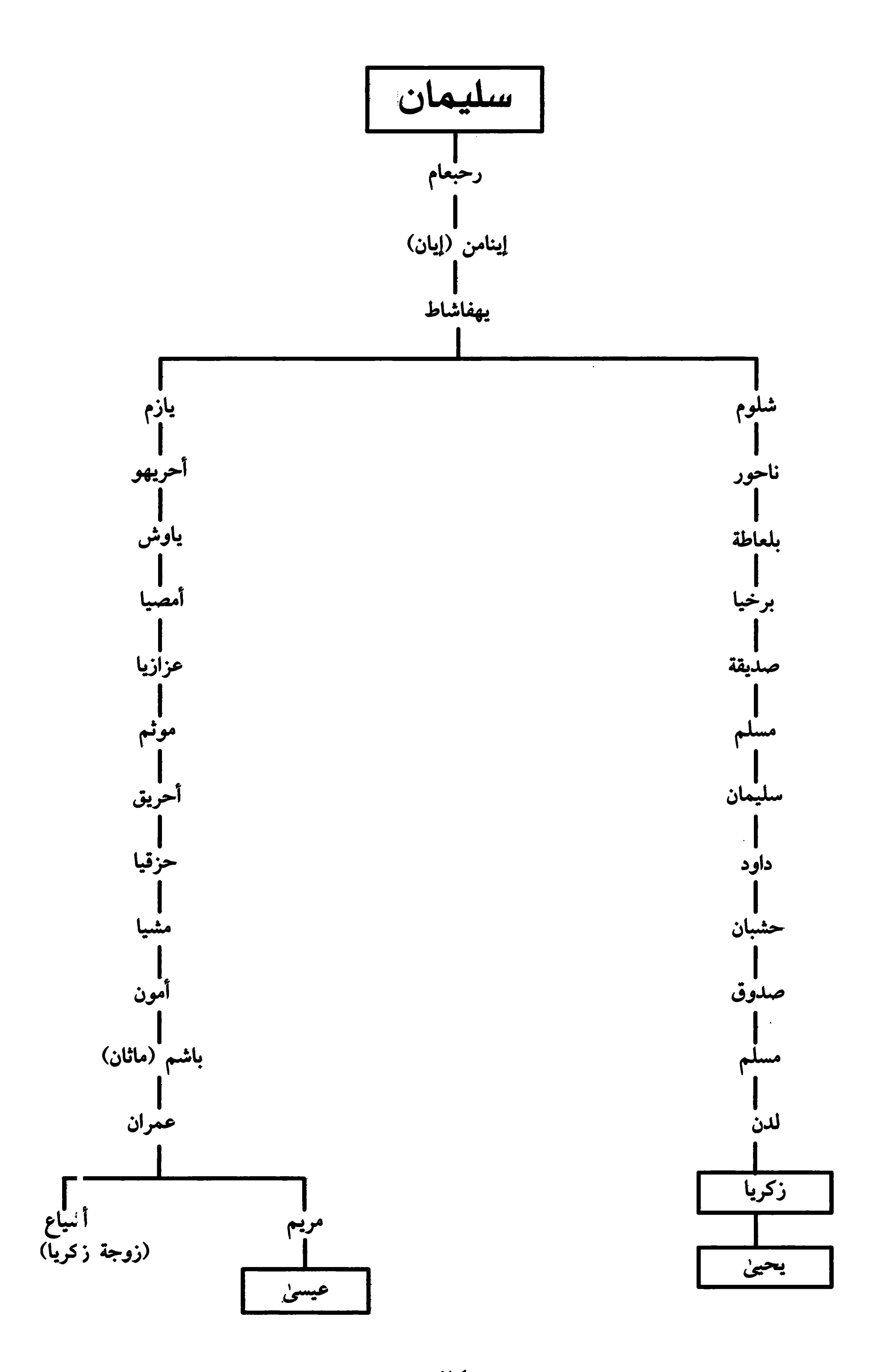

آدم
قابيل
هابيل
شيث
أنوش
قينان
مهلاييل
يرد
إدريس (خنوخ)
متوشلخ
لامك
نوح
يام
حام
سام
يافث

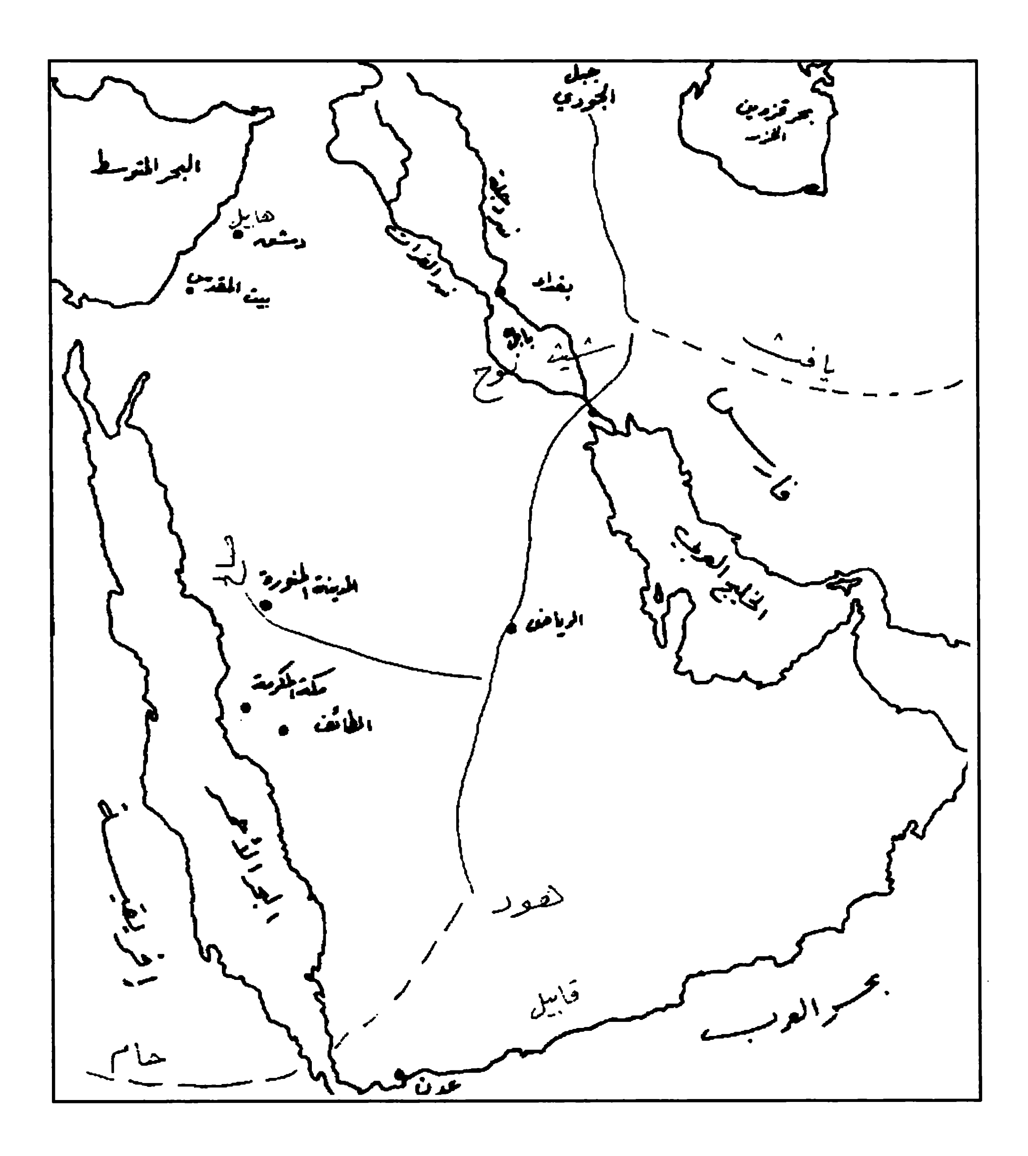

نوح
يافث
سام
حام
يام
إرم
إرفخشذ
عاثر
شالخ
ثمود
عابر
هود
حادر
فالغ
عبيد
راغو
ماسح
سالوغ
عبيد
ناحور
صالح
تارح (آزر)
ناحور
إبراهيم
هاران
لوط


إبراهيم
إسماعيل
إسحاق
مديان
مدين
ثابت
عيفا
صيفور
شعيب
يعقوب (إسرائيل)
يوسف
العيص
رزاح
موص
أيوب
بشر (ذو الكفل)


يعقوب (إسرائيل)
روبين
لاوي
شمعون
زبالون
يهوذا
يساخر
يوسف
بنيامين
دان
نفتالي
جاد
شر
قاهت
عمران
موسىٰ
هارون
العيزار
عازر
إلياس
إفرائيم
نون
يوشع
شوتلم
عدي
اليسع

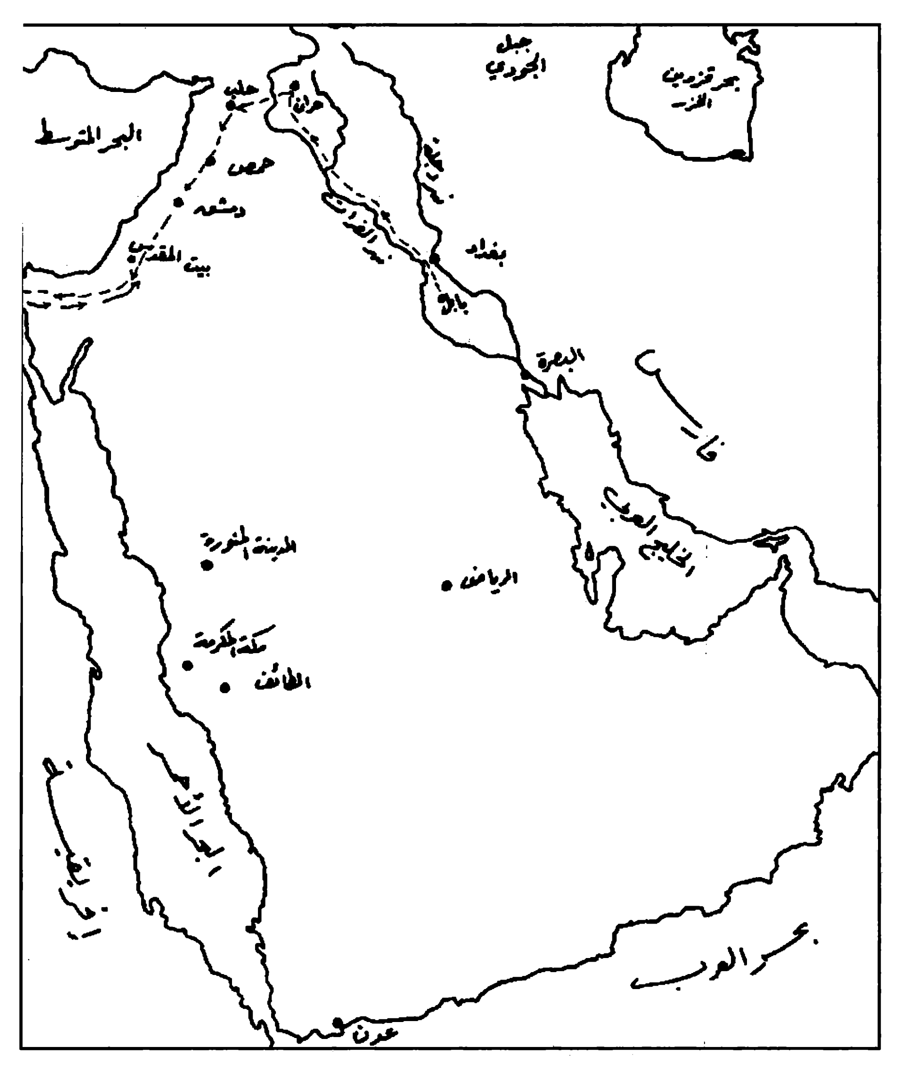

يعقوب (إسرائيل)
يهوذا
فارص
حصرون
إرم
عمينادب
نحشون
سلمون
عابر
عويد
إيشا
داود
سليمان


سليمان
رحبعام
إينامن (إيان)
يهفاشاط
شلوم
ناحور
بلعاطة
برخيا
صديقة
مسلم
سليمان
داود
حشبان
صدوق
مسلم
لدن
زكريا
يحيىٰ
يازم
أحريهو
ياوش
أمصيا
عزازيا
موثم
أحريق
حزقيا
مشيا
أمون
باشم (ماثان)
عمران
مريم
عيسىٰ
أشياع
(زوجة زكريا)



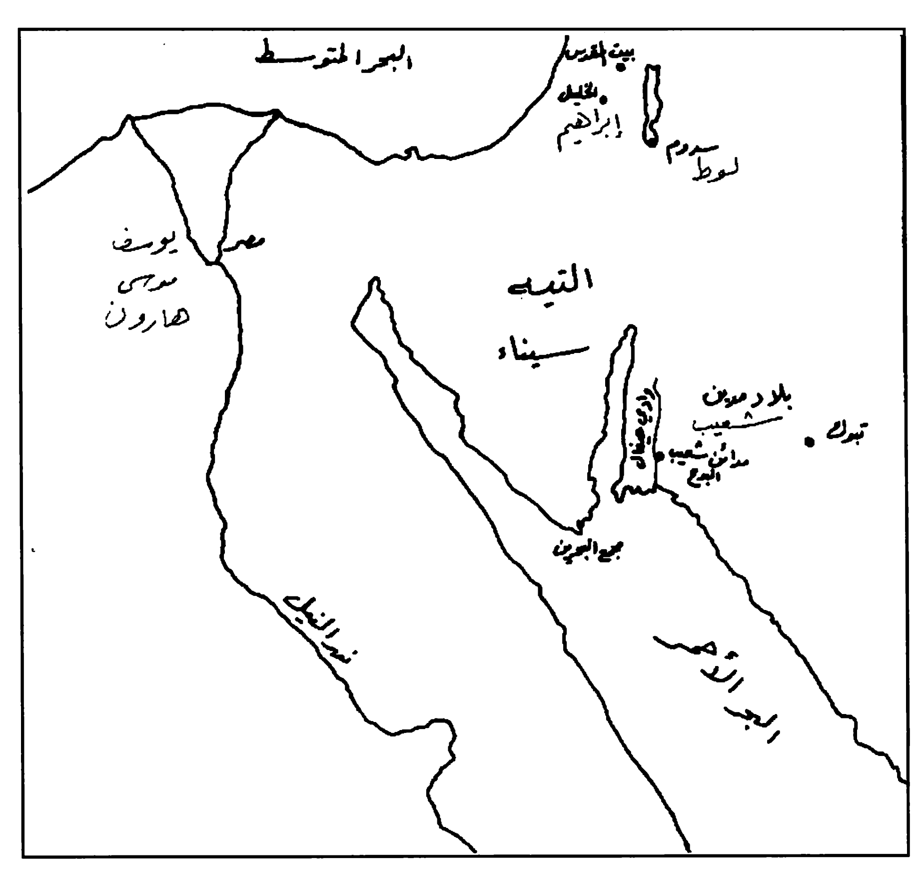
جبل الجودي
بحر قزوين الخزر
البحر المتوسط
هابيل
دمشق
بيت المقدس
بغداد
بابل
نوح
يافث
المدينة المنورة
الرياض
الخليج العربي
مكة المكرمة
الطائف
البحر الأحمر
قابيل
بحر العرب
حام
عدن

مصور رقم (١)



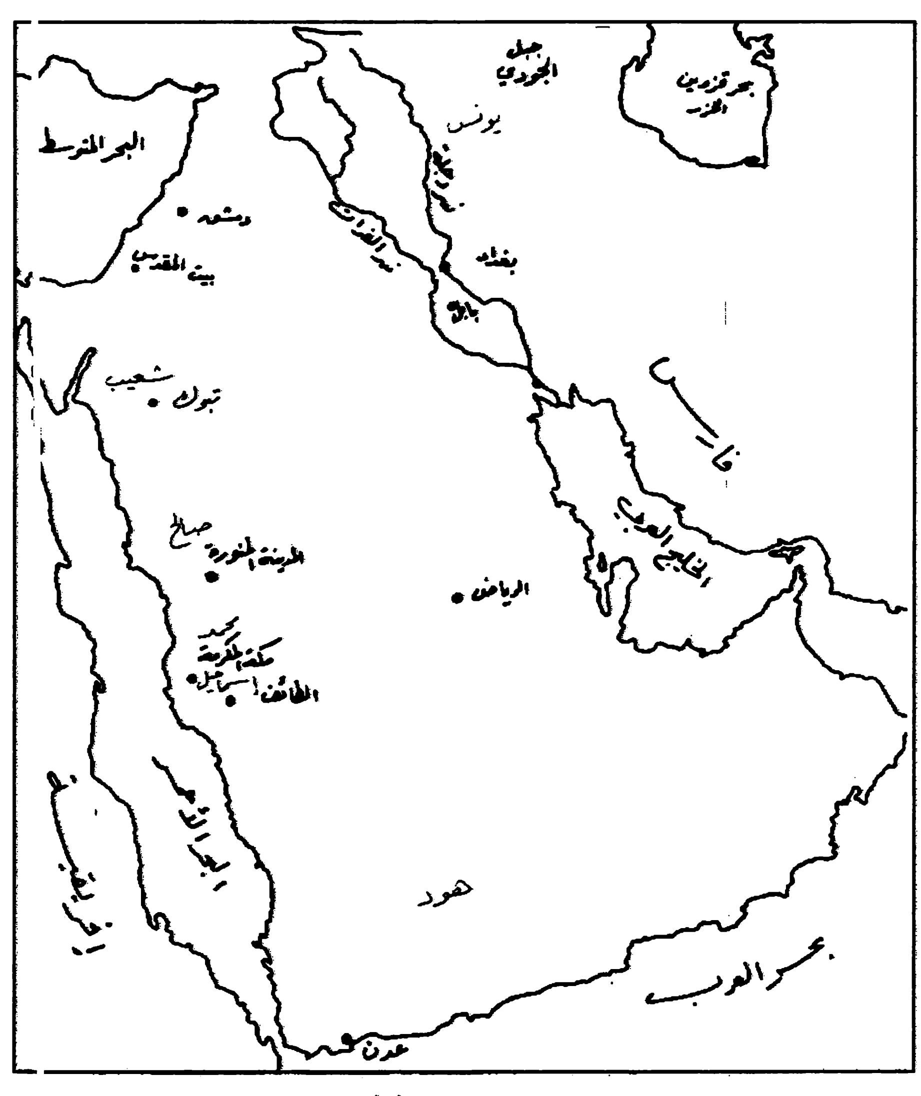
البحر المتوسط
حلب
حمص
دمشق
بيت المقدس
جبل الجودي
بغداد
البصرة
الخليج العربي
المدينة المنورة
الرياض
مكة المكرمة
الطائف
عدن
بحر العرب

مصور رقم (٢)



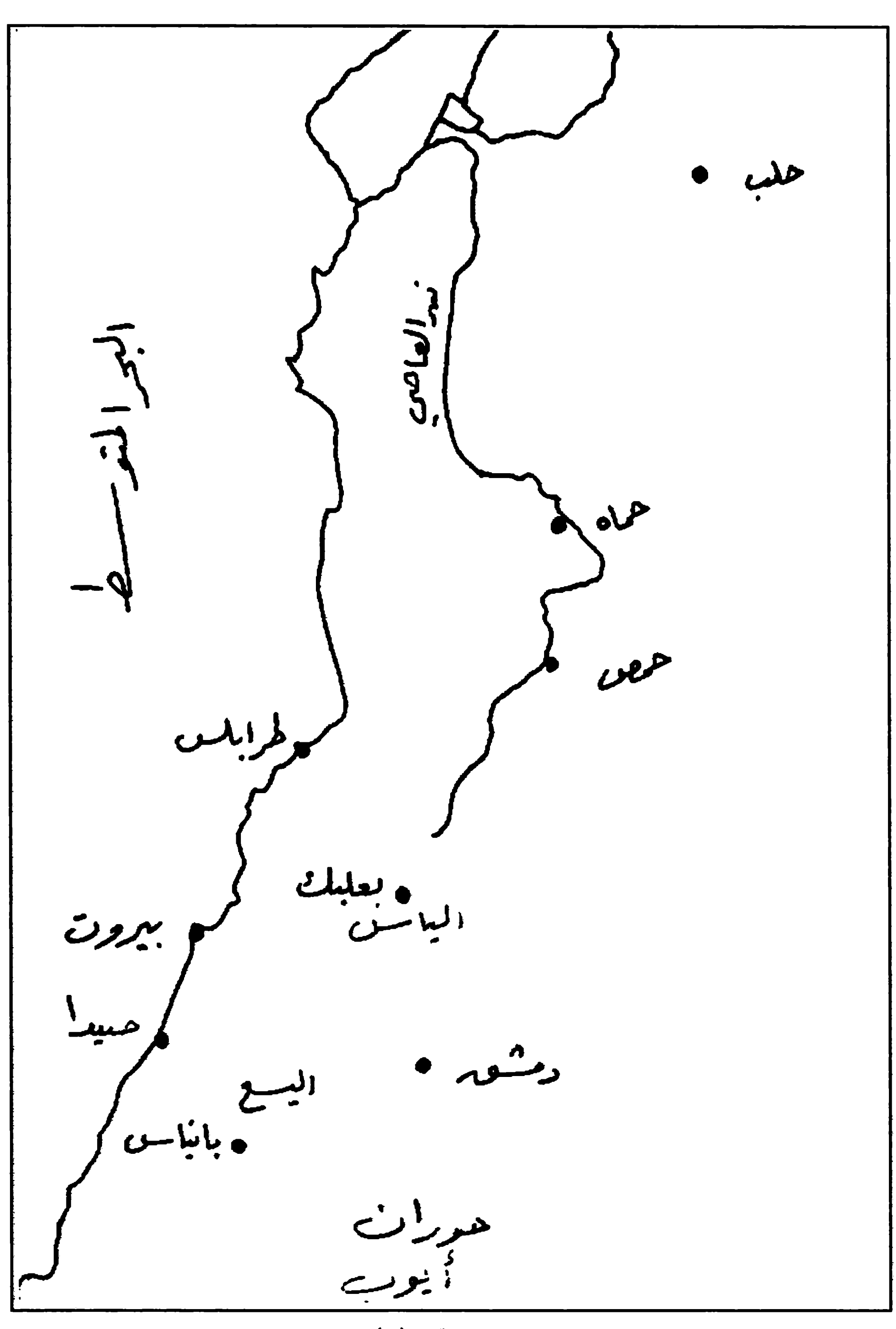
البحر المتوسط
بيت المقدس
الخليل
إبراهيم
سدوم
لوط
مصر
يوسف
موسى
هارون
التيه
سيناء
بلاد مدين
شعيب
تبوك
جمع البحرين
نهر النيل
البحر الأحمر

مصور رقم (٣)



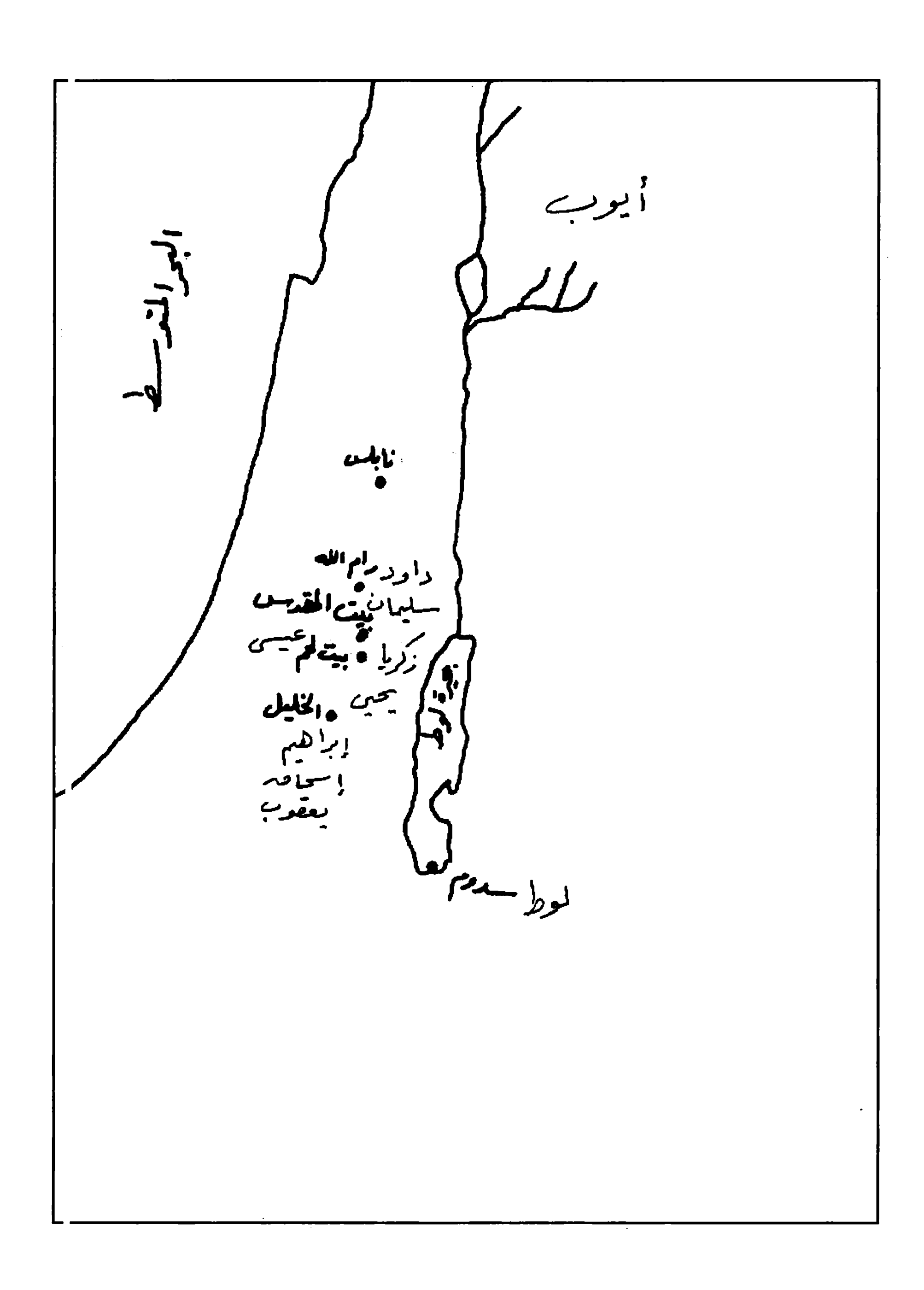
البحر المتوسط
دمشق
بيت المقدس
جبل الجودي
بحر قزوين الخزر
يونس
نهر الفرات
بغداد
بابل
فارس
الخليج العربي
تبوك
شعيب
صالح
المدينة المنورة
الرياض
محمد
مكة المكرمة
إسماعيل
الطائف
البحر الأحمر
هود
بحر العرب
عدن

مصور رقم (٤)



حلب
نهر العاصي
البحر المتوسط
حماه
حمص
طرابلس
بعلبك
الياس
بيروت
صيدا
دمشق
اليسع
بانياس
حوران
أيوب

مصور رقم (٥)


أيوب
البحر المتوسط
نابلس
داود رام الله
سليمان بيت المقدس
زكريا
بيت لحم عيسى
يحيى
الخليل
إبراهيم
إسحاق
يعقوب
لوط سدوم

مصور رقم (٦)

خاتم الأنبياء والرسل

قبل بعثة خاتم الأنبياء والرسل كانت كل بعثةٍ خاصةً بقوم تُناسب أفكاره وحياته الاجتماعية، وقد لا تنسجم مع الأقوام الأخرىٰ لاختلاف العادات وتباين الأفكار، وفي الوقت نفسه قد يحدث الخلاف بين هذه التجمُّعات لاختلاف ما يأتي إليهم، فيبقىٰ كل قومٍ يُشكّل مجموعةً خاصةً بأبنائه ويكون التناحر والصراع.

قال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [يونس].

قال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ . . .﴾ [الأعراف: ٥٩].

وقال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًاۚ . . .﴾ [الأعراف: ٧٢].

وقال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ . . .﴾ [الأعراف: ٧٣].

وقال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ . . .﴾ [الأعراف: ٨٠].

وقال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًاۚ . . .﴾ [الأعراف: ٨٥].

قضت حكمة الله سبحانه وتعالىٰ أن يكون رسولٌ خاتماً للرسل جميعاً، إذ لا نبيّاً ولا رسولاً بعده، وأن تكون رسالته جامعةً للرسالات السابقة وخاتمةً لها، وأن تكون هذه الرسالة الجامعة للعالمين جميعاً ولا رسالة بعدها. وهذا ما كانت رسالة نبي الله ورسوله محمد بن عبدالله خاتم الأنبياء والرسل.

قال الله سبحانه وتعالىٰ مخاطباً رسوله محمداً ﷺ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء].

وقال سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [سبأ].

وهكذا فرسالة خاتم الأنبياء ناسخة لما قبلها وخاتمة لها، وهي للناس كافةً، ولا رسالة بعدها.

يرجع خاتم الأنبياء والرسل إلىٰ ذرية إبراهيم عليه السلام.

قال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ [البقرة].

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الحديد].

وقال الله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [إبراهيم].

اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالىٰ أن تتوقّف بعثة الأنبياء والرسل مدةً من الزمن بعد عيسىٰ عليه السلام، إذ توقّفت بعد رفع عيسىٰ عليه السلام إلىٰ السماء حتىٰ بعثة محمدٍ عليه السلام مدة خمسمائةٍ وثمانيةٍ وسبعين سنةً.

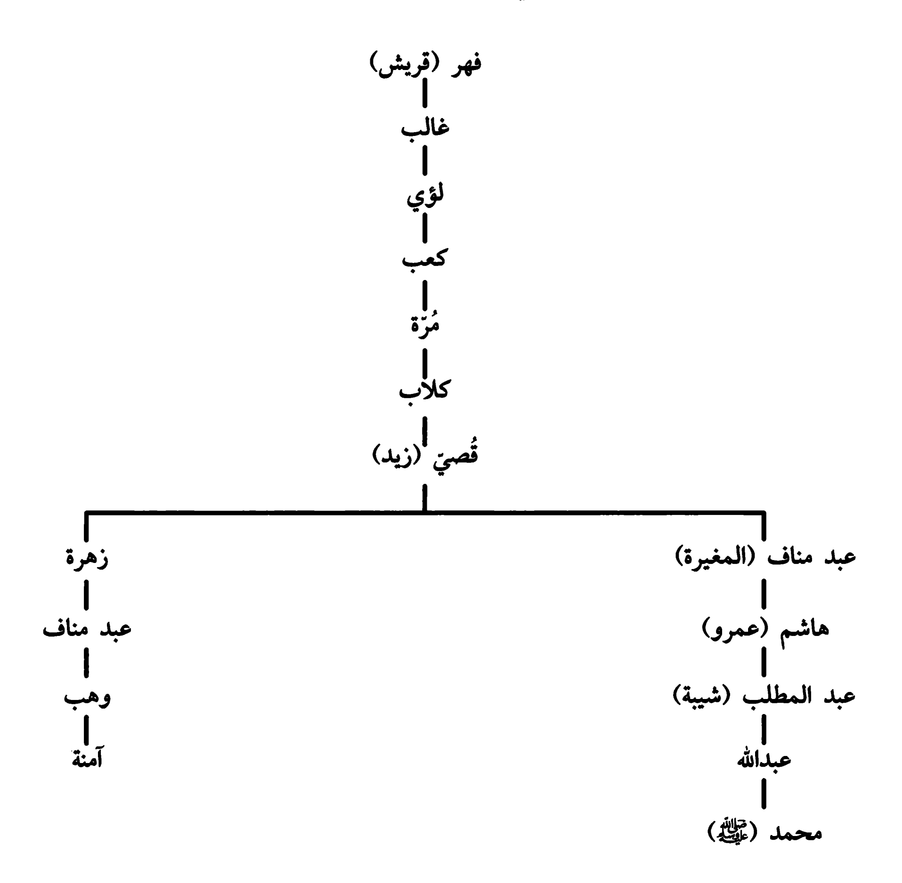
إبراهيم الخليل

إسحاق | إسماعيل | مديان

نابت
يَشْجُب
يَعْرُب
تيرح
ناحور
مُقَوَّم
أدد
عدنان
مَعَدّ
نِزار
مُضَر
إلياس
مُدْرِكة
خُزَيمة
كِنانة
النضر
مالك
فِهْر (قريش).
غالب
لُؤَيّ
كعب
مُرَّة
كِلاب
قصي (زيد).
عبد مَناف (المغيرة).
هاشم (عمرو).
عبد المطلب (شيبة).
عبد الله
مُحَمَّد صلى الله عليه وسلم.

قال الله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٩)﴾ [المائدة].

أما أمه فهي آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زُهْرة بن قُصَي بن كِلاب بن مُرّة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فِهْر (قريش).



فوالدا خاتم الأنبياء والرسل يلتقيان في الجد الرابع فهما متشابهان من حيث النسب والمكانة.

زواج عبدالله:

عُرف عبدالله بن عبد المطلب في قريش بجمال الرجال، حتى تمنّته كثير من النساء، بل إن بعضهن قد عرضن أنفسهنّ عليه، ولكن لم يقبل،

ثم إن والده عبد المطلب قد طلب له آمنة بنت وهب، وهي يومئذٍ سيدة بني زهرة في جمالها ومكانتها، فوافق أهلها، وتمّ الزواج، وعمر عبدالله يومذاك ثماني عشرة سنةً.

وحملت آمنة من عبدالله، ولم تجد لحملها ثقلاً، ولم تعرف رغبات في نفسها (الوحام). وقيل لها: إنك قد حملت بسيّد هذه الأمة، فإذا نزل إلىٰ الأرض فقولي: أُعيذه بالواحد، من شرّ كل حاسدٍ، ثم سمِّيه محمداً، ورأتْ حين وضعته أنه قد خرج منها نور رأتْ به قصور بلدة (بُصرىٰ) من أرض الشام.

وفاة عبدالله:

رحل عبدالله مع تجارة قريشٍ إلىٰ بلاد الشام، وعندما رجع أدركته منيته في يثرب (المدينة المنورة)، فتوفي فيها، ودُفن هناك عند أخواله من بني عدي بن النجار. ·وعندما توفي عبدالله لم يكن لمحمد ﷺ في بطن أمه سوىٰ شهرين.

ولادة محمد (ﷺ):

وُلد محمد ﷺ يوم الاثنين في الثاني عشر من شهر ربيع الأول (الموافق ٢٠ نيسان سنة ٥٧١م)، وهو ما يوافق السنة الأولىٰ من عام الفيل. ولما وضعته أُمه في المدينة أرسلت إلىٰ جدّه تقول: إنه قد وُلد لك غلام، فأتِه فانظر إليه. فأتىٰ إلىٰ المدينة ونظر إليه. وحدّثت آمنة عبد المطلب بما رأتْ حين حملت بالغلام، وما قيل لها فيه، وما أُمرت به أن تُسمِّيه، فسمّاه (محمداً).

ولم يُسمَّ أحد بهذا الاسم (محمد) حتىٰ اقتربت البعثة، فسمّىٰ ستة رجالٍ أبناءهم بهذا الاسم: (محمد بن أصبحة) و(محمد بن مسلمة) و(محمد بن براء) و(محمد بن سفيان) و(محمد بن حمران) و(محمد بن خزاعة)، لأن الكتب السماوية قد بشّرت بأن النبيّ المنتظر سيكون اسمه (محمداً).

وقد انتشرت فكرة بعثة نبيٍّ اسمه أحمد (محمد) منذ أيام عيسىٰ عليه السلام إذ كان يُبشّر بذلك. قال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾﴾ [الصف].

إرضاع محمد (ﷺ):

كان أول من أرضع محمداً ﷺ (ثويبة) جارية عمّه عبد العزّىٰ (أبو لهب)، وحضنته بركة (أم أيمن) أَمَة أبيه عبدالله. وبهذا نشأ محمد ﷺ يتيماً لا يعرف أباه أبداً، وهي الصورة الأولىٰ من اليُتم التي تجعل المرء المسلم يجد في نفسه تعزيةً فيما لو وُلد يتيماً إذ أن سيّد البشر قد وُلد يتيماً.

وكان من عادة قريشٍ وأهل المدن عامةً أن يُرسلوا أطفالهم إلىٰ البادية؛ ليتلقّنوا فيها سلامة اللسان وفصاحة اللغة، وكانت العادة أن تأتي المرضعات من البوادي علىٰ شكل جماعاتٍ يأخذن الرضع. وجاءت إلىٰ مكة مرضعات بني سعد، وحصلت كل واحدةٍ منهن علىٰ أطفالٍ لإرضاعهم تكتفي بهم، وامتنعن عن أخذ الطفل محمد اليتيم الفقير. أما إحداهن وهي حليمة بنت أبي ذؤيب[1] (حليمة السعدية)، فلم تحصل علىٰ أحد، فاضطرت أن تأخذ محمداً ﷺ، ولعل في ذلك حكمة بأن الإنسان لا يعرف الخير أين هو؟

---

(١) حليمة السعدية: حليمة بنت أبي ذؤيب عبدالله بن الحارث بن شِجْنة بن جابر السعدي البكري الهوازني: من أمهات النبي محمد ﷺ، في الرضاع. كانت زوجة الحارث بن عبد العُزّىٰ السعديّ من بادية الحديبية، وكانت المرضعات يقدمن إلىٰ مكة من البادية لإرضاع الأطفال، ويُفضّلن من يكون أبوه حيّاً لبرّه إلا أن محمداً ﷺ كان يتيماً، مات أبوه عبدالله، فتسلمته حليمة من أمه (آمنة)، ونشأ في بادية بني سعد في الحديبية وأطرافها، ثم في المدينة، وعادت به إلىٰ أمه. وماتت آمنة وعمره ست سنواتٍ فكفله جدّه عبد المطلب. وقدمت حليمة علىٰ مكة بعد أن تزوج رسول الله ﷺ بخديجة رضي الله عنها، وشكت إليه الجدب، فكلّم خديجة بشأنها فأعطتها أربعين شاةً، وقدمت مع زوجها بعد النبوة فأسلما. وجاءت إلىٰ النبيّ ﷺ يوم حُنين، وهو علىٰ الجعرانة، فقام إليها، وبسط لها رداءه فجلست عليه، ولها رواية عن رسول الله ﷺ روىٰ عنها عبدالله بن جعفر. وتوفيت حليمة بعد السنة الثامنة للهجرة.

فلربما كان الخير كل الخير فيما أحجم عنه. وما أن أخذت حليمة رضيعها، وسارت مع صويحباتها إلا وكانت تشعر باللبن يتدفق في ثدييها، أما هنّ فكنّ لا يرغبن بالحديث في هذا الموضوع أمامها تعزيةً ومواساةً لها بطفلها الفقير، ولكن إذا انفردت إحداهن بثانيةٍ أو انعزلت حليمة عن الركب تحدّثن وضحكن ورثين لحالها.

وما أن وصلت مُرضعات بني سعد إلىٰ باديتهنّ، وكانت مقفرةً، وحيوانات القوم تكاد تجفّ أضراعها من الجدب وقلّة المرعىٰ، وبوصول الطفل الرضيع محمد، ﷺ، إلىٰ أرض أولئك القوم، حتىٰ جادت عليهم السماء بخيرها، واخضرّت الأرض، وارتفعت الأعشاب، وشبعت الأغنام، فاكتنزت لحماً، وأُترعت أضرعتها باللبن، بل أضحت تبدو حُفّلاً، وهي سائمة في مراعيها. وشعر بنو سعد بما لحق أراضيهم من خيرٍ، وإن كانوا لا يستطيعون عزو ذلك إلىٰ شيءٍ سوىٰ أسرة حليمة بالذات التي كانت تشعر بما حلّ عليها من نعيم، وبما اطمأنت لها نفسها عندما حلّ بدارها هذا الرضيع اليتيم (محمد)، وخاصةً عندما حدثت له حادثة شقّ الصدر.

بقي محمد ﷺ مع حليمة في بني سعد نحو أربع سنين، ثم ردّته إلىٰ أمه.

قال يحيىٰ بن أبي زائدة: قال محمد بن إسحاق، عن جهم بن أبي جهم، عن عبدالله بن جعفر، عن حليمة بنت الحارث أم رسول الله ﷺ السعدية، قالت: خرجتُ في نسوةٍ نلتمس الرضعاء بمكة علىٰ أتانٍ(1) لي قَمْراء(2) قد أذمّت(3) بالركب، وخرجنا في سنة شهباء(4) لم تُبقِ شيئاً، ومعنا شارف(5) لنا، والله ما تَبِضّ(6) بقطرةٍ، ومعي صبيّ لي لا ننام ليلنا مع بكائه، فلما قدمنا مكة لم يبقَ معنا امرأة إلا عُرض عليها رسول الله ﷺ فتأباه، وإنما كنا نرجو

(1) أتان: أنثىٰ الحمار.
(2) قمراء: يميل لونها إلىٰ الخضراء.
(3) أي حبست الركب. أو تأخّر الركب بسببها.
(4) سنة شهباء: سنة مجدبة.
(5) شارف: ناقة مُسنّة.
(6) ما تبضّ بقطرة، ليس فيها قطرة لبنٍ.

كرامة رضاعة من أبيه، وكان يتيماً، فلم يبقَ من صواحبي امرأة إلا أخذت صبياً، غيري، فقلت لزوجي: لأرجعنّ إلىٰ ذلك اليتيم فلآخُذَنّه، فأتيته فأخذته، فقال زوجي: عسىٰ الله أن يجعل فيه خيراً. قالت: فوالله ما هو إلا أن جعلته في حِجْري، فأقبل عليه ثديي بما شاء من اللبن، فشرب وشرب أخوه حتىٰ رويا، وقام زوجي إلىٰ شارفنا من الليل، فإذا بها حافل، فحلب وشربنا حتىٰ روينا، فبتنا شباعاً رِواءً، وقد نام صبياننا، قال أبوه: والله يا حليمة! والله يا حليمة ما أراكِ إلا قد أصبتِ نَسمةً مباركةً. ثم خرجنا، فوالله لخرجت أتاني أمام الركب قد قطعتهنّ حتىٰ ما يتعلّقُ بها أحد، فنزلنا منزلنا من حاضر بني سعد بن بكر، فقدمنا علىٰ أجدب أرض الله، فوالذي نفسي بيده إن كانوا ليسرِّحون أغنامهم ويسرح راعي غنمي، فتروح غنمي بطاناً لُبّناً حُفّلاً، وتروح أغنامهم جياعاً، فيقولون لرعاتهم: ويلكم ألا تسرحون حيث يسرح راعي حليمة؟ فيسرحون في الشِّعب فيه راعينا، فتروح أغنامهم جياعاً ما بها من لبنٍ، وتروح غنمي لُبَّناً حُفَّلاً.

شقّ الصدر:

فكان ﷺ يشبّ في يومه شباب الصبيّ في الشهر، ويشبّ في الدهر شباب الصبيّ في السنة، قالت: فقدمنا علىٰ أُمّه، فقلنا لها: رُدّي علينا بني فإنا نخشىٰ عليه وباء مكّة، قالت: ونحن أضَنّ شيءٍ به مما رأينا من بركته، قالت: ارجعا به، فمكث عندنا شهرين، فبينا هو يلعب وأخوه خلف البيوت يرعيان بَهْماً[1] لنا، إذ جاء أخوه يشتدّ، فقال: أدركا أخي قد جاءه رجلان فشقّا بطنه، فخرجنا نشتدّ، فأتيناه وهو قائم مُنتقع اللون، فاعتنقه أبوه وأنا، ثم قال: ما لك يا بنيّ؟ قال: أتاني رجلان فأضجعاني ثم شقّا بطني فوالله ما أدري ما صنعا، فرجعنا به. قالت: يقول أبوه: يا حليمة ما أرىٰ هذا الغلام إلا قد أُصيب، فانطلقي فلنردّه إلىٰ أهله. فرجعنا به إلىٰ أُمّه، فقالت: ما ردّكما به؟ فقلت: كفلناه، وأدّينا الحق، ثم تخوّفنا عليه الأحداث. فقالت: والله ما ذاك بكما، فأخبراني خبركما، فما زالت بنا حتىٰ أخبرناها.

(١) البهم: الصغار من الضأن والماعز.

قالت: فتخوّفتما عليه؟ كلا والله إن لابني هذا شأناً، إني حملت به فلم أحمل حَمْلاً قط كان أخفّ منه، ولا أعظم بركةً، ثم رأيت نوراً كأنه شهاب خرج مني حين وضعته أضاءت لي أعناق الإبل في بُصْرىٰ، ثم وضعته فما وقع كما يقع الصبيان، وقع واضعاً يديه بالأرض رافعاً رأسه إلىٰ السماء. دعاه وألحقا شأنكما.

قال أبو عاصم النبيل: أخبرني جعفر بن يحيىٰ، قال: أخبرنا عمارة بن ثوبان أن أبا الطفيل أخبره، قال: رأيت رسول الله ﷺ وأقبلت إليه امرأة حتىٰ دنت منه، فبسط لها رداءه، فقلت: مَن هذه؟ فقالوا: أُمّه التي أرضعته[1].

قال مسلم: حدّثنا شيبان، قال: حدّثنا حماد، قال: حدّثنا ثابت، عن أنس: أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل، وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه فصرعه فشقّ عن قلبه، فاستخرج القلب، فاستخرج منه علقةً، فقال: هذا حظّ الشيطان منك، ثم غسله في طستٍ من ذهبٍ بماء زمزم، ثم لأمه، ثم أعاده في مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلىٰ أمه، يعني: مرضعته، فقالوا: إن محمداً قد قُتل، فاستقبلوه منتقع اللون[2].

قال أنس: قد كنت أرىٰ أثر المَخِيط في صدره[3].

وفاة أُمّه آمنة بنت وهب:

عاد محمد ﷺ إلىٰ أمه آمنة بنت وهب، ولم يزد عمره علىٰ الرابعة، ولم يلبث عندها إلا قليلاً، إذ سارت به إلىٰ يثرب (المدينة) لزيارة أقربائه وقبر أبيه، وأثناء العودة أدركتها منيّتها في الطريق ببلدة (الأبْواء)[4]. ماتت آمنة وهي في مقتبل العمر وأول سنّ الصبا، ولم يكن عُمْر أبيه عند موته بأكبر منها بكثير، فكلاهما دون العشرين من العمر.

---

(١) أخرجه أبو داود (٥١٤٤).

(٢) «صحيح مسلم» ١/١٠١.

(٣) «سير أعلام النبلاء»: الذهبي.

(٤) الأبواء: بلدة بين مكة والمدينة، وهي إلىٰ المدينة أقرب، وهي إلىٰ الشمال الشرقي من ميناء (رابغ) وعلىٰ بُعد أربعين كيلومتراً منها.

وكان عبدالله قد ترك لولده محمد ﷺ من الميراث:

١ ـ أَمَة وتدعىٰ بركة (أم أيمن).

٢ ـ خمسة من الإبل.

٣ ـ بعض الأغنام.

وورث ذلك محمد ﷺ.

الانتقال إلىٰ كفالة الجد:

توفيت آمنة فانتقلت كفالة الطفل محمد ﷺ إلىٰ جدّه عبد المطلب، وكان عمر الطفل ست سنواتٍ. فحضنته الأَمَة التي ورثها من أبيه بركة (أم أيمن)، فكانت له أماً، وكان لها ولداً مطيعاً. وقد رأت منه من النجابة الشيء الكثير، لم تَرَ مثلها في أقرانه بل ممن يفوقونه سنًّا.

عاش محمد ﷺ في بيت جدّه سنتين، وربما قال بعضهم: إن الجد هو الأب الثاني، وعبد المطلب سيّد قريش وشيخها المطاع، وعلىٰ هذا فقد نشأ محمد ﷺ في بيت الوجاهة فأفاد منه، واقتبس من تربيته، ونشأ علىٰ المعرفة بما خالط وسمع من حضور منزل عبد المطلب. ولكن هذه الكفالة لم تطُل، ومدة هذه الحياة كانت قصيرةً، وكان محمد ﷺ في سنٍّ صغيرةٍ لا تُمكِّنه الإفادة من مركز جدّه، هذا بالإضافة إلىٰ أن عبد المطلب كان قد أصبح في أواخر حياته، فقلّ رُوّاد داره، إذ ظهر سادة جُدد من بطون قريشٍ كلها، بل ومن بني هاشم بالذات إذ قام أولاد عبد المطلب مكان أبيهم، إذ أصبح الزبير مكان أبيه سيّداً، وكذلك الحارث أكبر أبناء عبد المطلب، وكذلك أبو طالب وغيرهم، ولم يكن منهم في سنٍّ صغيرةٍ سوىٰ الحمزة والعباس اللذين كانا في سنّ قريبة من سنّ رسول الله ﷺ، فالحمزة رضي الله عنه وُلد قبل رسول الله ﷺ بسنةٍ واحدةٍ، والعباس رضي الله عنه وُلد قبل رسول الله ﷺ.

مات عبد المطلب ولم يزد عُمْر محمدٍ ﷺ علىٰ الثماني سنوات، فكفله عمّه أبو طالب (عبد مناف) شقيق أبيه، إذ لم يكن من بين أعمامه جميعهم سوىٰ الزبير وأبي طالب شقيقين لعبدالله والد رسول الله ﷺ. أما بنات عبد المطلب فكلهن شقيقات عبدالله باستثناء صفية رضي الله عنها، فإنها شقيقة الحمزة رضي الله عنه. وكان

أبو طالب يحبّ محمداً حبًّا جمًّا، فهو ذكرىٰ شقيقه عبدالله الذي مات ولم تكتحل عيناه برؤية ولده الوحيد محمد ﷺ، كما لم يسعد بزواجه سوىٰ أشهرٍ قليلة، ومات بعيداً، ومن ناحيةٍ ثانيةٍ كان وصيّة أبيه عبد المطلب، ثم رأىٰ منه ما لم يرَ من غيره من الأدب، والطاعة، والتربية، فضمّه إلىٰ أولاده الكثيرين، وكان يعتني به العناية التامة؛ بل ويُقدّمه علىٰ أبنائه جميعهم.

كان أبو طالب قليل المال كثير العيال، وقد لحظ هذا ابن أخيه رسول الله ﷺ مع صغر سنّه، فطلب منه أن يعمل، إلا أن أبا طالب لم يكن برأيه عمل ابن تكريماً له وتقديراً، ولكن العمّ وافق مع طلب الولد وإلحاحه، فبدأ يرعىٰ الغنم لأهل مكة علىٰ قراريط.

قال رسول الله ﷺ: «ما بعث الله نبياً إلا رعىٰ الغنم». فقال أصحابه: وأنت؟ فقال: «نعم كنت أرعاها علىٰ قراريط لأهل مكة»[1]. يقول ابن حجر رحمه الله قال العلماء: الحكمة في إلهام الأنبياء من رعي الغنم قبل النبوة، أن يحصل لهم التمرُّن برعيها علىٰ ما يُكلّفونه من القيام بأمر أمتهم، ولأن في مُخالطتها ما يحصل لهم من الحلم والشفقة، لأنهم إذا صبروا علىٰ رعيها، وجمعها بعد تفرُّقها في المرعىٰ، ونقلها من مسرحٍ إلىٰ مسرح، ودفع عدوّها من ذئبٍ وسبعٍ وغيره كالسارق، وعلموا اختلاف طبِاعها وشدّة تفرّقها مع ضعفها واحتياجها إلىٰ المعاهدة، ألفوا من ذلك الصبر علىٰ الأُمّة وعرفوا اختلاف طباعها وتفاوت عقولها، فجبروا كسرها، ورفقوا بضعيفها، وأحسنوا التعاهد لها، فيكون تحمُّلهم لمشقّة ذلك أسهل مما لو كُلِّفوا القيام بذلك من أول وهلةٍ، لما يحصل لهم من التدريج علىٰ ذلك برعي الغنم، وخُصّت الغنم بذلك لكونها أضعف من غيرها، ولأن تفرُّقها أكثر من تفرُّق الإبل والبقر لإمكانية ضبط الإبل والبقر بالربط دونها في العادة المألوفة، ومع أكثرية تفرُّقها فهي أسرع انقياداً من غيرها.

ومرّت السنون وشعر أبو طالب أن ابن أخيه قد بدأ في مرحلة الشباب، فقد غدا عمره قريباً من السنة الثانية عشرة، ويجب عليه أن يترك عمل الرعي الذي لا يُعطي من الربح إلا القليل، ولا يقوم به سادة القوم، لذا يجب عليه أن يُدرّبه

---

(١) رواه البخاري: ٣٦٣/٤ في الإجارة: باب رعي الغنم علىٰ قراريط.

علىٰ التجارة مهنة قريش الرئيسية، ويعمل بها سادة القوم.

سار أبو طالب في تجارةٍ، وصعب علىٰ محمد ﷺ فراقه، وهو أنيسه، فرقّ له أبو طالب، وأخذه معه، وبذا تحقّقت رغبة أبي طالب برغبة سيدنا محمد ﷺ وطلبه. وسارت القافلة إلىٰ بلاد الشام، ووجد أبو طالب من محمدٍ ﷺ الأخ الرفيق، والولد المطيع، والتاجر المستنير، والزميل ذا العقل الراجح، وكان العمّ يشعر أنه يُصاحب رجلاً كبيراً ذا قلبٍ واسعٍ، وعقلٍ سليم، وخبرةٍ عاليةٍ، ومعرفةٍ عامةٍ، وكان هذا يسرّه ويشعر أن لابن أخيه مركزاً مهماً ينتظره، وسيكون صاحب مركزٍ بين قريشٍ لا ينافسه فيه أحد مع علمه بأهلية قريشٍ ومكانتها ودرايتها.

وصلت القافلة إلىٰ مدينة (بُصرىٰ الشام) من بلاد حوران في الشام، وكان بها سوق عامة دائمة. وهناك التقىٰ أبو طالب براهبٍ يُدعىٰ (بَحيرا)، فسأل الراهب أبا طالب عن ظهور نبيٍّ في بلاد العرب، فأجابه بأن لم يظهر إلىٰ الآن.

فقال الراهب: إننا نرىٰ في كُتبنا المقدسة أن موعد ظهوره قد حان، وكثيراً ما كان أهل الكتاب من يهودٍ ونصارىٰ يذكرون قرب بعثة نبيٍ من أرض العرب. ثم سأل الراهب أبا طالبٍ عن الفتىٰ الذي معه ويعني بذلك محمداً ﷺ، فأجاب أبو طالب: إنه ابني، فقال له الراهب: عُدْ به فلربما رآه بعضهم فعرفه فسعىٰ في التخلُّص منه، فإنه سيكون له خبر[1]. ولم يكن وقع هذا الكلام غريباً في أُذُن أبي طالب وإنما كان تحقيقاً لما في نفسه، وتأكيداً لما يتحدّث فيه أبو طالب مع نفسه.

عاد أبو طالب مسرعاً بقافلته مُتخوّفاً، وقد زاد حُبّه له حُبًّا، وحرصه عليه حرصاً. ولما عاد رسول الله ﷺ إلىٰ مكة انصرف إلىٰ الحياة في خضمّ مجتمعها، يخالطهم ويتعامل معهم، ويرعىٰ الغنم، فعرفه القوم معرفةً تامةً.

ابن الذبيحين:

يُعرف رسول الله محمد ﷺ بـ(ابن الذبيحين)، وهما: الأول هو إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام، أما الثاني فهو عبدالله والد محمد ﷺ.

١ ـ رأىٰ سيدنا إبراهيم عليه السلام في المنام أنه سيذبح ولده

(١) حديث الراهب (بحيرا) رواه الترمذي (٣٦٢٤)، وأصحاب السِّيَر.

إسماعيل عليه السلام، فأخبر ابنه بما رأىٰ، فقال: افعل يا أبتي بما ترىٰ، فلما همّ إبراهيم عليه السلام لتنفيذ أمر الله، واستسلم إسماعيل لوالده، وأضجع إبراهيم ابنه إسماعيل علىٰ جبينه علىٰ الأرض جاء الفداء من الله بكبشٍ عظيم. ونجا إسماعيل من الذبح، وإن عُرف باسم (الذبيح إسماعيل).

قال الله سبحانه وتعالىٰ علىٰ لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾﴾ [الصافات].

٢ ـ أراد عبد المطلب بن هاشم، وهو جدّ رسول الله ﷺ أن يكشف عن زمزم، فعارضته قريش في ذلك أشدّ المعارضة فنذر لئن وُلد له عشرة من الأبناء الذكور، ثم بلغوا معه لينحرَنَّ أحدهم للّه عند الكعبة، فلما صار عدد أبنائه الذكور عشرةً، وعرف أنهم سيمنعونه، جمعهم ثم أخبرهم بنذره، ودعاهم إلىٰ الوفاء للّه بذلك، فأطاعوه، وقالوا: كيف نصنع؟ قال: ليأخذ كل رجلٍ منكم قِدْحاً ثم يكتب فيه اسمه، ثم ائتوني. ففعلوا ثم أتوه فدخل بهم علىٰ الصنم (هُبَل)، وكان هُبَل علىٰ بئر في جوف الكعبة. وكانت تلك البئر هي التي يُجمع فيها ما يُهدىٰ للكعبة.

فقال عبد المطلب لصاحب القِداح: اضرب علىٰ بنيَّ هؤلاء بقِداحهم هذه. وأخبره بنذره الذي نذر، فأعطاه كل رجلٍ منهم قِدْحه الذي فيه اسمه، وكان عبدالله بن عبد المطلب آنئذٍ أصغر بني أبيه، وكان أحب ولد عبد المطلب إليه، فكان عبد المطلب يرىٰ أن السهم إذا أخطأه فقد أخطأ. فلما أخذ صاحب القِداح القِداحَ ليضرب بها، قام عبد المطلب عند (هُبَل) يدعو الله، ثم ضرب صاحبُ القِداح، فخرج القِدْح علىٰ عبدالله.

أخذ عبد المطلب ولده عبدالله بيده، وأخذ الشفرة ثم أقبل به إلىٰ الصنمين (إساف) و(نائلة) ليذبحه، فقامت إليه قريش من أنديتها فقالوا: ماذا

تريد يا عبد المطلب؟ قال: أذبحه. فقالت له قريش وبنوه: والله لا تذبحه أبداً حتىٰ تُعذر فيه، لئن فعلتَ هذا لا يزال الرجلُ يأتي بابنه حتىٰ يذبحه، فما بقاء الناس علىٰ هذا!!! وقال له المغيرة بن عبدالله بن عمر بن مخزوم، وكان ابن أخت القوم: والله لا تذبحه أبداً حتىٰ تُعذر فيه، فإن كان فداؤه بأموالنا فديناه!!! وقالت له قريش وبنوه: لا تفعل، وانطلقْ به إلىٰ الحجاز (المدينة) فإن به عرّافة لها تابع، فسلْها ثم أنت علىٰ رأس أمْرك، إن أمرتك بذبحه ذبحتَه، وإن أمرتك بأمرٍ لك وله فيه فرج قبلته.

فانطلقوا حتىٰ قدموا المدينة فسألوها، وقصّ عليها عبد المطلب خبره وخبر ابنه، وما أراد به، ونذْره فيه، فقالت لهم: ارجعوا عني اليوم حتىٰ يأتيني تابعي فأسأله، فرجعوا من عندها، فلما خرجوا من عندها قام عبد المطلب يدعو الله، ثم غدَوْا عليها، فقالت لهم: قد جاءني الخبر، كم الدية فيكم؟ قالوا: عشرة من الإبل، قالت: فارجعوا إلىٰ بلادكم، ثم قرّبوا صاحبكم، وقرّبوا عشرةً من الإبل ثم اضربوا عليها وعليه بالقِداح، فإن خرجت علىٰ صاحبكم فزيدوا من الإبل حتىٰ يرضىٰ ربكم، وإن خرجت علىٰ الإبل فانحروها عنه فقد رضي ربكم ونجا صاحبكم.

فخرجوا حتىٰ قدموا مكة، فلما أجمعوا علىٰ ذلك الأمر قام عبد المطلب يدعو الله، ثم قدّموا عبدالله وعشراً من الإبل، وعبد المطلب قائم عند الصنم (هُبَل) يدعو الله عزّ وجل، ثم ضربوا فخرج القِدْح علىٰ عبدالله، فزادوا عشراً من الإبل فبلغت الإبل عشرين، وقام عبد المطلب يدعو الله عزّ وجلّ، وجعلوا ـ هكذا ـ كلما ضربوا خرج القِدح علىٰ عبدالله فيزيدون ثم يضربون ثم يزيدون حتىٰ بلغت الإبل مائة، فقام عبد المطلب يدعو الله ثم ضربوا فخرج القِدح علىٰ الإبل، فقالت قريش ومَن حضر: قد انتهىٰ، رضي ربك يا عبد المطلب، فقال عبد المطلب: لا والله حتىٰ أضرب عليه ثلاث مراتٍ، فضربوا علىٰ عبدالله ثلاث مراتٍ وعلىٰ الإبل، وقام عبد المطلب يدعو الله، فخرج القِدح علىٰ الإبل في المرات الثلاث، فنُحرت ثم تُركت لا يُصدّ عنها إنسان ولا يُمنع. وحفظت قريش ذلك لعبدالله والد محمد رسول الله فيما بعد.

لقد نجّىٰ الله سبحانه وتعالىٰ والد محمد من الذبح، فكان منه محمد ﷺ. وكان لهذه الحادثة أثر في المستقبل، إذ أن قريشاً قد استُنفرت لحماية أبيه من الذبح، فليس لها أن تتخلّىٰ عن حماية ولده ذي المكانة.

أعمام رسول الله ﷺ أبناء عبد المطلب بن هاشم:

١ ـ الحارث.
٢ ـ حجل.
٣ ـ المقوّم.
٤ ـ العباس.
٥ ـ ضرار.
٦ ـ الزبير.
٧ ـ عبدالله.
٨ ـ عبد مناف (أبو طالب).
٩ ـ الحمزة.
١٠ ـ عبد العُزّىٰ (أبو لهب).
١١ ـ قُثَم.
١٢ ـ عبد الكعبة.
١٣ ـ الغيداق.

عمّات رسول الله ﷺ بنات عبد المطلب بن هاشم:

١ ـ أميمة.
٢ ـ أروىٰ.
٣ ـ عاتكة.
٤ ـ برّة.
٥ ـ صفيّة.
٦ ـ أم حكيم (البيضاء).



مرحلة الشباب

بلغ سيدنا محمد ﷺ مرحلة الشباب حيث قارب عمره السنة الثامنة عشرة، فكان يعيش في مجتمعٍ يتعامل معه في مختلف الجوانب الاجتماعية، ويُشاركه في الأمور العامة التي يقوم بها ذلك المجتمع، وكان من أشهرها:

١ ـ حروب الفُجّار:

وقد جرت بين قريشٍ وكِنانةٍ من جهة، وبين قيسٍ من جهةٍ ثانية، وكان سببها أن رجلاً من كنانةً قد قتل أحد رجال قيسٍ، فهبّت قبيلة قيس لتأخذ بثأرها فالتقىٰ الفريقان خارج الحرم عند (نخلةً) شمال شرقي مكة، وقد ظهرت حميّة قيس وبدت قوّتها فاحتمت قريش بحرمها الآمن، فنادت قيس: إن موعدنا العام المقبل في (عُكاظ).

ولما استدار العام التقىٰ الطرفان في المكان المحدّد، وكانت قريش قد جمعت كِنانة، والأحابيش، وحلفاءها، ودارت الدائرة علىٰ قيس، ثم تمّ الصلح بين الجانبين، وعُدَّت القتلىٰ ودُفعتِ الدِّيَّات.

وكان محمد ﷺ قد ناهز العشرين من العُمر، واشترك في هذه الحرب مع أعمامه، وكان عمّه الزبير بن عبد المطلب قائد بني هاشم، ومعه إخوته أبو طالب، والعباس، والحمزة. وكان حرب بن أُميَّة قائد قريش. وكان محمد ﷺ ينقل النبال، ويجمع السهام.

٢ ـ حلف الفضول:

عندما عادت قبيلة قريشٍ من حرب الفجّار تحالفت بعض بطونها، وتعاقدت علىٰ ألا تجد بمكةً مظلوماً من أهلها، أو من غيرهم من سائر

الناس؛ إلا قاموا معه حتىٰ تُردّ إليه مظلمته. وكان بنو هاشم من بين بطون قريش المتحالفة، وحضره من بينهم محمد ﷺ، وكان الحلف في دار عبدالله بن جُدعان أحد وجهاء قريشٍ. وقد قال رسول الله محمد ﷺ بعد أن شرّفه الله بالرسالة: «لقد شهدت مع عمومتي حلفاً في دار عبدالله بن جدعان ما أحب لي به من حُمْر النعم، ولو دعيت به في الإسلام لأجبت»[1].

وشاع خبر الفتىٰ محمد ﷺ في أندية قريشٍ، وأصبح حديث الناس في كل محفلٍ عن أمانته وصدقه، عن أدبه وسلوكه، عن انفراده ببعض الصفات التي تُخوِّله أن يكون سيّداً بل أكبر من ذلك بكثير، وقد عُرف بين القوم باسم (محمد الأمين) و(الصادق الأمين).

٣ ـ بناء البيت:

أصاب البيت الحرام حريق، ثم جاءه سيل عرم فتصدّعت جُدُر الكعبة، فأرادت قريش إعادة بنائها من جديدٍ، فجمعت من أجل ذلك المال الحلال، وشرعت في البناء بعد الهدم، وجعل أشرافها ووجهاؤها يحملون الحجارة علىٰ أعناقهم لمكانة بناء الكعبة في نفوسهم، وكان محمد ﷺ فيمن يحمل، ومعه عمّه العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه.

وتمّ البناء، وأرادوا وضع الحجر الأسود في مكانه، ولكن اختلفوا فيمن يضعه، وتنافسوا في ذلك حتىٰ كادت الحرب تنشب بين بطون قريش، واستمرّ الخلاف أربع ليالٍ، ثم إن أبا أمية بن المُغيرة المخزومي ـ وكان أسنّ القوم ـ قال: يا قوم، لا تختلفوا بل حكِّموا مَن ترضون بحكمه، فقالوا: نكل الأمر لأول داخلٍ. وما لبثوا إلا قليلاً حتىٰ دخل محمد ﷺ، فاطمأنت القلوب لما يعرفون من حكمته، ورأيه، وأمانته، وصدقه، وقالوا: هذا محمد الأمين رضيناه حكماً.

---

(١) رواه ابن هشام في «السيرة» ١٣٣/١ عن ابن إسحاق. وانظر «فقه السيرة» لمحمد الغزالي، ص٧٥. وقال عنه الشيخ الألباني: صحيح.

شرح السادة الوجهاء لمحمد الأمين ﷺ القضية، فما كان منه إلا أن خلع رداءه وبسطه، ووضع الحجر عليه، وقال: لتأخذ كل قبيلةٍ بطرفٍ من الثوب ولترفع، حتىٰ إذا وصلوا به إلىٰ مكانه أخذه بيديه الشريفتين ووضعه في موضعه المحدّد.

وكان محمد ﷺ آنذاك في الخامسة والثلاثين من العمر تقريباً. ولم تكن مشكلة من مشكلات المجتمع صغيرة أم كبيرة إلا ويُشارك فيها. وهكذا فالإنسان المسلم عليه أن يعيش مع مجتمعه، يصل رحمه، ويعود المريض، ويحمل العبء عن بعضهم، ويُشارك في الأفراح، ويُصلِّي في مسجد حيّه، ويبتاع من سوقه، يقول رسول الله ﷺ: «المؤمن الذي يُخالط الناس ويصبر علىٰ أذاهم خير من الذي لا يخالطهم ولا يصبر علىٰ أذاهم»[1].

إن أدرىٰ الناس بالرجل أهله وجيرانه، فإذا عاملهم المعاملة الإسلامية، فلا يكذب، ولا يغشّ، ولا يغتاب، ولا يتكلّم إلا بخير، فإذا فعل ذلك كان عندهم قدوةً، وحاولوا أن يُقلِّدوه ويسيروا علىٰ نهجه، وإذا أصابه مكروه حموه ومنعوه، ولكن إذا انزوىٰ عنهم وابتعد كان بينهم نكرةً لا يُؤثّر فيهم ولا يستفيد منهم. وكذلك عليه أن يكون سمحاً في معاملتهم في بيعه وشرائه، كريماً عليهم.

يقول رسول الله ﷺ: «رحم الله امرأً سمحاً إذا باع، سمحاً إذا اشترىٰ، سمحاً إذا قضىٰ، سمحاً إذا اقتضىٰ»[2].

ويقول رسول الله ﷺ: «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتىٰ ظننت أنه سيُوَرِّثه»[3].

ويقول رسول الله ﷺ: «مَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر؛ فليُكرم ضيفه»[4].

---

(١) أخرجه الترمذي: (٢٥٠٩)، وابن ماجه: (٣٢) في الفتن.
(٢) رواه البخاري.
(٣) متفق عليه.
(٤) متفق عليه.

وسأل رجل رسول الله ﷺ: أي الإسلام خير؟ قال: «تُطعم الطعام، وتمشي في الأسواق، وتلقي السلام علىٰ مَن عرفت ومَن لم تعرف»[1].

وميدان عمل المسلم هو المحيط الذي يعيش فيه، فليُمهِّد هذا الميدان لذلك، وليعرفه، وليتعهَّده.

الحياة الخاصة:

كانت حياة محمد ﷺ الخاصة أسوةً صالحةً للرجل المؤمن حتىٰ قبل البعثة، فما من عملٍ يقوم به؛ إلا وكان مثلاً أعلىٰ للشباب، إذ كان الله سبحانه وتعالىٰ يرعاه ويتعهده. ومن أعماله الخاصة:

١ ـ كسب الرزق:

كان ﷺ يرعىٰ الغنم، وكان يُتاجر، وكان شريكه بالتجارة السائب بن أبي السائب، وذهب بتجارة لخديجة بنت خويلد رَضِيَ اللهُ عَنْهَا إلىٰ الشام علىٰ جزءٍ من المال يأخذه، وبعد أن تزوج بها كان يُتاجر بمالها. ويأكل من عمل يده. ويقول رسول الله ﷺ: «ما أكل أحد طعاماً قط، خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإن نبيّ الله داود عَلَيْهِ السَّلَامُ كان يأكل من عمل يده»[2]. ومنَّ الله عليه بأن أغناه، يقول الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨﴾ [الضحىٰ].

٢ ـ السمر:

كان من عادة شباب قريش السهر في الأندية، واللهو، والشرب فيها، وقول الشعر أحياناً، أو الذهاب إلىٰ الأصنام وعبادتها، لكن محمداً ﷺ لم يفعل شيئاً من هذا، حيث كان الله سبحانه وتعالىٰ يرعاه، ويحول بينه وبين هذه الأعمال منذ صغره، حتىٰ لم يكن يحضر الاحتفالات أو الأعياد التي

(١) متفق عليه.

(٢) رواه البخاري (٢٠٧٢).

تُقام للأصنام، ويقول عليه الصلاة والسلام: «لما نشأت بُغِّضت إليّ الأوثان، وبُغِّض إليّ الشعر، ولم أهمّ بشيءٍ مما كانت تفعله الجاهلية إلا مرتين، كل ذلك يحول الله بيني وبين ما أُريد من ذلك، ثم ما هممت بسوءٍ بعدهما حتىٰ أكرمني الله برسالته، قلت يوماً لغلامٍ كان يرعىٰ معي: لو أبصرت لي غنمي حتىٰ أدخل مكة فأسمر كما يسمرُ الشباب، فخرجت حتىٰ جئت أول دارٍ من مكة أسمع عزفاً بالدفوف والمزامير لعرس بعضهم، فجلست لذلك، فضرب الله علىٰ أذني فنمت فما أيقظني إلا مسّ الشمس ولم أقضِ شيئاً، ثم عراني مرةً أخرىٰ مثل ذلك»[1].

وكان محمد ﷺ لا يشرب الخمر، فقد حرّمها علىٰ نفسه علىٰ الرغم من أنها كانت شائعة في ذلك المجتمع لدرجةٍ كبيرةٍ، كما لم يكن ليأكل ما يُذبح علىٰ النصب، كل هذا زاد قومه حبّاً له.

وهكذا فالمسلم يجب أن يبتعد عن مواطن الشبهات ومواضع التهم، وحذار أن يقول: إن هذا هو السائد في المجتمع وعلينا المسايرة، فالمسلم يعيش في المجتمع ليُؤثّر فيه، ويُحاول أن يُغيّر ما فيه من أعمال غير حسنةٍ لا أن يتأثّر فيه، ويعمل كما يعمل وكما هو سائد، فما يعمل هذا إلا الرجل الضعيف، الإمّعة.

يقول رسول الله ﷺ: «لا يكن أحدكم إمّعة، إذا أحسن الناس أحسن، وإذا أساؤوا أساء»[2].

٣ ـ الزواج:

أصبح محمد ﷺ شاباً كامل الرجولة إذ بلغ الخامسة والعشرين من عمره، وكانت أسرته ذات مكانةٍ وشرفٍ، وهو أحد أفرادها الذين اتجهت إليهم الأنظار، وغدا هدفاً لكثيرٍ من القبائل، وبطون القبائل تريد أن تناسبه لتحصل علىٰ شرف القرابة، وما هذا بالذي يخفىٰ علىٰ الفتيات، وكل واحدةٍ

---

(١) أخرجه الحاكم: ٤/٢٤٥.

(٢) رواه الترمذي: ٢٠٠٨.

تريد لها بعلاً، وإن كان قليل المال، فالمال ظلّ زائل أما الشرف فأثر دائم، ولكن أنّىٰ للفتاة أن تتحدّث بما يجول في نفسها في المجتمع القبلي، إلا من كانت من الوجاهة ما تحول بينها وبين نقمة القوم، ومن الشرف ما يمنع أن تتحدّث عنها القبيلة، أو من الغنىٰ ما تذود به عن نفسها، أو تكون أرملةً ثريّةً عركت الحياة، وقرفت الزواج، وحضرت منازل الرجال بما لها في مجتمعها من أثر الثراء، والوجاهة، والمكانة.

وكانت خديجة بنت خويلد الأسدية رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ذات شرفٍ ووجاهةٍ، إذ أن بني أسد أحد بطون قريش المشهورة بالمجد والسؤدد. وكانت تاجرة تستأجر الرجال ليتاجروا لها في مالها، وتُنافس بقية التجار وتضاربهم، وكانت أرملةً قد تزوجت أبا هالة، وأنجبت منه ولداً هو (هالة) ربيب سيدنا محمد ﷺ، كل هذا جعلها تستطيع أن تتحدث بما في نفسها.

سمعت خديجة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا بسيدنا محمدٍ ﷺ، وأمانته، وصِدْقه، ودرايته، وعلمه، فاستأجرته ليخرج في تجارتها إلىٰ الشام وتعطيه أفضل مما كانت تُعطي غيره، كل ذلك لتستوثق لنفسها. فسافر سيدنا محمد ﷺ مع غلامها (ميسرة)، فباعا ما حملا معهما، واشتريا ما عادا به، وربحا ربحاً عظيماً، وظهر سيدنا محمد ﷺ لميسرة علىٰ حقيقته في أمانته، وصدقه، ومعاملته، و. . . فهو رجل ليس كالرجال وإنما معجزة لهم علىٰ مدىٰ الأيام.

ولما عادا (محمد ﷺ وميسرة) إلىٰ مكة، وسمعت خديجة من ميسرة ما رأىٰ من صاحبه سُرَّت سروراً بالغاً، وطمعت بالزواج منه، وأرسلت تخطبه لنفسها، وكانت تقارب الأربعين سنةً من العمر، كما أنها أرملة ـ كما ذكرنا ـ.

ذهب محمد ﷺ مع أعمامه، ودخلوا علىٰ عمّها عمرو بن أسد، فخطبها منه، فوافق العمّ، وزوّجه منها. وخطب عمّ محمد ﷺ أبو طالب (عبد مناف) في ذلك اليوم، فقال: الحمد للّه الذي جعلنا من ذرية إبراهيم، وزرع إسماعيل، وضئضئ[1] مَعْدٍ، وعنصر مُضَرٍ، وجعلنا حضنة بيته،

---

(١) ضئضئ: عنصر ومعدن.

وسوّاس حرمه، وجعله لنا بيتاً محجوجاً، وحرماً آمناً، وجعلنا حكام الناس، ثم إن ابن أخي هذا محمد بن عبدالله لا يوزن به رجل شرفاً ونُبلاً وفضلاً، وإن كان في المال قلة فإن المال ظلّ زائل، وأمر حائل، وعارية مُستردّة، وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم، وخطر جليل، وقد خطب إليكم رغباً في كريمتكم خديجة، وقد بذل لها (كذا)[1]، وعلىٰ ذلك تمّ الأمر.

وقد عاش محمد ﷺ مع خديجة رضي الله عنها حياةً زوجيةً، هادئةً، مثاليةً. وقد عرف كلٌّ صاحبه معرفةً حقّةً عن قربٍ، فعرفت خديجة في زوجها الرجل المثالي في الصدق، والأمانة، والكرم، والوفاء، والمحبة، والخير، وهذا ما سيكون له أكبر الأثر في المستقبل.

٤ ـ الخلوة:

وفي أواخر العقد الثالث من عمره ﷺ حُبِّبَتْ إليه الخلوة، ليبتعد عن مشكلات ذلك المجتمع المليئة بالمفاسد، الحافلة بالمظالم، الكثيرة المآسي، المعقّدة، وليعبد الله علىٰ دين أبيه إبراهيم عليه السلام، فإن في العزلة صفاء السريرة، وسلوة النفس، فكان عليه السلام يرتقي إلىٰ جبلٍ قرب مكة، ويخلو في غارٍ هناك يُدعىٰ غار حِراء، ينظر إلىٰ مكة أمامه صغيرةً فتصغر في عينيه مكّة ومَن فيها، بل والدنيا بأكملها، وينظر إلىٰ أعاليها فيرىٰ أنها دون موضع قدمه فيصغر الجبابرة والمتغطرسون في نظره، وهكذا ينظر المسلم دائماً إلىٰ الطغاة علىٰ أنهم دونه بكثيرٍ ما دام الإيمان يعمر قلبه، وما دام يخشىٰ الله ويتقه.

قال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [النور].

وقال الله جلّ جلاله: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾ [آل عمران].

---

(١) يروىٰ أن الصِّداق كان عشرين ناقةً.

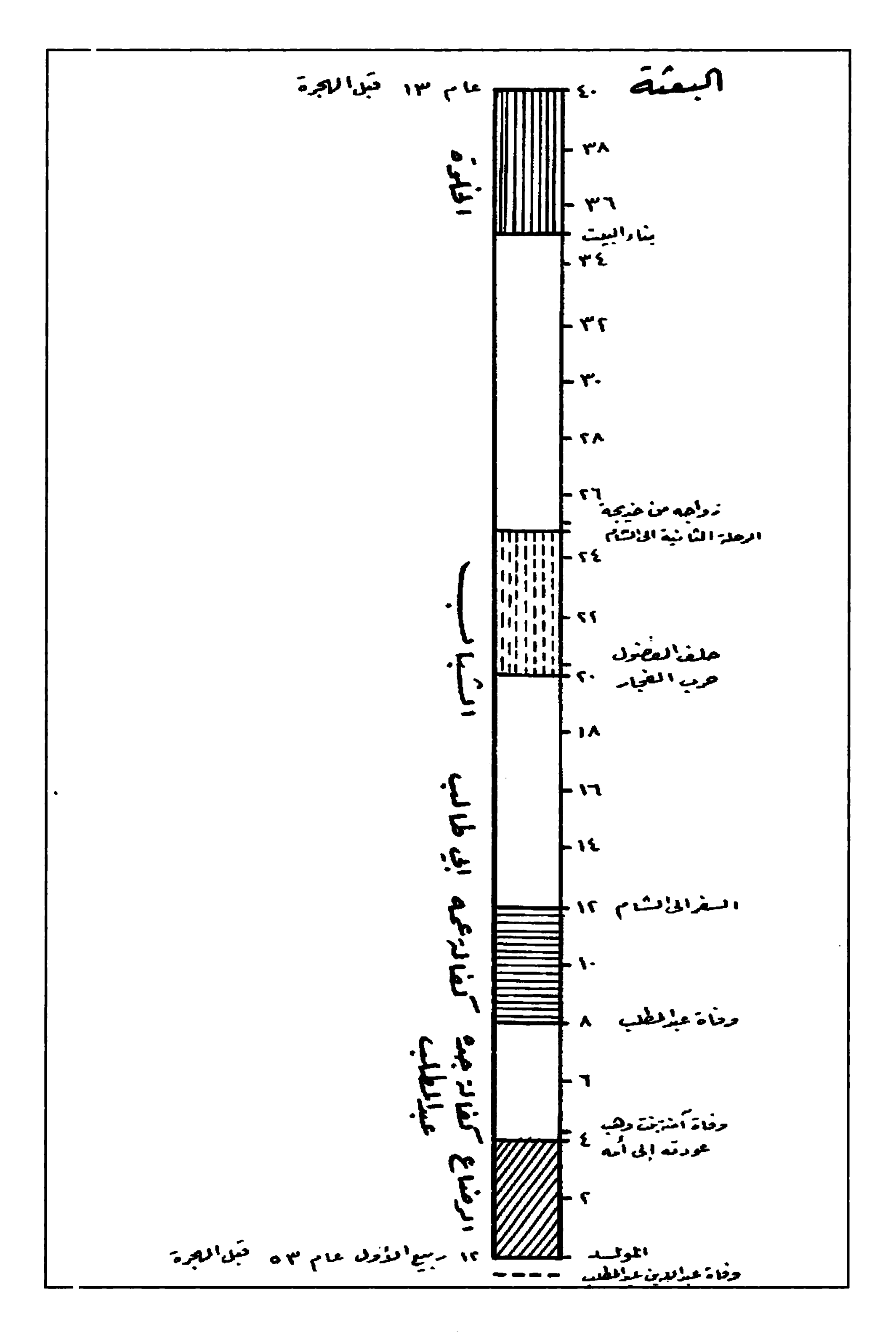
وهكذا ينظر المسلم دائماً إلىٰ الطغاة علىٰ أنهم دونه ما دام هو مؤمناً بالله.

كان محمد ﷺ يتحنّث في غار حِراء الليالي ذوات العدد، فيبقىٰ عشرة أيام، وقد يستمرّ شهراً، وكان يتزوّد لذلك الانقطاع، فإذا فرغ زاده رجع إلىٰ زوجه خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فمكث الأيام القليلة، ثم عاد لخلوته، وهكذا حتىٰ جاءه الوحي الأمين.

ومن هذا يتبيّن أن علىٰ المسلم أن يترك جزءاً من اليوم لعبادته وتفكيره ودعوته، ويوماً من الأسبوع، ووقتاً من الشهر لكي يبقىٰ علىٰ صلةٍ بالله، لا تُلْهه الحياة المادية التي انخرط فيها الناس حتىٰ أنستهم أنفسهم وأهليهم، وأبعدت عنهم أولادهم، وتركتهم في فراغ روحيٍّ عظيم، كل ذلك في سبيل الحرص علىٰ المادة والادّعاء بأنها ضرورةً من ضرورات الحياة، وتحت اسم هذه التعقيدات التي فرضناها علىٰ أنفسنا، والمتطلبات الضرورية التي لهثنا في طلبها...

هناك فرق بين الحاجة إلىٰ المادة وبين الخضوع لها، هناك فرق بين الاكتفاء بالحاجة والجشع في الطلب، فرق بين الضروري والكمالي...





البعثة
٤٠ عام ١٣ قبل الهجرة
٣٨
٣٦
بناء البيت
٣٤
٣٢
٣٠
٢٨
٢٦
زواجه من خديجة
الرحلة الثانية إلى الشام
٢٤
٢٢
حلف الفضول
٢٠
حرب الفجار
١٨
١٦
١٤
١٢
السفر إلى الشام
١٠
٨
وفاة عبد المطلب
٦
٤
وفاة آمنة بنت وهب
عودته إلى أمه
٢
المولد
١٢ ربيع الأول عام ٥٣ قبل الهجرة
وفاة عبد الله بن عبد المطلب
الخلوة
الشباب
كفالة عمه أبي طالب
كفالة جده عبد المطلب
الرضاع

البعثة

مقدمة:

جرت بعض الأحداث مع محمدٍ ﷺ تُشير إلىٰ مكانة هذا الفتىٰ، وما يُهيَّأُ له.

١ ـ فعندما سافر للتجارة مع عمه أبي طالب، ومرُّوا قريباً من صومعة الراهب (بَحِيرا)، فصنع لهم (بَحِيرا) طعاماً ودعاهم جميعاً إليه كباراً وصغاراً، وسادةً وعبيداً، ورجاهم عدم تخلُّف أحد منهم. فقال له أحدهم: والله يا (بَحيرا) إن لك شأناً اليوم؟ فما كنت تصنع لنا هذا، وقد كنا نمرّ بك كثيراً، فما شأنك اليوم؟ قال له (بَحيرا): صدقت، قد كان ما تقول، ولكنكم ضيف، وقد أحببت أن أُكرمكم، وأصنع لكم طعاماً فتأكلوا منه كلكم. فاجتمعوا إليه، وتخلّف محمد ﷺ من بين القوم لحداثة سنّه، إذ بقي في رحال القوم تحت الشجرة. فلما نظر (بَحيرا) لم ير الفتىٰ صاحب الصفة التي يعرفها ويجدها عنده، فقال: يا معشر قريش، ما تخلّف أحد منكم عن طعامي؟ قالوا له: ما تخلّف عنك أحد ينبغي له أن يأتيك إلا غلام، وهو أحدث القوم سِنًّا، فتخلّف في رِحالنا.

قال (بَحيرا): لا تفعلوا، ادعوه فليحضر هذا الطعام معكم.

قال رجل من قريش مع القوم: واللات والعزّىٰ، إن كان للؤم بنا أن يتخلّف ابن عبدالله بن عبد المطلب عن طعامٍ من بيننا!!! ثم قام إليه فاحتضنه وأجلسه مع القوم.

فلما رآه (بَحيرا) جعل يلحظه لحظاً دقيقاً، وينظر إلىٰ أشياء من جسده

قد كان يجدها عنده من صفته، حتىٰ إذا فرغ القوم من طعامهم، وتفرّقوا قام إليه الراهب (بَحيرا)، فقال له: يا غلام، أسألك بحق اللاتَ والعزّىٰ إلا ما أخبرتني عما أسألك عنه ـ وإنما قال له (بَحيرا) ذلك لأنه سمع قومه يحلفون بها ـ.

فقال له محمد ﷺ: «لا تسألني باللات والعزّىٰ». فقال له (بَحيرا): فبالله إلا ما أخبرتني عما أسألك عنه. فقال له: «سلني ما بدا لك». فجعل يسأله عن أشياء من حاله في نومه، وهيئته، وأموره.

فجعل محمد ﷺ يُخبره، فيوافق ذلك ما عند (بَحيرا) من صفته. ثم نظر إلىٰ ظهره، فرأىٰ خاتَم النبوة بين كتفَيْه علىٰ موضعته من صفته لتي عنده. فلما فرغ أقبل الراهب (بَحيرا) علىٰ عمه أبي طالب فقال له: ما هذا الغلام منك؟ قال: ابني. قال له (بَحيرا): ما هو بابنك، وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حياً. قال أبو طالب: فإنه ابن أخي. قال (بَحيرا): فما فعل أبوه؟ قال أبو طالب: مات وأمه حُبلىٰ به.

قال الراهب (بَحيرا): صدقت، فارجع بابن أخيك إلىٰ بلده، واحذر عليه من يهود، فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفتُ ليبغُنّه شرّاً، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم، فأسرع به إلىٰ بلاده.

٢ ـ ولما ذهب محمد ﷺ بتجارة لخديجة بنت خويلد رضي الله عنها مع غلامها (ميسرة)، فلما قدما بلاد الشام نزل محمد ﷺ في ظلّ شجرةٍ، قريباً من صومعة راهب يُدعىٰ (نسطورا)، فأطلّ الراهب علىٰ (ميسرة)، فقال: مَن هذا الرجل الذي نزل تحت هذه الشجرة؟ قال له ميسرة: هذا رجل من قريش من أهل الحرم. فقال له الراهب: ما نزل تحت هذه الشجرة قطّ إلاّ نبيّ.

٣ ـ ولما رجع محمد ﷺ مع (ميسرة) من تجارتهما في بلاد الشام إلىٰ مكة، كان (ميسرة) إذا كانت الهاجرة واشتدّ الحرّ يرىٰ مَلَكين يُظلاّن محمداً ﷺ من الشمس، وهو يسير علىٰ بعيره، فلما قدم مكة علىٰ خديجة رضي الله عنها بمالها، باعت ما جاء به فربح المال ضعفه. وأخبر (ميسرة) سيدته خديجة رضي الله عنها ما رآه من خُلق محمدٍ ﷺ، وطيب مسلكه، وبما رآه

أيضاً من إظلال الملائكة له، وبما سمعه من قول الراهب (نسطورا) فوقع ذلك في نفس خديجة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا موقعاً حسناً.

٤ ـ حملت خديجة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا إلىٰ ابن عمّها ـ ورقة بن نوفل ـ، وكان نصرانياً قد تتبّع الكتب، ما نقله إليها (ميسرة) مما رأىٰ وسمع، فقال ورقة لخديجة: لئن كان هذا حقاً يا خديجة، فإن محمداً لنبيّ هذه الأمة، وقد عرفت أنه كائن لهذه الأمَّة نبي يُنتظر، هذا زمانه.

وهكذا علا اسم محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعمّ ذكره، وشاع خبره، وكثير ينتظرون ما سيكون من خبره، ونبأ بعثته، وكرامته، إذ كان الناس في البادية يذكرون دائماً ما حلّ في بادية بني سعدٍ من خير ورخاء، وفي بيت حليمة السعدية من بركة عندما نُقل إلىٰ هناك محمد بن عبدالله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وانتشر خبر أقوال الراهبان (بَحيرا) و(نسطورا) في بلاد الشام.

وساد في بلاد العرب عامةً خبر الحيلولة دون صدام بطون قريشٍ في وضع الحجر الأسود في مكانه في الكعبة.

وأشاع أهل الكتاب من يهود ونصارىٰ نبأ ظهور نبيّ في بلاد العرب، وهذا ما جاء في كتبهم، وتحدّث به أنبياء ورسل منهم.

قال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾﴾ [الصف].

وقال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آل عمران].

قال ابن إسحاق: حدّثني عاصم بن عمر بن قتادة عن رجالٍ من قومه، قالوا: إنا مما دعانا إلىٰ الإسلام مع رحمة الله وهُداه لنا، أنا كنّا نسمع من يهود، وكنّا أصحاب أوثان، وهم أهل كتاب، وكان لا يزال بيننا وبينهم شرور، فإذا نلنا منهم، قالوا: إنه قد تقارب زمان نبيٍّ يُبعث الآن، نقتلكم معه قَتْلَ عادٍ وإرم، فكنا كثيراً ما نسمع ذلك منهم، فلما بعث الله رسوله

محمداً ﷺ أجبناه حين دعانا، وعرفنا ما كانوا يتوعّدونا به، فبادرناهم إليه، فآمنا به، وكفروا به، ففي ذلك نزل قول الله ﷻ: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾﴾ [البقرة].

حدّثني صالح بن إبراهيم بن عبدالرحمٰن بن عوف، عن محمود بن لبيد، عن سَلَمة بن سلامة بن وقش، قال: كان لنا جار يهوديّ، فخرج يوماً حتىٰ وقف علىٰ بني عبد الأشهل، وأنا يومئذٍ أحدثهم سِنًّا، فذكر القيامة والحساب، والميزان، والجنّة والنار، قال ذلك لقوم أصحاب أوثانٍ لا يرون بعثاً بعد الموت، فقالوا له: ويحك يا فلان، أوَتَرىٰ هذا كائناً أن الناس يُبعثون! قال: نعم، قالوا: فما آية ذلك؟ قال: نبيّ مبعوث من نحو هذه البلاد، وأشار إلىٰ مكة واليمن، قالوا: ومتىٰ نراه؟ قال: فنظر إليّ وأنا حَدَث، فقال: إن يستنفد هذا الغلام عمره يُدركه. قال سَلَمة: فوالله ما ذهب الليل والنهار حتىٰ بعث الله محمداً ﷺ وهو حيّ بين أظهرنا، فآمنا به، وكفر به بغياً وحسداً، فقلنا له: ويحك يا فلان، ألستَ بالذي قلت لنا فيه ما قلت! قال: بلىٰ، ولكن ليس منا.

ولما اقترب وقت البعثة، بدأ محمد ﷺ بالرؤيا الصادقة، فكان لا يرىٰ في نومه رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح.

قال الزهري، عن عروة بن الزبير، عن عائشة رضي الله عنها، قالت: أول ما بدئ به النبيّ ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة، ثم حُبِّب إليه الخلاء، فكان يأتي غار حِراء فيتحنّث فيه، أي: يتعبّد الليالي ذوات العدد، ويتزوّد لذلك، ثم يرجع إلىٰ خديجة فيتزوّد حتىٰ فجأه الحق وهو في غار حِراء، فجاءه الملك فكانت بداية البعثة.

البعثة:

جاء المَلَك إلىٰ غار حِراء يوم ١٧ رمضان سنة ١٣ قبل الهجرة، وهو ما يوافق (الأول من شهر شباط سنة ٦١٠م) وقد أتمّ السنة الأربعين من عمره ﷺ.

بينما كان محمد ﷺ في غار حراء بين النائم واليقظان، إذ حضر المَلَك علىٰ هيئة رجلٍ معه كتاب ملفوف بقطعةٍ من الديباج، ففتحه، وقال له: اقرأ، فقال محمد ﷺ قلت: «ما أنا بقارئٍ، فأخذني فغطّني حتىٰ بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئٍ. فأخذني الثانية فغطّني حتىٰ بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئٍ. فأخذني فغطّني الثالثة حتىٰ بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾[1] [العلق]».

قالت عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: فرجع محمد ﷺ ترجف بوادره[2] حتىٰ دخل علىٰ خديجة، فقال: «زمّلوني»، فزمّلوه حتىٰ ذهب عنه الروع، فقال: «يا خديجة ما لي!» وأخبرها الخبر، وقال: «قد خشيتِ عليّ؟» فقالت له: كلاّ، أبشِر فوالله لا يخزيك الله، إنك لتصِلُ الرحِم، وتصدُق الحديث، وتحمل الكَلَّ، وتُعين علىٰ نوائب الحق.

ثم انطلقت خديجة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا بمحمد ﷺ إلىٰ ابن عمّها ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزّىٰ، وكان امرأً تنصّر في الجاهلية، وكان يكتب الخط العربي، فكتب بالعربية من الإنجيل ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً قد عميَ. فقالت خديجة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: اسمع من ابن أخيك. فقال: يا ابن أخي ما ترىٰ؟ فأخبره، فقال ورقة: هذا الناموس الذي أُنزل علىٰ موسىٰ، يا ليتني فيها جَذَعاً حين يُخرجك قومك، قال: «أوَمُخرجيَّ هم؟» قال: نعم، إنه لم

---

(١) أما تتمة السورة فقد نزلت بحق عمرو بن هشام (أبي جهل).

(٢) البوادر: ما يبدر من الرجل عند غضبه، وهي لحمة بين المنكب والعنق.

يأتِ أحد بما جئت به إلا عودي وأُوذي، وإن يُدركني يومُك أنْصُرُكَ نصراً مُؤزّراً. ثم لم ينشب ورقة أن تُوفّي.

روىٰ الترمذي، عن أبي موسىٰ الأنصاري، عن يونس بن بكير، عن عثمان بن عبدالرحمٰن، عن الزهريّ، عن عروة بن الزبير، عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: سأل النبي ﷺ عن ورقة، فقالت له خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: إنه ـ يا رسول الله ـ كان صدّقك، وإنه مات قبل أن تظهر. فقال: «رأيته في المنام عليه ثياب بيض، ولو كان من أهل النار لكان عليه لباس غير ذلك»[1].

يذكر ابن إسحاق أنه لما قَرُبَ عهد البعثة النبوية، كان رسول الله ﷺ إذا خرج إلىٰ الفضاء أو إلىٰ شِعاب مكة وبطون أوديتها لا يمر بحجرٍ ولا شجرٍ إلا قال: السلام عليك يا رسول الله، فيلتفت الرسول حوله عن يمينه وشِماله وخلفه فلا يرىٰ أحداً.

وروىٰ الإمام مسلم في «صحيحه»، والترمذي في «سننه»، عن جابر بن سَمُرة أن رسول الله ﷺ قال: «إن بمكة حجراً يُسلّم عليّ ليالي بُعثت، إني لأعرفه الآن».

قال الزهريّ، عن عروة بن الزبير، عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: (وفتر الوحي فترةً، حتىٰ حزن رسول الله ﷺ حزناً شديداً، وغدا مراراً يريد ليتردّىٰ من شواهق الجبال، وكلما أوفىٰ بذروةٍ ليُلقي نفسه، تبدّىٰ له جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ فقال: يا محمد إنك رسول الله حقاً، فيسكن لذلك جأشه، وتقرُّ نفسه، فيرجع، فإذا طالت عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك، فإذا أوفىٰ بذروة جبلٍ تبدّىٰ له جبريل، فقال مثل ذلك)[2].

قال ورقة بن نوفل لابنة عمّه خديجة بنت خويلد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أن زوجها محمداً سيكون نبيّ هذه الأمة، وقد عرف أن لهذه الأمة نبيّاً يُنْتَظَرُ زمانه، وأصبح ورقة يستبطئ الأمر، ويقول: إلىٰ متىٰ؟ فثارت قريحته وقال:

---

(١) الترمذي: ٢٣٩٠.

(٢) البخاري: ٨/٣٧ ـ ٣٨. أحمد: ٦/٢٣٣.

لَجِجْتُ وكنت في الذكرىٰ لَجوجا ... لـهـمٍّ طـالـمـا بـعـث الـنَّـشـيـجـا
ووصفٍ من خديجة بعدَ وصفٍ ... فقـد طـال انـتـظـاري يـا خـديـجـا
ببطن المكّتين علىٰ رجائي ... حـديـثـك أن أرىٰ مـنـه خـروجـا
بـمـا خَـبّـرتِـنـا مـن قـول قَـسٍّ ... مـن الـرهـبـان أكـره أن يـعُـوجـا
بـأن مـحـمـداً سـيـسـود قـومـاً ... ويَخْصِم من يكون له حجيجا
ويظهر في البلاد ضياء نورٍ ... يـقـيـم بـه الـبـريّـةَ أن تـمـوجـا
فَـيَـلْـقـىٰ مـن يُـحـاربـه خَـسـاراً ... ويَـلـقـىٰ مَـن يـسـالـمـه فُـلُـوجـا
فـيـا لـيـتـنـي إذا مـا كـنـت ذاكـم ... شـهـدت فـكـنـت أولـهـم وُلُـوجـا
فـإن يـبـقَـوا وأبـقَ تـكـن أمـور ... يـضـجّ الـكـافـرون لـهـا ضـجـيـجـا

ورأىٰ محمد ﷺ رؤيا في المنام، فشقّ ذلك عليه، فذكرها لخديجة رضي الله عنها، فعصمها الله، وشرح صدرها بالتصديق، فقالت: أبشِر. ثم أخبرها أنه رأىٰ بطنه قد شُقَّ، ثم طُهِّر وغُسِّل، ثم أُعيد كما كان، قالت: هذا والله خير فأبشِر. ثم استعلن له جبريل عليه السلام وهو بأعلىٰ مكة، فأجلسه في مجلسٍ كريم مُعجبٍ. فكان النبيّ ﷺ يقول: «أجلسني علىٰ بساطٍ كهيئة (الدُّرْنوك) فيه الياقوت واللؤلؤ»، فبشّره برسالة الله عز وجل حتىٰ اطمأن. فأنشد ورقة بن نوفل:

إن يكُ حقاً يا خديجة فاعلمي ... حـديـثـك إيّـانـا فـأحـمـد مـرسـلُ
وجبريل يأتيه وميكال معهما ... من الله وحيٌ يشرح الصدر مُنزلُ
يـفـوز بـه مـن فـاز فـيـهـا بـتـوبـةٍ ... ويشقىٰ لها العاني الغويُّ المُظَلَّلُ
فسبحان من تهوي الرياح بأمره ... ومن هو في الأيام ما شاء يفعلُ
ومن عرشه فوق السمٰوات كلّها ... وأقـضـاؤه فـي خـلـقـه لا تُـبَـدَّلُ

وعندما فتر الوحي تأثّر محمد ﷺ، فيقول: «بينما أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء، فرفعت رأسي، فإذا المَلَك الذي جاءني بـ(حِراء) جالس علىٰ كرسيٍّ بين السماء والأرض، فَجُئِثْتُ به رعباً، فرجعت، فقلت: زمّلوني فدثّروني»[(١)].

---

(١) متفق عليه: البخاري ٦/٢٠١، ومسلم ١/٩٩.

ونـزلـت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾ [المدثر]». الرجز: هي الأوثان.

وبذا فإن ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾ نزلت في الوحي الأول، فكانت للنبوة.

و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾ نزلت بعد فترة الوحي، فكانت للرسالة.

ثم أُنزلت ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ۝٢١٤﴾ [الشعراء] نزلت للدعوة وإعداد القواعد الشعبية لإقامة دولة الإسلام.

لما أبطأ نزول المَلَك جبريل عليه السلام علىٰ محمدٍ ﷺ، جزع جزعاً شديداً، فقالت خديجة رضي الله عنها: (قد قلاك ربك لما يرىٰ من جزعك).

وقالت امرأة من قريشٍ للنبيّ ﷺ: (ما أرىٰ شيطانك إلا ودّعك).

أخبرنا أبو عبدالرحمٰن بن أبي حامد، أخبرنا أبو بكر محمد بن عبدالله بن زكريا، أخبرنا محمد بن عبدالرحمٰن الدغولي، أخبرنا أبو عبدالرحمٰن محمد بن يونس، أخبرنا أبو نعيم، أخبرنا حفص بن سعيد القرشي، قال: حدّثتني أمي، عن أمها خولة، وكانت خادمة رسول الله ﷺ: أن جرواً قد دخل البيت، فدخل تحت السرير فمات، فمكث نبيّ الله ﷺ أياماً لا ينزل عليه الوحي، فقال: «يا خولة، ما حدث في بيتي؟ جبريل عليه السلام لا يأتيني» قالت خولة: لو هيأت البيت وكنسته، فأهويت بالمكنسة تحت السرير فإذا شيء ثقيل، فلم أزل حتىٰ أخرجته فإذا جرو ميت، فأخذته فألقيته خلف الجدار، فجاء نبيّ الله ﷺ ترعد لحياه، وكان إذا نزل عليه الوحي استقبلته الرعدة، فقال: «يا خولة دثّريني». فأنزل الله تعالىٰ: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾[1] [الضحىٰ].

أخبرنا أبو بكر بن أبي الحسن المستبيني: أخبرنا محمد بن عبدالله الضبّي، قال: حدثني أبو عمرو أحمد بن محمد بن إسحاق: أخبرنا محمد بن الحسن العسقلاني: أخبرنا عصام بن داود، قال: حدثني أبي،

(١) «تفسير وبيان كلمات القرآن الكريم»: حسنين محمد مخلوف.

أخبرنا الأوزاعي، عن إسماعيل بن عبدالله، قال: حدّثني علي بن عبدالله بن عباس، عن أبيه، قال: رأىٰ رسول الله ﷺ ما يُفتح علىٰ أمته من بعده، فسُرّ بذلك، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝٥﴾ [الضحىٰ] قال: فأعطاه ألف قصرٍ في الجنّة من لؤلؤ، ترابه المسك، في كل قصرٍ منها ما ينبغي له.

أخبرنا المفضل بن أحمد بن محمد بن إبراهيم الصوفي: أخبرنا زاهر بن أحمد: أخبرنا عبدالله بن محمد بن زياد النيسابوري: أخبرنا يحيىٰ بن محمد بن يحيىٰ: أخبرنا عبدالله بن عبدالله الحجبي: أخبرنا حماد بن زيد، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد سألت ربي مسألةً وددت أني لم أكن سألته، قلت: يا رب! إنه قد كانت الأنبياء قبلي، منهم من سخّرت له الريح ـ وذكر سليمان بن داود ـ ومنهم من كان يحيي الموتىٰ ـ وذكر عيسىٰ ابن مريم ـ ومنهم... قال: (ألم أجدك يتيماً فآويتك؟) قال: قلت: بلىٰ يا رب، قال: (ألم أجدك ضالاً فهديتك؟)، قال: قلت: بلىٰ يا رب، قال: (ألم أجدك عائلاً فأغنيتك؟) قال: قلت: بلىٰ يا رب، قال: (ألم أشرح لك صدرك ووضعت عنك وزرك؟) قال: قلت: بلىٰ يا رب»[1].

الدعوة:

انتهت فترة الوحي، وكانت أربعين يوماً ـ علىٰ أصح الأقوال ـ واشتدّ شوق رسول الله ﷺ إلىٰ الوحي، حتىٰ صار كلما ارتقىٰ جبلاً خطر له أن يرمي نفسه منه، خوفاً من قطيعة الله له بعد أن رأىٰ نعمته الكبرىٰ بأن يكون للخلق رسولاً. وكان كلما فكّر في ذلك يتبدّىٰ له الملك قائلاً له: «أنت رسول الله حقاً» فيطمئن خاطره، ويبعد عن نفسه ما عزم عليه. وبقي كذلك حتىٰ عاد الوحي إليه.

وعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: إن الحارث بن هشام رضي الله عنه سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ:

---

(١) «تفسير وبيان كلمات القرآن الكريم»: حسنين محمد مخلوف.

«أحياناً يأتيني مثل صَلْصَلَة الجرس، وهو أشدّه عليّ، فيُفْصَم عني وقد وعَيْت ما قال، وأحياناً يتمثّل لي المَلَك رجلاً، فيُكلّمني فأعي ما يقول». قالت عائشة رضي الله عنها: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فيُفْصَم عنه، وإن جبينه ليتفصّد عرقاً[1]. وتتابع الوحي بعد ذلك.

ما أن نزل قول الله تعالىٰ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾﴾ [الشعراء]. حتىٰ انطلق رسول الله ﷺ إلىٰ أقرب الناس إليه، يدعوهم إلىٰ الله بسريةٍ تامةٍ، لبناء القاعدة الشعبية المؤمنة للدولة الإسلامية، التي ستقوم بالدعوة العامة، والجهاد في سبيل الله، للدعوة إلىٰ الله وقتال الذين يقفون في وجه الدعاة، ويعملون علىٰ محاربة الدعوة.

وأقرب الناس إلىٰ الرجل وأعلمهم به هم أهل بيته، كما أنهم أكثر دعماً له وتأييداً، لذلك كانوا أول من دعاهم رسول الله ﷺ بأمرٍ من ربه ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾. فدعا أهل بيته، وبدأ بزوجته خديجة رضي الله عنها، فكانت أول من آمن به وآزره، وهوّنت عليه أمر الناس، وأعظمت له عمله في اقتلاع الأشواك من المجتمع ليُزرع مكانها الورود والرياحين، فما أصابه أمر من أمر الدعوة فدخل إليها؛ إلا خرج من عندها مطمئناً، وهو أمضىٰ عزيمةً وأقوىٰ شكيمةً، ولذلك استحقّت أن يُبشّرها الله تعالىٰ في الجنّة ببيت من قَصَبٍ لا صَخَب فيه ولا نَصَب[2].

وكان عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه يعيش مع رسول الله ﷺ في بيته لضيق حال أبي طالب. فدعا رسول الله ﷺ علياً إلىٰ الإسلام بعد عرضه عليه، فآمن به وصدّقه.

وكان زيد بن حارثة يعيش أيضاً في بيت رسول الله ﷺ، إذ كان مولًى له، فدعاه رسول الله ﷺ إلىٰ الإسلام، فآمن به وصدّقه.

---

(١) «فتح الباري»: باب بدء الوحي.

(٢) الحديث: متفق عليه.

وكان أبو بكر الصدِّيق رضي الله عنه من أصدقاء رسول الله صلى الله عليه وسلم، فدعاه إلىٰ الإسلام فآمن به وصدّقه. وكان لأبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه دور في دعوة عددٍ من الرجال إلىٰ الإسلام، فأسلموا وكان لهم أثر عظيم في الإسلام منهم: (عثمان بن عفان) و(الزبير بن العوّام) و(عبدالرحمٰن بن عوف) و(سعد بن أبي وقاص) و(طلحة بن عبيدالله)، وهؤلاء جميعهم من المبشَّرين بالجنّة رضي الله عنهم.

ونشط هؤلاء الذين أسلموا بالدعوة، فأقبل علىٰ الإسلام أعداد كثيرة من الرجال والنساء ومن مختلف الطبقات من سادةٍ وموالي.

ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يُظهر الدعوة في مجامع قريش العامة كالأندية والحرم، وإنما كانت دعوته لأفرادٍ مُعيّنين. ولم يكن المسلمون الأوائل يتمكّنون من إظهار عبادتهم حذراً من تعصُّب قريش لدينها ووثنيتها، وإنما كانوا يُخفون ذلك، وكان مَن أراد العبادة يذهب إلىٰ شعاب مكّة، ويُصلِّي هناك مستخفياً. ولما دخل في دين الله ما يربو علىٰ الثلاثين كان من الضروري أن يجتمع بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، علىٰ شكل جماعاتٍ يُرشدهم ويُعلّمهم، ليجعل منهم القاعدة الصلبة التي يمكن أن يُواجه بها أولئك الذين يقفون في وجهه، أو يحولون دون انتشار دعوته، واختار رسول الله صلى الله عليه وسلم لذلك الاجتماع دار (الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي)، فكان يلتقي بهم علىٰ شكل أُسرٍ، يُعلّمهم أمور دينهم، ويُوضّح لهم طريقه. وكان إلىٰ جانب دار (الأرقم) المركز الرئيسي دور أخرىٰ، تكون مراكز فرعية حيث يذهب إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم دون انتظام، أو ينتظم فيها الصحابة الذين يختارهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، مثل دار (سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل) ابن عمّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

لم يكن أولئك الذين لبُّوا الدعوة من مجموعةٍ واحدةٍ، أو طبقةٍ كما يدّعي بعضهم، فيزعم أنهم من طبقة الفقراء، والعبيد، والموالي الذين نقموا علىٰ النظام الجاهلي الذي منعهم حقّ الحياة الكريمة، بل كان المؤمنون من مختلف المستويات، بل إن وجهاء من قريشٍ وأبناءهم كانوا في طليعة هؤلاء المؤمنين، ومن الذين تعرّضوا للأذىٰ أكثر من غيرهم، إذ لا يمكن أن نقول: إن نور الفكر محصور في مجموعةٍ أو طبقةٍ من الناس، ولعلّنا نرىٰ

أولئك السادة من قريشٍ. نحن نعلم أن قريشاً كانت ثلاثة عشر بطناً، ويُعدّ أفراد كل بطنٍ بمنزلةٍ واحدةٍ، وهم السادة، وإن كان يختلف بعضهم عن بعضٍ بالغنىٰ والثراء أو كثرة الأبناء والأفراد، وهذا ما يزيد بالمنزلة بعض الشيء، وإن كان ذلك لا يمنع أن نعدّ بقية أفراد قريشٍ دون منزلة السيادة أو مركز الوجاهة، وعندما تتوفّر لأحدهم بعض مقومات المال أو البنين يرتفع مباشرةً، وهذا ليس للوراثة فيه أيّ أثرٍ. بل إن قريشاً كانت نفسها وحدةً متكاملةً في المنزلة، وتعدّ بقية القبائل دونها وأقلّ مرتبةً منها. ومن هؤلاء الأعيان:

١ ـ من بني عبد شمس: عثمان بن عفان، خالد بن سعيد بن العاص، عمرو بن سعيد بن العاص، أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة. وهؤلاء الأربعة من بني عبد شمس: قوم أبي سفيان.

٢ ـ من بني هاشم: علي بن أبي طالب، وأخوه جعفر بن أبي طالب.

٣ ـ من بني المطلب: عبيدة بن الحارث.

٤ ـ من بني عبد الدار: مصعب بن عُمير.

٥ ـ من بني أسد: الزبير بن العوّام.

٦ ـ من بني تيم: أبو بكر الصديق، وطلحة بن عبيدالله.

٧ ـ من بني عامر: سهيل بن عمرو، سَليط بن عمرو، حاطب بن عمرو، السكران بن عمرو، أبو سبرة بن أبي رُهم.

٨ ـ من بني عدي: عمر بن الخطاب، سعيد بن زيد، نعيم بن عبدالله.

٩ ـ من بني الحارث: أبو عبيدة عامر بن عبدالله بن الجراح.

١٠ ـ من بني زهرة: عبدالرحمٰن بن عوف، سعد بن أبي وقّاص، عُمَير بن أبي وقاص، المطلب بن أزهر.

١١ ـ من بني مخزوم: خالد بن الوليد، عياش بن أبي ربيعة، أبو سلمة بن عبد الأسد، الأرقم بن أبي الأرقم. وهؤلاء قوم أبي جهل.

١٢ ـ من بني سهم، قوم عمرو بن العاص: خُنيس بن حُذافة.

١٣ ـ من بني جمح: عثمان بن مظعون، قُدامة بن مظعون، السائب بن عثمان بن مظعون، حاطب بن الحارث.

وهذه أشهر بطون قريشٍ، وأكثرها، وأقواها، فليس من بطنٍ إلا ودخله الإسلام، وكان منه أفراد كثيرون، ومجموعهم أكثر المسلمين في ذلك الوقت، يوم كانت الدعوة سرّاً، بل وحتىٰ وقت الإعلان والجهر بالدعوة. فكيف يُقال: إن أول من أسلم كان من الطبقات الدنيا التي منها الموالي والعبيد؟ بل كل إنسان يعرف أن صاحب الدعوة رسول الله ﷺ كان من طبقات الأشراف، وأن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، وأبا بكر الصديق رضي الله عنه، وسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، وعبدالرحمٰن بن عوف رضي الله عنه، وعثمان بن عفان رضي الله عنه، وأبا عبيدة بن الجراح رضي الله عنه، والأرقم بن أبي الأرقم رضي الله عنه، وكان بيته مقرّ الدعوة، و... وهم من أوائل المسلمين ومن طبقات السادة. وكان عدد هؤلاء السادة واحداً وثلاثين مسلماً، ولم يزد عدد المسلمين علىٰ الستين مسلماً بينهم اثنتا عشرة امرأةً هنّ:

١ ـ خديجة بنت خويلد. ٢ ـ أسماء بنت أبي بكر. ٣ ـ عائشة بنت أبي بكر. ٤ ـ أسماء بنت عُميس، زوجة جعفر. ٥ ـ أم أيمن، زوجة زيد. ٦ ـ فاطمة بنت الخطاب، زوجة سعيد. ٧ ـ فاطمة بنت المجلّل، زوجة حاطب. ٨ ـ فُكيهة، زوجة حطّاب بن عمرو. ٩ ـ رملة بنت أبي عوف، زوجة المطلب بن أزهر. ١٠ ـ أمينة بنت خلف، زوجة خالد بن سعيد. ١١ ـ أسماء بنت سلامة، زوجة عياش. ١٢ ـ سميّة، زوجة ياسر.

وهناك ثلاثة من قبائل أخرىٰ، وهم:

١ ـ عامر بن ربيعة. ٢ ـ مسعود بن هُذَيل. ٣ ـ مسعود القارة، من القارة.

أما الموالي فهم أربعة عشر، منهم:

١ ـ خبّاب بن الأرتّ، حليف بني زهرة. ٢ ـ صهيب بن سنان،

حليف بني تيم. ٣ ـ عامر بن فهيرة، مولىٰ أبي بكر الصديق. ٤ ـ عمّار بن ياسر، أبوه ياسر حليف بني مخزوم. ٥ ـ زيد بن حارثة، مولىٰ رسول الله ﷺ. ٦ ـ بلال بن رباح، مولىٰ أمية بن خلف. ٧ ـ عبدالله بن جحش، حليف بني عبد شمس. ٨ ـ عبد بن جحش، حليف بني عبد شمس. ٩ ـ واقد بن عبدالله، حليف بني عدي. ١٠ ـ خالد بن البُكَير، حليف بني عدي. ١١ ـ عامر بن البُكَير، حليف بني عدي. ١٢ ـ عاقل بن البُكَير، حليف بني عدي. ١٣ ـ إياس بن البُكَير، حليف بني عدي.

وبذا يكون عدد المسلمين:

٣١	من وجهاء قريش وأبنائهم
٣	من قبائل أخرىٰ
١٤	موالي وحلفاء
١٢	امرأة
٦٠	مسلماً

فأكثرية الذين دخلوا في الإسلام يوم كانت الدعوة سريةً إنما هم من سادة قريش وأبنائهم، وليسوا من الأرقاء والموالي كما اعتاد أن يتكلم في ذلك كثيراً من الذين كتبوا في السيرة النبوية، وخاصةً من المستشرقين.

أما ما ورد من آياتٍ في شأن الضعفاء ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾ [الكهف]. فإن هذا لا يدلّ علىٰ كثرة الضعفاء، وإنما يدلّ علىٰ المحافظة عليهم، وعلىٰ كل مؤمنٍ مهما كانت مكانته الاجتماعية.

وفي هذه الدعوة مخالفة لعادات الجاهلية، ونظرة الجاهلية إلىٰ أولئك الضعفاء من الازدراء والاحتقار، ففي الآيات تربية وتعليم وترك لكل ما اعتاده الجاهليون، وليس فيها ما يدلّ علىٰ الكثرة أبداً.

وقد اعتاد كثير ممن يُعادي الإسلام أن يتكلّم في هذا الموضوع، ليُعطي صورةً سيئةً عن الإسلام، فيقول: إن الأغنياء وأصحاب الفكر والمستنيرين لم يُقبلوا علىٰ الإسلام إلا بعد أن خُضدت شوكتهم، فاضطروا أن يُظهروا الإسلام، وهم ينتظرون الفرصة لمحاربته، ولكن الذين آمنوا بالإسلام كانوا من المحتقرين والضعفاء، وكذلك يريد المستغلُّون في البلاد الإسلامية أن يُظهروا الإسلام؛ لأنه التربة الخصبة للفقراء الذين يُشكِّلون أكثرية المجتمع، وذلك في سبيل استغلال العوام وتسييرهم وراءهم.

وفي هذه المرحلة من الدعوة فُرضت الصلاة، وكانت في كل وقتٍ من الأوقات الخمسة ركعتين، وفي الإسراء زيدت الركعات في الحضر فأصبحت أربعاً في كلٍّ من الظهر، والعصر، والعشاء، وثلاثاً في المغرب، أما في الفجر، والسفر فبقيت كما هي. وكان أصحاب رسول الله ﷺ إذا أرادوا أن يصلُّوا ذهبوا إلىٰ الشعاب، فاستخفوا بصلاتهم عن قومهم.

واستمرّت هذه الدعوة السريّة مدة ثلاث سنواتٍ، وقريش لا تعلمها حتىٰ نزل قول الله تعالىٰ مخاطباً رسوله الكريم: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الحجر].



الجهر بالدعوة

بعد ثلاث سنواتٍ من الدعوة السرية، أمر الله سبحانه وتعالىٰ رسوله الكريم بالجهر بالدعوة، ودعوة الناس جميعاً، فامتثل محمد ﷺ للأمر، وبدأ بالدعوة العامة وبصورةٍ علنيةٍ، وهو واثق بوعد الله، ونصره، ودعمه، وتأييده، فصعد إلىٰ جبل (الصفا)، ونادىٰ بأعلىٰ صوته: يا بني فهر (قريش)، يا بني (عدي)، يا بني الحارث، يا بني. . . . وأخذ يُعدّد بطون قريش بطناً بطناً، فجعل الرجل منهم إذا لم يستطع أن يخرج يرسل رسولاً عنه لينظر الخبر، حتىٰ إذا اجتمعوا إليه، قال عليه الصلاة والسلام: «أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تُريد أن تُغير عليكم أكنتم مُصدّقيَّ؟» قالوا: نعم، ما جرّبنا عليك كذباً. قال: «فإني نذير لكم بين يديَ عذاب شديد»، فقال أبو لهب: تبًّا لك ألهذا جمعتنا[1]؟. . . . فأنزل الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [الشعراء].

قام رسول الله ﷺ فقال: «يا معشر قريش، اشتروا أنفسكم، لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا عباس بن عبد المطلب، لا أُغني عنك من الله شيئاً، يا صفية بنت عبد المطلب، لا أُغني عنك من الله شيئاً، يا فاطمة بنت محمدٍ، سليني ما شئت من مالي، لا أُغني عنك من الله شيئاً»[2].

ثم دعا أقرباءه فاجتمعوا إليه، فقال: «الحمد للّه أحمده وأستعينه وأؤمن به، وأتوكّل عليه، وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له» ثم قال:

---

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه من حديث أبي هريرة.

«إن الرائد لا يكذب أهله. والله الذي لا إلٰه إلا هو إني رسول الله إليكم خاصةً وإلىٰ الناس عامةً، والله لتموتنّ كما تنامون، ولتُبعثُنّ كما تستيقظون، ولتُحاسبُنّ بما تعملون، ولتُجزونّ بالإحسان إحساناً، وبالسوء سوءاً، وإنها الجنّة أبداً أو النار أبداً».

بدأ رسول الله ﷺ الجهر بالدعوة، فكان يدعو الناس في كل مجمعٍ ونادٍ، وفي المسجد الحرام يُحدِّثهم ويتلو عليهم القرآن، كما وينتهز كل عام موسم الحجّ ليلتقي بالقبائل قبيلةً قبيلةً، يعرض عليها الإسلام، ويُبيّن لها الطريق، فيستجيب من يستجيب، ويرفض من يرفض، ويسخر من يسخر، ولكنه في الوقت نفسه الذي كان يدعو فيه قريشاً دعوةً عامةً في الأندية والمحافل، والقبائل في المواسم، لم يكن ليترك أبداً التربية والعناية الخاصة لأولئك الذين قبلوا الدعوة ليبني منهم القاعدة الصلبة المتينة. فكان يجمع المسلمين في البيوت بشكلٍ سريٍّ علىٰ شكل أُسر مغلقةً تماماً لا يعرفها أحد خارج أعضائها الذين يجتمعون فيها، بعيدةً عن أعين قريش، وعلىٰ غفلةٍ منها، وتضمّ هذه الأسر أولئك الذين عقد عليهم رسول الله ﷺ الأمل في حمل العبء والمهام الجسيمة في نشر الإسلام، وبذا تكوّنت طبقة خاصة من المؤمنين الأوائل قوية في إيمانها، متينة في عقيدتها، مدركة لمسؤوليتها، منقادة لقائدها، مُطبِّقة لكل أمرٍ يصدر عنه باندفاعٍ لا يُعادله اندفاع، وحبٍّ لا يُساويه حبّ. وبهذه الطريقة استطاع سيدنا محمد ﷺ أن يُؤدّي الأمانة ويُبلّغ الرسالة. وبذلك تكون طريقته قدوةً لنا في عملنا الذي نسير فيه، ودربنا الذي نسلكه حسب هديه ﷺ. ويمكن أن نلاحظ في طريقته النقاط التالية:

١ ـ بدأ الدعوة بعناصر اختارها، فلبّت الدعوة وآمنت.

٢ ـ كانت دعوته عامةً للناس، وأثناء هذه الدعوة يُركّز ﷺ علىٰ من يجد فيهم الإمكانات، أو يتوقّع منهم ذلك.

٣ ـ كان يجمع المؤمنين في أُسرٍ خاصةٍ لا يعلمها أحد إلا أعضاءها، وكانت هذه الأُسر نواة القاعدة الصلبة التي ثُبِّتت عليها أركان الدعوة.

وعلىٰ هذا يجب أن يكون العمل الإسلامي والدعوة علىٰ كل أرضٍ، وفي كل وقتٍ، والسير بالناس في طريق الحق والهدىٰ، ويجب أن تكون الطريقة حسب المنهج الذي سار عليه رسول الله ﷺ، وهو وفق الخطوط التالية:

أ ـ انتقاء العناصر المؤمنة الحركية النشيطة وبدء العمل الإسلامي، ويكون هذا العمل بمثابة الجماعة الإسلامية الأولىٰ، ويلتزم الأفراد بالإسلام التزاماً كليّاً، وقد روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: (لا إسلام إلا بجماعة). ولا يضيرنا أبداً ما يُقال عن هذا العمل إذ أن الفئات السياسية البعيدة عن الإسلام وتصرّفاتها قد أعطت صورةً سيئةً عن كل عملٍ إسلاميٍّ، كما الشائعات التي روّجها أعداء الإسلام عن الحركات الإسلامية بقصد تشويه سمعتها والطعن في العمل أمر غير خافٍ علىٰ أحدٍ. كما يجب ألا ننسىٰ أن هناك عدداً من الذين يستغلُّون الإسلام في سبيل مصالحهم وأطماعهم الشخصية، فينتحلون الإسلام وصفة أبنائهم وما هم كذلك، إن هم إلا يكذبون، ويُزيّنون للناس أعمالهم، ويُسوّغون لهم مواقفهم، فيُصدّقهم بعض الناس إذ أكثرهم بسطاء وخاصةً العامّة منهم، أو ممن ينتفعون من الأدعياء، هذا بالإضافة إلىٰ أن بعض أولي الأمر يتخذون لهم أعواناً من بين مَن يدّعي الإخلاص، وقد يكونون من أهل العلم، وتُوجّههم حيث تريد حسب مناهجها ومخططاتها، وهذا ما يُذكّرنا بالمنافقين ودورهم في محاربة الإسلام. وما أصحاب النفوذ والسلطان في هذه الآونة من الزمان الذي ضعف فيه المسلمون وكُسرت شوكتهم إلا صنيعة دولٍ كبرىٰ تُسلّمهم الأمر ليُقدّموا لها الخدمات، ويقلّلوا من شأن الدين وأهل العلم. ونظرة واحدة إلىٰ مرتبات العلماء ومن يقومون بخدمة المؤسسات والدوائر الإسلامية كافية لتُعطي الدليل علىٰ ذلك، وما يلقاه المخلصون والدعاة علىٰ أيدي هؤلاء بين الآونة والأخرىٰ في كل وقتٍ ـ وما خلا منه مصر إسلامي ـ لدليل قوي آخر علىٰ ذلك.

قال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۖ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ أَجۡمَعُوٓاْ أَمۡرَهُمۡ وَهُمۡ يَمۡكُرُونَ ۝١٠٢ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ

﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يوسف].

ولكنهم يسعون وراء مصالحهم التي يستطيع أن يُحقّقها لهم أصحاب السلطة والنفوذ، لذلك فهم يتبعونهم وينافقون لهم، وكلما ارتقىٰ إنسان تركوا من حطّه القدر إلىٰ من رفعه، لذا كان بقاء المتنفّذين مدةً أطول في مناصبهم، وبدا لمن ينظر بعين المصلحة والهوىٰ أن أصحاب السلطة لهم الأتباع، ومنهم الذين يُؤدُّون العبادات أو يظهرون التدّين، ولكن يبدو للذين ينظرون بعين الواقع أن هذا كله زَبَدٌ يذهب جفاءً بأقلّ شيءٍ ليظهر في مكان آخر زبداً مرةً ثانيةً. وفي الآخرة يكون هؤلاء من الخاسرين.

يقول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾﴾ [النساء].

ويقول الله تعالىٰ: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الكهف].

وعلىٰ كل مسلم أن يكون ضمن الصف الإسلامي الصحيح لا ينحرف عنه ولا يحيد، ولا يبتعدُ عنه، ولا يقف موقف المتفرّج أو الموقف الحيادي ـ كما يزعم بعضهم ـ إذ لا يوجد في حال الخلافات ما يُسمّىٰ حيادياً، فالمحايد إنما هو بجانب القوي وضدّ الضعيف، إذ لو وقف بجانب الضعيف لجعله قوياً وأخذ حقّه، ولكن إذا ترك الأمر فإنما سمح للضعيف أن يؤكل من قبل القوي، والقوي إنما هو صاحب السلطة والنفوذ، فعندما يقف من يدّعي الإسلام، ويُعلن أنه محايد فإنه يكون بذلك من أنصار السلطة وضدّ المسلمين قولاً واحداً، ويجب ألا ننسىٰ قول أبي بكر الصديق ﵁ في خطبته الأولىٰ بعد استلامه الخلافة: (القوي فيكم ضعيف عندي حتىٰ آخذ الحق منه، والضعيف فيكم قوي عندي حتىٰ أردّ إليه حقه).

وإذا لم يطمئن المسلم إلىٰ هذا الصفّ أو لاحظ بعض الهِنات، فعليه أن يسعىٰ في إصلاحها، فإن وجدها كبيرةً، أو أن في الخط انحرافات

لا تُقوَّم، أو لا يصحّ السير فيها، فعليه أن يفتش عن جماعةٍ أُخرىٰ يرضىٰ سيرها، والجماعات ذات الخط الصحيح لا يختلف بعضها مع بعض، وإنما دعت الظروف لقيامها أو تعدّدت بتعدُّد الأمصار، وإن لم يجد جماعةً قائمةً فعليه أن يقوم بنفسه بتأسيس جماعةٍ أو يسعىٰ في ذلك، ويبذل جهده كله وإمكاناته كلها تأديةً للفريضة وقياماً بالواجب الملقىٰ علىٰ عاتقه. أما إذا كانت هناك جماعة تُؤدّي واجبها الإسلامي بحقٍّ، وتُخلص في العمل، وعمل علىٰ إيجاد جماعةٍ أخرىٰ؛ فعمله باطل ويُؤدّي إلىٰ تفريق كلمة المسلمين، وعليه وزر كبير، وما من زمن إلا وكانت فيه جماعة من المسلمين تُؤدّي دورها، وتقوم بعملٍ جادٍّ ومُثمرٍ بغض النظر عن هذه الجماعة وحجمها وإمكاناتها وأثرها في المجتمع.

والتزام الجماعة أمر خطير في الإسلام، وخاصةً أن الفرد لم يَعُد له دور في هذه المجتمعات الحالية التي لا تُقيم له أي وزنٍ، وتقوم علىٰ التكتلات والتنظيمات، فالفرد مهما كان ذا فكرٍ ضاع في خضمّ هذه الجاهليات، وقد وردت فيه أحاديث كثيرة، فقد روىٰ الإمام أحمد والترمذي أن رسول الله ﷺ قال: «آمركم بخمسٍ: بالجماعة والسمع والطاعة والهجرة والجهاد في سبيل الله، وأنه من خرج من الجماعة قيد شبرٍ فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه إلا أن يرجع، ومن دعا بدعوىٰ الجاهلية فهو من جُثيّ جهنّم وإن صام وصلّىٰ وزعم أنه مسلم»[1].

وهذا ما يدلّ علىٰ أن إنشاء الجماعة الإسلامية أمر ضروري، وهو قبل كل شيءٍ، ثم يليه عدم الخروج من الجماعة حيث أن مطالب الإسلام، ومقتضياته، وغاياته المهمة لا تتمّ ولا تتكامل إلا بالجماعة والجهود الجماعية. وقد نجد أثناء الطريق من يُنفّر من الجماعة، ويدعو إلىٰ نبذ التجمُّع والاقتصار علىٰ الدعوة العامة، وهذا إما جهل بطريقة رسول الله ﷺ، وإما الرغبة في تحقيق الزعامة والتفاف الناس حول هالةٍ فارغةٍ، وإما خوفاً وهرباً من تحمُّل المسؤولية.

---

(١) الترمذي: (٢٨٦٧).

٢ً ـ تقوم جماعة بدعوة الناس عامةً لالتزام الإسلام، وتطبيق منهجه في كل مجالات الحياة العامة منها والخاصة.

٣ً ـ وتقوم الجماعة أثناء الدعوة العامة باختيار العناصر التي تبدو عليها الحركية، ويظهر فيها الخير، وتدعوها إلىٰ العمل، وتُشكّل منها أُسراً خاصةً لبناء القاعدة الصلبة، ويكون هذا سرياً كسرية عمل رسول الله ﷺ. وبهذا لا تتناقض الدعوة العامة مع سريّة العمل؛ بل علىٰ كلّ عضوٍ في الجماعة أن يدعو إلىٰ الإسلام علناً، ويظهر أثر ذلك في كل تصرّفاته، وأعماله، وأسرته، وحياته، ولكنه في الوقت نفسه يُخفي جماعته عن الأعين، وخاصةً في الوقت الذي تتكالب فيه قوىٰ الشرّ في العالم كله ضدّ الإسلام.

٤ً ـ يجب عدم وقوع أفراد الجماعة الإسلامية في خضمّ الحياة المادية العنيف، إذ ما أن يقع أحدهم حتىٰ يتخبّط فيه، ويبدأ بمصارعة التيّارات، فأعماله المادية لا يمكن أن يتركها لأنه يتوقّف علىٰ ذلك نجاحه أو دماره وإفلاسه، وحياته الإسلامية أساسية بالنسبة إليه، ويبدأ التهاون تدريجياً حتىٰ يصبح سيره كسير الماديين الكبار، وليس معنىٰ هذا إهمال متطلباته الأساسية وشؤونه المادية تماماً أبداً، ولكن أن يعيش الحياة الحرّة الكريمة لا يحتاج أحداً، ولا ينصرف إلىٰ المادة فقط، والحياة المادية اليوم تتطلّب المزيد من الحاجيات التي تتبدّل بين الآونة والأخرىٰ، وأصبح الناس يعدُّون الكمالي منها أساسياً فيجب ألا نسير في هذه الحسابات، وألا نكون متأثّرين بالمجتمع غير مؤثّرين فيه.

٥ً ـ يجب عدم إهمال الروح المعنوية كالثقة بتأييد الله ونصره إذا استقمنا علىٰ الطريقة، واتبعنا أوامر الله ﷻ، إضافةً إلىٰ التدريب والاستعداد ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الأنفال]. وقد نشأ أيام رسول الله ﷺ كل فردٍ مُقاتلاً، حيث كان القتال بين القبائل مستمراً، ويتدرّب المرء أثناء الغارات وأيام المعارك. وكذلك كانت أعمال السلب، والنهب، وقطع الطريق، وكلها تستدعي معرفة فنون القتال، فكان كل فردٍ مُدرّباً بشكل طبيعي. أما الآن فنحن بحاجةٍ إلىٰ العمل والاستعداد لذلك،

وقد تغيّرت أساليب القتال، وتبدّلت أسلحة الحرب، واختلفت قيادات المعارك وتنظيمات الجيوش.

هذه طريقة رسول الله ﷺ، وهو الموحىٰ إليه من قِبَل الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم]. فيجب اتباعها تماماً، وكل طريقةٍ غيرها تُعدّ ناقصةً بل وقاصرة، إذ لا يمكن الاعتماد علىٰ الدعوة العامة فقط كما يتبنّىٰ ذلك الكثيرون، إذ يكون العمل دون جماعة، ولا نستطيع بهذه الطريقة بناء القاعدة الصلبة التي يمكنها أن تأخذ بزمام الأمور وتمسك بناصيتها، وكذلك ينعدم التنظيم الذي يحتاج إلىٰ السرية لنجاح العمل، ولو لم يكن في صحابة رسول الله ﷺ مثل هذه النواة في أبي بكر، وعثمان، وعمر، وعليّ، وسعد، والزبير، وطلحة، وأبي عبيدة، وعبدالرحمٰن، وسعيد بن زيد لضاع كثير من المسلمين ومناطقهم أيام الرِّدَّة، بل لما كان الإسلام خاتم الرسالات، وصاحبه خاتم الأنبياء والمرسلين، عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام.

كما لا يمكن الاعتماد علىٰ القوة فقط كما يتبنّىٰ ذلك بعضهم، حيث يضيع الحكم بعد تسلُّمه بمدةٍ وجيزةٍ، إذ لا توجد الفئة الواعية التي يمكنها أن تسير بالحكم إلىٰ النهاية، والفئة المدركة لأوضاع العالم وما فيه من أساليبَ ماكرةٍ لضرب الإسلام، وكل حركةٍ تهدف إلىٰ النهوض به. أو أن الأفراد الذين يتسلّمون مركز القيادات سيختلفون بعضهم مع بعضٍ، وتنتقل المعركة بينهم إلىٰ داخل الصف، وكل يظنّ أن طريقه هي الصحيحة، وأن اجتهاده هو السليم والذي يتفق مع الخط الإسلامي الصحيح، وقد حدثت أيام صحابة رسول الله ﷺ قضايا صعبة، لو لم تكن فيهم التربية الإسلامية القوية لاختلفوا فيما بينهم، ولانقلب بعضهم علىٰ بعضٍ وذلك قبل أن يتولّىٰ أبو بكر الصدِّيق رضي الله عنه الخلافة. وقد حدث في هذا العصر، أن تسلّمت بعض الجماعات غير الإسلامية الحكم، ولكن ما أن تربّعت علىٰ كرسيه حتىٰ ظهرت اتجاهات متناقضة حيث يعمل كل لتأمين هواه، وله اتجاهاته، ووقعت الكارثة بين رفاق الأمس، وبقيت تتكرّر الصدامات المسلّحة بين الأجنحة المتعددة بين آونةٍ وأخرىٰ.

وكذلك لا تتخذ الجماعة الإسلامية طريقة الاغتيال السياسي، أو التخلُّص من أفرادٍ مُعيّنين لسببٍ من الأسباب. ولم يلجأ رسول الله ﷺ لهذه الطريقة أبداً، وكان بإمكانه ذلك وبكل يُسرٍ، إذ كان يستطيع أن يُكلّف أحد الصحابة بقتل بعض قادة الكفر كالوليد بن المغيرة المخزومي أو العاص بن وائل السهمي أو أبي جهل عمرو بن هشام أو غيرهم، وكان أمره لا يُردّ؛ بل يُنفّذ علىٰ أنه نوع من أنواع العبادة بطاعة رسول الله ﷺ. ولكن لم يفعل رسول الله ﷺ مثل هذا الفعل. فإن مثل هذا الفعل قد يُؤدّي بالجماعة الإسلامية كاملةً، أو يُعرقل علىٰ الأقلّ مسيرتها مدةً ليست قليلةً من الزمن لردّ فعلٍ من قِبل أعداء الإسلام الذين يتكالبون علىٰ حربها، بل وتجتمع قوىٰ الشرّ في العالم لتنفيذ مثل هذا العمل وتُباركه وتُؤيّده وتدعمه بكل إمكاناتها، ولا يمرّ يوم دون تحرُّشٍ بالمسلمين للقيام بمثل هذه الأعمال ليكون مسوّغاً للقضاء عليهم، أو إشارةً من جهاتٍ عالميةٍ تحرّض المسؤولين في الأمصار الإسلامية للإقدام علىٰ مثل هذه التصرّفات. ثم لا ندري فلربما يكون أشدّ الأعداء اليوم من الأنصار في المستقبل أو من الدعاة، وكثيراً ما حدث مثل هذا الانعطاف في حياة الكثيرين من الرجال. ورسول الله ﷺ كان يدعو لأعدائه بالهداية والتأييد، فهو يقول: «اللهم أيّد الإسلام بأحد العمرين: عمر بن الخطاب، أو عمرو بن هشام». وعمرو بن هشام هو أبو جهل ألدّ أعداء الإسلام، فلو كُتبت له الهداية لكان أحد سيوف الإسلام، وهذا ما حدث لعمر بن الخطاب، وخالد بن الوليد، وعكرمة بن أبي جهل، وسهيل بن عمرو، وأبي سفيان (صخر بن حرب) رضي الله عنهم جميعاً. وما دام رسول الله ﷺ لم يقم بمثل هذه الأعمال وحياته في مكة تُشبه إلىٰ حدٍّ كبير المجتمعات التي نعيش فيها اليوم، ونحن مُكلّفون باتباع سنّته، ومسؤولون عن مخالفتها، لذا لم نقم بها نحن، ولا نُشجّع عليها. وعندما بعث رسول الله ﷺ إلىٰ كعب الأشرف من قتله كان للمسلمين دولة، ويستطيعون حماية المسلمين؛ بل وقتال من تُسوّل له نفسه بالاعتداء علىٰ أيّ فردٍ منهم.

والجماعة الإسلامية هي المجتمع الإسلامي الصغير في هذا الوقت الذي

ينعدم فيه الحكم الإسلامي على ظهر الأرض، وقائدها هو الأمير بالنسبة إلى الدولة الإسلامية، والأمير هو خليفة رسول الله ﷺ، وطاعته من طاعته، وطاعة الرسول من طاعة الله. قال الله سبحانه وتعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۝٨٠﴾ [النساء]. فالسمع واجب للقائد، وطاعته في طاعة الله فرض. وقال رسول الله ﷺ: «لا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق»[1]. وقال أبو بكرٍ الصديق رضي الله عنه في خطبة له: (أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم). ولنعد إلى حديث رسول الله ﷺ: «آمركم بخمسٍ: بالجماعة والسمع والطاعة والهجرة والجهاد في سبيل الله وأنه من خرج من الجماعة قيد شبرٍ فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه إلا أن يراجع، ومن دعا بدعوى الجاهلية فهو من جثيّ جهنم وإن صلّى وصام وزعم أنه مسلم».

والأمير هو إمام المسلمين ورئيسهم، وكما أن طاعته واجبة؛ فالقتال تحت رايته واجب أيضاً. وروى الإمام مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «الإمام جُنّة يُقاتل من ورائه ويُتّقى به». والهجوم عليه والكلام عنه بسوء مخالفة لأمر الله ورسوله، وخلع للبيعة، وتهديم للعمل الإسلامي، وتفرقة للصف، وتقويض للمجتمع. وقد كان للخليفتين أبي بكر، وعمر رضي الله عنهما هيبة، وللخلافة مركزها أيامهما، لأنه لم يجرؤ أحد أن يتكلّم عنهما بسوءٍ أو يتحدّث عنهما إلا بخيرٍ، لعدم وجود أولئك النفر المنحرفين والخارجين على النظام بين الرعية، ولقرب العهد برسول الله ﷺ، حيث لم تكن السرائر قد فسدت بعد، ولم يندسّ أصحاب الأطماع بين الصفوف، ومن هنا كانت تنقية الصف يجب أن تتمّ بين المدة والأخرى بالاختبار والابتلاء، للمحافظة على الجماعة الإسلامية والتأكّد من خلوها من الشوائب التي قد تتسلّل إليها على حين غفلةٍ من أهلها، ولكن عندما تتسلل بعض اليهود إلى الداخل، وبدأ أحدهم وهو (عبدالله بن سبأ) يتكلّم عن الخليفة الراشدي الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه، وينتقل في الأمصار يروّج الشائعات، ويزرع بذور الفتنة،

---

(١) متفق عليه. بلفظ: «لا طاعة في معصية، وإنما الطاعة في المعروف».

والمسلمون لم يعرفوا أمثال ذلك من قبل فجاءتهم من حيث لم يحتسبوا، ووقع بعضهم في شباكها، وكانت رحابة صدر الخليفة، وقوة إيمانه قد فسحت لهم المجال، فحاول أن يُجنّب المسلمين المصيبة وأن يتلقّاها هو بقلبه الكبير، فكان أن زعزع المجتمع الإسلامي، وحدثت الفتنة، وذهب الخليفة نفسه ضحيتها، وتفرّقت كلمة المسلمين، ولم تتوحّد إلا أوقاتاً قصيرةً تهدأ فيها العواصف لأسبابٍ وقتيةٍ، منها قوة الخليفة، وسيره في خطٍّ سليم بالنسبة إلىٰ أسلافه، ومحاولته رأب الصدع، وردم الهوة بين الأطراف المتبَاينة الآراء، وإما لوجود خطرٍ خارجي داهم يقتضي توحيد الجهود، وإنهاء الصراع الداخلي وخاصةً في أواخر العهد الإسلامي. وإذا كان المسؤول مُعرّضاً للحرب الكلامية أو النقد الدائم ضعُف مركزه وقلّ شأنه، وبالتالي تضعف معه قيمة إمارته. والأمير رئيس المسلمين، سمعته من سمعتهم، وقوته من قوتهم، وهيبته من هيبتهم.

والحكم الإسلامي تطبيق لقانون الله في الأرض، وتنفيذ لمنهجه، وحمل لدعوته إلىٰ العالم، وهذا غاية كل دعوةٍ إسلاميةٍ، وأمل كل داعيةٍ، وفرض علىٰ المسلمين كافةً، ومن هنا كان واجب عليهم البيعة لأميرٍ، وقد قال عمر بن الخطاب ﷺ: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَن خلع يداً من طاعة الله، لقي الله يوم القيامة ولا حُجّة له. ومَن مات وليس في عنقه بيعة، مات ميتةً جاهلية»[1]. ولا يصحّ أن يوجد إلا أمير واحد للمسلمين، فإن نازعه أحد وجب قتاله، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «مَن بايع إماماً فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه؛ فليُطعه إن استطاع. فإن جاء آخر يُنازعه؛ فاضربوا عُنق الآخر»[2].

ولما لم توجد اليوم دار إسلام يُطبَّق فيها شرع الله، فأمير الجماعة هو بمثابة الخليفة طاعته واجبة، والبيعة له حتمية، وإن لم يستطع أن يُطبّق المنهج، ويقوم بتنفيذ الأحكام والحدود. يقول رسول الله ﷺ: «مَن مات

(١) رواه مسلم: (١٨٥١).

(٢) جزء من حديث رواه مسلم: (١٨٤٤).

وليس في عنقه بيعة، مات ميتةً جاهليةً». وقد ثبتت بيعة المسلمين لرسول الله ﷺ، ولم تكن هناك دولة إسلامية تُقيم الحدود، وتُطبّق منهج الله، فقد قال عبادة بن الصامت رضي الله عنه: (بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في المنشط والمكره، وأن لا ننازع الأمر أهله، وأن نقول أو نقوم بالحق لا نخاف في الله لومة لائم)[1]. وتكون البيعة على العمل بالكتاب والسنّة. ومتىٰ أعطىٰ المبايع البيعة كانت أمانةً في عنقه لا يحل له الرجوع عنها، ولو أراد أن يرجع عنها لا يجوز له، إلا أن يخلّ الأمير بشروط البيعة فعندها يصحّ عزله. وليس من شروط البيعة أن يبايع كل فردٍ، ولكن تنعقد بيعة الفرد للأمير بقبوله الانضواء في الصف. ويجب ألا يخطر في بال إنسانٍ أنه لم يبايع ما دام لم يضع يده في يد الأمير ويُبايعه. وكل رغبةٍ في تقويض الجماعة، أو الإساءة إليها إنما تستهدف أول ما تستهدف القائد بالدرجة الأولىٰ، لذلك ترىٰ التُّهم تكال للأمير، وتروّج الشائعات ضدّه وضدّ جماعته من قبل أنظمة الحكم الجاهلية وأنصارها، تدعمهم الصليبية العالمية واليهودية، ثم أصحاب الأطماع من المسلمين وهم أصعب هؤلاء وأدهاهم، لذا يجب الحذر منهم، ومعرفة القصد من كل كلمةٍ تقال في هذا المجال. وقد كان المسلمون الأوائل يُحافظون علىٰ تجمّعهم فلا يتعرّضون للقيادة إلا بخيرٍ، ولا يتلقّون إلا من المسؤول المباشر الذي كان هو رسول الله ﷺ، ولا يتحدّثون إلا له، ويُمثّله الآن الأمير، وكان رسول الله ﷺ يُوجّه اهتمامه وانتباهه الكبير إلىٰ الأسرة التي تُعدّ النواة الأولىٰ للمجتمع الإسلامي، ولم يكن القصد من اللقاء بها التلقّي والعطاء فقط بل الحياة بين أعضائها حياةً إسلاميةً، تُصوّر الحياة في ظلّ الدولة الإسلامية المرتقبة التي يعملون من أجلها، وتُعطي أهل مكة صورةً عمليةً عنهم حتىٰ تتوضّح لهم الحقيقة، ويعرفون صلاحية الدعوة، وبالتالي كسبهم إلىٰ صفّها، ولم تكن الأسر التي نشأت في دار (الأرقم بن أبي الأرقم) علىٰ يد رسول الله ﷺ إلا صورةً حيّةً لهذا الأنموذج.

---

(١) متفق عليه. من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

بدأت دعوة رسول الله ﷺ تأخذ طريقها إلىٰ النفوس، وتجد فيها مستقرّها ومستودعها، ويزداد عدد أفرادها يوماً بعد يوم، وهذا ما أخاف قريشاً وزعماءها، خاف الزعماء علىٰ مصالحهم أن تنتهي، وعلىٰ مراكزهم أن يُقضىٰ عليها، ويأتي مكانهم من أصحاب محمدٍ ﷺ، وخشيت قريش علىٰ عقيدتها أن تزول، وعلىٰ أصنامها أن تتحطّم، وعلىٰ وثنيتها أن تُترك، فأرادت أن تُنقذ الموقف، وتحتفظ لها بشيءٍ من الهيبة والعقيدة، لذا رغبت في المساومة لإبقاء بعض عناصر الشرك ومظاهر الجاهلية فيما تعتقد، وبينما كان رسول الله ﷺ يطوف بالكعبة اعترضه بعض زعماء قريشٍ، فقالوا: يا محمد، هلم فلنعبد ما تعبد، وتعبد ما نعبد، فنشترك نحن وأنت في الأمر، فإن كان الذي تعبد خيراً مما نعبد كنا قد أخذنا بحظٍّ منه، وإن كان ما نعبد خيراً مما تعبد كنت قد أخذت بحظك منه. . . وجاء الأمر الإلـٰهي الحاسم الموحي بأن أمر هذه العقيدة للّه وحده ليس لمحمدٍ فيه شيء، إنما هو أمر الله الذي لا مردّ لأمره، ولا رادّ لحكمه، فلا مساومة، ولا اتفاق، ولا لقاء.

قال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦﴾ [الكافرون]. تأكيد يليه تأكيد علىٰ أن هذه أول خطوةٍ في الطريق يجب أن يسير عليها رسول الله ﷺ، كما يجب أن تكون أول الشوط أمام كل داعيةٍ فيتميّز بها خطه، ويعرف بها طريقه في شعوره وسلوكه، ابتعاد عن درب الجاهلية، وانعزال عن دربها، ومفاصلة في طريقها وسلوكها. وإذا كانت بعض أعمال المنحرفين كثيراً ما تتلبّس بأعمال المسلمين وخاصةً الجماعات التي نتحدث عنها علىٰ الرغم من أن الفارق بينهما بعيد، والبون شاسع، فإن السبيل الوحيد للتميُّز والسير في الخط المستقيم القويم وهو الخروج من الجاهلية بجملتها والسير في طريق الإسلام بجملته، والانسلاخ من الجاهلية بكل ما فيها والهجرة إلىٰ الإسلام بكل ما فيه.

والمفاصلة مفاصلة شعورية لا مفاصلة انعزالية، إذ كان رسول الله ﷺ في مكة يُعامل المشركين يبيع لهم، ويشتري منهم، يدعوهم، ويقبل

دعوتهم، فقد لبّىٰ دعوة (عُقبة بن أبي مُعَيط)[1]، وكان جاراً له، وقد دعا إليها عقبة كبراء قريش وفيهم رسول الله ﷺ وقال له محمد عليه الصلاة والسلام: «والله لا آكل طعامك حتىٰ تُؤمن بالله»، فتشهّد عقبة، ثم عاد فنكث، وبدأ يسخر من رسول الله ﷺ. وإذا كانت المفاصلة انعزالية لا يمكن للمرء أن يقوم بالدعوة الإسلامية أصلاً، وهل يدعو إلا البعيدين عن الإسلام؟ فكيف يبتعد عنهم، ويدعوهم، ويُوجّههم؟ ولكن يكفي المسلم أن يشعر أنه يختلف عن المحيط الذي يعيش فيه، يختلف معه في العقيدة، وفي التفكير، وفي السلوك، وفي جوانب الحياة كلها. وفي الاحتكاك مع المجتمع يظهر سلوك المسلم، وأهمية دعوته ومحاسنها فيؤثّر فيهم وهذه غايته، وكلما كان الاحتكاك والتطبيق سليماً كان التأثير واسعاً.

وكثيراً ما يُحاول أصحاب الدعوات السائرة في طريق الجاهلية التي تنهل من نبعها، وهي شريكتها في الدنيا والآخرة، يُحاول أصحاب هذه الدعوات أن يكسبوا إلىٰ صفهم بعض البسطاء من المسلمين، أو الذين ينتمون إلىٰ الإسلام انتماءً، أو لهم مصالح وأطماع بتزيين جاهليتهم إليهم، بأن فيها كثيراً من تعاليم الإسلام وما يدعو له، وأن ما في أعماله لا يُخالفه، بل مما يُؤيّده، وأنهم عندما يصلون إلىٰ بعض مطالبهم يكونون قد اقتربوا من الإسلام، أو يكونون قد قطعوا مرحلةً انتقاليةً، وهكذا يتدرّجون مرحلة إثر مرحلةٍ حتىٰ يستطيعوا تطبيق مبادئهم التي يُقرّها الإسلام. ذلك ما يقولونه بألسنتهم إذا التقوا بهؤلاء البسطاء، والله يعلم ما تخفي قلوبهم، ويعلم إنهم لكاذبون.

بدأ رسول الله ﷺ دعوته بتعريف الناس بخالقهم، ووجوب انقيادهم له الانقياد التام، حتىٰ إذا استقرّت هذه العقيدة في النفوس أمكن تطبيق حكم الله عليهم، واستقرّ معه النظام الذي ترتضيه هذه النفوس المؤمنة، وتستسلم كلياً

---

(١) عقبة بن أبي معيط: عقبة بن أبان بن ذكوان بن أمية بن عبد شمس: من مُقدّمي قريش في الجاهلية. كنيته: أبو الوليد. وكنية أبيه: أبو معيط. كان شديد الأذىٰ للمسلمين عند ظهور الدعوة. أسره المسلمون يوم بدرٍ، وقتلوه، ثم صلبوه، وهو أول مصلوب في الإسلام.

له، وهذا هو الإيمان. وقد جاء العتاب الشديد لرسول الله ﷺ عندما حوّل نظره عن (عبدالله بن أم مكتوم) ذلك الرجل الضرير الذي جاء يستوضح عن بعض الأمور، واتجه نحو قادة قريش (عتبة بن ربيعة)[1] و(عمرو بن هشام)[2] و(أمية بن خلف)[3] و(أُبيّ بن خلف) الذين طمع في إسلامهم.

قال الله تعالىٰ: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠ كَلَّآ إِنَّهَا

---

(١) عتبة بن ربيعة بن عبد شمس، أبو الوليد: كبير قريش وأحد ساداتها في الجاهلية. كان موصوفاً بالرأي والحلم والفضل، خطيباً، نافذ القول. نشأ يتيماً في حجر (حرب بن أمية). وأول ما عُرف عنه توسُّطه للصلح في حرب الفِجَار (بين هوازن وكنانة)، وقد رضي الفريقان بحكمه، وانتهت الحرب بحكمه وعلىٰ يده. وكان يُقال: لم يَسُدْ من قريش مُمَلّق إلا (عتبة) و(أبو طالب)، فإنهما سادا بغير مال. أدرك الإسلام، وطغىٰ فشهد بدراً مع المشركين. كان ضخم الجثة، كبير الهامة (الرأس)، طلب خوذة يلبسها يوم بدر فلم يجد ما يسع هامته، فاعتجر علىٰ رأسه بثوبٍ له. قُتل يوم بدر إذ خرج للمبارزة بين أخيه شيبة بن ربيعة، وابنه الوليد بن عتبة فقُتل ثلاثتهم، قتلهم: الحمزة بن عبد المطلب، وعلي بن أبي طالب، وعبيدة بن الحارث، بالمبارزة.

(٢) عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومي القرشي: أشد الناس عداوةً للنبي ﷺ في صدر الإسلام، وأحد سادات قريش، وأبطالها، ودهاتها في الجاهلية. سوّدت قريش أبا جهل ولم يظهر شاربه، فأدخلته دار الندوة مع الكهول. أدرك الإسلام، وكان يقال له (أبو الحكم) فدعاه المسلمون (أبا جهل).

سأله الأخنس بن شريق الثقفي، وكانا قد استمعا شيئاً من القرآن: ما رأيك يا أبا الحكم في ما سمعت من محمد؟ فقال: ماذا سمعت، تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتىٰ إذا تحاذينا علىٰ الركب، وكنا كفرسَيْ رهان، قالوا: منا نبيّ يأتيه الوحي من السماء، فمتىٰ ندرك هذه؟ والله لا نُؤمن به أبداً ولا نُصدقه! واستمرّ علىٰ عناده، يُثير الناس علىٰ محمدٍ رسول الله ﷺ وأصحابه، ولا يفتر عن الكيد لهم والعمل علىٰ إيذائهم، حتىٰ كانت معركة بدر الكبرىٰ، فشهدها مع المشركين، فكان من قتلاها.

(٣) أمية بن خلف بن وهب، من بني لؤي: أحد جبابرة قريش في الجاهلية، ومن ساداتهم. أدرك الإسلام، ولم يُسلم. وهو الذي عذّب بلالاً الحبشي في بداية ظهور الإسلام. أسره عبدالرحمٰن بن عوف يوم بدر، فرآه بلال فصاح بالناس يُحرّضهم علىٰ قتله؛ فقتلوه.

﴿تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾ [عبس].

ظنّت قريش في بداية الأمر أن دعوة محمدٍ ﷺ ستقتصر عليه وعلىٰ أفرادٍ قلائل تربطهم به بعض الروابط، وتجمعهم به بعض اللقاءات، ولهذا فلن يكون لهذه الدعوة أثر في مجتمع مكة، وأنها لن تُغيّر شيئاً من معالمه الواضحة، لأنها كانت تعلم أن أمر تغيير الدين شيء عظيم، وتبديل العقيدة أمر صعب مهما كان الدين الجديد. ولم تكن قريش تدرك حقيقة هذه الدعوة التي يحملها محمد ﷺ. كما اعتقدت قريش في البداية أن أمر محاربة هذه الدعوة الجديدة لن يطول وسينتهي بيسرٍ، وستزول هذه العقيدة بتركها من قِبَل أتباعها القلائل المغرورين، وإن أخذت هذه الحرب مظهر الشدَّة منذ البداية وذلك لأن أحلام قريش قد سُفِّهت منذ اللحظة الأولىٰ، وآلهتها قد عيبت، وأصنامها قد استهزئ بها، والمرء لن يتأثّر بشيءٍ أكثر مما يتأثّر لو أُصيب بدينه أو أُهين بعقيدته إذ الإنسان مُتدين بالفطرة مرتبط بدينه أشدّ الارتباط، وإن بدا في بعض المراحل غير مبالٍ به.

رأت قريش في دعوة محمدٍ ﷺ غير ما توقّعت، ولمست فيها غير ما كانت تظنّ، فقد بدأت الدعوة بين مختلف الفئات، والطبقات، والمستويات، إذ دخلها عناصر من بيوتات قريش الأولىٰ التي تقف بعنفٍ في وجه هذا الدين الجديد. فكان بين صفوف المؤمنين الشريف والوضيع، بينهم السيد المطاع والعبد المباع، بينهم الشيخ الهرم والفتىٰ اليافع، بينهم الرجل الناضج والشاب في مقتبل العمر، بينهم التاجر الثري والخادم المسكين، بينهم المرأة ذات المكانة والأَمَة المغمورة، بينهم السيدة الكبيرة والفتاة الصغيرة.

وعندما رأت قريش ما رأت غيّرت طريقتها الأولىٰ في الدعوة إلىٰ الكفّ عن هذا الأمر والرجوع إلىٰ دين الآباء، ومحاولة النصح وطلب الاتباع تارةً باللين وأخرىٰ بالحزم والتوعُّد، واستبدلت بذلك كله حرباً عامةً شاملةً شملت مختلف جوانب الحياة من دعايةٍ، وأذىً، وإجاعةٍ، ومطاردةٍ، وقطيعةٍ، وملاحقةٍ، ولننظر إلىٰ جوانب هذه الحرب.

أ ـ حرب الدعاية:

وهي إطلاق صفاتٍ غير صحيحةٍ علىٰ شخصٍ معيّنٍ، إذ أطلق مشركو قريشٍ علىٰ محمد ﷺ لقب (صابئ)، وكذا نعتوا كل من اتبع محمداً عليه الصلاة والسلام. ثم كانوا يُلقّبونه تارةً بالكاهن وأخرىٰ بالساحر أو المجنون، ويظنُّون أحياناً أنه يبغي الزعامة أو يريد الشُّهرة، ويحسبون أحياناً أخرىٰ أنه قد أصابه شيء من المسّ، كل ذلك في سبيل ترك ما يدعو له، وما يعمل له في سبيل الحق والإيمان بالله واليوم الآخر. وقد كلّف مشركو قريش (عتبة بن ربيعة) ليبذل جهده في محاولةٍ يائسةٍ لإقناع محمدٍ ﷺ ليُغيّر خطه، ويترك دعوته، ويبدّل طريقه. فذهب عتبة إلىٰ رسول الله، وقال له: يا ابن أخي، إنك منا حيث علمتَ، من الشرف في العشيرة، والمكان في النَّسب، وإنك قد أتيت قومك بأمرٍ عظيم، فرّقتَ به جماعتهم، وسفّهتَ به أحلامهم، وعِبت به آلهتهم ودينهم، وكفّرت به من مضىٰ من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها، لعلك تقبل منها بعضها.

قال رسول الله ﷺ: «قُلْ يا أبا الوليد أسمَع».

قال عتبة: يا ابن أخي، إن كنت تريد بما جئتَ به من هذا الأمر مالاً، جمعنا لك من مالنا، حتىٰ تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد شرفاً سوّدناك علينا حتىٰ لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد مُلكاً ملّكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رَئِيّاً (أحد من الجنّ) تراه لا تستطيع ردّه عن نفسك، طلبنا لك الطبَّ، وبذلنا فيه أموالنا حتىٰ نُبرئك منه، فإنه ربما غلب التابعُ علىٰ الرجل، حتىٰ يُداوىٰ منه.

حتىٰ إذا فرغ عتبة ورسول الله ﷺ يستمع منه، قال رسول الله ﷺ: «أقد فرغتَ يا أبا الوليد؟». قال عتبة: نعم. قال رسول الله ﷺ: «فاستمع مني». قال عتبة: أفعل.

فقال رسول الله ﷺ: «﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ

إِلَيْهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾» [فصلت]﴾. فلما وصل رسول الله ﷺ بالقراءة إلىٰ هنا أمسك (عتبة) بـ(فيه)، وناشده الرحم أن يكفّ عن ذلك، ثم مضىٰ رسول الله ﷺ يقرأ السورة ﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ ...﴾ [فصلت]». وبقي رسول الله ﷺ حتىٰ أتمّها عليه، فلما سمعها منه عتبة أنصت لها، وألقىٰ يديه خلف ظهره معتمداً عليها، يسمع منه، ثم انتهىٰ رسول الله ﷺ إلىٰ السجدة منها، فسجد، ثم قال: «قد سمعتَ يا أبا الوليد ما سمعتَ، فأنت وذاك». فقام عُتبة إلىٰ أصحابه، فقال بعضهم لبعضٍ: نحلف بالله، لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به. فلما جلس إليهم، قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أني قد سمعتُ قولاً والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشِّعر، ولا بالسِّحر، ولا بالكهانة، يا معشر قريش، أطيعوني واجعلوها بي، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه؛ فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعتُ منه نبأ عظيم، فإن تُصبه العرب فقد كُفيتموه بغيركم، وإن يظهر علىٰ العرب فمُلْكه مُلككم، وعزّه عزّكم، وكنتم أسعد الناس به،

قالوا: سَحَرك والله يا أبا الوليد بلسانه، قال: هذا رأيي فيه، فاصنعوا ما بدا لكم.

ولم يقتصر رسول الله ﷺ علىٰ دعوة قومه، إذ لم تكن دعوته خاصة بمجتمعٍ أو قبيلةٍ أو جنسٍ أو عرقٍ كغيرها من الدعوات السابقة، وإنما كانت للناس جميعاً، وعليه أن يقوم بها.

قال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء]. وقال سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٢٨﴾ [سبأ].

كان رسول الله ﷺ يغتنم مواسم الحج حيث تصل الوفود إلىٰ مكة فيعرض نفسه علىٰ القبائل، ويدعوها إلىٰ عبادة الله، ونبذ ما كانت تعبد من دونه، فرأت قريش أن تُسرع للوقوف في وجهه، وتسدّ هذه الثغرة أمامه خوفاً من استمالة القبائل إليه أو التأثير علىٰ الأفراد، فكانت تُوجّه رجالاتها للدعاية ضدّه، وتُنظّم أمر الدعاية وتحبك خيوطها، وتحاول أن تحصر أمره في مكة، وحتىٰ لا يختلف رجالاتها بعضهم مع بعضٍ فيما يقولون عنه، ويُكذّب بعضهم بعضاً: اقترحوا أن يقولوا عن سيدنا محمد ﷺ أنه كاهن أو مجنون، ولكن هذه الاقتراحات لم تجد قبولاً، وأخيراً اتفقوا أن يقولوا: إن هذا الرجل ساحر البيان، وإن ما يقوله سحر يُفرّق بين المرء وأبيه، وبين صاحبته وبنيه، وبين عشيرته التي تُؤويه. وكلما جاء موسم الحج أسرع رجال قريش إلىٰ القبائل يُعلنون الدعاية ضدّ محمد عليه الصلاة والسلام، ويُحذّرون الناس منه، وهنا يبدأ الصراع الفكري المرير بين رجلٍ وحده، يتحدّىٰ العالم، ويُسفّه الأوثان، وبين مجتمع يستمدّ مكانته من هذه الأوثان، ويُقيم صرح حياته الاجتماعية والاقتصادية علىٰ أساسها.

تلقّىٰ المسلمون الأوائل هذه الدعاية بصبرٍ وتحمُّل شديدين، وهل أشدّ علىٰ المرء من أن دعايةً عن قائده وسيّده ونبيّه أنه ساحر ومجنون؟ ولا يستطيع أن يفعل شيئاً، ثم هو من المغرَّر بهم، وأنه صابئ أو تابع لمجنون، ولكن عليه الصبر ما دام يعتقد أنه علىٰ حقٍّ، وأن نهايته واضحة، ومصيره بيِّن وهو الجنة ماثلة بين عينيه، فيُلقي هذا وراء ظهره، ويستمر في الجهاد.

هذه الدعاية ضدّ المسلمين منذ بداية الدعوة إلىٰ اليوم لم تتبدّل، وإن اختلفت أساليبها لاختلاف الوسائل، وتغيُّر الأساليب، وتطوُّر الظروف، وتبدُّل الأحوال. لقد بدأت الدعاية ضدّ الدعاة بأنهم يدّعون الإسلام ولا يُطبّقونه، ويتظاهرون بالدين وهو منهم بريء، ولكن هذه الدعاية لم تلبث أن فشلت أمام الحقّ الواضح، وتبيّن للناس كذبها وزورها. وأمام هذا الوضوح تبدّلت الدعاية ضدّ الأفراد والمبادئ وانتقلت إلىٰ القيادات، لأن الناس يعرفون الأفراد ويحتكُّون بهم، ويعاملونهم، ويعيشون معهم وبين ظهرانيهم فالكلام الكاذب عنهم لا يُصدَّق مهما كان مصدره إن كانوا صالحين، ومن معرفة الأفراد تعرف المجموعة كاملةً لذا صُوِّبت الدعاية ضد القادة الذين لا يعرفهم جميع الأفراد في المجتمع، ولا يُخالطهم الناس كثيراً، وفي هذا خُبْث كبير فهذه التُّهم لا تُدرك بالحواس، ولا تُعرف أضدادها إلا باللقاء، ولا يوجد لقاء، ومع هذا فقد فشلت التُّهم كلها، فالمسلم لا يمكن أن يكون إلا مخلصاً، صادقاً، ناصحاً، وفيّاً مهما كانت المغريات. والمسلم لا يُقدم إلا علىٰ حقٍّ، ولا يعرف إلا الخير، ولا يحبّ لنفسه إلا ما يحب للناس عامةً وللمسلمين خاصةً، وكل مسلم يعرف هذا لذا لا يمكن أن يُصدق أيّة تهمةٍ علىٰ أخيه، ولكن ذلك ينطلي علىٰ الذين لا يعرفون الإسلام سواء أكانوا من أعدائه أم من الذين ينتمون إليه اسماً إذ يظنُّون أن جميع الناس أمثالهم يسعون وراء المادة، والمنصب، والشهوة، وتفتنهم الحياة بمباهجها، بل لا يمكنهم أن يتصوّروا أن هناك رجالاً لا يمكن أن يفتنهم عن دينهم شيء مهما كانت الأسباب إذ ليس في الحياة الدنيا إلا متاع الغرور.

وإذا كان المسلمون الأوائل قد تحمّلوا هذا الصراع بالصبر المرير فإن المسلمين اليوم يمكن أن يتحمّلوا كما تحمّل أسلافهم إذا استقاموا علىٰ الطريق، وأخلصوا النيّة. وإن الفرد الذي يخشىٰ ما يُقال عنه، ويخاف علىٰ نفسه من الدعاية لا يصلح للعمل، وسيسقط علىٰ الطريق، ثم يكون مع الأعداء تدريجياً حتىٰ ينحرف تماماً، ويحق عليه القول، ويلقىٰ جزاءه يوم الحساب، وإن سقوط بعض الأفراد ليس دليل ضعفٍ وظاهرة مرضٍ، إنما

ظاهرة صحةٍ إذ تُنقّي الجماعة من الشوائب التي تُعيق العمل، وتدفع إلىٰ الكسل، وتدفع إلىٰ المرض.

وإذا كان المجتمع الجاهلي في مكة قد حارب الدعوة الإسلامية الأولىٰ، ووقف في وجهها خوفاً علىٰ مصالحه التي ستزول بنجاح الدعوة، لذا أطلق الدعاية ضدها في كل ميدانٍ وبين القبائل جميعها، فإن العالم اليوم بأسره يُحارب ويقف في وجه نجاحها، متخذاً الوسائل الحديثة والدراسات الفنية جميعها التي توصّل إليها العلم، لأن نجاحها نهاية لمصالحه وخاتمة لسيطرته وسيطرة المهيمنين عليه، فالدول الاستعمارية تنتهي مصالحها في بلاد المسلمين بنجاح الدعوة الإسلامية، ويبدأ بعدها انتشار الفكر النيّر بين أبنائها للتخلُّص من الظلم ولنشر الإسلام كما حدث في الماضي. والدول التي يعيش في ربوعها مسلمون تقف في وجه الإسلام؛ لأن معنىٰ نجاحه هو القضاء علىٰ غطرسة وكبرياء الجبابرة المتغطرسين، وإنهاء سيطرة أصحاب الهوىٰ والمنافع، والتخلُّص من المفاسد التي يريدها أهل الشهوات، والتطبيق لمنهج الله في الأرض.

قال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾ [النساء].

ويصبر الدعاة بإذن الله علىٰ كل دعايةٍ مهما كانت، ويقفون أمام كل تحدٍّ لا يخشون كلام الناس، وإنما يزيدهم ذلك إيماناً، ويبغون رضاء الله وحده، ويعاملون الناس بسلوكهم وأخلاقهم الإسلامية التي يرضاها لهم دينهم، ثم يكون لهم النصر بإذن الله.

قال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران].

وقال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [الحج].

٢ ـ الحرب الاقتصادية:

لما رأت قريش أن أصحاب رسول الله ﷺ قد هاجروا إلىٰ الحبشة، وأصابوا بها أمناً، وأن النجاشي حاكم الحبشة قد منع من لجأ إليه منهم، وأن الإسلام قد بدأ ينتشر بين القبائل، اجتمع رجال قريش وتداولوا الأمر فيما بينهم، فاتفقوا علىٰ أن يكتبوا كتاباً يتعاقدون فيه علىٰ بني هاشم وبني المطلب الذين يمنعون محمداً، رسول الله ﷺ منهم، علىٰ أن لا ينكحوا إليهم ولا ينكحوهم، ولا يبيعوهم شيئاً ولا يبتاعوا منهم، ثم كتبوا ذلك في صحيفة، وتعاهدوا وتواثقوا علىٰ ذلك، ثم علّقوا الصحيفة في جوف الكعبة، توكيداً علىٰ أنفسهم، فلما فعلت قريش ذلك انحاز بنو هاشم وبنو المطلب إلىٰ أبي طالب (عبد مناف بن عبد المطلب بن هاشم) في شِعبه، واجتمعوا إليه عدا أبي لهب (عبد العزّىٰ بن عبد المطلب بن هاشم) حيث خرج إلىٰ قريش، فأقام المسلمون علىٰ ذلك سنتين أو ثلاثاً، ولم يستطيعوا الخروج من الشِّعب إلا في الأشهر الحرم بسبب الحراسة عليهم، حتىٰ جهدوا، ولا يصل إليهم شيء إلا سرًّا، مستخفياً به من أراد صلتهم من قريش، يردّ عنهم غائلة الموت، وقد ساءت صحتهم، وبليت ملابسهم، وجفّت أثداء النساء من الجوع والعطش، وشحبت الوجوه، وذوت الأبدان، وذبلت الأعضاء، وكان رسول الله ﷺ يمرّ بينهم، وهو يحمل أضعاف ما يحملون، فيرىٰ فوق هذه البطون الخاوية صدوراً عامرةً ممتلئةً بالثقة تُشكّل مجتمعاً متكافلاً.

وبقي الوضع هكذا حتىٰ استيقظ الضمير الإنساني عند بعض رجال قريش، وقد كانت تُغطّيه ظلمة الوثنية وأوهام الجاهلية، فقاموا بتمزيق الصحيفة، وأعلنوا سخطهم علىٰ ما جاء فيها، وعاد بنو هاشم وبنو المطلب إلىٰ مساكنهم، وقد انتصر الصبر وعتا علىٰ الحرب الاقتصادية وعلىٰ ظلم المجتمع وذوي القربىٰ. ولكن المسلم لا يمكن أن يُبالي في مثل هذه الأمور إذ يعتقد عقيدةً لا يداخلها شك في أن الرزق مُقدّر له، وهو بيد الله، وكذلك أجله.

قال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الذاريات]. وقال سبحانه وتعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ

﴿مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًاۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌۢ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾﴾ [لقمان].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كنت خلف النبي ﷺ فقال: «يا غلام إني أُعلمك كلماتٍ، احفظ الله يحفظْكَ، احفظ الله تجده تُجاهَك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمَّة لو اجتمعتْ علىٰ أن ينفعوك بشيءٍ لن ينفعوك إلا بشيءٍ قد كتبه الله لك، وأن الأمَّة لو اجتمعتْ علىٰ أن يضرُّوك بشيءٍ لن يضرُّوك إلا بشيءٍ قد كتبه الله عليك، رُفعت الأقلام، وجَفّتِ الصُّحف»[1].

٣ ـ الحرب النفسيّة:

حين حوصر بنو هاشم وبنو المطلب في شعب أبي طالب حُرموا من الزواج فأوضاعهم المادية لا تُساعد في كثيرٍ ولا قليلٍ علىٰ الاحتفاظ بمن يُحبّون؛ للبُعد وللوضع الذي هم فيه، فصِحّتهم أصبحت عُرْضَةً للتلف، وأموالهم عرضةً للضياع، ومنظر الفرد منهم مال إلىٰ الذُّبول، والنَّضارة قد ذَوَتْ، أذهبها الجوع، وأسرعت بها المحنة والبلاء، بل إن كل ما يعتزّ به الفرد قد سار إلىٰ البوار فطوىٰ الشباب والفتيات ما في قلوبهم من عواطف النفس وفطرة الإنسان. وهذا أيضاً شأن الشباب الذين سجنهم أهلوهم، ومنعوا عنهم المال، فأوضاعهم لا تختلف عن أوضاع إخوانهم في الشِّعب.

وحين كان أهل الشِّعب ينزلون في الأشهر الحرم إلىٰ مكّة يرىٰ شبابهم صخبها فيذكرون أيامهم الماضية، وهم الآن بثيابهم البالية، وأجسامهم المقوّسة قد أضناها الجوع والألم، فيعافون هذا النعيم الذي يرونه، وينظرون إلىٰ المستقبل فإذا هذا النعيم ينقلب في أعينهم إلىٰ جحيم يتصوّرونه، ويتملاّه المسلم يوم يقف الناس لرب العالمين فيخلد أهله في النار بينما هم في روضةٍ يحبرون، فرحين بما آتاهم الله من فضله، فيرىٰ روضة الإيمان في ذلك الشِّعب البائس، في تلك المنطقة الموحشة التي لا يسمع فيها إلا

---

(١) رواه أحمد والترمذي.

بكاء الرضَّع الجياع، وصياح الأطفال مع بعض التأوُّهات، يطغىٰ عليها دعاء الله وكلمات التوحيد، تنطلق من المسلمين الذين يقيمون مع أملهم سواء أكانوا علىٰ عقيدتهم أم لا.

٤ ـ الأذىٰ البدني:

غدت قريش علىٰ من أسلم من رجالها واتَّبع محمداً رسول الله ﷺ فنالت منه، إذ وثبت كل قبيلةٍ علىٰ من كان منها من المسلمين، فجعلوا يحبسونهم ويُعذّبونهم بالضرب والجوع والعطش برمضاء مكة إذا اشتدّ الحرّ، ويفتنون من استضعفوا عن دينهم، فمنهم من يُفتن من شدّة البلاء الذي يُصيبه، ومنهم من يَصْلُب عُوده، ويعصمه الله منهم.

فكان (أُميّة بن خلف) يُخْرِجُ بِلالاً إذا حميت الظهيرة، فيطرحه علىٰ ظهره في بطحاء مكة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع علىٰ صدره، ثم يقول له: لا تزال هكذا حتىٰ تموت أو تكفر بمحمدٍ، وتعبد اللات والعُزّىٰ، فيقول وهو في ذلك البلاء: أَحَد... أَحَد، وبقي بلال علىٰ هذه الحال حتىٰ أنقذه أبو بكرٍ ﷺ فاشتراه وأعتقه.

وكان بنو مخزوم يخرجون بـ(عمّار بن ياسر)، وبأبيه (ياسر)، وبأمه (سُمَيَّة) ـ وكانوا أهل بيت إسلام ـ، إذا حميت الظهيرة يُعذّبونهم برمْضاء مكة، فيمرّ بهم رسول الله ﷺ وهو لا يملك لهم إلا عبرةً تغرورق في عينه، وحسرةً في كبده، فيقول لهم وهو حزين: «صبراً آل ياسر، فإن موعدكم الجنّة»[١].

أما سُميّة أم عمّار فقد أصابها سهم في موضع عفافها، فماتت، وكانت أول شهيدةٍ في الإسلام.

وكان أبو جهل (عمرو بن هشام) إذا سمع برجلٍ قد أسلم ذهب إليه، فإن كان له شرف ومنَعَة أنّبه وأخزاه، وقال: تركت دين أبيك، وهو خير منك، لنُسَفِّهَنّ حِلمك، ولنُخَطِّئنّ رأيك، ولنضعنّ شرفك، وإن كان تاجراً، قال: والله لنُكَسِّدَنّ تجارتك، ولنُهلكنّ مالك. وإن كان ضعيفاً ضربه وأغرىٰ به.

---

(١) رواه الحاكم في «المستدرك»: ٣٨٨/٣، والطبراني في «الأوسط».

وقال ابن عباسٍ رضي الله عنهما: إن كانوا ليضربون أحدهم ويُجيعونه، ويُعطِّشونه، حتىٰ ما يقدر أن يستويَ جالساً من شِدَّة الضُّرِّ الذي نزل به.

ولم يقتصر الأمر علىٰ هؤلاء الرجال من المسلمين؛ بل نال الجميع ما نالهم من العذاب حتىٰ رسول الله ﷺ، فإضافةً إلىٰ الإهانة التي أصابته منهم من تكذيبٍ، وسُخريةٍ، وهُزْءٍ، فيُقال: إنه خرج يوماً فلم يلقه أحد من الناس إلا كذّبه وآذاه من حُرٍّ ومن عبدٍ، إضافةً إلىٰ هذا فقد همُّوا بقتله عدّة مرّاتٍ، ولكنّ الله حفظه، وألقوا الشوك في طريقه، والتراب علىٰ رأسه، وفتات العظام، وسلا البعير علىٰ ظهره فلا يستطيع القيام من السجود حتىٰ تأتي ابنته فاطمة رضي الله عنها وترفع سلا البعير عن ظهره. وضربه عدد من أفراد قريش، فلم يُخلصه من أيديهم إلا أبو بكر الصديق رضي الله عنه وهو يقول: أتقتلون رجلاً أن يقول: ربي الله؟ ويجب أن نلاحظ أن رسول الله ﷺ لم يكن ذلك الرجل الضعيف الذي يستكين هذه الاستكانة، ولكنها حكمة الله سبحانه وتعالىٰ، حتىٰ لا يقع القتال بين أطرافٍ من قريشٍ، ولم يكن المسلمون قد تكاملت قوتهم، ولا اكتمل الدين الإسلامي، وليقضي الله أمراً كان مفعولاً. وأصاب رسول الله ﷺ ما أصابه في الطائف عندما سار إليها، ولم يستطع دخول مكة عندما عاد حتىٰ أجاره (المُطْعم بن عَدَي)[1].

---

(١) المطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف، من قريش، رئيس بني نوفل في الجاهلية، وقائدهم في حرب (الفُجار) سنة ٣٣ قبل الهجرة، وهو الذي أجار رسول الله ﷺ، لما انصرف من الطائف وعاد متوجهاً إلىٰ مكة، ونزل بقرب (حِراء) فبعث إلىٰ بعض حلفاء قريش ليُجيروه في دخول مكة فامتنعوا، فبعث إلىٰ (المطعم بن عدي) بذلك، فتسلّح المطعم وأهل بيته وخرج بهم حتىٰ أتوا المسجد، فأرسل من يدعو النبيّ ﷺ للدخول، فدخل مكة، وطاف بالبيت، وصلّىٰ عنده، ثم انصرف إلىٰ منزله آمناً. وهو الذي أجار (سعد بن عبادة)، وقد دخل مكة معتمراً، وتعلّقت به قريش، فأجاره (المطعم)، وأطلقه. وكان أحد الذين مزّقوا الصحيفة التي كتبتها قريش علىٰ بني هاشم. وأصابه العمىٰ في كِبره، ومات قبل معركة (بدر)، وعمره بضع وتسعون سنةً. وفيه يقول حسان بن ثابت رضي الله عنه:

فلو كان مجد يخلد الدهر واحداً ... من الناس أبقىٰ مجدُه اليوم مطعما

وفيه حديث البخاري: «لو كان المطعم بن عديّ حيًّا ثم كلّمني في هؤلاء النتنىٰ ـ يعني أسارىٰ بدر ـ لتركتهم له».

كانت قريش تنال من المسلمين، وخاصةً المستضعفين منهم، ولم يكن بمقدورهم الردّ إلا بتلاوة آياتٍ من القرآن الكريم تنال المشركين تتوعّدهم بالنار، تارةً باسمهم وأخرىٰ بالتلميح إذ تُشير الآيات الكريمة إلىٰ حادثةٍ معينةٍ، فيُعرف أشخاصها. وقد كان هؤلاء المستضعفون يهابون الجلوس مع ساداتهم وأشراف قريشٍ، فإذا بهم بعد إسلامهم يتجرؤون عليهم بل ويتوعّدونهم بالعاقبة الوخيمة كلما تلوا القرآن الكريم أمامهم وبغيابهم، بل وكل ساعةٍ.

إن أساليب التعذيب فيما بعد تفوق ما عرفته الجاهلية الأولىٰ. ولقد صبر المؤمنون الأوائل، وحققوا هدفهم في الحياة، ونرجو أن يصل المسلمون إلىٰ مبتغاهم بما صبروا.

قال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة].

٥ ـ اختلاف المفاهيم:

كانت قريش تشكل مجتمعاً تجارياً، وتُنظّم رحلة الشتاء والصيف إلىٰ اليمن والشام، وتعيش حياةً ماديةً صرفةً، وتقيس الرجل بمقياس المادة، وتعدّ مركزه بتجارته وغناه، وقيمته من قبيلته ونسبه. وعندما بدأ محمد ﷺ دعوته ظنّت قريش أن ذلك لا يعدو أن يكون من هذا القبيل، يريد من ورائها عَرَضاً من أعراض الدنيا، ولكن عندما عرضوا عليه المُلك، والجاه، والمال، والنساء، ورفض ذلك كله، وأعرض عنه، استغربوا رفضه، واستغربوا أن تنطلق دعوته من غير هذه المنطلقات، فاتهموه بالكهانة، وبالجنون، ولما لم يُجْدِ معه شيء من الاتهام، والعروض، والمقاومة، واستمرّ في طريقته لا يُبالي بشيءٍ مما حوله وجدوا أن الأمر غريب، وكيف يكون رسولاً؟ وهل يختار الله فقيراً؟ فلو اختار الله رجلاً رسولاً لكان يجب أن يختار أحد الأغنياء أمثال (الوليد بن المغيرة)[1] في مكة، أو (عمرو بن عمير الثقفي) في الطائف.

---

(١) الوليد بن المغيرة بن عبدالله بن عمرو بن مخزوم، أبو عبد شمس، من قضاة العرب، في الجاهلية، ومن زعماء قريش، ومن زنادقتها. ويُقال له: (العدل) لأنه كان عدل قريشٍ كلها، =

قال الله تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الزخرف].

فمفهوم الجهاد، والدعوة، والتضحية، والإخلاص، والعمل الصالح في سبيل الله كلها مفاهيم لا يعرفونها، وإذا وردت فإنما القصد منها عند الجاهليين الحصول علىٰ المادة لا يتعدّىٰ الأمر ذلك.

وتفسير الجاهليين اليوم كتفسيرهم بالأمس، فبُعد المسلم عن قول الفحش وهتك الأعراض، ودعوته إلىٰ غضّ البصر، والعفّة، والأخلاق الفاضلة الكريمة لا يُعلّل عند الجاهليين إلا أنه الكبت وعدم الصلاحية للنساء، أو أن إظهار النسك إنما هو في سبيل تحقيق أغراض خاصة له. كما يُعلّلون عدم تعاطي المسكرات بعدم اكتمال الرجولة، وعدم سريان روح الشباب عند هؤلاء المؤمنين.

واشتدّ أذىٰ قريشٍ علىٰ المسلمين، والشدّة يعقبها الفرج، وينبلج الفجر بعد شدّة الظلمة، وكان من أثر هذا الأذىٰ أن أسلم (الحمزة بن عبد المطلب)[1] عمّ رسول الله ﷺ. إذ أدركته الحميّة عندما عيّرته إحدىٰ

= كانت قريش كلها تكسو (البيت الحرام)، والوليد يكسوه وحده، وكان ممن حرّم الخمر في الجاهلية، وضرب ابنه هشاماً علىٰ شربها. وأدرك الإسلام وهو شيخ هرم. إذ وُلد سنة ٩٥ قبل الهجرة، أي قبل مولد رسول الله ﷺ باثنتين وأربعين سنةً. وكان عمره يوم بعثة رسول الله ﷺ اثنتين وثمانين سنةً. وهو الذي جمع قريشاً، وقال: (إن الناس يأتونكم أيام الحج فيسألونكم عن محمدٍ، فتختلف أقوالكم فيه، فيقول هذا: كاهن، ويقول هذا: شاعر، ويقول هذا: مجنون، ولا يُشبه واحداً مما يقولون ولٰكن أصلح ما قيل فيه: ساحر، لأنه يفرّق بين المرء وأخيه والزوج وزوجته). وهلك الوليد بعد الهجرة بثلاثة أشهرٍ، ودُفن بالحجون. وهو والد سيف الله خالد بن الوليد.

(١) الحمزة بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مُرّة بن كعب بن لؤيّ بن غالب بن فهر (قريش)، الإمام البطل الضِّرغام أسد الله، أبو عُمارة، وأبو يَعلىٰ: القرشي، الهاشمي، المكّي، ثم المدني، البدريّ، الشهيد، عمّ رسول الله ﷺ، وهو العم المسلم الأول، ولم يسلم من عمومة رسول الله ﷺ سوى اثنين، وهما: الحمزة والعباس رضي الله عنهما. =

الجواري بإيذاء (أبي جهل عمرو بن هشام) لابن أخيه محمد بن عبدالله عليه أفضل الصلاة والسلام، فتوجّه الحمزة ﷺ مباشرةً إلىٰ ذلك الشقيّ، وقد احتمله الغضب لِمَا أراد الله به من كرامته، فخرج يسعىٰ ولم يقف عند أحدٍ علىٰ غير عادته، مُعِدًّا لأبي جهلٍ إذا لقيه أن يوقع به، فلما دخل المسجد، نظر إليه جالساً في القوم، فأقبل نحوه، حتىٰ إذا قام علىٰ رأسه رفع القوس فضربه بها فشجّه شجّةً منكرةً، ثم قال: أتشتِمُه وأنا علىٰ دينه أقول ما يقول؟ فرُدّ عليّ ذلك إن استطعت. فقامت رجال من بني مخزوم إلىٰ حمزة، لينصروا أبا جهل، فقال أبو جهلٍ: دعُوا أبا عُمارة، فإني والله قد

= وُلد بمكّة سنة أربع وخمسين قبل الهجرة، أي قبل ولادة رسول الله ﷺ بأقلّ من سنةٍ، وهو أخوه من الرضاعة، إذ أرضعتهما (ثويبة) جارية أبي لهب (عبد العزى بن عبد المطلب)، وذلك قبل أن تأخذ (حليمة السعدية) رسول الله ﷺ للرضاعة.

وأم الحمزة ﷺ هي هالة بنت أهيب، التي هي ابنة عم آمنة بنت وهب أم رسول الله ﷺ، وعمة سعد بن أبي وقاص ﷺ.

وأحد صناديد قريش، وسادتهم في الجاهلية والإسلام، وكان أعزّ قريش وأشدّها شكيمةً. ولما ظهر الإسلام تردّد في اعتناقه، ثم علم أن أبا جهل عمرو بن هشام تعرّض للنبيّ ﷺ، ونال منه، فقصده الحمزة، وضربه، وأظهر الحمزة ﷺ إسلامه، فقالت العرب: اليوم عزّ محمد، وإن الحمزة سيمنعه. وكفّ الجاهليون عن بعض ما كانوا يسيئون به إلىٰ المسلمين.

وهاجر الحمزة ﷺ مع رسول الله ﷺ إلىٰ المدينة، وآخىٰ رسول الله ﷺ بين عمّه الحمزة ﷺ ومولاه زيد بن حارثة ﷺ. وسار علىٰ رأس سريةٍ تتألف من ثلاثين راكبٍ من المهاجرين فالتقىٰ مع حملةٍ يقودها أبو جهل عمرو بن هشام، وتضمّ عشرة أمثال سرية الحمزة ﷺ، ولكن حجز بينهما (مجدي بن عمرو الجهني)، وكان موادعاً للطرفين. وشهد غزوة بدرٍ، وقتل الأسود بن عبد الأسد قبل بدء المعركة، ثم كانت المبارزة فبارز (شيبة بن ربيعة) وقتله. وكان شعار الحمزة ﷺ في الحرب ريشة نعامة يضعها علىٰ صدره، وقاتل يوم بدر بسيفين. واستشهد ﷺ يوم أُحُدٍ سنة ٣ للهجرة، وكان عمره ستين سنة، فدفنه المسلمون في المدينة، وانقرض عقبه.

وسمع رسول الله ﷺ نساء الأنصار يبكين علىٰ قتلاهنّ، فقال: «لكن حمزة لا بواكي له». فبكين علىٰ الحمزة ﷺ عنده. فرقد رسول الله ﷺ فاستيقظ وهنّ يبكين، فقال: «يا ويحهن أَهُنّ هاهنا حتىٰ الآن، مُروهُنّ فليرجعن، ولا يبكين علىٰ هالكٍ بعد اليوم».

والذي قتل الحمزة ﷺ يوم أُحدٍ، هو حبشي عبد بني نوفل بحربةٍ وقعت في (ثُنَنِه) أي أسفل بطنه.

سبَبْتُ ابن أخيه سبًّا قبيحاً. وثبت حمزة رضي الله عنه على إسلامه، فلما أسلم حمزة رضي الله عنه عرفت قريش أن رسول الله ﷺ قد عزّ وامتنع، وأن حمزة سيمنعه، فكفُّوا عن بعض ما كانوا ينالون منه. وكان حمزة رضي الله عنه أعزّ فتىً في قريش، وأشد شكيمة.

أراد المشركون أن يُغيّروا طريقتهم بإعجاز رسول الله ﷺ بطلب الآيات منه، فطلبوا منه شقّ القمر، فأعطاه الله هذه المعجزة، وانشقّ القمر فرقتين، كل فرقةٍ فوق جبل، وعندما رأىٰ ذلك المعاندون، قالوا: لقد سحركم ابن أبي كبشة[1]، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣﴾ [القمر].

عن عبدالله بن مسعود، قال: بينما نحن مع رسول الله بـ(مِنىٰ) إذ انفلق القمر فلقتين، فكانت فلقة وراء الجبل، وفلقة دونه، فقال لنا رسول الله ﷺ: «اشهدوا»[2].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يُريَهم آيةً، فأراهم انشقاق القمر مرتين[3].

ثم سألوا رسول الله ﷺ بعد ذلك آيات لا يقصدون منها إلا التعنُّت والعناد، فقالوا له كما جاء في سورة الإسراء.

قال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ۝٩٠ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ۝٩١ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ۝٩٢ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ۝٩٣﴾ [الإسراء].

---

(١) أبو كبشة: زوج حليمة السعدية مرضعة رسول الله، فكانت قريش تقول عنه: (ابن أبي كبشة).

(٢) متفق عليه.

(٣) متفق عليه.

وبعثت قريش (النضر بن الحارث)[1] و(عقبة بن أبي مُعَيط) إلىٰ حبار يهود يثرب، وقالوا لهما: سَلاهم عن محمدٍ، وصِفا لهم صفته، وأخبراهم بقوله، فإنهم أهل الكتاب الأول، وعندهم علم ليس عندنا من علم الأنبياء، فخرجا حتىٰ قدما المدينة، فسألا أحبار يهود عن رسول الله ﷺ، ووصفا لهم أمره، وأخبراهم ببعض قوله، وقالا لهم: إنكم أهل التوراة، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا، فقال لهم أحبار يهود: سَلوه عن ثلاثٍ نأمركم بهنّ، فإن أخبركم بهنّ فهو نبيّ مرسل، وإن لم يفعل فالرجل متقوّل فَرَوْا فيه رأيكم:

أ ـ سلوه عن فتيةٍ ذهبوا في الدهر الأول ما كان من أمرهم؟ فإنه قد كان لهم حديث عجب.

٢ ـ وسلوه عن رجلٍ طوّاف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها، ما كان نبَؤُه؟

٣ ـ وسلوه عن الروح ما هي؟ فإن أخبركم بذلك فاتبعوه، فإنه نبيّ، وإن لم يفعل فهو رجل متقوّل، فاصنعوا في أمره ما بدا لكم.

---

(١) النضر بن الحارث بن علقمة بن كِندة بن عبد مناف، من بني عبد الدار، من قريش: صاحب لواء المشركين ببدر، كان من شجعان قريش ووجوهها، ومن شياطينها. له اطلاع علىٰ كتب الفرس وغيرهم، قرأ تاريخهم في الحيرة. وقيل: هو أول من غنّىٰ علىٰ العود بألحان الفرس. وهو ابن خالة النبيّ ﷺ، ولما ظهر الإسلام بقي علىٰ عقيدة الجاهلية، وآذىٰ رسول الله ﷺ كثيراً. وكان إذا جلس النبيّ ﷺ مجلساً للتذكير بالله والتحذير من مثل ما أصاب الأمم الماضية من نقمة الله، جلس (النضر) بعده فحدّث قريشاً بأخبار ملوك فارس رستم وإسفنديار، ويقول: أنا أحسن منه حديثاً! إنما يأتيكم محمد بأساطير الأولين. وشهد غزوة (بدر) مع مشركي قريش، فأخذه المسلمون أسيراً، وقتلوه بـ(الأثيل) قرب المدينة بعد انصرافهم من الوقعة. وهو أبو (قتيلة) صاحبة الأبيات المشهورة التي منها:

ما كان ضرّك لو مننت، وربما … منّ الفتىٰ وهو المغيظ المحنق

رثته بها قبل إسلامها. وعرضت قتيلة للنبيّ ﷺ وهو يطوف بالبيت واستوقفته، وجذبت رداءه حتىٰ انكشف منكبه، وأنشدته أبيات الشعر، فرقّ لها حتىٰ دمعت عيناه، وقال: لو بلغني شعرها قبل أن أقتله لوهبته لها. ويُسمِّيها الجاحظ (ليلىٰ).

فأقبل (النضر بن الحارث) و(عقبة بن أبي مُعَيط)، حتىٰ قدما مكة علىٰ قريشٍ، فقالا: يا معشر قريشٍ، قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد، قد أخبرنا أحبار يهود أن نسأله عن أشياء أمرونا بها، فإن أخبركم عنها فهو نبيّ، وإن لم يفعل فالرجل مُتقوّل، فرَوْا فيه رأيكم. فجاؤوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد، أخبرنا عن فتيةٍ ذهبوا في الدهر الأول، قد كانت لهم قصة عجب، وعن رجلٍ كان طوّافاً قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها، وأخبرنا عن الروح ما هي؟

فقال رسول الله ﷺ: أُخبركم بما سألتم عنه غداً، ولم يستثنِ، فانصرفوا عنه.

فمكث رسول الله ﷺ ـ فيما يذكرون ـ خمس عشرة ليلةً لا يُحْدث الله إليه في ذلك وحْياً، ولا يأتيه جبريل، حتىٰ أرجف أهل مكة، وقالوا: وعدنا محمد غداً واليوم خمس عشرة ليلةً، قد أصبحنا منها لا يُخبرنا بشيءٍ مما سألناه عنه، وحتىٰ أحزن رسول الله ﷺ مكثُ الوحي عنه، وشقّ عليه ما يتكلّم به أهل مكة، ثم جاءه جبريل من الله ﷻ بسورة الكهف، فيها معاتبته إياه علىٰ حُزنه عليهم، وعلىٰ قوله عليه الصلاة والسلام: «غداً» وليس الأمر بيده، وإنما للّه ﷻ.

قال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَۚ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾﴾ [الكهف].

كما جاءه بخبر ما سألوه عنه من أمر الفتية.

قال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِي ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًاۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا

﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ لَّوۡلَا يَأۡتُونَ عَلَيۡهِم بِسُلۡطَٰنِۭ بَيِّنٖۖ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا ﴿١٥﴾ وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا ﴿١٦﴾ وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمۡ فِي فَجۡوَةٖ مِّنۡهُۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا ﴿١٧﴾ وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا وَهُمۡ رُقُودٞۚ وَنُقَلِّبُهُمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ وَكَلۡبُهُم بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ بِٱلۡوَصِيدِۚ لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا وَلَمُلِئۡتَ مِنۡهُمۡ رُعۡبٗا ﴿١٨﴾ وَكَذَٰلِكَ بَعَثۡنَٰهُمۡ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيۡنَهُمۡۚ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ كَمۡ لَبِثۡتُمۡۖ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۚ قَالُواْ رَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثۡتُمۡ فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ فَلۡيَنظُرۡ أَيُّهَآ أَزۡكَىٰ طَعَامٗا فَلۡيَأۡتِكُم بِرِزۡقٖ مِّنۡهُ وَلۡيَتَلَطَّفۡ وَلَا يُشۡعِرَنَّ بِكُمۡ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمۡ إِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ يَرۡجُمُوكُمۡ أَوۡ يُعِيدُوكُمۡ فِي مِلَّتِهِمۡ وَلَن تُفۡلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا ﴿٢٠﴾ وَكَذَٰلِكَ أَعۡثَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ لِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيۡبَ فِيهَآ إِذۡ يَتَنَٰزَعُونَ بَيۡنَهُمۡ أَمۡرَهُمۡۖ فَقَالُواْ ٱبۡنُواْ عَلَيۡهِم بُنۡيَٰنٗاۖ رَّبُّهُمۡ أَعۡلَمُ بِهِمۡۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٞ رَّابِعُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ وَيَقُولُونَ خَمۡسَةٞ سَادِسُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِۖ وَيَقُولُونَ سَبۡعَةٞ وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡۚ قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمۡ إِلَّا مِرَآءٗ ظَٰهِرٗا وَلَا تَسۡتَفۡتِ فِيهِم مِّنۡهُمۡ أَحَدٗا ﴿٢٢﴾﴾ [الكهف].

كما جاءه بخبر ما سألوه عنه من أمر الرجل الطوّاف الذي بلغ مشارق الأرض ومغاربها.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَن ذِي ٱلۡقَرۡنَيۡنِۖ قُلۡ سَأَتۡلُواْ عَلَيۡكُم مِّنۡهُ ذِكۡرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِن كُلِّ شَيۡءٖ سَبَبٗا ﴿٨٤﴾ فَأَتۡبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغۡرِبَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَغۡرُبُ فِي عَيۡنٍ حَمِئَةٖ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوۡمٗاۗ قُلۡنَا يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمۡ حُسۡنٗا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوۡفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا نُّكۡرٗا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنۡ أَمۡرِنَا يُسۡرٗا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطۡلِعَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَطۡلُعُ عَلَىٰ قَوۡمٖ لَّمۡ نَجۡعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتۡرٗا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَۖ وَقَدۡ أَحَطۡنَا بِمَا لَدَيۡهِ خُبۡرٗا

﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾﴾ [الكهف].

كما جاءه بخبر عن الروح وما هي؟

قال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء].

ضعفت قريش عن مقارعة المسلمين بالحجة والبرهان، وعجزت عندما رأت الآيات والحق المبين، لذلك عادت إلىٰ الأذىٰ، وزادت فيه علىٰ كل مَن أسلم محاولة صدّهم عن اتباع رسول الله ﷺ، ولم يتركوا طريقةً إلا اتبعوها.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان النبي ﷺ يُصلّي فجاء أبو جهل، فقال: ألم أنهكَ عن هذا؟ فانصرف إليه النبيّ ﷺ فزبره[1]، فقال أبو جهل: والله إنك لتعلم ما بها ناد أكثر مني. فأنزل الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾﴾ [العلق].



(١) زبره: زجره.

الهجرة إلى الحبشة

لما رأىٰ رسول الله ﷺ ما يصيب أصحابه من البلاء، وما هو عليه من العافية، بمكانه من الله ﷻ، ولمكانة عمّه أبي طالب، وأنه لا يمكنه أن يمنع أصحابه مما هم فيه من البلاء، قال لهم: لو خرجتم إلىٰ أرض الحبشة فإن فيها ملكاً لا يُظلم عنده أحد، وهي أرض صِدْقٍ، حتىٰ يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه، فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله ﷺ إلىٰ أرض الحبشة، مخافة الفتنة، وفراراً بدينهم، فكانت أول هجرةٍ في الإسلام.

ولكنِ المشركين لن يتركوا الدعوة تنطلق بحريةٍ في أرضٍ فيها الحرية، بل اتخذوا الوسائل كلها للكيد لها، وهذا في كل مكانٍ، وفي كل وقتٍ تجد فيه الدعوة مجالاً للانطلاق، فأرسلت قريش إلىٰ الحبشة وفداً يضمّ (عمرو بن العاص السهميّ) و(عبدالله بن أبي ربيعة المخزومي)، و(عمارة بن الوليد المخزومي) يُؤلّب النجاشي[1] سلطان الحبشة علىٰ نُزلائه، ويوغر صدره علىٰ ضيوف بلده، مُتّخذاً الكذب، والافتراء والدسّ، وإن لم يمكنه ذلك لظهور الحق، ورجاحة عقل النجاشي، ومكانة الضيف، والخوف علىٰ سمعة الحكم، ولٰكننا نُلاحظ عِدّة ملاحظات:

أ ـ إن الدعوة محاطة في كل وقتٍ بالأعداء من كل جهةٍ، ولن يترك لها أعداؤها الفرصة لتنطلق بحريةٍ، فهم يراقبونها في كل مجالٍ، ويتتبعون أفرادها في كل بقعةٍ، فعليها أن تأخذ الحيطة، وتحتاط لكل أمرٍ، وتُخطّط

(١) النجاشي اسمه (أصحمة) وقد أسلم، وحسُن إسلامه، وتوفي في حياة النبيّ ﷺ، فصلّىٰ عليه رسول الله ﷺ بالناس صلاة الغائب، وذلك أنه مات بين قوم نصارىٰ، ولم يكن عنده من يُصلّي عليه، لأن الصحابة الذين هاجروا إلىٰ الحبشة كانوا قد خرجوا منها.

لأمنها وسلامتها، فلا تسير مُعلنةً عن مواقفها، مبيّنةً خطّ سيرها، كما يتبادر لذهن بعضهم في أن تكون الدعوة عامةً دون حذرٍ، الأمر الذي يجعل الأعداء يُفسدون عليها الطريق.

٢ ـ لم تكن الدعوة لتنحصر في بقعةٍ من الأرض أو في مساحةٍ من العالم، وإنما تنتقل إلىٰ المكان الذي يتوفّر فيه العمل والمناخ الملائم، وتنطلق منه، ولعل الهجرة الأولىٰ كانت إلىٰ أرض الحبشة التي لا يسكنها العرب، حتىٰ لا يُخيّل لبعض الناس أن الدعوة يجب أن تنطلق إلىٰ بقعةٍ من الأرض التي ظهرت فيها أول مرّةٍ وهي أرض العرب، وإنما إلىٰ مكانٍ تتهيّأ فيه الظروف وتساعد العوامل يجب أن ينطلق المسلمون، فلربما كانت الانطلاقة الثانية من غير أرض العرب، وإن كان لا يمنع أن تكون منها بل الأفضل أن تكون.

٣ ـ يجب أن تتجمّع جهود المسلمين في منطقةٍ واحدةٍ للاندفاع منها، فإذا ما تهيّأت الأسباب انطلقت نحو هدفها تُطبّق منهجها، فرسول الله ﷺ لم يسمح للمسلمين أن ينتشروا في أرض الله الواسعة، ويتفرّقوا كيف يشاؤون، يحاول كل منهم أن يجد المأوىٰ يتخلّص فيه من أذىٰ قريشٍ واضطهادها، وإنما سمح لهم أن يُهاجروا إلىٰ أرضٍ واحدةٍ يعيشون فيها حياةً واحدةً مجتمعين، فيها من معاني الإسلام مما تلقّوه من رسول الله ﷺ في مكة، يُساعد كلٌّ أخاه علىٰ حياة الغُربة، والتمسُّك بمبادئ الإسلام والعمل به.

هاجر المسلمون الأوائل إلىٰ الحبشة، وكان عددهم عشرة رجالٍ وخمس نسوةٍ وهم:

١ ـ عثمان بن عفان، ومعه زوجته رُقيّة بنت رسول الله ﷺ. ٢ ـ أبو حُذيفة بن عُتبة بن ربيعة[1]، ومعه زوجته سهلة بنت سهيل بن عمرو.

---

(١) أبو حذيفة الذي غلبت كنيته علىٰ اسمه، قيل: إن اسمه (قيس، وقيل هشيم) بن عتبة بن ربيعة بن عبد قيس. وأمه فاطمة بنت صفوان بن أُميّة بن محرث الكناني.

كان من السابقين إلى الإسلام، وهاجر الهجرتين، وصلى إلى القبلتين. وُلد قبل البعثة بثلاثين سنة، فهو أصغر من رسول الله ﷺ بعشر سنوات، نشأ في بيت عزٍّ، وكان أبوه عتبة بن ربيعة يُعدّه ليكون سيد بني عبد شمس مكانه، فهو خليفته إذ أنه من أنبه أولاده. شهد بدراً، وطلب مبارزة أبيه، وحضر المشاهد كلها. =

٣ ـ الزبير بن العوّام. ٤ ـ مصعب بن عمير[١]. ٥ ـ عثمان بن مظعون[٢]. ٦ ـ أبو سلمة عبدالله بن عبد الأسد[٣]، ومعه زوجته أم سلمة هند بنت أبي

= تزوج سهلة بنت سهيل بن عمرو، وأسلمت، وهاجرت معه إلىٰ الحبشة، وأنجبت له محمد بن أبي حذيفة الذي حرّض أهل مصر علىٰ عثمان بن عفان رضي الله عنه.

كان أبو حذيفة رضي الله عنه طويلاً، حسن الوجه، أثعل (مرادف الأسنان)، أحول. استشهد يوم اليمامة سنة ١٢ للهجرة في عهد الخليفة أبي بكر الصديق، وعمره أربع وخمسون سنة. وقد انقرض ولد أبي حذيفة فلم يبقَ منهم أحد.

وأخته هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان صخر بن حرب، أم الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان.

(١) مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف، القرشي، من بني عبد الدار: صحابي شجاع من السابقين إلىٰ الإسلام. أسلم في مكة، وكتم إسلامه، فعلم به أهله، فأوثقوه وحبسوه، فهرب مع من هاجر إلىٰ الحبشة، ثم رجع إلىٰ مكة، وهاجر إلىٰ المدينة، فكان أول من جمع الجمعة فيها، وعُرف فيها بـ(المقرئ). وأسلم علىٰ يده أُسيد بن حضير، وسعد بن معاذ، وشهد بدراً، وحمل اللواء يوم أُحد، فاستُشهد. وكان في الجاهلية فتىٰ مكة، شباباً وجمالاً ونعمةً. ولما ظهر الإسلام زهد بالنعيم، وكان يُلقّب بـ(مصعب الخير)، ويُذكر فيه وفي أصحابه نزلت الآية الكريمة ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الأحزاب].

(٢) عثمان بن مظعون بن حبيب بن وهب الجُمحي، أبو السائب: صحابي كان من حكماء العرب في الجاهلية، يُحرّم الخمر. أسلم بعد ثلاثة عشر رجلاً، وهاجر إلىٰ أرض الحبشة مرتين. وأراد التبتُّل والسياحة في الأرض زهداً بالحياة، فمنعه رسول الله ﷺ، فاتخذ بيتاً يتعبّد فيه، فأتاه النبيّ ﷺ فأخذ بعضادتَيْ البيت، وقال: «يا عثمان، إن الله لم يبعثني بالرهبانية (مرتين أو ثلاث)، وإن خير الدين عند الله الحنفية السمحة». وشهد بدراً، ومات بعدها بأشهر، ولما مات جاءه النبيّ ﷺ، فقبّله ميتاً، حتىٰ رؤيت دموعه تسيل علىٰ خدّ عثمان. وهو أول من مات بالمدينة من المهاجرين، وأول من دُفن في البقيع منهم.

(٣) أبو سلمة عبدالله بن عبد الأسد المخزومي: ابن عمة رسول الله ﷺ برّة بنت عبد المطلب، تزوج هند بنت أبي أمية وهي ابنة عمّه، وأنجبت له (سلمة) فكُنّي به حتىٰ نَسي التاريخ اسمه، وعرفه باسم (أبو سلمة). وكان رضي الله عنه من السابقين إلىٰ الإسلام. وهاجر إلىٰ الحبشة، ثم رجع مع من رجع بعد أن سمعوا أخباراً طيبة عن المسلمين في مكة. واستجار بخاله (أبي طالب) فأجاره. ثم كان أبو سلمة من أوائل الذين هاجروا إلىٰ المدينة. وعندما انطلق رسول الله ﷺ إلىٰ غزوة العشيرة استعمل علىٰ المدينة أبا سلمة. وكان أبو سلمة من أصحاب بدر، وأرسله رسول الله ﷺ لغزو قومه بني أسد.

وكان أبو سلمة رضي الله عنه ممن جُرح يوم (أُحُد)، ولكن اندمل جرحه، وعوفي، ثم انتقض عليه، فمات منه في بداية السنة الرابعة للهجرة رضي الله عنه.

أُميّة المخزوميّ. ٧ ـ أبو سَبْرة بن أبي رُهْم العامري[١]، ومعه زوجته أم كلثوم بنت سهيل بن عمرو. ٨ ـ عامر بن ربيعة[٢]، ومعه زوجته ليلىٰ بنت أبي حثمة. ٩ ـ عبدالرحمٰن بن عوف[٣]. ١٠ ـ سهيل بن البيضاء[٤].

---

(١) أبو سبرة بن أبي رهم: عاش يتيماً، وتزوج عندما بلغ سنّ الشباب، وكان في طليعة الشباب المؤمنين إذ أسلم عندما بدأت الدعوة الإسلامية، وأسلمت معه زوجته أم كلثوم بنت سهيل بن عمرو التي أنجبت له محمداً، وعبدالله. وهاجر إلىٰ الحبشة، وبقي هناك مع إخوانه ثلاثة أشهرٍ ثم رجعوا إلىٰ مكة، لكن وجدوا أنفسهم غرباء، فعندما دخل بنو هاشم وبنو المطلب شِعَب أبي طالب أمر رسول الله ﷺ أن يهاجروا إلىٰ الحبشة فهاجر معظمهم وكانوا ثلاثة وثمانين رجلاً وثماني عشرة امرأة، وكان أبو سبرة وزوجته أم كلثوم منهم. وبعد مدةٍ بدأت تصل أخبار إسلام كثيرٍ من قريش، لذا أخذ عدد منهم بالعودة إلىٰ مكة وكان منهم أبو سبرة وزوجته أم كلثوم. ثم هاجر إلىٰ المدينة، وآخىٰ رسول الله ﷺ بين أبي سبرة وبين سلمة بن سلامة بن وقش من الأوس، وشهد أبو سبرة المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ. وكان في بعث أسامة بن زيد، وفي قتال المرتدين، وفي فتح العراق، وقاد قوةً لقتال (الهرمزان) في الأهواز فحقّق النصر ـ بإذن الله ـ وأسر (الهرمزان) وأرسله إلىٰ الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ، كما فتح مدينة (تُسْتُر)، ولاحق الفُرس، وفتح مدينة (السوس) سنة ١٧هـ، ثم قصد مدينة (جنديسابور) فدخلها وقد قبلت دفع الجزية، وبعدها عاد إلىٰ مكة بإذن الخليفة، وتوفي سنة ٣٥ هجرية في أواخر خلافة عثمان بن عفان ﷺ.

(٢) عامر بن ربيعة بن كعب العنزي: صحابي شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، واستخلفه عثمان بن عفان ﷺ علىٰ المدينة عندما حجّ. له ٢٢ حديثاً.

أدرك الثورة علىٰ عثمان ﷺ واعتزلها، ومات بعد مقتل عثمان ﷺ بأيام.

(٣) عبدالرحمٰن بن عوف بن عبد عوف بن عبد الحارث، أبو محمد الزهري القرشي: صحابي، أحد العشرة المبشَّرين بالجنة، وأحد الستة أصحاب الشورىٰ الذين جعل عمر بن الخطاب ﷺ الخلافة فيهم من بعده وهم: عثمان بن عفان، علي بن أبي طالب، عبدالرحمن بن عوف، الزبير بن العوام، سعد بن أبي وقاص، طلحة بن عبيدالله. أحد السابقين إلىٰ الإسلام، وقيل: هو الثامن، وكان من الأجواد الشجعان العقلاء. كان اسمه في الجاهلية (عبد الكعبة) أو (عبد عمرو)، وسمّاه رسول الله ﷺ: (عبدالرحمٰن). ولد بعد عام الفيل بعشر سنواتٍ، فهو أصغر من رسول الله ﷺ بعشر سنواتٍ. أسلم، وشهد بدراً، وأُحداً، والمشاهد كلها، وجرح يوم أُحدٍ ٢١ جرحاً. وأعتق في يوم واحدٍ ثلاثين عبداً، وكان يمتهن التجارة فاجتمعت له ثروة كبيرة، وتصدّق يوماً بقافلةٍ تضمّ سبعَمائة راحلةٍ تحمل الحنطة، والدقيق، والطعام. ولما حضرته الوفاة أوصىٰ بألف فرسٍ، وبخمسين ألف دينارٍ في سبيل الله. له ٦٥ حديثاً، وتوفي في المدينة سنة ٣٢هـ في خلافة عثمان بن عفان ﷺ، وعمره ست وسبعون سنة.

(٤) سهيل بن البيضاء: وهو سهيل بن وهب بن ربيعة بن هلال بن أُهَيب بن ضَبَّة بن الحارث بن فهر.

وكان أميراً عليهم عثمان بن مظعون. فالركب يجب ألا يسير دون أميرٍ، ورسول الله ﷺ يقول: «إن كنتم ثلاثة فأمّروا أحدكم». فلا يصحّ أن تكون الدعوة دون أميرٍ.

ثم خرج جعفر بن أبي طالب ﷺ مهاجراً، وتتابع المسلمون حتىٰ اجتمعوا بأرض الحبشة، فكانوا بها، منهم من خرج بأهله معه، ومنهم من خرج بنفسه لا أهل له معه، فكان عددهم جميعاً ثلاثةً وثمانين رجلاً سوىٰ نسائهم وأبنائهم الذين خرجوا معهم صغاراً، أو وُلدوا وهم فيها.

المهاجرون من بني هاشم:

١ ـ جعفر بن أبي طالب، ومعه زوجته أسماء بنت عُمَيس.

المهاجرون من بني أُميّة:

١ ـ عثمان بن عفان، ومعه زوجته رُقيّة بنت محمد رسول الله ﷺ. ٢ ـ عمرو بن سعيد بن العاص بن أُميّة، ومعه زوجته فاطمة بنت صفوان بن أُمية. ٣ ـ خالد بن سعيد بن العاص بن أُميّة، ومعه زوجته أمينة بنت خلف من خزاعة.

المهاجرون من بني أسد بن خزيمة:

١ ـ عبدالله بن جحش، وهو ابن عمّة رسول الله ﷺ أُميمة. ٢ ـ عبيدالله بن جحش، ومعه زوجته، أم حبيبة رَمْلة بنت أبي سفيان. ٣ ـ قيس بن عبدالله، ومعه زوجته بركة بنت يسار مولاة أبي سفيان صخر بن حرب. ٤ ـ مُعَيقيب بن أبي فاطمة.

المهاجرون من بني عبد شمس:

١ ـ أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة. ٢ ـ عبدالله بن قيس (أبو موسىٰ الأشعري).

المهاجرون من بني نوفل:

١ ـ عُتبة بن غَزْوان.

المهاجرون من بني أسد بن عبد العزّىٰ:

١ ـ الزبير بن العوّام بن خُويلد. ٢ ـ الأسود بن نَوْفل بن خويلد. ٣ ـ يزيد بن زمعة. ٤ ـ عمرو بن أُمية بن الحارث.

المهاجرون من بني عبد بن قصيّ:

١ ـ طُليب بن عُمير.

المهاجرون من بني عبد الدار:

١ ـ مصعب بن عمير. ٢ ـ سُوَيبط بن سعد. ٣ ـ جهم بن قيس، ومعه زوجته حرملة بنت عبد الأسود. ٤ ـ عمرو بن جهم بن قيس. ٥ ـ خُزيمة بن جهم بن قيس. ٦ ـ أبو الروم بن عمير. ٧ ـ فراس بن النضر.

المهاجرون من بني زُهرة:

١ ـ عبدالرحمٰن بن عوف. ٢ ـ عامر بن أبي وقاص، ومعه زوجته رَمْلة بنت أبي عوف.

المهاجرون من بني هُذيل:

١ ـ عبدالله بن مسعود. ٢ ـ عُتبة بن مسعود.

المهاجرون من بهراء:

١ ـ المقداد بن عمرو. ٢ ـ هزل بن فاس. ٣ ـ دَهِير بن ثور (المقداد بن الأسود).

المهاجرون من تَيْم:

١ ـ الحارث بن خالد، ومعه امرأته رَيْطة بنت الحارث. ٢ ـ عمرو بن عثمان.

المهاجرون من بني مخزوم:

١ ـ أبو سَلَمة (عبدالله) بن عبد الأسد. ومعه زوجته أم سَلَمة (هند) بنت أبي أُميّة. ٢ ـ شمّاس بن عثمان.

المهاجرون من حلفاء بني مخزوم:

١ ـ مُعَتِّب بن عوف، من خُزاعة.

المهاجرون من بني جُمح:

١ ـ عثمان بن مظعون. ٢ ـ السائب بن عثمان بن مظعون. ٣ ـ قدامة بن مظعون. ٤ ـ عبدالله بن مظعون. ٥ ـ حاطب بن الحارث، ومعه زوجته فاطمة بنت المجلَّل. ٦ ـ محمد بن حاطب. ٧ ـ الحارث بن حاطب. ٨ ـ حطّاب بن الحارث، ومعه زوجته فُكيهة بنت يسار. ٩ ـ سفيان بن معمر. ١٠ ـ جابر بن سفيان. ١١ ـ جُنادة بن سفيان، ومعه زوجته حَسنة. ١٢ ـ شرحبيل بن حَسنة. ١٣ ـ عثمان بن ربيعة.

المهاجرون من بني سهم:

١ ـ خُنيس بن حُذافة. ٢ ـ عبدالله بن الحارث. ٣ ـ هشام بن العاص. ٤ ـ قيس بن حُذافة. ٥ ـ عبدالله بن حُذافة. ٦ ـ الحارث بن الحارث. ٧ ـ مَعْمَر بن الحارث. ٨ ـ سعيد بن الحارث. ٩ ـ سعيد بن عمرو. ١٠ ـ السائب بن الحارث. ١١ ـ عُمير بن رئاب. ١٢ ـ مَحْمية بن الجزاء. ١٣ ـ أبو قيس بن الحارث. ١٤ ـ بِشْر بن الحارث.

المهاجرون من بني عدي:

١ ـ معمر بن عبدالله. ٢ ـ عروة بن عبد العزّىٰ. ٣ ـ عدي بن نضلة. ٤ ـ النعمان بن عدي. ٥ ـ عامر بن ربيعة، حليف آل الخطاب، ومعه زوجته ليلىٰ بنت حَثْمة.

المهاجرون من بني عامر:

١ ـ أبو سَبْرة بن أبي رُهْم، ومعه زوجته أم كُلْثوم بنت سهيل بن عمرو. ٢ ـ عبدالله بن مَخْرمة. ٣ ـ عبدالله بن سهيل بن عمرو. ٤ ـ سَليط بن عمرو. ٥ ـ السكران بن عمرو، ومعه زوجته سودة بنت زمعة. ٦ ـ مالك بن زمعة، ومعه زوجته عَمْرة بنت السعدي. ٧ ـ حاطب بن عمرو. ٨ ـ سعد بن خولة.

المهاجرون من بني الحارث:

١ ـ أبو عبيدة (عامر بن عبدالله بن الجراح). ٢ ـ سهيل بن البيضاء (البيضاء: دعد بنت جحدم). ٣ ـ عمرو بن أبي سَرْح. ٤ ـ عياض بن زهير. ٥ ـ عمرو بن الحارث. ٦ ـ عثمان بن عبد غَنْم. ٧ ـ سعد بن عبد قيس. ٨ ـ الحارث بن عبد قيس.

وبذا يكون عدد الذين هاجروا إلىٰ الحبشة اثنين وثمانين رجلاً، وست عشرة امرأة، مع أبنائهم، ومن وُلد هناك. ويُضاف عمّار بن ياسر بن عامر الكناني المذحجي القحطاني[1] حسب بعض الروايات، فيصبح العدد ثلاثةً وثمانين رجلاً.

---

(١) عمّار بن ياسر، أبو اليقظان: أحد السابقين إلىٰ الإسلام، وإعلان ذلك، هاجر إلىٰ المدينة، شهد (بدراً) و(أُحُداً) و(الخندق) و(بيعة الرضوان)، وكان رسول الله ﷺ يُلقّبه (الطيّب المطيّب). وقال رسول الله ﷺ: «ما خُيّر عمّار بين أمرين إلا اختار أرشدهما». وهو أول من بنىٰ مسجداً في الإسلام، بناه في المدينة، وسمّاه قباء. وولاّه الخليفة عمر ﷺ الكوفة مدةً ثم عزله عنها. وشهد الجمل وصفّين مع الخليفة عليّ ﷺ، وقُتل في الثانية وعمره ثلاث وتسعون سنةً. وهو أصغر من رسول الله ﷺ بأربع سنواتٍ، وُلد سنة ٥٧ قبل الهجرة، وله ٦٢ حديثاً.

هاجر المسلمون إلىٰ الحبشة خوفاً علىٰ إسلامهم وحفاظاً علىٰ عقيدتهم، وكانوا قدوة الدعاة إلىٰ الله، وأُسوة المخلصين في سبيل الله. وهناك في الحبشة ارتدّ عن الإسلام (عبيدالله بن جحش) ابن عمّة رسول الله ﷺ أُميمة بنت عبد المطلب، ودخل النصرانية، وبدأ يؤذي المسلمين، ويسخر منهم، وبعد أن كان قدوةً للمسلمين أصبح بعيداً منهم غريباً عنهم، فالمسلمون لا يرتبطون بالرجال، وإنما يرتبطون بالدعوة والمبدأ، فقد ينحرف الرجل فيزول عندها مركزه من بين الصفوف، أما الدعوة فتستمرّ. فما إن ارتدّ عبيدالله بن جحش حتىٰ غدا في عداد الكافرين، وابتعد عنه المهاجرون الذين كانوا بالأمس إخوانه، فالقرب والبُعد إنما يكون علىٰ أساس العقيدة، حتىٰ زوجته (رَمْلة بنت أبي سفيان ـ أم حبيبة) قد حرّمت عليه، وفارقته علىٰ الرغم من أنها هاجرت معه، وفضّلت صحبته علىٰ الحياة في مكة موطنها ومرتع صباها، ومقرّ أهلها، وأبوها (أبو سفيان صخر بن حرب) صاحب الكلمة المسموعة والأمر المطاع. فضّلت عِشْرَةَ عبيدالله عندما كان مسلماً، ومفارقته عندما ارتدّ. وقد حفظ لها رسول الله ﷺ هذا الإيمان، وأراد إكرامها وعدم إضاعتها، فطلب من النجاشي أن يخطبها له، ففعل، وأمهرها أربعمائة دينار، ثم انتقلت إلىٰ المدينة، مدينة رسول الله ﷺ، ودخلت في عداد أمهات المؤمنين رضي الله عنهن وهذا غاية الإكرام. وهنا يجب أن نتوقّف علىٰ ملاحظتين:

١ ـ الزواج لا يصحّ بين صاحبَي عقيدتين مختلفتين إلا إذا كانت الزوجة من أهل الكتاب، ولا يصحّ العكس، وإذا كان الزواج قائماً، وتبدّلت أحدهما، حُرّم أحدهما علىٰ الآخر، وتجب المفارقة.

٢ ـ ترك المسلمون عبيدالله بن جحش عندما ارتدّ، أي عندما بدّل عقيدته، ولكن لو تساهل في تطبيق بعض الواجبات وضعف عن أدائها لوجبت عندها العناية به، والاهتمام بشؤونه، وزيادة الصلة به، وإظهار المحبة الزائدة، وتذكيره باليوم الآخر، والجنّة حتىٰ يعود إليه عقله، ويرجع عن غيّه.

قال الله تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ مُهَـٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَـٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَـٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا

تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الممتحنة].

إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

كان إسلام عمر بن الخطاب ﷺ بعد خروج من خرج من أصحاب رسول الله ﷺ إلىٰ الحبشة، في العام السادس من البعثة النبوية، وكان من قبل شديداً علىٰ المسلمين، كثير الأذىٰ لهم، قالت ليلىٰ بنت أبي حَثْمة زوجة عامر بن ربيعة: والله إنا لنرحل إلىٰ أرض الحبشة، وقد ذهب عامر في بعض حاجاتنا، إذ أقبل عمر بن الخطاب حتىٰ وقف عليّ، وهو علىٰ شركه ـ قالت: وكنا نلقىٰ منه البلاء، أذًى وشدّةً علينا ـ قالت: فقال: إنه للانطلاق يا أم عبدالله؟ قالت: نعم والله، لنخرجنّ في أرض الله، آذيتمونا وقهرتمونا. حتىٰ يجعل الله لنا مخرجاً، قالت: فقال: صَحِبكم الله، ورأيت منه رِقّةً لم أكن أراها، ثم انصرف وقد أحزنه ـ فيما أرىٰ ـ خروجنا، قالت: فجاء عامر بحاجته تلك، فقلت له: يا أبا عبدالله، لو رأيتَ عمر آنفاً ورِقَّته وحُزنه علينا. قال: أطمعتِ في إسلامه؟ قالت: قلت: نعم، قال: فلا يُسلم الذي رأيتِ حتىٰ يُسلم حمار الخطاب، قالت: يأساً منه، لِما كان يُرىٰ من غِلْظته وقَسوته علىٰ المسلمين.

وكان ابن عمه سعيد بن زيد قد أسلم، كما أسلمت زوجته فاطمة بنت الخطاب أخت عمر، كما أسلم نُعيم بن عبدالله النحّام من قومه بني عدي، وكانوا جميعاً يُخفون إسلامهم عن عمر. وكان خبّاب بن الأرَتّ يختلف علىٰ فاطمة بنت الخطاب يُقرئها القرآن. فخرج يوماً عمر متوشّحاً سيفه، يريد رسول الله ﷺ ورهطاً من أصحابه، وقد ذُكروا له أنهم اجتمعوا في بيتٍ عند الصفا وهو بيت الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي، وهم قريب من أربعين مسلماً، ومع رسول الله ﷺ عمّه الحمزة بن عبد المطلب، والمسلمون الذين لم يخرجوا إلىٰ الحبشة، فلقيه قريبه نُعيم بن عبدالله، فقال له: أين تُريد يا عمر؟ فقال: أُريد محمداً هذا الصابئ الذي فرّق أمر قريشٍ، وسفّه أحلامَها، وعاب دينها، وسبّ آلهتها، ورأىٰ نُعيم الغضب يحتمل عمر، والشرر يتطاير من عينيه، فخاف، ورأىٰ أن يثنيه عن عزمه، ولكن أنّىٰ له هذا، ففضّل أن يُوجّهه إلىٰ بيت أخته فاطمة ولو أدّىٰ ذلك إلىٰ قتلها هي، وزوجها، وخبّاب بن الأرَتّ، فإن

قتلهم يُعوّض، أما فَقْدُ رسول الله ﷺ فلن يُعوّض، وستموت الدعوة. فقال له نُعيم: لقد غرّتك نفسُك مِن نفسِك يا عمر، أترىٰ بني عبد مناف يتركونك تمشي علىٰ الأرض وقد قتلت محمداً! أفلا ترجع إلىٰ أهل بيتك فتُقيم أمرَهم؟ قال: وأيّ أهل بيتي؟ قال: ختنُك وابن عمّك سعيد بن زيد بن عمرو، وأختك فاطمة بنت الخطاب، فوالله قد أسلما، وتابعا محمداً علىٰ دينه فعليك بهما، فرجع عمر عامداً إلىٰ أخته وختنه، وعندهما خبّاب بن الأرت ومعه صحيفة فيها صدر من سورة (طه) يُقرئهما إياها، فلما سمعوا حسّ عمر، تغيّب خبّاب في بعض البيت، وأخذت فاطمة الصحيفة فجعلتها تحت فخذها، وقد سمع عمر حين دنا من البيت قراءة خبّاب عليهما، فلما دخل قال: ما هذه الهَيْنمة (الصوت الذي لا يُفهم) التي سمعتُ؟ قالا له: ما سمعت شيئاً، قال: بلىٰ والله، لقد أُخبرت أنكما تابعتما محمداً علىٰ دينه، وبطش بابن عمه ختنه سعيد بن زيد، فقامت إليه أخته فاطمة بنت الخطاب، لتكفُّه عن زوجها، فضربها فشجّها، فلما فعل ذلك قالت له أخته وختنه: نعم، قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله، فاصنع ما بدا لك.

فلما رأىٰ عمر ما بأخته من الدم ندم علىٰ ما صنع، فارعوىٰ، وقال لأخته: أعطيني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرؤون آنفاً، أنظر ما هذا الذي جاء به محمد، وكان عمر كاتباً، فلما قال ذلك، قالت له أخته: إنا نخشاك عليها، قال: لا تخافي، وحلف بآلهته ليردّنّها إليها إذا قرأها، فلما قال ذلك طمعتْ في إسلامه، فقالت له: يا أخي، إنك نَجَس علىٰ شِركك، وإنه لا يمسّها إلا الطاهر، فقام عمر فاغتسل، فأعطته الصحيفة، وفيها سورة (طه). فلما قرأ صدراً منها، قال: ما أحسن هذا الكلامَ وأكرمه! فلما سمع ذلك خبّاب خرج إليه، فقال له: يا عمر، والله إني لأرجو أن يكون الله قد خصّك بدعوة نبيّه، فإني سمعته أمس وهو يقول: «اللهم أيّد الإسلام بأبي الحكم بن هشام، أو بعمر بن الخطاب». فالله الله يا عمر، فقال له عند ذلك عمر: فدلّني يا خبّاب علىٰ محمد حتىٰ آتيه فأُسلم، فقال له خبّاب: هو في بيتٍ عند الصفا، معه فيه نفر من أصحابه، فأخذ عمر سيفه فتوشّحه، ثم عمد إلىٰ رسول الله ﷺ وأصحابه، فضرب عليهم البابَ، فلما

سمعوا صوته، قام رجل من أصحاب رسول الله ﷺ فنظر من خلال الباب، فرآه متوشّحاً السيف، فرجع إلىٰ رسول الله ﷺ وهو فزع، فقال: يا رسول الله، هذا عمر بن الخطاب متوشّحاً السيفَ، فقال الحمزة بن عبد المطلب: فأذن له، فإن كان جاء يريد خيراً بذلناه له، وإن كان جاء يريد شرّاً قتلناه بسيفه، فقال له رسول الله ﷺ: «ائذن له»، فأَذِن له الرجل، ونهض إليه رسول الله ﷺ حتىٰ لقيه في الحجرة، فأخذ بمجمع ردائه، ثم جَبَذه به جبذةً شديدةً، وقال له: «ما جاء بك يا ابن الخطاب؟ فوالله ما أرىٰ أن تنتهي حتىٰ يُنْزِلَ الله بك قارعة»، فقال عمر: يا رسول الله، جئتك لأؤمن بالله وبرسوله، وبما جاء من عند الله؛ فكبّر رسول الله ﷺ تكبيرةً عرف أهل البيت من أصحاب رسول الله ﷺ أن عمر قد أسلم.

فتفرّق أصحاب رسول الله ﷺ من مكانهم، وقد عزُّوا في أنفسهم حين أسلم عمر مع إسلام الحمزة، وعرفوا أنهما سيَمنعان رسول الله ﷺ، وينتصفون بهما من عدوّهم. وقال عبدالله بن مسعود: إن إسلام عمر كان فتحاً، وإن هجرته كانت نصراً، وإن إمارته كانت رحمةً، ولقد كنا لا نصلّي عند الكعبة حتىٰ أسلم عمر، فلما أسلم قاتل قريشاً، حتىٰ صلّىٰ عند الكعبة وصلّينا معه.

وفي روايةٍ لعمر نفسه عن إسلامه، يقول: كنت للإسلام مباعداً، وكنت صاحب خمرٍ في الجاهلية، أُحبّها وأُسرّ بها، وكان لنا مجلس يجتمع فيه رجال من قريشٍ بـ(الحزورة) عند دار آل عمر بن عبد بن عِمران المخزومي، قال: فخرجتُ ليلةً أُريد جلسائي أولئك في مجلسهم ذلك، قال: فجئتهم فلم أجد فيه منهم أحداً. قال: فقلت: لو أني جئت فلاناً الخمّار، وكان بمكة يبيع الخمر، لعلّي أجد عنده خمراً، فأشرب منها، فخرجت، فجئته فلم أجده، قال: فلو أني جئت الكعبة فطفت بها سبعاً أو سبعين. قال: فجئت المسجد أُريد أن أطوف بالكعبة، فإذا رسول الله ﷺ قائم يُصلّي، وكان إذا صلّىٰ استقبل الشام، وجعل الكعبة بينه وبين الشام، وكان مُصلاّه بين الركنين: الركن الأسود والركن اليماني. قال: فقلت حين رأيته: والله لو أني استمعت لمحمدٍ الليلة حتىٰ أسمع ما يقول! فقلت: لئن دنوتُ منه أستمع لأُروِّعنّه، فجئت من قِبل الحِجْر فدخلت تحت ثياب الكعبة، فجعلت

أمشي رويداً، ورسول الله ﷺ قائم يصلي يقرأ القرآن، حتىٰ قمت في قِبلته مستقبله، ما بيني وبينه إلا ثياب الكعبة. قال: فلما سمعت القرآن رقّ قلبي له، فبكيت ودخلني الإسلام، فلم أزل قائماً في مكاني ذلك، حتىٰ قضىٰ رسول الله ﷺ صلاته ثم انصرف، و... قال عمر رضي الله عنه: فتبعته، حتى إذا دخل دار عباس، ودار ابن أزهر، أدركتُه، فلما سمع رسول الله ﷺ حسّي عرفني، فظنّ رسول الله ﷺ أني إنما تبعته لأؤذيه فنهمني[1]، ثم قال: «ما جاء بك يا ابن الخطاب هذه الساعة؟» قال: قلت: جئت لأؤمن بالله وبرسوله، وبما جاء من عند الله، قال: فحمد الله رسول الله ﷺ ثم قال: «قد هداك الله يا عمر»، ثم مسح صدري، ودعا لي بالثبات، ثم انصرفت عن رسول الله ﷺ، ودخل رسول الله ﷺ بيته.

رجوع المهاجرين من الحبشة:

لم تَرُق الحياة للمهاجرين في الحبشة، إذ ابتعدوا عن رسول الله ﷺ، وقد اعتادوا الحياة بقُرْبه يتلقّون منه، وهو الذي ارتبطت حياتهم به، وابتعدوا عن بلدهم الذي نشأوا فيه، وعن بعض إخوانهم الذين آمنوا معهم، كما وجدوا أنفسهم في مجتمعٍ غريبٍ عنهم في اللغة وفي العادات والتقاليد، وعددهم قليل في مجتمعٍ واسعٍ لا يستطيعون التأثير فيه، فهم ينتظرون أقلّ إشارةٍ لعودتهم، وبعد إقامتهم ثلاثة أشهرٍ في الحبشة وصل إليهم خبر مفاده أن بعض زعماء قريشٍ دخلوا في الإسلام، ولم يكن بالواقع سوىٰ عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقرّر بعضهم العودة، فرجع منهم ثلاثة وثلاثون مسلماً في شهر شوال من السنة السادسة للبعثة، وكانوا قد غادروا مكة قبل ثلاثة أشهرٍ في شهر رجب من العام نفسه. وما أن وصلوا عائدين إلىٰ مكة حتىٰ خابت آمالهم، ولم يستطع بعضهم دخولها إلا بعد أن دخل في جوار بعض وجهاء قريش، فدخل أبو سلمة عبدالله بن عبد الأسد في جوار خاله أبي طالب (عبد مناف بن عبد المطلب)، ودخل عثمان بن مظعون في جوار الوليد بن

---

(١) النهم: صوت وتوعد وزجر، يقال: نهم إبله: زجرها.

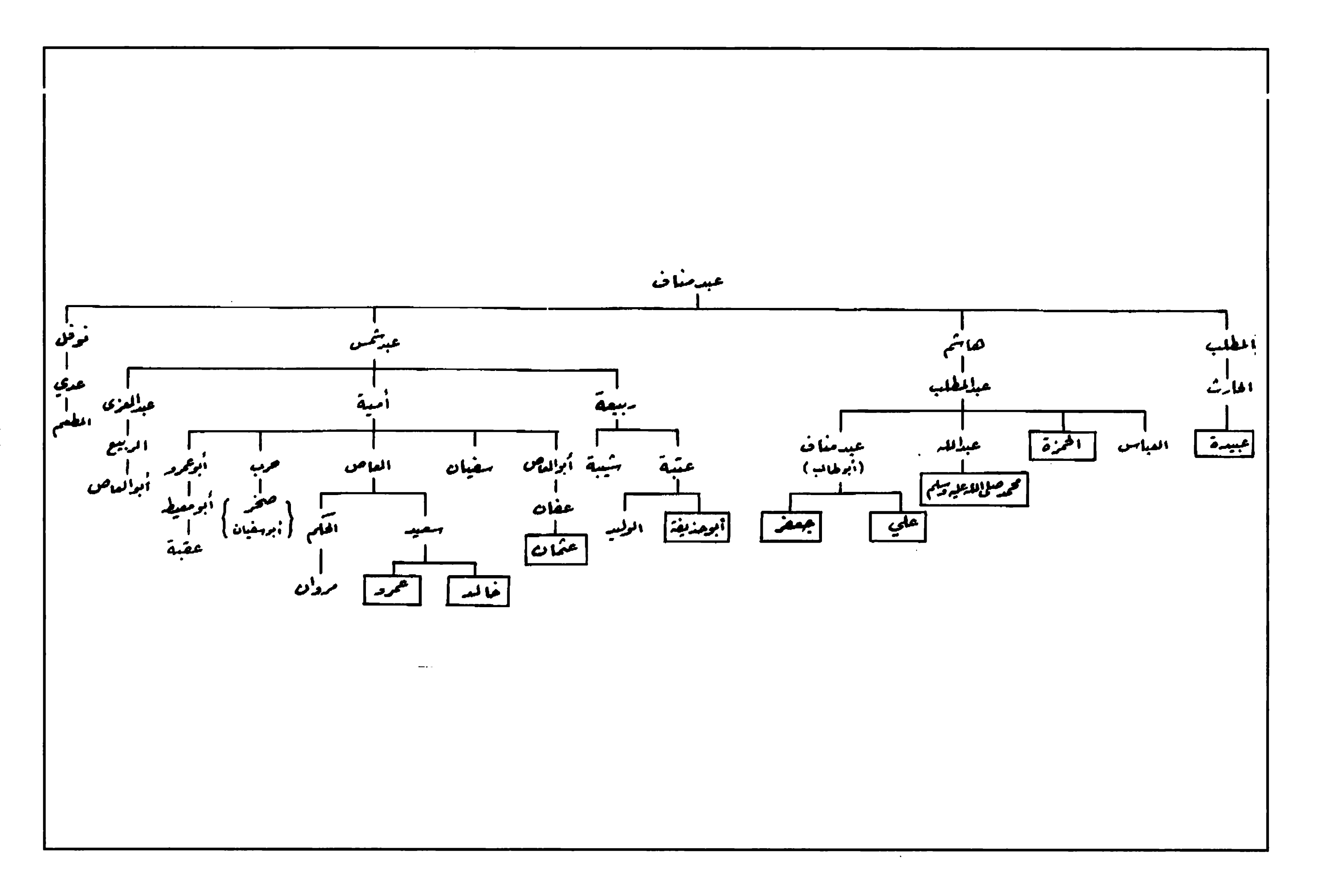
المغيرة، ورأىٰ هؤلاء المهاجرون أن قريشاً لا تزال تُؤذي المسلمين فيها، بل ازدادت عتواً، وسفاهةً، وحقداً، وحسداً.

الصحيفة الجائرة:

لما رأت قريش أن بني عبد مناف لا يمكن أن يخذلوا محمداً ﷺ، وأن عمّه أبا طالبٍ ما زال ينصره، وأن قومه قد رفضوا تسليمه مقابل دِيّةٍ مُضاعفةٍ، وأن عمّه قد أبىٰ أن يأخذ سيّداً من شبابهم بدل ابن أخيه الذي سيسلمه إليهم ليقتلوه... إذ كان وجهاء قريشٍ قد مشوا إلىٰ أبي طالب بـ(عُمارة بن الوليد بن المغيرة) أخي (خالد بن الوليد)، فقالوا له: يا أبا طالب، هذا عمارة بن الوليد، أنهد فتًى في قريشٍ وأجمله، فخذه فلك عقله ونصره، واتخذه ولداً، فهو لك، وأسلم إلينا ابن أخيك هذا الذي قد خالف دينك ودين آبائك، وفرّق جماعة قومك، وسفّه أحلامهم، فنقتله، فإنما هو رجلٍ برجلٍ، فقال أبو طالب: والله لبئس ما تسومونني! أتُعطونني ابنكم أُغذّيه لكم، وأُعطيكم ابني تقتلونه، هذا والله لا يكون أبداً.

لما رأت قريش ذلك، ورأت أن أصحاب رسول الله ﷺ يزيدون يوماً بعد يوم، وأنهم قد وجدوا في الحبشة مكاناً آمناً لهم ومُستقراً، وأن الإسلام قد بدأ ينتشر بين القبائل الأخرىٰ، وأنه قد امتنع في قريشٍ إذ أسلم عمر بن الخطاب والحمزة بن عبد المطلب، وهما من أشدّاء قريشٍ ووجهائها، لما رأت هذا كله اجتمع وجهاؤها وائتمروا فيما بينهم علىٰ مقاطعة كل من ينصر محمداً مقاطعةً اقتصاديةً، وقرّروا كتابة ذلك في صحيفةٍ علىٰ أن لا يُنكحوا إليهم، ولا ينكحوهم، ولا يبيعونهم شيئاً، ولا يبتاعوا منهم، ثم تعاهدوا وتواثقوا علىٰ ذلك، ثم علّقوا الصحيفة في جوف الكعبة.

فلما فعلت قريش ذلك انقسمت بنو عبد مناف قوم محمد ﷺ إلىٰ قسمين: بنو هاشم وبنو المطلب انحازوا إلىٰ أبي طالب ودخلوا معه في شِعبه، واجتمعوا إليه، وخرج من بني هاشم أبو لهب (عبد العزّىٰ بن عبد المطلب) إلىٰ قريش، فظاهرهم، والقسم الثاني وهو: بنو نوفل وبنو عبد شمس انضموا إلىٰ قريشٍ.



عبد مناف
المطلب
الحارث
عبيدة
هاشم
عبد المطلب
العباس
الحمزة
عبد الله
محمد صلى الله عليه وسلم
عبد مناف (أبو طالب)
علي
جعفر
عبد شمس
ربيعة
عتبة
أبو حذيفة
الوليد
شيبة
أمية
أبو العاص
عفان
عثمان
سفيان
العاص
سعيد
خالد
عمرو
الحكم
مروان
حرب
صخر (أبو سفيان)
أبو عمرو
أبو معيط
عقبة
عبد العزى
الربيع
أبو العاص
نوفل
عدي
المطعم

هجرة الحبشة الثانية:

لما دخل بنو هاشم وبنو المطلب شِعب أبي طالب مع رسول الله ﷺ، أمر الرسول الكريم المسلمين بأن يُهاجروا إلىٰ الحبشة، وينضمُّوا إلىٰ إخوانهم الذين بقوا هناك حتىٰ يكون عددهم كبيراً، ويساعد بعضهم بعضاً، وكان جعفر بن أبي طالب أميراً عليهم فهاجر معظم المسلمين من مكة.

لما رأت قريش ذلك أرسلت وفداً إلىٰ النجاشي ملك الحبشة، يحمل إليه الهدايا ورسالةً من قريشٍ تطلب فيها إعادة المهاجرين إليهم، إذ أنهم نابذوا قومهم العداء بعد أن سفّهوا أحلامهم، وعابوا آلهتهم، وشتموا دين آبائهم، وتألف هذا الوفد من عمرو بن العاص السهمي، وعبدالله بن أبي ربيعة المخزومي، وعُمارة بن الوليد المخزومي.

ركب الوفد البحر، وأتىٰ الحبشة، فلما دخل علىٰ النجاشي سجد أفراده له، وسلّموا عليه، وقالوا له: إن قومنا لك ناصحون شاكرون ولصلاحك مُحبُّون، وإنهم بعثونا إليك لنُحذّرك هؤلاء القوم الذين قدموا عليك، لأنهم قوم رجلٍ كذّابٍ، خرج فينا يَزْعُم أنه رسول الله، ولم يتبعه أحد منا إلا السفهاء، وكنّا قد ضيّقنا عليهم الأمر وألجأناهم إلىٰ شِعبٍ بأرضنا، لا يدخل عليهم أحد، ولا يخرج منهم أحد حتىٰ قتلهم الجوع والعطش، فلما اشتدّ عليهم الأمر بعث إليك ابن عمه (جعفر بن أبي طالب) ليُفسد عليك دينك، ومُلكك، ورعيتك، فاحذرهم وادفعهم إلينا لنكفيكهم. قالوا: وآية ذلك أنهم إذا دخلوا عليك لا يسجدون لك، ولا يُحيُّونك بالتحية التي يحييك بها الناس، رغبةً عن دينك وسُنّتك. قال: فدعاهم النجاشي، فلما حضروا صاح جعفر بن أبي طالب بالباب: يستأذن عليك حزب الله. فقال النجاشي: مُروا هذا الصائح فليُعِد كلامه، ففعل جعفر، قال النجاشي: فليدخلوا بأمان الله وذمّته. فنظر عمرو بن العاص إلىٰ صاحبه، فقال: ألا تسمع كيف يرطنون بحزب الله، وما أجابهم النجاشي؟ فساءهما ذلك، ثم دخلوا عليه ولم يسجدوا له، فقال عمرو بن العاص: ألا ترىٰ كيف يستكبرون أن يسجدوا لك. فقال لهم النجاشي: ما يمنعكم أن تسجدوا لي، وتُحيُّوني بالتحية التي

يُحييني بها من أتىٰ من الآفاق؟ قالوا: نسجد للّه الذي خلقك وملكك، وإنما كانت التحية لنا ونحن نعبد الأوثان، فبعث الله فينا نبياً صادقاً، وأمرنا بالتحيّة التي نعتها الله لنا وهي السلام، تحيّة أهل الجنّة. فعرف النجاشي أن ذلك حق، وأنه في التوراة والإنجيل. قال: أيكم الهاتف يستأذن عليك حزب الله؟ قال جعفر: أنا. قال: فتكلم. قال جعفر: إنك ملك من ملوك أهل الأرض، ومن أهل الكتاب، ولا يصلح عندك كثرة الكلام ولا الظلم، وأنا أُحبّ أن أُجيب عن أصحابي، فمُر هذين الرجلين فليتكلم أحدهما وليسكت الآخر، فتسمع محاورتنا.

فقال عمرو لجعفر: تكلّم. فقال جعفر للنجاشي: سل هذا الرجل: أعبيد نحن أم أحرار؟ فإن كنا عبيداً أبقنا من أربابنا فارددنا إليهم. فقال النجاشي: أعبيد هم أم أحرار؟ فقال عمرو: بل أحرار كرام. فقال النجاشي: خرجتم من العبودية. قال جعفر: سلهما هل أهرقنا دماً بغير حقٍّ فيقتصّ منا؟ فقال عمرو: لا، ولا قطرة. قال جعفر: سلهما هل أخذنا أموال الناس بغير حقٍّ فعلينا قضاؤه؟ قال النجاشي: يا عمرو، إن كان قنطاراً فعليّ قضاؤه. فقال عمرو: لا، ولا قيراط. قال النجاشي: فما تطلبون منهم؟ قال عمرو: كنا وإياهم علىٰ دينٍ واحدٍ وأمرٍ واحدٍ، علىٰ دين آبائنا، فتركوا ذلك الدين واتبعوا غيره، ولزمنا نحن، فبعثنا إليك قومهم لتدفعهم إلينا. فقال النجاشي: ما هذا الدين الذي كنتم عليه، والدين الذي اتبعتموه، أصدقني؟

قال جعفر: أما الذي كنا عليه فتركناه فهو دين الشيطان وأمره: كنا نكفر بالله ﷻ، ونعبد الحجارة. وأما الذي تحوّلنا إليه فدين الله الإسلام، جاءنا به من الله رسول الله، وكتاب مثل كتاب ابن مريم، موافقاً له.

فقال النجاشي: يا جعفر، لقد تكلّمت بأمرٍ عظيم، فعلىٰ رسلك. ثم أمر النجاشي فضرب بالناقوس، فاجتمع إليه كل قسيسٍ وراهبٍ، فلما اجتمعوا عنده، قال النجاشي: أُنشدكم الله الذي أنزل الإنجيل علىٰ عيسىٰ، هل تجدون بين عيسىٰ وبين القيامة نبياً مرسلاً؟ فقالوا: اللهم نعم،

قد بشّرنا به عيسىٰ، وقال: مَن آمن به فقد آمن بي، ومَن كفر به فقد كفر بي.

فقال النجاشي لجعفر: ماذا يقول لكم هذا الرجل، ويأمركم به وما ينهاكم عنه؟

قال جعفر: يقرأ علينا كتاب الله، ويأمر بالمعروف وينهىٰ عن المنكر، ويأمر بحُسن الجوار، وصلة الرحم، وبرّ اليتيم، ويأمرنا أن نعبد الله وحده لا شريك له.

فقال: اقرأ علينا شيئاً مما كان يقرأ عليكم. فقرأ عليهم سورة العنكبوت وسورة الروم، ففاضت عينا النجاشي وأصحابه بالدمع، وقالوا: يا جعفر، زدنا من هذا الحديث الطيّب. فقرأ عليهم سورة الكهف.

فأراد عمرو بن العاص أن يغضب النجاشي، فقال: إنهم يشتمون عيسىٰ وأمه. فقال النجاشي: ما تقولون في عيسىٰ وأمه؟ فقرأ عليهم جعفر سورة مريم، فلما أتىٰ علىٰ ذكر مريم وعيسىٰ رفع النجاشي بقيةً من سواك قدر ما يقذىٰ[1] العين، وقال: والله ما زاد المسيح علىٰ ما تقولون هذا. ثم أقبل علىٰ جعفر وأصحابه، فقال: اذهبوا فأنتم سيوم[2] في أرضي ـ يقول: آمنون ـ مَن سبّكم أو أذاكم غرم، ثم قال: أبشروا ولا تخافوا، ولا دهورة[3] اليوم علىٰ حزب إبراهيم.

قالوا: يا نجاشي، ومَن حزب إبراهيم؟

قال النجاشي: هؤلاء الرهط، وصاحبهم الذي جاؤوا من عنده، ومن اتبعهم. فأنكر ذلك المشركون وادّعوا دين إبراهيم.

ثم ردّ النجاشي علىٰ عمرو وصاحبَيْه المال الذي حملوه، وقال: إنما هديتكم إليّ رشوة فاقبضوها، فإن الله ملّكني ولم يأخذ مني رشوةً.

---

(١) يقذىٰ العين: ما يسقط في العين والشراب.
(٢) سيوم: جمع سائمة.
(٣) دهورة: خوف.

قال جعفر: وانصرفنا، فكُنّا في خير دارٍ وأكرم جوار، وأنزل الله ﷻ ذلك اليوم في خصومتهم في إبراهيم علىٰ رسول الله ﷺ وهو في المدينة.

قال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [آل عمران].

نقض الصحيفة الجائرة:

مكث بنو هاشم وبنو المطلب في شِعب أبي طالب مدة ثلاث سنواتٍ، وقد ضاقوا ذرعاً بتلك المعيشة، إلا أن أفراداً شعروا بجور هذه الصحيفة، وجور قريش علىٰ بطنٍ من بطونها، فتدارسوا الأمر، وبدأ بذلك هشام بن عمرو بن ربيعة العامريّ، فكلّم زهير بن أبي أمية المخزومي، ثم المُطْعَم بن عدي من بني عبد مناف، ثم أبا البختري العاص بن هشام الأسدي، ثم زمعة بن الأسود الأسدي، ثم اجتمعوا فتعاقدوا علىٰ تمزيق الصحيفة، وغدوا علىٰ أندية قريشٍ، فتكلم زهير، فقال: يا أهل مكة، أنأكل الطعام، ونلبس الثياب وبنو هاشم هلكىٰ، لا يُباع ولا يُبتاع منهم، والله لا أقعد حتىٰ تُمزّق هذه الصحيفة الظالمة، فأيّده أصحابه، وقالوا: نتبرّأ مما جاء فيها، وأنكر أبو جهل، وقال: هذا أمر قُضي بليلٍ، وتشاورتم فيه بغير هذا المكان. وقام المطعم بن عدي إلىٰ الصحيفة ليُمزّقها، فوجد حيوانة (الأرضة) قد أكلتها إلا عبارة (باسمك اللهم).

وكان رسول الله ﷺ قد قال لعمّه أبي طالب: «يا عمّ، إن ربي الله قد سلّط (الأرضَة) علىٰ صحيفة قريشٍ، فلم تدع فيها اسماً هو (الله) إلا أبتته فيها، ونفت عنه الظلم والقطيعة والبُهتان»، فقال أبو طالب: أربُّك أخبرك بهذا؟ قال: «نعم»، قال: فوالله ما يدخل عليك أحد.

وعندما قام المطعم بن عدي ليُمزّق الصحيفة، كان أبو طالب جالساً في ناحيةٍ من المسجد، فقام، فقال: يا معشر قريشٍ، إن ابن أخي أخبرني بكذا وكذا، فهلّموا إلىٰ صحيفتكم، فإن كان ما يقول ابن أخي صحيحاً، فانتهوا عن قطيعتنا، وانزلوا عما فيها، وإن يكن كاذباً دفعت إليكم ابن أخي، فقال القوم: رضينا، فتعاقدوا علىٰ ذلك، ثم نظروا، فإذا هي كما قال رسول الله ﷺ، فزادهم ذلك شراً.

ومُزّقت الصحيفة، وبطل ما فيها، وعاد بنو هاشم وبنو المطلب إلىٰ مكة، وبقي الأذىٰ للمسلمين من قريشٍ التي كانت ترىٰ زيادة عددهم، فتزداد ضغناً ولؤماً، ولننظر إلىٰ هذا المجتمع الإسلامي الصغير في مكة ونظرته إلىٰ الجاهليين الذين حوله، والذين يُؤلّفون معظم المجتمع، ثم لننظر عوامل الارتباط بين أفراده بعضهم مع بعضٍ.

المجتمع الجاهلي:

جاء الإسلام، وقام رسول الله ﷺ يدعو إلىٰ ترك العادات الجاهلية ونبذها، والالتزام بمكارم الأخلاق وكريم الخصال التي تنبع من دعوة الإسلام، وقد بيّنها لهم بشكلٍ دقيقٍ، وأوضح لهم الطريق السويّ، وآمن المسلمون الأوائل واتّبعوا النبيّ الأميّ، وأسلمت ألسنتهم وقلوبهم وجميع جوارحهم، ولكنهم في الوقت نفسه كانوا يعيشون ضمن ذلك المجتمع الجاهلي الذي كان يضغط عليهم، ويضطرون للتعامل معه ما داموا قلّةً، فتكاد نفوسهم ترنو إلىٰ بعض مطالبها وأهوائها في بعض الأوقات من الضعف البشري، الذي ينتاب النفوس أحياناً، فتحلو لها الزعامة أو كثرة المال، وخاصةً عندما يرون أصحابها يتحكّمون في المجتمع ويسيطرون علىٰ الناس بما لهم من مالٍ أو بما عندهم من جاهٍ وسيادةٍ، ويتدخّل الشيطان ليُزيّن إلىٰ تلك النفوس المؤمنة أثر هذا المال وعظمة تلك السيادة، وأن هذا لو كان للمسلمين لتمكّنوا من تبليغ دعوتهم، ولأسلمت لهم النفوس، وخضعت لهم الرجال، ودانت لهم القبائل، ودالت دولة الشرك، وزالت آثار الوثنية، ويُوحي بعضهم إلىٰ بعض أنه يمكنهم السير في هذه الطريق ليتمّ علىٰ أيديهم هذا كله، وليسيروا وراء هذه المطالب، وتكون لهم هدفاً ومطلباً، فينعطف بهم المسعىٰ، ويتغيّر الخط، ولكن الله سبحانه وتعالىٰ لم يكن ليترك عباده المؤمنين، يخضعون لضغط تلك الآثار النفسية وتزيين الشيطان لهم، وفتنته لهم، وصدّهم عن سبيل الحق والطريق السوي المستقيم، ووسوسته الدائمة لهم، وقيادتهم إلىٰ الهاوية، وحملهم إلىٰ الضلالة، فكان القرآن الكريم يتنزّل علىٰ محمدٍ ﷺ، ليقرأه علىٰ المسلمين، ويُبيّن لهم أن هذه المظاهر لا تزن شيئاً في ميزان الله، وأن هذه الفترات من

الضعف البشري التي تنتاب النفوس إن هي إلا من وسوسة الشيطان الدائمة في الوقت الذي تنقطع فيه الصلة بين العبد وربّه. ويسمو القرآن الكريم في النفوس المؤمنة لترتفع فوق مستوىٰ ذلك المجتمع الجاهلي بالارتباط الدائم بالله، ويُحذّرها من همزات الشياطين، ويطلب منها اليقظة الدائمة والانتباه المستمرّ، ويوضّح لها كيف يوسوس الشيطان؟ وما هي طرقه ومجالاته؟

وقد حافظ الإسلام علىٰ أبنائه الذين عاشوا في مكة بين الجاهليين محافظةً قويةً، واستطاع أن يحميهم من ذلك المجتمع، ومن كيد الشياطين وذلك بـ:

أ ـ تذكير المسلمين بشكلٍ مستمرٍ بخط الإسلام ومقاييسه وموازينه.

٢ ـ تنبيه المسلمين إلىٰ الأبواب والمداخل التي ينفذ منها الشيطان.

٣ ـ استمرار اللقاء بين المسلمين، والسماع إلىٰ النصائح، والتوجيهات، والتوصيات.

٤ ـ الوعد بالجنّة، والتخويف من النار والعذاب.

وليس المجتمع الذي نعيش فيه اليوم أفضل من ذلك المجتمع الجاهلي؛ إن لم نقل إنه أكثر منه تردّياً، وإن ضَعفه لأقوىٰ، وطريقته لأشدّ وأذكىٰ، وعلىٰ المسلمين الآن أن يتذكروا تلك النقاط علىٰ الدوام.

نظرة المسلمين للجاهلية:

رأينا نظرة مشركي قريشٍ للمسلمين، وهي نظرة كلها عداء، وخصومة، وكراهية، ويرون من خلالها ضرورة القضاء علىٰ المسلمين والخلاص منهم، وبينما كانت هذه نظرة مشركي قريشٍ، كان المسلمون يريدون لمشركي قريش الخير كله، ويطلبون لهم الهداية، وينظرون إليهم نظرةً ملؤها اللطف والشفقة من العذاب، الذي ينتظرهم يوم الحساب، والجهل الذي يرين علىٰ قلوبهم، فيحجبها عن الهدىٰ، ويمنعها من الإيمان بحجبٍ من المادة، والشهوة، والجاه الكاذب، ويربطها إلىٰ الأرض بروابطَ زائلةٍ، ويُقيّدها بقيودٍ

فانيةٍ. يدعوهم إلىٰ الهدىٰ فلا يستجيبون، ويُرشدونهم فلا يعقلون، وعلىٰ الرغم من هذا كله فلا يدخل اليأس نفوس المسلمين ولا أفئدتهم، ويأملون أن يأتي يوم يستجيب فيه الجاهليون لداعي الله، وعلىٰ الرغم مما يُلاقيه المسلمون من إهانةٍ واضطهادٍ علىٰ أيدي الجاهليين، فهم يرجون هدايتهم. وأبلغ ما في ذلك دعاء رسول الله ﷺ: «اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون».

وبينما يرىٰ الجاهليون الدنيا جامدةً مقفرةً، لا حياة إلا بما يحصلون عليه من متاعٍ وشهوات، وبما يُحققونه من متاعٍ وشهوات، وبما يحصلون عليه من مصالح وزعامات، يرىٰ المسلمون أن الدنيا حياة، تعجّ كلها بالمعاني والشعور بالراحة عندما يُؤدّي الإنسان واجبه، ويُرضي ربّه، وأن كل ما في هذه الدنيا يخضع للّه، ويسير حسب مشيئته، وعلىٰ طبيعة فطرته التي فطره الله عليها.

قال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [آل عمران].

وقال الله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾ [فصلت].

فالوجود كله ساجد لرب العالمين، مسلم لأمره. والحياة كلها مستسلمة للّه، فلما يكفر هؤلاء الجاهليون بالله؟ ومن هنا يأتي مصدر الإحساس بالشفقة عليهم والعطف نحوهم علىٰ الرغم من شدّة بأس الجاهليين علىٰ المسلمين.

هذه النظرة الإسلامية للناس لا تختلف بين غنيّهم وفقيرهم، فالناس كلهم سواء، فليس هناك من فروق في الطبقات أو الأجناس أو العروق أو الألوان أو الغنىٰ أو الأنوثة والذكورة.

قال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات].

وقال رسول الله ﷺ في خطبة حجة الوداع: «يا أيها الناس كلكم لآدم، وآدم من تراب إن أكرمكم عند الله أتقاكم، لا فضل لعربيٍّ علىٰ أعجميٍ، ولا لأبيض علىٰ أسود إلا بالتقوىٰ».

وليست نظرة المسلمين لأهل الكتاب إلا من هذا القبيل، فالأصل أن يكون أهل الكتاب أسبق الناس للإسلام؛ لما لديهم من كتب تدعو إلىٰ الإيمان بالله، وتُبشّر بمجيء رسول الله محمد ﷺ، ولكن أبعدهم عن الإيمان أحبارهم ورهبانهم الذين زيّنوا لهم السوء، وصدُّوهم عن السبيل حسداً واستكباراً، وغيّروا كلام الله وبدّلوه وحرّفوه بعدما عرفوه.

وإذا كان المسلمون قد حاربوا هؤلاء الجاهليين فليسوا لأنهم أعداء، ولكن لأنهم ناصبوهم العداء، وأصلوهم وابلاً من الاتهامات، وعرّضوهم لأنواع الأذىٰ، وحارب المسلمون الشرّ الذي في نفوسهم، والجهل المسيطر عليهم، فالمسلمون ليسوا خصوماً لأحدٍ، فهم دعاة دينٍ سماوي هو آخر الأديان ورسوله خاتم الأنبياء والرسل، ورسالته خاتمة الرسائل وناسخة لها، والإسلام ليس مُلكاً لأحدٍ فيتعصّب له، وإنما كل همّ المسلمين أن يُؤمن الناس بمثل ما آمنوا به هم. وأن يُؤدُّوا هذه الأمانة، والناس هم الميدان الذي يعمل فيه المسلمون دعاةً لربهم إرضاءً له وبأمرٍ منه، فليس من الخير أن ينسفوا ذلك الميدان، أو يزرعوا فيه شوكاً، أو يسقوا أهله سُمًّا، لعلهم يُسلمون، فإذا أسلموا انتهىٰ ما سبق، وأصبحوا إخوةً لنا، فالإسلام يجبّ ما قبله، ولننظر إلىٰ عمر بن الخطاب ﷺ، إذ كان من أشدّ أعداء الإسلام، فلما اعتنق الإسلام أصبح أحد دعاته، ومن أبطاله. وعُرف أبو جهل عمرو بن هشام بعدائه الشديد للمسلمين، ومع ذلك كان رسول الله ﷺ يطلب من الله أن يهديه، وأن يُؤيّد الإسلام به، لما عُرف من قوته، فكان رسول الله ﷺ يقول: «اللهم أعزّ الإسلام بأحد العمرين»، ويقصد بهما: عمر بن الخطاب أو عمرو بن هشام. وقد أسلم عمر بن الخطاب ﷺ، وتولّىٰ منصب الخلافة الإسلامية، وهو الخليفة الثاني بعد أبي بكر الصديق ﷺ. أما أبو جهل عمرو بن هشام فقد شهد معركة بدر مع المشركين، وقُتل كافراً. وكذا عكرمة بن أبي جهل فقد كان مع الكفار،

وأهدر رسول الله ﷺ دمه يوم فتح مكة، ففرّ وابتعد أما زوجته أم حكيم بنت الحارث بن هشام، وهي ابنة عمه، فقد جاءت إلىٰ رسول الله ﷺ مع أبيها الحارث بن هشام، وأسلما، وطلبت من رسول الله ﷺ أن يسمح لها بالسير وراء زوجها والعمل علىٰ إعادته، وسينضمّ ـ إن شاء الله ـ إلىٰ المسلمين، فسمح لها رسول الله ﷺ بذلك، واستطاعت اللحاق بزوجها، وأقنعته بما تعمل له، فوافق، ورجعا إلىٰ مكة، وسارا إلىٰ رسول الله ﷺ، وأعلن عكرمة إسلامه بين يدَيْ رسول الله ﷺ، وصدق الله في إسلامه، وخرج مجاهداً في سبيل الله، وشهد معركة اليرموك سنة ١٣ للهجرة، ونال الشهادة في سبيل الله.

وما دخل المسلمون معركةً إلا طلبوا من أعدائهم ـ مهما تمادوا في بغيهم وعدائهم قبل بدء القتال ـ طلبوا إحدىٰ ثلاث:

١ً ـ الإسلام، وعندها يصبحون إخوةً لهم.

٢ً ـ الجزية، وعندها يدخلون في ذِمّة الله ورسوله.

٣ً ـ السيف حتىٰ يحكم الله بينهم، والله خير الحاكمين.

ومع مرور الأيام، وتبدّل الأحوال لم تتغيّر نظرة الجاهليين إلىٰ المسلمين في الكراهية، والعمل علىٰ استئصال شأفتهم، وفي الوقت نفسه لم تتْغيّر نظرة المسلمين أيضاً إلىٰ الجاهليين في الخير والسعادة لهم، وطلب الهداية والإيمان لهم، وذلك بدعوتهم المستمرّة، وإبانة الطريق لهم، وتأسيس مُنظّمات الدعوة والإرشاد. ومع هذه النظرة فقد لا يمرّ عام دون حدوث مذابح للمسلمين علىٰ أيدي الجاهليين بتلفيق مختلف التهم، والدسائس، والادّعاءات.

المجتمع الإسلامي:

لننظر إلىٰ ارتباط المسلمين بعضهم مع بعض، وإلىٰ شعورهم تجاه أفرادهم، وهل يمكن لهم أن يُؤسّسوا دولةً تقوم علىٰ هذا المجتمع.

١ ـ الأخوة:

يشعر المسلم منذ أن يعتنق الإسلام، ويدخل الإيمان إلىٰ قلبه أن المسلمين جميعاً إخوة له. يقول الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الحجرات].

وقال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [الحجرات].

وقال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجرات].

يرتبط المؤمنون بعضهم مع بعضٍ أشدّ الارتباط، ولا رابطة تجمع الفرد المسلم إلىٰ المؤمنين إلا الإسلام أينما كانت ديارهم، ومهما كانت شعوبهم ولغاتهم، وأن الفرد بدخوله في الإسلام قد اكتسب جنسيةً جديدةً، وانتسب إليها، وأنه قد خلع عند عتبتها كل ما كان يحمله من صفاتٍ أو رواسب قديمة، وأن جميع أتباعها يبادلونه هذا الشعور، ويُحبُّون له ما يُحبُّون لأنفسهم، قال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتىٰ يحبّ لأخيه ما يحب لنفسه»[1].

وأن هذه الرابطة هي أقوىٰ من رابطة الدم والنسب، وأكثر تماسكاً من رابطة الجنس والحسب، وأكثر انسجاماً من رابطة اللغة والمصالح الاقتصادية والعلاقات المتبادلة، وإن المسلمين هم إخوته الحقيقيون لا أشقاؤه إن كانوا من غير المسلمين.

٢ ـ الشعور:

يشعر المسلمون المؤمنون جميعاً أنهم مجتمع واحد ولو كانوا متفرقين بسبب الأوضاع السياسية والاجتماعية السائدة أو مبعثرين في مناطق

---

(١) البخاري: ٥٣/١ في باب الإيمان. مسلم: ٤٥ من حديث أنس.

واسعةٍ لقلّتهم، أو يخضعون للضغط بسبب الأحكام الجائرة المستبدة بهم، أو موزّعين بسبب الفكرة الطبقية الهدّامة المتبنّاة. ويشعر كل فردٍ مسلم أنه يؤدّي واجباً معيّناً تجاه مجتمعه الإسلامي، وبهذه الواجبات يتكامل البناء الاجتماعي، ويسير نحو الأفضل، ويقترب تدريجياً من الكمال، يقول رسول الله ﷺ: «مثل المؤمنين في توادّهم، وتراحمهم، وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكىٰ منه عضو تداعىٰ له سائر البدن بالسهر والحمّىٰ»[1].

وأول خصائص هذا المجتمع أنه متحد في العقيدة، متفق في الفكرة، منسجم بالشعور، وأنه متكامل يُؤدّي كل عضو فيه دوره المكلّف به لأداء وظيفته، كما أن القيادة فيه ـ تُشبه القلب الذي لا يُميّز عضواً عن عضو، فكلهم إخوة متساوون بحاجتهم إلىٰ الدم ـ هي الفكر المحرّك الذي يُعطي التوجيه إلىٰ سائر الأعضاء، وهي الصدر الذي يتسع لكل المجتمع ومشكلاته ومتطلباته، وتُنقّي له الفكر من الشوائب خشية أن يزيغ، كما تُنقّي الرئة الدم للجسم، ويشعر المسلم أنه غريب في المجتمع إن لم يكن مسلماً، إذ لا ينتمي إليه وإنما ينتمي إلىٰ مجتمع آخر، وهو المجتمع الإسلامي، ولو كان بعيداً عنه، فالفكر، والعادات وحتىٰ الألبسة واحدة.

فنرىٰ المسلم الذي يعيش خارج المجتمع الإسلامي، يشعر دائماً بارتباطه بمكة مصدر الإشعاع الرباني، أكثر من ارتباطه بمجتمعه الذي يعيش بين جوانحه لأنه مجتمع غير إسلامي.

٣ ـ التعاون:

ليس التعاون فقط في أداء الوظائف وتكامل البناء، وإنما في المادة أيضاً وتكافل الحياة، وليس أكثر دليلاً علىٰ هذا التكافل المادي من إعطاء الزكاة للفقراء المسلمين إذ لا تصحّ لغيرهم، ومن إنفاق خديجة رضي الله عنها لمالها الكثير في سبيل الدعوة، ومن شراء أبي بكرٍ الصديق رضي الله عنه العبيد الذين أسلموا،

---

(١) مسلم: (٢٥٨٦) في البر والصلة: باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم.

وعتقهم لتخليصهم من الرقّ والعبودية، وقدْ لامه أبوه (عثمان أبو قحافة)، ولم يدرِ بعد طبيعة هذا الدين، فقال له: يا بني، إني أراك تعتق رقاباً ضعافاً، فلو أنك إذ فعلت ما فعلت أعتقت رجالاً جلداً، يمنعونك، ويقومون دونك؟ فقال أبو بكرٍ ﷺ: يا أبتِ، إني إنما أريد ما أريد للّه ﷻ. كما أن المسلمين من أصحاب الأموال قد وضعوا أموالهم بين يدَي رسول الله ﷺ عند المحنة. وكان أصحاب رسول الله ﷺ يُقدّمون الاموال بين المدة والمدة للدعوة، ولكل ما تحتاج إليه، وعندما سأل رسول الله ﷺ أبا بكر ﷺ وقد أتىٰ بمالٍ كثيرٍ: «ماذا أبقيت لعيالك؟» أجاب: أبقيت لهم الله ورسوله، أيّ كان قد قدّم ماله كله. ويعتقد المسلم أن الرزق بيد الله يؤتيه من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين.

ولم يقتصر الأمر علىٰ التعاون المادي، وإنما زاد علىٰ ذلك، فقد يزهد بعض الرجال بالمادة، ولكنه وصل إلىٰ الأذىٰ البدني الذي لا يقبله حرّ، ولا يقوىٰ عليه إنسان. فقد صعب علىٰ بعض المسلمين أن يروا إخوانهم من الضعفاء يُعذَّبون، ولم ينلهم هم الأذىٰ لقوة عشيرتهم ومركزهم أو لحمايتهم من قِبل بعض الأعيان، وقد كان الجوار هو السائد والمعروف، فمَن دخل في جوار أحدٍ حماه، وإن أُصيب بأذًى، وقعت الإهانة علىٰ صاحب الجوار، وشعر أن الأذىٰ قد لحق به، فقد روىٰ ابن هشام أن بعض المسلمين عادوا من الحبشة بعد هجرتهم إليها، لم يستطع بعضهم الدخول إلىٰ مكة حتىٰ دخل في جوار بعض أعيان قريشٍ، فأبو سلمة عبدالله بن عبد الأسد قد دخل في جوار خاله أبي طالب، ودخل عثمان بن مظعون في جوار الوليد بن المغيرة. ولما رأىٰ عثمان بن مظعون ما في أصحاب رسول الله ﷺ من البلاء، وهو يغدو ويروح في أمان من الوليد بن المغيرة، قال: والله إن غُدوّي ورواحي آمناً بجوار رجلٍ من أهل الشرك، وأصحابي وأهل ديني يلقون من الأذىٰ والبلاء في الله ما لا يُصيبني لنقص كبير من نفسي. فمشىٰ إلىٰ الوليد بن المغيرة، فقال: يا أبا عبد شمس، وفتْ ذمتك، قد رددتُ إليك جوارك، فقال: لِمَ يا ابن أخي؟ لعله آذاك أحد من قومي؟ قال له: لا، ولكني أرضىٰ بجوار الله، ولا أريد أن أستجير بغيره.

قال: فانطلق إلىٰ المسجد، فاردد عليّ جِواري علانيةً كما أجرتك علانيةً. فانطلقا، فخرجا حتىٰ أتيا المسجد، فقال الوليد: هذا عثمان قد ردّ عليّ جِواري، قال عثمان: صدق، قد وجدته وفياً كريم الجِوار، ولكني قد أحببت أن لا أستجير بغير الله، فقد رددت عليه جواره، ثم انصرف عثمان. ولبيد بن ربيعة بن مالك بن جعفر بن كِلاب في مجلسٍ من قريشٍ ينشدهم، فجلس معهم عثمان، فقال لبيد: ألا كل شيءٍ ما خلا الله باطل. فقال عثمان: صدقت. وتابع لبيد: وكل نعيم لا محالة زائل. فقال عثمان: كذبت، نعيم الجنّة لا يزول. فقال لبيد بنُ ربيعة: يا معشر قريشٍ، والله ما كان يُؤذىٰ جليسكم فمتىٰ حدث هذا فيكم؟ فقال رجل من القوم: إن هذا سَفيه في سُفهاء معه، قد فارقوا ديننا، فلا تجدنّ في نفسك من قوله.

فردّ عليه عثمان حتىٰ شري أمرهما (عظم واستطار)، فقام إليه ذلك الرجل، فلطم عينه فخضّرها، والوليد بن المغيرة قريب يرىٰ ما بلغ من عثمان، فقال: أما والله يا ابن أخي، إن كانت عينك عما أصابها لغنيّة، لقد كنت في ذمةٍ منيعةٍ. قال عثمان: بل والله، إن عيني الصحيحة لفقيرةٌ إلىٰ مثل ما أصاب أختها في الله، وإني لفي جِوار مَن هو أعزّ منك وأقدر يا أبا عبد شمس، فقال له الوليد: هلم يا ابن أخي، إن شئت فعُدْ إلىٰ ما كنت عليه من جوار، فقال: لا.

أما أبو بكرٍ الصديق رضي الله عنه فقد ضاقت عليه مكة، وأصابه فيها الأذىٰ، ورأىٰ من تظاهر قريشٍ علىٰ رسول الله ﷺ وأصحابه ما رأىٰ، فاستأذن رسول الله ﷺ بالهجرة، فأَذِن له، فخرج أبو بكرٍ مهاجراً، حتىٰ إذ سار من مكة يوماً أو يومين، لقيه (مالك بن الدغنة) أخو بني الحارث بن عبد مناة بن كنانة، وهو يومئذٍ سيّد الأحابيش. قال ابن الدغنة: أين يا أبا بكرٍ؟

قال أبو بكر: أخرجني قومي، وآذوني، وضيّقوا عليّ.

قال ابن الدغنة: ولِمَ؟ فوالله إنك لتزين العشيرة، وتعين علىٰ النوائب، وتفعل المعروف، وتكسب المعدوم، ارجع فأنت في جواري. فرجع معه، حتىٰ إذا دخلا مكة، قام ابن الدغنة، فقال: يا معشر قريشٍ، إني أجرت ابن

أبي قحافة فلا يُعرضنّ له إلا بخير فكفُّوا عنه. وكان لأبي بكر ﵁ مسجد عند باب داره في بني جُمح، فكان يُصلّي فيه، وكان رجلاً رقيقاً، إذا قرأ القرآن بكىٰ، فيقف عنده الصبيان والعبيد والنساء، يعجبون لما يرون من هيئته. فمشىٰ رجال من قريشٍ إلىٰ مالك بن الدغنة، فقالوا له: يا ابن الدغنة، إنك لم تُجِر هذا الرجلَ ليؤذينا! إنه إذا صلّىٰ وقرأ ما جاء به محمد يرقّ ويبكي، وكانت له هيئة ونحو، فنحن نتخوّف علىٰ صبياننا ونسائنا وضعفائنا أن يفتنِهم، فأتِه فَمُرْهُ أن يدخل بيته، فليصنع فيه ما شاء. فمشىٰ ابن الدغنة إليه، فقال له: يا أبا بكر، إني لم أُجِرْك لتُؤذي قومك، إنهم كرهوا مكانك الذي أنت فيه، وتأذّوا بذلك منك، فادخل بيتك، فاصنع فيه ما أحببت، قال: أوَأردّ عليك جوارك، وأرضىٰ بجوار الله؟ قال: فاردد عليّ جواري، قال: قد رددته عليك. فقام ابن الدغنة، فقال: يا معشر قريش، إن ابن أبي قحافة قد ردّ عليّ جواري، فشأنكم بصاحبكم. فلقي أبا بكر سَفيه من سُفهاء قريش، وهو عامد إلىٰ الكعبة، فحثا علىٰ رأسه تراباً، فمرّ بأبي بكر الوليدُ بن المغيرة أو العاص بن وائل، فقال أبو بكر: ألا ترىٰ ما يصنع بي هذا السفيه؟ قال: أنت فعلتَ ذلك بنفسك. فكان أبو بكر ﵁ يُردّد: أي رب ما أحلمك!!!

٤ ـ الطاعة:

كان المجتمع الإسلامي يشعر أن له رسولاً قائداً، فكانت طاعته واجبة بصفته رسول الله. يقول الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾﴾ [النساء].

ويشعر كل فرد أنه أولىٰ منه بنفسه، يقول الله تعالىٰ: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ...﴾ [الأحزاب: ٦].

وكان رسول الله ﷺ المثل الأعلىٰ للمؤمنين.

يقول الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب].

كما أن طاعة رسول الله ﷺ واجبة بصفته رأس المجتمع، وقائده، وبه

تتمثّل الدعوة، فلم يكن مسلم يتصرّف دون إذنه، وكانت إشارته أمراً، ورغبته فرضاً يجب تحقيقه، وهذا ما يدعو إليه المسلم. وكذلك فالأمير اليوم تجب طاعته بصفته رئيساً يُمثّل المجتمع الإسلامي، ويقيم حدود الله بينهم، وهو يمثّل رسول الله ﷺ.

٥ ـ التضحية:

كان المسلمون يُضحُّون بكل شيءٍ في سبيل رسول الله ﷺ ودعوته نتجية تقديرهم العميق له، وبصفته رمزاً لهذه الدعوة، وصاحبها، وتتجلّىٰ هذه التضحية عندما نام علي بن أبي طالب رضي الله عنه في فراش النبي ﷺ يوم الهجرة، وكان هدفاً للقتل، بل وتتجلّىٰ في كل معركةٍ خاضها رسول الله ﷺ حيث كان الصحابة رضوان الله عليهم يحمونه بأنفسهم، ويتلقّون الضربات عنه.

٦ ـ الموقع:

كان الفرد المسلم يعرف موقعه تماماً في المجتمع الذي يعيش فيه، ويعرف التيارات التي تحيط به، ومن خلال هذه المعرفة يتخذ لنفسه موقفاً، ويتعرّف علىٰ ما يُحاك ضدّه من مؤامراتٍ، وعلىٰ الجهة التي تُخطِّط وتُنفِّذ ذلك، فيراقبها من جهته مراقبةً دائمةً، ويعرف من خلالها تحرُّك الأعداء، ويُبلّغ قيادته بشكلٍ دائم ومتصلٍ لتتخذ الموقف المناسب الذي يُحْبِط عمل الخصم، ويحول دون بلوغه الهدف الذي يصبو إليه، وقد كانت أحوال قريشٍ وتحركاتها اليومية تصل إلىٰ رسول الله ﷺ، ومن خلال هذه المعلومات يعطي الرسول الكريم أوامره، وقد ينقلها إلىٰ بعض المسلمين الذين يرىٰ ضرورة معرفتهم لها.

٧ ـ النظرة الصحيحة:

كان الفرد المسلم يُقدّر الرجال تقديراً صحيحاً بعيداً عن كل هوى، فليس في تقديره أثر للمال أو الجاه أو المركز أو الطبقة، بل هو بمقدار قربه من رسول الله ﷺ قائده وموجّهه، وحسب تطبيقه للإسلام، وانقياده ووعيه.

[الحجرات].

٨ ـ الحماية:

هذا المجتمع الإسلامي الصغير الذي نشأ في مكة كان لا بُدّ له من حمايةٍ من المحيط الجاهلي الذي يعيش فيه، والذي يريد القضاء عليه ولا تتوفّر له الحماية إلا إذا وُجد له التنظيم الدقيق والسرِّيَّة التامّة، وهذا لا يُضمن إلا إذا توفّرت الطاعة التي تكلمنا عنها. وقد كان رسول الله ﷺ ينظّم العمل، ويقيم سِرًّا لقاءاتٍ تتم في دار الأرقم بن أبي الأرقم التي تحدّثنا عنها في البداية، فلا يعلم ما يدور فيها إلا الذين يدخلون الدار، ولم يعلم باللقاء إلا الذين يحضرونه، هذا بالنسبة إلىٰ الذين لا تعلم قريش إسلامهم. أما الذين يجهرون بالدعوة، وتعرفهم قريش فكان لا بُدَّ من توفير الحماية لهم أيضاً، وكانت تتم إما:

أ ـ بدخول بعض المسلمين في جوار بعض زعماء قريشٍ ممن تربطهم بهم الصداقة أو القرابة، وقد تكون أحياناً من باب الشهامة أو حبّ الشهرة، وذلك في سبيل حمايتهم من الاضطهاد، دون أن يمسّ ذلك شيئاً في عقيدتهم أو سلوكهم الإسلامي، أو دفاعهم عن إخوانهم في الدين من المستضعفين.

ب ـ الهجرة من البلد: والقيادة هي التي تؤمن ذلك لحماية أفرادها من وقوعهم في أيدي الجاهليين، وخوفاً عليهم من الفتنة، فكانت القيادة هي التي تشير إلىٰ بعض المسلمين بالهجرة إلىٰ مكانٍ مُعيّنٍ كما حدث في الهجرتين إلىٰ الحبشة ثم إلىٰ يثرب، ولم يكن مسلم ليخرج إلىٰ أية جهةٍ يريدها كيفما اتفق، أو يخرج دون أن يستأذن القائد أو المسؤول الذي هو رسول الله ﷺ، فالقيادة هي التي تُقدّر الأمر، وليس الأفراد.

ويتساءل بعضهم: هل يصحّ الانضواء في صفوف مؤسسةٍ جاهليةٍ لاتخاذ مظلّةٍ يتقي بها شرّ الأعداء؟ ويعمل من خلالها لفكرته، ويستندون في هذا التساؤل إلىٰ دخول رسول الله ﷺ في جوار المطعم بن عدي بعد عودته من

الطائف، ودخول أبي بكرٍ ﵁ في جوار مالك بن الدغنة، ودخول عثمان بن مظعون في جوار الوليد بن المغيرة، ثم دخول رسول الله ﷺ مع بني هاشم وبني المطلب في شِعب أبي طالب، غير أن الأوضاع متباينة، فالجواب مختلف.

أً - إن دخول فردٍ في جوار فردٍ يختلف عن دخول فردٍ في حماية جماعةٍ أو مؤسسةٍ، إذ أن علاقة الفرد بالآخر تبقىٰ علاقة، وربما تتوطد وتزداد أو تنفصم عندما يجد أحدهما أن هذه العلاقة غير منسجمة مع أفكاره ومبادئه، وهذا ما حدث عندما ردّ أبو بكر ﵁ جوار ابن الدغنة، وعندما ردّ عثمان بن مظعون جوار الوليد بن المغيرة. أما العلاقة مع مؤسسةٍ فما دام الفرد عضواً فيها فيجب أن يخضع لها، ويسير حسب نهجها، ويتبع أفكارها ولو أنها تباين أفكاره وخاصةً أنه ضعيف.

٢ً - إن دخول رسول الله ﷺ مع بني هاشم وبني المطلب في شِعب أبي طالب كان دخول فردٍ مع أسرته وحُماته، ولكنه لم يكن يسمح للمسلمين من غير أبناء هذين الأخوين (هاشم والمطلب) بالدخول معهم، وإنما طُلب منهم أن يهاجروا إلىٰ الحبشة (الهجرة الثانية)، وخاصةً الضعفاء في قبائلهم، أو الذين لا يستطيعون حماية أنفسهم، ومعنىٰ هذا رفض رسول الله ﷺ دخول فردٍ مسلمٍ في حماية جماعةٍ علىٰ الرغم من وجوده هو فيها.

٣ً - إن دخول رسول الله ﷺ في شِعب أبي طالب لم يكن دخول فردٍ، وإنما كان المحور الذي يدور حوله ذلك المجتمع، والعنصر المحرّك فيه، فكان إذا جنّ الليل، وآوىٰ رسول الله ﷺ إلىٰ فراشه، ورأىٰ الناس ذلك، طُلب منه أن ينتقل إلىٰ فراش غيره من أبناء عمومته، وينتقل صاحب الفراش إلىٰ مكان رسول الله ﷺ، حتىٰ لا يُصاب الرسول بأذًى إن أراد أحد به مكراً أو اغتيالاً، بل يُصاب غيره. أما غير رسول الله ﷺ فإذا انضمّ إلىٰ مؤسسةٍ ضاع بين أفرادها، وخاصةً إذا كانت المؤسسة ذات سلطةٍ، وكان هو ضعيفاً، وأراد أن يحتمي بها، وهذا سبب دخوله أصلاً إليها.

٤ ـ كثيراً ما يتخذ الإنسان هذا الدخول لتحقيق بعض مصالحه، فيحاول أن يجد المسوّغات له، وبعد المناقشة تتبلور المسوّغات في ذهنه حتىٰ تصبح حقيقةً عنده يُدافع عنها.

تنقية الصف:

ولم يكن هذا المجتمع ليخلو من هزّاتٍ تُصيبه بين مدةٍ وأخرىٰ، فتنَقّيه من الشوائب التي يمكن أن تتسرّب إليه، وتُصفّيه من ضِعاف الإيمان عند وجودهم فيه، فإما أن يقوىٰ إيمانهم ويسايروا الركب، ويكونوا أعضاء عاملين فيه، أو يسقطوا علىٰ الطريق، وبهذا يصبح المجتمع أكثر تماسكاً، وأفضل تجانساً، فإن وجود عناصر مرضىٰ يُعيق السير، ويُخفّف من الحركة، وقد تؤدي إلىٰ ضعف النمو، وبالتالي إلىٰ التخاذل وتوقّف الحيوية. وإن حادثة الإسراء والمعراج كانت إحدىٰ هذه الهزّات التي أصابت المجتمع الإسلامي الصغير، فعندما حدّث رسول الله ﷺ بقصة إسرائه أنكرت قريش عليه، وقال الناس: هذا والله الأمر البيّن، والله إن العير لتطرد شهراً من مكة إلىٰ الشام مُدبرةً، وشهراً مُقبلةً، أفيذهب محمد في ليلة واحدة، ويرجع إلىٰ مكة؟ فارتدّ بعض من كان أسلم.

صحيح أن الهزّات كانت تُقلّل العدد، فيضمر المجتمع، ولكن متىٰ كان للعدد تلك الأهمية؟ إن الأهمية كل الأهمية في القلوب التي في الصدور، القلوب التي يعمرها الإيمان، فتُحرّك الرجال، وتدفعهم كي يتجشّموا المخاطر، ويتحمّلوا النوازل، ويتلقّوا المصائب، ويستهينوا بقوة العدوّ مهما كانت أمام قوة الله، هذه القلوب المؤمنة هي التي كانت سبب النصر في كل المعارك التي خاضها المسلمون علىٰ الرغم من قلّة العدد، وقلّة العتاد، وما انتصر المسلمون في معركة بكثرة العدد، أو ضخامة العتاد، وإنما انتصروا بالإيمان والتأييد من الله، وقد هُزموا في معركة حنين في بداية الأمر عندما أعجبتهم كثرتهم، وداخلهم شيء من الأمر، وظنّ بعضهم أن النصر بالكثرة، فخابت آمالهم.

قال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ

حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [التوبة].

ثم جاء نصر الله للذين هُزموا، ليعرفوا أن الكثرة لا قيمة لها؛ بل النصر من الله.

قال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ [التوبة].

ويوم أُحُد أضعف المنافقون الصف الإسلامي، ونشروا الفوضىٰ، ثم انسحبوا من الجيش، وهذا شأن ضعفاء الإيمان في كل معركةٍ، وفي كل ميدانٍ.

وفاة أم المؤمنين خديجة، رضي الله عنها:

بعد أن خرج بنو هاشم وبنو المطلب من شِعب أبي طالب بقليل وذلك في السنة الثالثة قبل الهجرة، توفيت أم المؤمنين خديجة بنت خويلد رضي الله عنها وهي أولىٰ زوجاته، ولم يكن لرسول الله ﷺ زوجة غيرها، وهي علىٰ قيد الحياة. وبقيت زوجةً له مدة خمسٍ وعشرين سنةً، وقد أنجبت له بناته كلهن: زينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة، كما أنجبت له من الذكور: القاسم، وعبدالله الملقّب بـ(الطيّب) وبـ(الطاهر)، أما الابن الثالث لرسول الله ﷺ، فهو إبراهيم وقد أنجبته له (مارية القبطية)، وقد مات الأبناء الثلاثة الذكور صغاراً، أما البنات فقد تزوّجن كلهنّ، وأنجبت منهن زينب وفاطمة، رضي الله عنهنّ.

وحزن رسول الله ﷺ علىٰ خديجة رضي الله عنها حزناً كبيراً، فهي أول من صدّقه، ومن بذل ماله له وللدعوة، وأنجبت له الأولاد، وكانت العطوف عليه وقت الشدة.

زواج رسول الله ﷺ سودة بنت زمعة:

بعد أن توفي (السكران بن عمرو) بعد عودته من الحبشة، إذ هاجر مع زوجته (سودة بنت زمعة) في الهجرة الثانية، فبقيت (سودة) رضي الله عنها من غير

معيلٍ لها، وهي من بني عامر من أشراف قريش الذين منهم سهيل بن عمرو أخو زوجها السكران بن عمرو. وكان سهيل من أشدّ الذين وقفوا في وجه الإسلام. فهي شريفة، أسلمت، وخالفت قبيلتها وأُسرتها، وهاجرت مع زوجها، ولم يجد رسول الله ﷺ بُدًّا من أن يتزوجها، إذ توفي زوجها، ولا معيل لها، وهي مسلمة، وأسرتها لم تُسلم، وفي الوقت نفسه هو ﷺ بحاجةٍ إلىٰ زوجة إذ توفيت خديجة رضي الله عنها قبل شهرٍ، فتزوجها.

وفاة أبي طالب:

بعد وفاة أم المؤمنين خديجة بنت خويلد رضي الله عنها بشهرٍ تُوفّي عمّه أبو طالب الذي وقف بجانبه، وحماه من قريشٍ، وكان رسول الله ﷺ يطمع في إسلامه إذ كان يصدقه، ولا يُكذّبه أبداً فيما يقوله، ولكنه لم ينطق بالشهادة. وكان رسول الله ﷺ يقول له: «قُلْها ولو في أُذُني»، ولكنه رفض وخشي أن تُعَيِّره قريش. وقد نالت قريش من رسول الله ﷺ بعد وفاة عمّه ما لم تنله في حياته.

لما حضر أبا طالب الوفاة دخل عليه رسول الله ﷺ، وعنده أبو جهل وعبدالله بن أبي أمية، فقال: «أي عمّ، قل معي لا إلٰه إلا الله، أحاج لك بها عند الله». فقال أبو جهل وابن أبي أمية: يا أبا طالب، أترغب عن مِلّة عبد المطلب؟ فلم يزالا يكلمانه حتىٰ قال آخر شيء كلّمهم به: علىٰ مِلّة عبد المطلب. فقال النبيّ ﷺ: «لأستغفرنّ لك ما لم أُنْهَ عنه»[1]. فنزلت الآية الكريمة: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ١١٣﴾ [التوبة].

وروي أنه لما اشتكىٰ أبو طالب شكواه التي قُبض فيها، قالت له قريش: يا أبا طالب، أرسل إلىٰ ابن أخيك فيرسل إليك من هذه الجنّة التي ذكرها، تكون لك شفاءً. فخرج الذي أُرسل حتىٰ وجد رسول الله ﷺ، وأبا بكر جالساً معه، فقال: يا محمد، إن عمّك يقول: إني كبير ضعيف

---

(١) متفق عليه.

سقيم، فأرسل إليّ من جنّتك هذه، التي تذكر من طعامها وشرابها، شيئاً يكون لي فيه شفاء. فقال أبو بكر: إن الله حرّمها علىٰ الكافرين. فرجع إليهم الرسول، فقال: بلّغت محمداً ما أرسلتموني به، فلم يحر إليّ شيئاً، وقال أبو بكر: إن الله حرّمها علىٰ الكافرين. فحملوا أنفسهم عليه حتىٰ أرسل أبو طالب رسولاً من عنده، فوجد الرسول في مجلسه، فقال له مثل ذلك، فقال له رسول الله ﷺ: «إن الله حرّم علىٰ الكافرين طعامها وشرابها». ثم قام في أثر الرسول حتىٰ دخل معه بيت عمه أبي طالب، فوجده مملوءاً رجالاً، فقال: «خلُّوا بيني وبين عمي». فقالوا: ما نحن بفاعلين، ما أنت أحق به منا، إن كانت لك قرابة فلنا قرابة مثل قرابتك. فجلس إليه فقال: «يا عمّ، جُزيت عني خيراً، يا عمّ، أعِنِّي علىٰ نفسك بكلمةٍ واحدةٍ، أشفع لك بها عند الله يوم القيامة». قال: وما هي يا ابن أخي؟ قال: «قل: لا إلـٰه إلا الله وحده لا شريك له». فقال: إنك لي ناصح، والله لولا أن تُعيّر بها، فيُقال: جزع عمك من الموت لأقررت بها عينك. قال: فصاح القوم: يا أبا طالب، أنت رأس الحنيفية مِلّة الأشياخ. فقال: لا تحدّث نساء قريش أن عمّك جزع عند الموت. فقال رسول الله ﷺ: «لا أزال أستغفر لك ربي حتىٰ يردّني». فاستغفر له بعدما مات، فقال المسلمون: ما يمنعنا أن نستغفر لآبائنا ولذوي قراباتنا؟ قد استغفر إبراهيم لأبيه، وهذا محمد يستغفر لعمه. فاستغفروا للمشركين[1] حتىٰ نزل: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ ...﴾ [التوبة: ١١٣].

عقد رسول الله ﷺ علىٰ عائشة رضي الله عنها:

عقد رسول الله ﷺ علىٰ عائشة بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما بعد وفاة عمه أبي طالبٍ بشهرٍ تقريباً، وكانت صغيرةً فلم يَبْنِ بها إلا في المدينة أي بعد خمس سنواتٍ من العقد، إذ دخل عليها في أواخر السنة الثانية للهجرة.

---

(١) أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري. المتوفىٰ سنة ٤٦٨هـ.

الإسراء والمعراج

وقبل الهجرة أكرم الله سبحانه وتعالىٰ رسوله بالإسراء والمعراج، إذ نام يوماً بمكة بعد أن صلّىٰ العشاء الآخرة، وقبيل الفجر أُسري به علىٰ البُراق إلىٰ بيت المقدس، فوجد هناك رسول الله إبراهيم، وموسىٰ، وعيسىٰ، عليهم السلام، وعدداً من الأنبياء معهم، فصلّىٰ بهم، ثم عُرج به إلىٰ السماء حيث رأىٰ من آيات ربه الكبرىٰ ما رأىٰ، وفُرضت عليه الصلاة فكانت خمسين صلاةً في اليوم، ثم سأل ربه التخفيف فوضعها عنهم إلا خمس صلواتٍ في كل يومٍ وليلة فمن أداهُنَّ إيماناً بهن كان له أجر خمسين صلاة مكتوبةً. ثم عاد إلىٰ بيت المقدس ومنها إلىٰ مكة، ولم يخرج النهار فصلّىٰ الصبح.

تقول إحدىٰ نسائه: ما أُسري برسول الله ﷺ إلا وهو في بيتي. نام عندي تلك الليلة في بيتي، فصلّىٰ العشاء الآخرة، ثم نام ونمنا، فلما كان قبيل الفجر أهبَّنا (أيقظنا) رسول الله ﷺ، فلما صلّىٰ الصبح وصلّينا معه، قال: لقد صلّيت معكم العشاء الآخرة، كما رأيتِ بهذا الوادي ثم جئت بيت المقدس، فصلّيت فيه، ثم قد صلّيت صلاة الغداة معكم الآن كما ترين، ثم قام ليخرج، فأخذت بطرف ردائه، فتكشّف عن بطنه كأنه قبطية[1] مطوية، فقلت له: يا نبيّ الله، لا تُحدِّث بهذا الناس، فيُكذِّبوك ويُؤذونك، قال: لأُحدِّثنهموه. قالت: فقلت لجاريةٍ لي حبشيةٍ: ويحك! اتبعي رسول الله ﷺ حتىٰ تسمعي ما يقول للناس، وما يقولون له.

فلما خرج رسول الله ﷺ إلىٰ الناس أخبرهم، فعجبوا، وقالوا: ما آية ذلك يا محمد؟ فإنا لم نسمع بمثل هذا قط، قال: آية ذلك أني مررت بعير بني فلان بوادي كذا وكذا، فأنفرَهم حِسّ الدابّة، فندّ لهم بعير، فدللتهم

---

(١) القبطية: ثياب من كتان تُنسج في مصر، نسبةً إلىٰ القبط.

عليه وأنا موجّه إلىٰ الشام. ثم أقبلت حتىٰ كنت بـ(ضجنان) مررت بعير بني فلان، فوجدت القوم نياماً، ولهم إناء فيه ماء قد غطّوا عليه بشيءٍ، فكشفت غطاءه، وشربت ما فيه، ثم غطيت عليه كما كان، وآية ذلك أن عيرهم الآن يصوب[1] من البيضاء[2]: ثنيّة التنعيم يقدمها جمل أوْرق، عليه غرارتان، إحداهما سوداء، والأخرىٰ برقاء.

قالت: فابتدر القوم الثنية، فأول ما لقيهم الجمل كما وصف لهم. وسألوهم عن الإناء، فأخبروهم أنهم وضعوه مملوءاً ماءً، ثم غطّوه، وأنهم هبُّوا فوجدوه مُغطًّى كما غطّوه، ولكن لم يجدوا فيه ماءً. وسألوا الآخرين وهم بمكة، فقالوا: صدق والله، لقد أُنفرنا في الوادي الذي ذكره، وندّ لنا بعير، فسمعنا صوت رجل يدعونا إليه، حتىٰ أخذناه.

وحدّث رسول الله ﷺ أبا جهل أيضاً بما جرىٰ، فقال أبو جهل: يا بني كعب بن لؤي هلمُّوا، فأقبل إليه كُفّار قريشٍ، فأخبرهم الرسول الخبر، فصاروا بين مُصفّقٍ، وواضعٍ يده علىٰ رأسه تعجُّباً وإنكاراً، وارتدّ ناس ممن كان آمن به من ضعاف القلوب. وسعىٰ رجال إلىٰ أبي بكرٍ ﷺ فقال: إني أُصدّقه علىٰ أبعد من ذلك، فسُمّي من ذلك اليوم صِدِّيقاً.

ثم أخذ المشركون يمتحنون رسول الله ﷺ، ويسألونه أن يصف لهم بيت المقدس، ومعهم رجال يعرفون ذلك البيت، ولم يكن رسول الله ﷺ يعرفه قبل حادثة الإسراء، فجلّاه الله له، فصار يصفه لهم مكاناً مكاناً، فقالوا: أما الوصف فقد أصاب.

وكانت هذه الحادثة اختباراً للمسلمين نَقّتْ صفوفهم من ضِعاف الإيمان، فأصبحت أكثر تماسكاً وأشد ارتباطاً. والله غالب علىٰ أمره، وله في كل حادثةٍ حكمة، وفي كل أمرٍ شأن.

---

(١) يصوب: ينزل من علٍ.
(٢) البيضاء: عقبة قرب مكة تهبط بك إلىٰ فخّ.

قال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾ [الإسراء].

وقال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾ [النجم].



البحث عن قاعدة للدعوة

رأىٰ رسول الله ﷺ أن القاعدة الصلبة للجماعة الإسلامية قد وُجدت، وأن عدد المسلمين غدا جيداً، وهم يزدادون يوماً بعد يوم، وأن الدعوة قد زادت حمايتها بإسلام الحمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب ﵄، وأن القبائل الثانية قد بدأ خبر الإسلام يصل إليها، وأخذ يعتنق الإسلام أفراد من تلك القبائل.

إذ أسلم عبدالله بن مسعود من هُذيل. وأسلم مسعود بن القاري من القارة. وأسلم عامر بن ربيعة من اليمن. وأسلم الطفيل بن عمرو من دوس.

ووفد نصارىٰ نجران، وقد وصل إليهم خبره عن طريق المهاجرين إلىٰ الحبشة. قدم وفد نجران، وكانوا ستين راكباً، علىٰ رسول الله ﷺ، وفيهم أربعة عشر رجلاً من أشرافهم، بينهم ثلاثة رجالٍ يؤول إليهم أمرهم، وهم:

١ ـ عبدالمسيح: أمير القوم، وصاحب مشورتهم الذي لا يُصدرون إلا عن رأيه.

٢ ـ أيهم: إمام القوم، وصاحب رحلهم.

٣ ـ أبو حارثة بن علقمة: حِبر القوم، وأُسقفهم، وصاحب مدارسهم. وكان قد درس كتب النصارىٰ، حتىٰ غدا عالماً في دينهم. وكان ملوك الروم قد أعطوه المكانة والمال، وبنوا له الكنائس لعلمه واجتهاده، وللعمل علىٰ نشر النصرانية.

قدم الوفد علىٰ رسول الله ﷺ، ودخلوا المسجد حين صلّىٰ الرسول

الكريم العصر، وعليهم أردية، وجِباب، وثياب الأحبار، وعلىٰ إبل الحارث بن كعب، يقول من رآهم من أصحاب رسول الله ﷺ: ما رأينا وفداً مثلهم. وقد حانت صلاتهم، فقاموا فصلُّوا في مسجد رسول الله ﷺ. فقال رسول الله ﷺ: دعوهم. فصلُّوا إلىٰ المشرق، فكلّم عبد المسيح والأيهم رسول الله ﷺ، فقال لهما رسول الله ﷺ: أسلما. فقالا قد أسلمنا قبلك.

قال رسول الله ﷺ: كذبتما، منعكما من الإسلام «دعاؤكما للّه ولداً، وعبادتكما الصليب، وأكلكما الخنزير». قالا: إن لم يكن عيسىٰ ابن الله فمَن أبوه؟ وخاصموه جميعاً في عيسىٰ.

فقال لهم رسول الله ﷺ: ألستم تعلمون أنه لا يكون ولد إلا ويشبه أباه؟ قالوا: بلىٰ.

قال: ألستم تعلمون أن ربنا قيِّم علىٰ كل شيءٍ يحفظه ويرزقه. قالوا: بلىٰ. قال: فهل يملك عيسىٰ من ذلك شيئاً؟ قالوا: لا.

قال: فإن ربنا صوّر عيسىٰ في الرحم كيف شاء، وربنا لا يأكل، ولا يشرب، ولا يحدث. قالوا: بلىٰ.

قال: ألستم تعلمون أن عيسىٰ حملته أمه كما تحمل المرأة، ثم وضعته كما تضع المرأة ولدها، ثم غُذّي كما يُغَذَّىٰ الصبي، ثم كان يُطعم، ويشرب، ويُحدث. قالوا: بلىٰ.

قال: ألستم تعلمون أن ربنا حيّ لا يموت، وأن عيسىٰ أتىٰ عليه الفناء. قالوا: بلىٰ. قال: كيف يكون هذا كما زعمتم؟ فسكتوا. فأنزل الله سبحانه وتعالىٰ صدر سورة آل عمران إلىٰ بضعة وثمانين آيةً منها.

لما رأىٰ رسول الله ﷺ ما صار إليه أمر المسلمين بدأ يُفكّر في تأسيس الدولة التي تحمي الدعوة، وتعمل علىٰ حملها وانتشارها، وقد بدأ هذا العمل منذ الهجرة إلىٰ الحبشة، إذ كانت الغاية منها إضافةً إلىٰ حماية الذين أسلموا دراسة أوضاع الحبشة، فإذا كانت التربة صالحةً، والمناخ ملائماً،

انتقل رسول الله ﷺ بعد المهاجرين إليها، يعمل هناك لنشر الدعوة وتأدية الرسالة، إلا أن ظروف الحبشة لم تكن مناسبةً لذلك، إذ اختلف البطارقة مع النجاشي، كما نازعه رجل علىٰ المُلك، ولكن الله نصره عليه، وعاش المسلمون عنده في خير منزل، إلا أن الوضع كان علىٰ حالةٍ لا يناسب انتقال رسول الله ﷺ إليها، لأن الخلاف مع البطارقة يمكن أن ينفجر معه الوضع في كل وقتٍ.

الهجرة إلىٰ الطائف:

وفكّر رسول الله ﷺ في مدينة الطائف، فهي قريبة من مكة لا تبعد عنها أكثر من ثمانين كيلومتراً، وهي مكان مرتفع، وسكانها من قبيلتَي ثقيف وهوازن، وهما قبيلتان مشهورتان عند العرب، وذاتا مَنَعةٍ، فإذا وجدت هناك الحماية والمَنعة للمسلمين من قريشٍ التي اشتدّ أذىٰ مشركيها عليه وعلىٰ مَن أسلم بعد وفاة عمّه أبي طالب، هاجر إلىٰ هناك، فإذا تمّ ذلك ربما أمكن اتخاذ الطائف مكاناً يكون قاعدة الدعوة.

عمد رسول الله ﷺ إلىٰ نفرٍ منهم، وهم آل عمير، ويُعدُّون من سادة ثقيفٍ إلا أنهم ردُّوه بعد أن دعاهم إلىٰ الله، وكلّمهم بما جاءهم له من نصرته علىٰ الإسلام، فلما يئس منهم، طلب منهم أن يكتموا عنه، إذ خشي أن يعلم قومه من قريشٍ بما قام به، فيزداد أذاهم له ولإخوانه المسلمين، ولكنهم لم يفعلوا، وإنما أغروا به سفهاءهم وعبيدهم، يسبُّونه ويصيحون به، حتىٰ اجتمع الناس عليه، وألجؤوه إلىٰ بستانٍ لعُتبة وشيبة ابنَي ربيعة من قريشٍ، فرجع عنه سفهاء ثقيفٍ، وابنا ربيعة ينظران إلىٰ محمدٍ ﷺ وما فُعل به، وعمد رسول الله إلىٰ ظلِّ شجرة عنبٍ، فلما اطمأنَّ هناك توجَّه بالدعاء إلىٰ ربه قائلاً: «اللهم إليك أشكو ضعف قوّتي، وقلّة حيلتي، وهواني علىٰ الناس، يا أرحم الراحمين، أنت ربّ المستضعفين، وأنت ربي، إلىٰ مَن تكِلُني؟ إلىٰ بعيدٍ يتجهّمني؟ أم إلىٰ عدوٍّ ملّكته أمري؟ إن لم يكن بك عليّ غضب فلا أُبالي، لكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن ينزل بي

غضبك، أو يحلّ عليّ سخطك، لك العُتبىٰ حتىٰ ترضىٰ، ولا حول ولا قوّة إلا بك».

وقد رقّ لرسول الله ﷺ ابنا ربيعة، فأرسلا له قَطْفاً من عنبٍ، مع غلامهما (عدّاس)، وهو من أهل نينوىٰ بالعراق إلىٰ الشرق إلىٰ الموصل. فلما بدأ رسول الله ﷺ يأكل من العنب، قال: بسم الله الرحمٰن الرحيم. فاستغرب (عدّاس)، وظهرت عليه الدهشة.

فقال رسول الله ﷺ لعدّاس: ما لك؟ قال عدّاس: لأول مرّةٍ أسمع هذه العبارة في هذه البلاد. فقال رسول الله: من أين أنت؟ قال عدّاس: من نينوىٰ.

قال رسول الله: من بلد أخي يونس بن متىٰ رسول الله؟ قال عدّاس: نعم، وأكبّ علىٰ رأس رسول الله ﷺ يُقَبِّله، وعلىٰ يديه وقدميه. وقال ابنا ربيعة أحدهما للآخر لمّا رأيا ذلك: أفسد علينا الغلام. فلما رجع عدّاس إليهما. قالا له: ويلك يا عدّاس! ما لك تُقَبِّل رأس هذا الرجل ويدَيه وقدمَيه؟

قال عدّاس: يا سيدي، ما في هذه الأرض شيء خير من هذا، لقد أخبرني بأمرٍ ما يعلمه إلاّ نبيّ، قالا له: ويحك يا عدّاس! لا يصرفنّك عن دينك، فإن دينك خير من دينه.

انصرف رسول الله ﷺ من الطائف راجعاً إلىٰ مكة، إذ يئس من ثقيف، حتىٰ إذا كان بـ(نَخْلَة)[1] قام من جوف الليل يُصلّي، فمرّ به نفر من الجنّ، فاستمعوا إليه، فلما فرغ من صلاته ولّوا إلىٰ قومهم منذرين، قد آمنوا وأجابوا إلىٰ ما سمعوا.

وعندما وصل رسول الله ﷺ إلىٰ مكة، وكان خبر رحلته إلىٰ الطائف قد وصل إلىٰ قريش، فلم يستطع دخول بلده مكة حتىٰ أجاره المطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف.

---

(١) نَخْلَة: اسم واديين إلىٰ الشمال الشرقي من مكة علىٰ طريق الطائف، يُقال لأحدهما (نخلة الشامية)، وللآخر (نخلة اليمانية).

وأنزل الله ﷻ علىٰ رسوله سورة الجنّ:

قال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ ...﴾ [الجن].

دعوة القبائل:

لما يئس رسول الله ﷺ من إيمان قريشٍ في مكة، وثقيفٍ في الطائف، بدأ يذهب إلىٰ المواسم التي تقام في الأسواق مثل: (عُكاظ) و(ذي مجنّة) و...، وتحضرها القبائل العربية للتجارة والاستماع إلىٰ ما يلقىٰ فيها من شعر. فكان رسول الله ﷺ يعرض نفسه علىٰ هذه القبائل يدعوها إلىٰ الله، وإلىٰ نُصرته ومنعته حتىٰ يُؤدّي رسالته، وكذلك كان يعرض نفسه علىٰ هذه القبائل في موسم الحج، فيقول: «يا بني فلان إني رسول الله إليكم، يأمركم أن تعبدوا الله، ولا تشركوا به شيئاً، وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد، وأن تُؤمنوا بي، وتُصدقوا بي، وتمنعوني حتىٰ أُبيّن عن الله ما بعثني به».

ولكن قريشاً لم تكن لتتركه وشأنه مع القبائل إذ كانت ترسل إليها أفراداً منها يُحذّرونها منه، ويرمونه بالسحر والكهانة أو الجنون حتىٰ إن عمّه أبا لهب (عبد العُزّىٰ) كان يسير وراءه في كثيرٍ من الأحيان، ويردّ أقواله فيقول: يا بني فلان، إن هذا إنما يدعوكم أن تسلخوا (اللات) و(العزّىٰ) من أعناقكم، وحلفاءكم من الجنّ من بني مالك بن أُقَيْش، إلىٰ ما جاء به من البدعة والضلالة، فلا تُطيعوه، ولا تسمعوا منه.

ومن هذه القبائل من كان يردّ ردًّا لطيفاً، ومنها من كان يردّ ردًّا قبيحاً، وربما أقبح ردٍّ ما كان من بني حَنيفة قوم مُسيلمة الكذّاب. أما بنو عامر بن صَعْصعة، فقد قال كبيرهم فِراس بن عبدالله: والله لو أني أخذت هذا الفتىٰ من قريشٍ لأكلتُ به العرب، ثم قال: أرأيتَ إن نحن بايعناك علىٰ أمرك، ثم أظهركَ الله علىٰ من خالفك، أيكون لنا الأمر من بعدك؟

قال رسول الله ﷺ: «الأمر إلىٰ الله يضعه حيث يشاء».

قال فراس: أَفَتُهْدفُ نُحورنا للعرب دونك، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا، لا حاجة لنا بأمرك، فأبَوْا عليه.

فلما صدر الناس، رجعت بنو عامرٍ إلىٰ شيخٍ لهم، قد كانت أدركته السِّنّ، حتىٰ لا يستطيع أن يوافي معهم المواسم، فكانوا إذا رجعوا إليه حدّثوه بما يكون في ذلك الموسم، فلما قدموا عليه ذلك العام، سألهم عما كان في موسمهم، فقالوا: جاءنا فتى من قريشٍ، ثم أحد بني عبد المطلب، يزعم أنه نبيّ، يدعونا إلىٰ أن نمنعه، ونقوم معه، ونخرج به إلىٰ بلادنا. فوضع يده علىٰ رأسه، ثم قال: يا بني عامر، هل لها من تلافٍ؟ هل لذُناباها[1] من مَطْلب؟ والذي نفس فلانٍ بيده ما تقوّلها إسماعيلي قطّ[2]، وإنها لحق، فأين رأيكم كان عنكم؟

وهكذا يبدو أن رسول الله ﷺ لم تكن غايته جمع الناس حوله ومقاتلة خصومه، وعند نجاح أمره، يُطبِّق المنهج الذي يريد، وإنما كانت غايته تثبيت العقيدة في البداية والسير علىٰ هدىٰ هدي الله من أول الطريق، فليس هناك من مراحل في الدعوة، وليس هناك أنصاف حلول. فالحكم للّه يضعه حيث يشاء، لا مزاودة فيه، ولا عمل من أجله بحدّ ذاته، وإنما هو وسيلة لتحقيق منهج الله في الأرض.

وجاء وفد من يثرب من الأوس إلىٰ مكة، يبغون نصرة قريشٍ لهم علىٰ إخوانهم الخزرج، وعليهم أبو الحَيْسر (أنس بن رافع) فسمع بهم رسول الله ﷺ، فأتاهم فجلس إليهم، فقال لهم: «هل لكم في خير مما جئتم له؟». فقالوا له: وما ذاك؟

قال: «أنا رسول الله، بعثني الله إلىٰ العباد، أدعوهم إلىٰ أن يعبدوا الله، ولا يُشركوا به شيئاً، وأُنزل عليّ الكتاب»، ثم ذكر لهم الإسلام، وتلا

---

(١) هذا مثل يُضرب لما فات، وأصله من ذنابىٰ الطائر إذا أُفلت من الحِبالة، فطلبت الأخذ به.

(٢) أي ما ادّعىٰ النبوة كاذباً أحد من بني إسماعيل.

عليهم القرآن، وكان معهم غلام حدث هو (إياس بن معاذ)، فقال: أي قوم، هذا والله خيرٌ ما جئتم له. فأخذ أبو الحَيْسر (أنس بن رافع) حفنةً من تراب البطحاء فضرب وجه (إياس)، وقال: دعنا منك، فلعمري جئنا لغير هذا، فصمت إياس، وقام رسول الله ﷺ عنهم، وانصرفوا إلىٰ يثرب.

وكانت وقعة (بُعاث) بين الأوس والخزرج، وأتت علىٰ أكثر رؤسائهم إذ لم يبقَ من زعماء الخزرج سوىٰ عبدالله بن أُبيّ بن سلول، ومن الأوس سوىٰ أبي عامر الراهب. وربما كان ذلك مقدمة لمقدم رسول الله ﷺ، إذ أن الوجهاء عادةً يقفون أمام كل مصلح خوفاً علىٰ مصالحهم، وهذا ما كان في مكة، وكذلك في يثرب إذ نلاحظ أن هذين الرجلين (عبدالله بن أُبيّ بن سلول) و(أبي عامر الراهب) كانا من أشدّ أعداء رسول الله ﷺ، وإن أظهر أولهما الإسلام، لكنه كان رأس المنافقين لا يترك مناسبةً إلا ويحاول فيها الوقيعة بين المسلمين، أو شقّ صفوفهم، أو نقداً لرسول الله ﷺ. أما الثاني: وهو أبو عامر الراهب فقد عادىٰ رسول الله ﷺ، وخرج مغاضباً إلىٰ مكة وسار مع أبنائها القتلة، ومات كافراً، أما إياس بن معاذ فلم يلبث أن مات، ويُعتقد أنه مات مسلماً إذ كانوا يسمعونه يُكَبِّر الله، ويحمده، ويُسبِّحه.

وجاء موسم الحج، وبينما كان رسول الله ﷺ يعرض نفسه علىٰ القبائل التقىٰ بجماعةٍ من الخزرج عند العقبة. فلما سألهم مَن أنتم؟ قالوا: نفر من الخزرج، قال: أمِن موالي يهود؟ قالوا: نعم - إذ كانت الغلبة في يثرب لليهود. وذلك أنه لما كانت حادثة خراب سدّ مأرب وتفرق العرب من حوله، وساروا في مختلف الجهات، إذ سار أزد عُمان نحو عُمان، وانتقل أزد شنوءة إلىٰ بلاد عسير، واتجه المناذرة إلىٰ العراق، وحطّت رحال الغساسنة في بلاد الشام، شمال شرقي دمشق وعلىٰ مقربةٍ منها، وتوقّف حارثة وولداه الأوس والخزرج في يثرب، وقد حارب العرب في البداية يهود، وانتصروا عليهم، وأصبحوا أصحاب النفوذ في يثرب، ثم تفرّقت كلمتهم، ووقعت العداوة والبغضاء بين الأوس والخزرج، أثارها اليهود ليعود نفوذهم إليها، وليستفيدوا من بيع السلاح للفريقين كعادة يهود علىٰ مدار التاريخ، وكان بين الحيين أيام وحروب، كان آخرها يوم (بُعاث) الذي كان

للأوس علىٰ الخزرج، وقد حالف بنو قينقاع وبنو النضير من يهود الخزرج، وحالف بنو قريظة الأوس. فلما لقيهم رسول الله ﷺ في موسم الحج ـ قال لهم: «أفلا تجلسون أكلمكم؟» قالوا: بلىٰ. فجلسوا معه، فدعاهم إلىٰ الله ﷻ، وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن. وكانوا يسمعون من يهود في بلادهم، كلما كان بينهم شيء أن نبياً مبعوث الآن، وقد أظلّ زمانه، وتقول يهود: إننا نتَّبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرَم. فلما كلمهم رسول الله ﷺ ودعاهم إلىٰ الله، قال بعضهم لبعض: يا قوم، تعلموا والله إنه للنبيّ الذي توعّدكم به يهود، فلا تسبقنّكم إليه. فأجابوه فيما دعاهم إليه، بأن صدّقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام، وقالوا: إنا قد تركنا قومنا، ولا قوم بينهم من العداوة والشرّ ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم، فندعوهم إلىٰ أمرك، وتَعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليه، فلا رجل أعزّ منك، وواعدوا رسول الله ﷺ العام المقبل في الموسم.

ثم انصرفوا عن رسول الله ﷺ، راجعين إلىٰ بلدهم، وقد آمنوا وصدّقوا، وعدد هؤلاء النفر ستة. فلما قدموا إلىٰ المدينة ذكروا لقومهم ما كان معهم، وحدّثوهم عن رسول الله ﷺ، ودعوهم إلىٰ الإسلام، فانتشر بينهم، فلم يبقَ دار من دور الأنصار إلا ويُذكر فيها اسم رسول الله ﷺ.

بيعة العقبة الأولىٰ:

استدار العام، وأقبل الناس إلىٰ الحج، وكان بين حجاج يثرب إثنا عشر رجلاً، عشرة من الخزرج، وإثنان من الأوس، وهم:

١ ـ أسعد بن زُرارة. ٢ ـ عوف بن الحارث. ٣ ـ معاذ بن الحارث. ٤ ـ عُبادة بن الصامت. ٥ ـ يزيد بن ثعلبة. ٦ ـ رافع بن مالك. ٧ ـ العباس بن عبادة. ٨ ـ ذَكْوان بن عبد قيس. ٩ ـ عقبة بن عامر. ١٠ ـ قطبة بن عامر.

وهؤلاء من الخزرج، أما رجال الأوس، فهما:

١ ـ أبو الهيثم مالك بن التيهان. ٢ ـ عُوَيم بن ساعدة.

وقد التقوا حسب الموعد مع رسول الله ﷺ عند العقبة، وأسلموا، وبايعوا رسول الله ﷺ، ويقول عبادة بن الصامت رضي الله عنه: كنت فيمن حضر العقبة الأولىٰ، وكنا اثني عشر رجلاً، فبايعنا رسول الله ﷺ على بيعة النساء، وذلك قبل أن يفرض القتال، علىٰ أن لا نُشرك بالله شيئاً، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتانٍ نفتريه من بين أيدينا ولا من خلفنا، ولا نعصيه في معروفٍ. فقال رسول الله ﷺ: «فإن وفيتم فلكم الجنّة. وإن غشيتم من ذلك شيئاً، فأمركم إلىٰ الله عزّ وجل، إن شاء عذّب، وإن شاء غفر».

وعندما غادره القوم أرسل معهم مُصعب بن عمير رضي الله عنه، وأمره أن يُقرئهم القرآن، ويُعلّمهم الإسلام، ويُفقههم في الدين، فسار معهم، فلما وصلوا إلىٰ يثرب نزل علىٰ أسعد بن زرارة رضي الله عنه، وكان مُصعب يُسمّىٰ هناك بـ(المُقرئ). وقد صلّى مصعب بالمدينة الجمعة لأول مرةٍ، ولم يزد عددهم علىٰ الأربعين.

وذهب يوماً أسعد بن زرارة ومعه مصعب بن عمير إلىٰ بستان من بساتين بني عبد الأشهل - أحد بطون الأوس - فجلسا فيه، واجتمع حولهما عدد من الذين أسلموا، فرآهما سعد بن مُعاذ، وأُسيد بن حضير، وهما يومئذٍ سيدا بني عبد الأشهل، ومن سادة الأوس أيضاً، فقال سعد بن معاذ لأُسيد بن حضير: لا أبا لك، انطلق إلىٰ هذين الرجلين اللذين أتيا دارَينا ليُسَفّها ضُعفاءنا، فازجرهما وانههما عن أن يأتيا دارَينا، فإنه لولا أن أسعد بن زرارة مني حيث قد علمت، كفيتك ذلك، هو ابن خالتي، ولا أجد عليه مقدّماً، فأخذ أُسَيْدُ بن حُضير حربته، ثم أقبل إليهما، فلما رآه أسعد بن زرارة قال لمصعب بن عُمير: هذا سيد قومه قد جاءك، فاصدُق الله فيه، قال مصعب: إن يجلس أكلمه. فوقف عليهما مُتشتماً، فقال: ما جاء بكما إلينا تُسَفِّهان ضعفاءنا؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة، فقال له مصعب: أوَتجلس فتسمع، فإن رضيت أمراً قبلته، وإن كرهته كُفّ عنك ما تكره؟ قال: أنصفت، ثم ركّز حربته وجلس إليهما، فكلّمه مصعب بالإسلام، وقرأ عليه القرآن، فقالا: والله لعرفنا في وجهه الإسلام قبل أن

يتكلّم في إشراقه وتسهُّله، ثم قال: ما أحسن هذا الكلام وأجمله! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين، قالا له: تغتسل فتطهر، وتُطَهِّر ثوبيك، ثم تشهد شهادة الحق، فقام، واغتسل، وطهّر ثوبَيْه، وتشهّد شهادة الحق، ثم قام فركع ركعتين، ثم قال لهما: إن ورائي رجلاً إن اتبعكما لم يتخلّف عنه أحد من قومه، وسأرسله إليكما الآن، وهو سعد بن معاذ، ثم أخذ حربته وانصرف إلىٰ سعدٍ وقومه، وهم جلوس في ناديهم، فلما نظر إليه سعد بن معاذ مُقبلاً، قال: أحلف بالله لقد جاءكم أُسَيْد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم، فلما وقف علىٰ النادي، قال له سعد: ما فعلت؟ قال: كلّمت الرجلين، فوالله ما رأيت بهما بأساً، وقد نهيتهما، فقالا: نفعل ما أحببت، وقد حُدثت أن بني حارثة قد خرجوا إلىٰ أسعد بن زرارة ليقتلوه، وذلك أنهم عرفوا أنه ابن خالتك، ليُخْفِروك. فقام سعد مغضباً مبادراً، تخوُّفاً للذي ذُكر له من بني حارثة فأخذ الحربة من يده، ثم قال: والله ما أراك أغنيت شيئاً، ثم خرج إليهما، فلما رآهما سعد مُطمئنين عرف أن أُسيداً إنما أراد أن يسمع منهما، فوقف عليهما مُتشتماً، ثم قال لأسعد بن زرارة: يا أبا أمامة، والله لولا ما بيني وبينك من القرابة ما رُمْت مني هذا، أتغشانا في دارينا بما نكره، وقد قال أسعد بن زرارة لمصعب بن عمير: أي مصعب، جاءك والله سَيّد مَن وراءَه من قومه، إن يتبعك لا يتخلّف عنك منهما اثنان. فقال له مصعب: أوَتقعد فتسمع، فإن رضيت أمراً ورغبت فيه قبلته، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره؟ قال سعد: أنصفت، ثم ركّز الحربة وجلس، فعرض عليه الإسلام، وقرأ عليه القرآن، قالا: فعرفنا والله في وجهه الإسلام قبل أن يتكلّم لإشراقه وتسهّله، ثم قال لهما: كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم ودخلتم في هذا الدين؟ قالا: تغتسل فتطهر، وتُطَهِّر ثوبك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم تُصلّي ركعتين، فقام فاغتسل، وطهّر ثوبه، وتشهّد شهادة الحق، ثم ركع ركعتين، ثم أخذ حربته، فأقبل عامداً إلىٰ نادي قومه، ومعه أُسَيْد بن حُضير.

فلما رآه قومه مقبلاً، قالوا: نحلف بالله، لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم، فلما وقف عليهم، قال: يا بني

عبد الأشهل، كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا: سيدنا، وأفضلنا رأياً، وأيمننا نقيبةً، قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم عليّ حرام، حتىٰ تُؤمنوا بالله وبرسوله. قالا: فوالله ما أمسىٰ في دار بني عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلماً أو مسلمةً. ورجع أسعد ومصعب إلىٰ منزل أسعد بن زرارة، فأقام مصعب عند أسعد يدعو الناس إلىٰ الإسلام، حتىٰ لم تبقَ دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون، إلا ما كان في دار بني أمية بن زيد، وخطْمة، ووائل، وواقف، وتلك أوس الله، وهم من الأوس بن حارثة، وذلك أنه كان فيهم: أبو قيس بن الأسلت، وهو صيفي، وكان شاعراً لهم قائداً، يستمعون منه ويُطيعونه، فوقف بهم عن الإسلام.

بيعة العقبة الثانية:

رجع مصعب بن عمير ﷺ إلىٰ مكة، وجاء موسم الحجّ، وخرج من خرج من يثرب مسلمين ومشركين، ولما قدموا مكة واعد المسلمون رسول الله ﷺ العقبة، يوم أوسط أيام التشريق ليلاً بعد الثُلْثِ منه، وقد أمرهم ألا يُنبهوا نائماً، ولا ينتظروا غائباً حين أراد الله بهم ما أراد من كرامته والنصر لنبيّه، وإعزاز الإسلام وأهله، وإذلال الشرك وأهله.

فلما فرغ الحجّاج من حجّهم، ونام أهل يثرب في رحالهم، مسلمهم وكافرهم، ومضىٰ ثلث الليل من يوم الموعد، خرج المسلمون من رحالهم لميعاد رسول الله ﷺ، وتسلّلوا تسلُّل القطا حتىٰ اجتمعوا في الشِّعْب، وكانوا ثلاثةً وسبعين رجلاً، منهم اثنان وستون من الخزرج، وأحد عشر من الأوس، ومع الرجال امرأتان، هما: نُسَيبة بنت كعب المازنية من بني النجّار، وأسماء بنت عمرو من بني سلمة. ووافاهم رسول الله ﷺ، وليس معه إلا عمّه العبّاس بن عبد المطلب، وكان لا يزال علىٰ دين قومه، جاء يستوثق لابن أخيه، فقال العبّاس: يا معشر الخزرج، إن محمداً منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا ممن هو علىٰ مثل رأينا فيه، فهو في عزٍّ من قومه، ومَنعةٍ في بلده، وإنه قد أبىٰ إلا الانحياز إليكم، واللحوق بكم، فإن كنتم ترَوْن أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما

تحمّلتم من ذلك، وإن كنتم ترَوْن أنكم مُسلّموه وخاذِلوه بعد الخروج إليكم، فمن الآن فدعوه، فإنه في عزٍّ ومَنَعَةٍ من قومه وبلده.

قالوا: قد سمعنا ما قلت، فتكلّم يا رسول الله، فخذ لنفسك وربّك ما أحببت.

فتكلّم رسول الله ﷺ، فتلا القرآن، ودعا إلىٰ الله، ورغّب في الإسلام، ثم قال: «اشترط لربي أن تعبدوه وحده، ولا تُشركوا به شيئاً، ولنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم متىٰ قدمت عليكم». فتقدّم البراء بن مَعْرور[1] فأخذه بيده، ثم قال: نعم، والذي بعثك بالحق نبيًّا، لنمنعنّك مما نمنع منه نساءنا، فبايِعْنا يا رسول الله، فنحن والله أبناء الحروب، وأهل السلاح، ورثناها كابراً عن كابر... فاعترض القولَ أبو الهيثم بن التيّهان[2]، والبراء يُكلّم رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، إن بيننا وبين الرجال حبالاً، وإنا قاطِعوها ـ يعني يهود ـ فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك، ثم أظهرك الله، أن ترجع إلىٰ قومك وتدعنا؟ فتبسّم رسول الله ﷺ، ثم قال: «بل الدم الدم، والهدم الهدم[3]، أنا منكم وأنتم مني، أُحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم».

وابتدأت البيعة، فبايع البراء بن معرور أول من بايع، ثم تتابع الجميع،

---

(١) البراء بن معرور بن صخر بن خنساء بن سنان: السيد، النقيب، أبو بشر الأنصاري الخزرجي، أحد النقباء ليلة العقبة، وهو ابن عمّة سعد بن معاذ. وكان نقيب قومه بني سلمة، وكان أول من بايع ليلة العقبة الأولىٰ، وكان فاضلاً، تقياً، فقيه النفس، مات في صفر قبل قدوم رسول الله ﷺ المدينة بشهر.

(٢) أبو الهيثم بن التيّهان: مالك بن التيهان الأنصاري الأوسي، أبو الهيثم، صحابي. كان يكره الأصنام في الجاهلية، ويقول بالتوحيد، هو وأسعد بن زرارة، وكان أول من أسلم من الأنصار بمكة، وهو أحد النقباء الإثني عشر، شهد بدراً وأُحُداً والمشاهد كلها، وتوفي في خلافة عمر رضي الله عنه، وقيل: شهد صِفِّين مع عليّ رضي الله عنه، وقُتل فيها سنة ٣٧هـ. وكان شاعراً، له قصيدة في رثاء النبيّ ﷺ يقول فيها:

لقد جُدعت آذاننا وأنوفنا غداة فُجعنا بالنبيّ محمد

(٣) عبارة تقولها العرب عند عقد الحلف والجوار، أي دمي دمك، وهدمي هدمك فما هدمت من الدماء هدمته أنا.

ثم قال لهم رسول الله ﷺ: «أخرجوا إليّ منكم إثني عشر نقيباً ليكونوا علىٰ قومهم بما فيهم»، فأخرجوا تسعةً من الخزرج وثلاثةً من الأوس، وهم:

١ ـ البراء بن معرور. ٢ ـ أسعد بن زرارة. ٣ ـ سعد بن الربيع. ٤ ـ سعد بن عبادة. ٥ ـ عبدالله بن رواحة. ٦ ـ عبدالله بن الصامت. ٧ ـ رافع بن مالك. ٨ ـ عبدالله بن عمرو بن حرام. ٩ ـ المنذر بن عمرو. ١٠ ـ أُسيد بن حُضَير. ١١ ـ سعد بن خَيْثمة. ١٢ ـ أبو الهيثم مالك بن التيهان.

التسعة الأوائل من الخزرج، والثلاثة الأواخر من الأوس.

وبعد البيعة قال رسول الله ﷺ: «ارفضّوا[1] إلىٰ رحالكم». فقال له سعد بن عبادة: والذي بعثك بالحق، إن شئت لنميلن علىٰ أهل مِنى غداً بأسيافنا؟ فقال رسول الله ﷺ: «لم نُؤمر بذلك، ولكن ارجعوا إلىٰ رحالكم». فرجعوا إلىٰ مضاجعهم، فناموا حتىٰ الصباح.

فلما أصبح الصباح، جاء وفد من قريش، فقالوا لهم: يا معشر الخزرج، إنه قد بلغنا أنكم جئتم إلىٰ صاحبنا هذا، تستخرجونه من بين أظهرنا، وتُبايعونه علىٰ حربنا، وإنه والله ما من حيٍّ من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم، منكم، أما المسلمون فقد صمتوا، وكان ينظر بعضهم إلىٰ بعض، وأما المشركون فقد اندفعوا يحلفون بالله أنه ما كان من هذا شيء، ولا يعلمون شيئاً من هذا... ثم انصرف وفد قريش، وقد صدّقوا ما قيل لهم، وذهبوا إلىٰ عبدالله بن أُبيّ بن سلول، فسألوه، فقال: والله إن هذا الأمر جسيم، ما كان قومي ليتفوّتوا عليّ بمثل هذا، وما علمته كان... ثم انصرفوا، ولما سافر حجاج يثرب... انتشر الخبر في مكة كثيراً، فوجدت قريش أن الأمر قد تمّ فخرجت في طلب القوم، فأدركت سعد بن عُبادة، وكان أحد النقباء، فأخذوه أسيراً إلىٰ مكة، وأفلت منهم المنذر بن عمرو و... وقد عُذب سعد بن عُبادة في مكة ثم أجاره جبير بن

---

(١) ارفضُّوا: أي تفرّقوا.

المُطْعم بن عديٍّ، والحارث بن حرب بن أُميّة إذ كان سعد يُجير لهما تجارتهما في يثرب.

فلما رجع مسلمو يثرب إليها، أظهروا الإسلام فيها، وكان عمرو بن الجَمُوح قد اتخذ في بيته صنماً، إلا أن من آمن من أهله كان يُلقي الصنم في الليل على المزابل فيُعيده عمرو بعد أن يغسله، ويُطهِّره، ويُطيّبه، ولما تكررت الحادثة أدرك عمرو ما قيمة الصنم، فألقاه وأسلم. وكان آخر الأنصار إسلاماً.

أما مكة، فقد اشتدّ أذىٰ مشركيها علىٰ من أسلم بعد أن علموا أن محمداً ﷺ قد حالف أهل يثرب عليهم. وعندها أمر رسول الله ﷺ أصحابه الذين هاجروا إلىٰ الحبشة وعادوا، والذين معه من المسلمين بمكة بالخروج إلىٰ المدينة والهجرة إليها، والالتحاق بإخوانهم من الأنصار، أي أمر أن يجتمع المسلمون كلهم في مكانٍ واحدٍ حتىٰ تقوىٰ كلمتهم، ويُمكن إقامة الدولة الإسلامية لتطبيق منهج الله في الأرض.



الهجرة

بدأ المسلمون ينتقلون حسب أوامر رسول الله ﷺ إلىٰ يثرب، لحاقاً بإخوانهم المسلمين وفراراً بدينهم، وكان أول من هاجر من مكة إلىٰ يثرب أبو سلمة عبدالله بن عبد الأسد المخزومي ابن عمّة رسول الله ﷺ، وقد هاجر قبل بيعة العقبة الثانية بعام تقريباً، إذ اشتدّ أذىٰ قريشٍ عليه بعد أن رجع من الحبشة، وعلم بدء انتشار الإسلام في يثرب فانتقل إليها، وكانت معه زوجته أم سلمة (هند بنت أبي أمية) وولدهما (سلمة)، إلا أن أهل هند قد حالوا دون خروج ابنتهم مع زوجها، ثم لحقت به بعد مدةٍ، وتتحدّث هي عن هجرتها فتقول: لما أجمع أبو سلمة الخروج إلىٰ المدينة رحّل لي بعيره، ثم حملني عليه، وحمل معي ابني (سلمة) في حجري، ثم خرج بي يقود بعيره، فلما رأته رجال بني المُغيرة بن عبدالله بن عمر بن مخزوم، قاموا إليه، فقالوا: هذه نفسك غلبتنا عليها، أرأيت صاحبتك هذه؟ علامَ نتركك تسير بها في البلاد؟ قالت: فنزعوا خطام البعير من يده، فأخذوني منه. قالت: وغضب ذلك بنو عبد الأسد، رهط أبي سلمة، فقالوا: لا والله، لا نترك ابننا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا، قالت: فتجاذبوا ابني (سلمة) بينهم، حتىٰ خلعوا يده، وانطلق به بنو عبد الأسد، وحبسني بنو المغيرة عندهم، وانطلق زوجي (أبو سلمة) إلىٰ المدينة. قالت: ففُرِّق بيني وبين زوجي وبين ابني. قالت: فكنت أخرج كل غداةٍ فأجلس بـ(الأبطح)، فما أزال أبكي حتىٰ أُمسي، وذلك مدة سنةٍ أو قريباً منها، حتىٰ مرّ بي رجل من بني عمّي، أحد بني المغيرة، فرأىٰ ما بي فرحمني، فقال لبني المغيرة: ألا تخرجون هذه المسكينة، فرّقتم بينها وبين زوجها وبين ولدها، قالت: فقالوا لي: الحقي بزوجك إن شئتِ. قالت: وردّ بنو عبد الأسد إليّ عند ذلك ابني، فوضعته في حجري، ثم خرجت أُريد زوجي بالمدينة.

قالت: وما معي أحد من خَلْق الله. قالت: فقلت: أتبلّغ بمَن لقيتُ حتىٰ أقدم علىٰ زوجي، حتىٰ إذا كنت بـ(التنعيم) لقيتِ عثمان بن طلحة بن أبي طلحة، أخا بني عبد الدار، فقال لي: إلىٰ أين يا بنت أبي أمية؟ قالت: فقلت: أريد زوجي بالمدينة. قال: أوَما معك أحد؟ قالت: فقلت: لا والله، إلا الله وبُنيّ هذا. قال: والله ما لكِ من مَتْرك، فأخذ بخطام البعير، فانطلق معي يهوي بي، فوالله ما صحبت رجلاً من العرب قط، أرىٰ أنه كان أكرم منه، كان إذا بلغ المنزل أناخ بي، ثم استأخر عني، حتىٰ إذا نزلت استأخر ببعيري، فحطّ عنه، ثم قيّده بالشجرة، ثم تنحّىٰ عني إلىٰ شجرةٍ فاضطجع تحتها، فإذا دنا الرواح، قام إلىٰ بعيري، فقدّمه فرحّله، ثم استأخر عني، فقال: اركبي، فإذا ركبت واستويت علىٰ بعيري، أتىٰ فأخذ بخطامه، فقاده حتىٰ ينزل بي. فلم يزل يصنع بي ذلك حتىٰ أقدمني المدينة، فلما نظر إلىٰ قرية بني عمرو بن عوف بـ(قُباء)، قال: زوجك في هذه القرية ـ وكان أبو سلمة بها نازلاً ـ فادخليها علىٰ بركة الله، ثم انصرف راجعاً إلىٰ مكة.

ثم هاجر عامر بن ربيعة وزوجته ليلىٰ، وعبدالله بن جحش وأخوه عبد أبو أحمد وأهليهما، ثم تتابع المسلمون حتىٰ لم يبقَ بمكة منهم إلا أبو بكر، وعلي، وصهيب[1]، وزيد بن حارثة، وقليل من المستضعفين الذين لم

---

(١) صهيب بن سنان بن مالك، من بني النمر بن قاسط: صحابي، من أرمىٰ العرب سهماً، وله بأس، وهو أحد السابقين إلىٰ الإسلام. كان أبوه من أشراف الجاهليين. ولاّه كسرىٰ علىٰ (الأُبُلّة) موقع البصرة، وكانت منازل قومه في منطقة شمالي العراق، وبها وُلِد صهيب، فأغارت الروم علىٰ ناحيتهم، فسبوا صهيباً، وهو صغير، فنشأ بينهم، فكان (ألكن)، واشتراه منهم أحد بني كلب، وقدم به مكة، فابتاعه عبدالله بن جدعان التيمي، ثم أعتقه، فأقام بمكة يحترف التجارة، إلىٰ أن ظهر الإسلام، فأسلم (ولم يتقدمه غير بضعة وثلاثين رجلاً). فلما أزمع المسلمون الهجرة إلىٰ المدينة كان صهيب قد ربح مالاً وفيراً من تجارته، فمنعه مشركو قريش، وقالوا له: جئتنا صعلوكاً حقيراً، فلما كثُر مالك هممت بالرحيل؟ فقال: أرأيتم إن تركت مالي تخلون سبيلي؟ قالوا: نعم. فجعل لهم جميع ماله. فبلغ النبيّ ﷺ ذلك، فقال: «ربح صهيب، ربح صهيب». وشهد بدراً، وأُحُداً والمشاهد كلها. له ٣٠٧ أحاديث، وتوفي في المدينة سنة ٣٨هـ، وكان يُعرف بـ(صهيب الرومي). وفي الحديث «أنا سابق العرب، وصهيب سابق الروم، وسلمان سابق فارس، وبلال سابق الحبشة».

تمكنهم حالتهم من الهجرة، ولما أراد أبو بكر الهجرة، قال له رسول الله ﷺ: «علىٰ رِسْلك، فإني أرجو أن يُؤذن لي». فقال أبو بكر: وهل ترجو ذلك بأبي أنت؟ قال: نعم. فحبس أبو بكر نفسه علىٰ رسول الله ﷺ ليصحبه، وعَلَفَ راحلتين كانتا عنده ورق السمر استعداداً لذلك.

ولما أراد صهيب الهجرة، قال له كفار قريش: أتيتنا صعلوكاً حقيراً، فكثر مالك عندنا، وبلغت الذي بلغت، ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك، والله لا يكون ذلك، فقال لهم صهيب: أرأيتم إن جعلت لكم ما لي أتخلّون سبيلي؟ قالوا: نعم. قال: فإني قد جعلت لكم مالي. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقال: «ربح صهيب، ربح صهيب».

وأقام رسول الله ﷺ بمكة بعد أصحابه من المهاجرين، ينتظر أن يُؤذن له في الهجرة، ولم يتخلّف معه بمكة أحد من المهاجرين إلا مَن حُبس أو فُتن إلا عليّ بن أبي طالب، وأبو بكرٍ الصديق رضي الله عنهما.

أما قريش، فقد علمت وسمعت كل ما حدث فتداعت إلىٰ اجتماعٍ في دار الندوة لتبحث بما هي فاعلة. فتشاوروا في الأمر، فاقترح بعضهم أن يتركوه يخرج لتستريح منه مكة وأبناؤها، فرُفِض هذا الاقتراح، إذ قالوا: تجتمع هناك حوله رجال القبائل، وربما رمانا بها، واقترح بعضهم أن يُصَفَّدَ بالحديد ويُترك، حتىٰ يقضي عليه الموت، فرُفِض أيضاً هذا الاقتراح، وقالوا: ربما حاول أتباعه أن يُنقذوه فتقع الحرب بيننا، ونحن في غنى عنها. ثم تمّ الاتفاق علىٰ رأيٍ اقترحه طاغيتهم أبو جهل إذ قال: أن نأخذ من كل قبيلةٍ فتىً، شاباً، جِلداً، نسيباً، وسيطاً فينا، ثم نُعطي كل فتى منهم سيفاً صارماً، ثم يعمدوا إليه، فيضربوه ضربة رجلٍ واحدٍ، فيقتلوه، فنستريح منه. فإنهم إن فعلوا ذلك، تفرّق دمه في القبائل جميعاً، فلم يستطع بنو عبد مناف علىٰ حرب قومهم جميعاً، فيرضوا منا بالعَقْل (بالديّة) فعقلناه لهم.

وأعلم الله ﷻ نبيّه بما تمّ في دار الندوة، وأمره ألا يبيت هذه

الليلة علىٰ فراشه، وأَذِنَ له بالهجرة. فأسرع رسول الله ﷺ فخبر أبا بكرٍ بذلك، وأنه صاحبه في الرحلة، فَعَرَضَ عليه أبو بكرٍ رضي الله عنه إحدىٰ راحلتيه اللتين كانتا مُعَدّتين لذلك، فجهّزهما أحسن الجهاز، ووضع الطعام في جرابٍ، فقطعت أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قطعةً من نطاقها، فربطت به فم الجراب.

واستأجر أبو بكر الصديق رضي الله عنه (عبدالله بن أُريقط)، وكان مشركاً علىٰ دين كفار قريش، فأمناه، ودفعا إليه الراحلتين، وواعداه (غار ثور) بعد ثلاث ليالٍ، وكان عبدالله بن أُريقط دليلاً ماهراً، وخِرِّيتاً في الطريق. ثم فارق رسول الله ﷺ أبا بكر، وواعده الالتقاء بعد منتصف الليل خارج مكة في مكانٍ حَدّداه بدقةٍ، وكانت هذه ليلة التنفير لدىٰ قريشٍ لقتل رسول الله ﷺ ولما كانت ظُلمة الليل اجتمعوا أمام داره يراقبونه حتىٰ ينام، فإذا فعل انقضُّوا عليه. فلما رأىٰ ذلك رسول الله ﷺ أمر ابن عمّه علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن ينام علىٰ فراشه، وأن يتسجّىٰ ببرده، كعادته هو إذا نام. وكانت وظيفة عليّ رضي الله عنه التمويه عن رسول الله ﷺ ليلاً، وتأدية الودائع التي عند رسول الله، إلىٰ أصحابها.

وحان موعد الخروج، فخرج رسول الله ﷺ من داره وهو يتلو ﴿يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾﴾ [يس]. فألقىٰ الله النوم عليهم حتىٰ لم يره أحد، وسار رسول الله ﷺ لموعد الصديق رضي الله عنه، فالتقيا، وانطلقا إلىٰ غار ثور، فأقاما فيه.

أما قريش فبقيت تنتظر، وينظر رجالها من خلال ثقوب الباب فيرون إنساناً نائماً، ولا يعدو عندهم محمداً، وأتاهم طارق لم يكن معهم فسألهم عما ينتظرون، فقالوا: محمداً، قال: قبّحكم الله لقد خرج محمد، وانطلق

لحاجته، فأسرعوا فنظروا من خلال ثقوب الباب فرأوا النائم مكانه، فلم يُصدّقوا، وانبلج الصبح، واستيقظ عليّ ﷺ، فلما رأوه سألوه عن محمدٍ ﷺ فقال: لا أدري، فانطلقوا مسرعين من كل جهةٍ يفتشون عن رسول الله ﷺ، وقادهم الطلب حتىٰ غار ثور، إلا أن الله سبحانه وتعالىٰ أعماهم عنهما، وقد بكىٰ أبو بكر الصديق ﷺ، إذ لاحظ أنه لو نظر أحدهم إلىٰ موضع قدميه لرآهما، فقال له رسول الله ﷺ: «لا تحزن، إن الله معنا».

قال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [التوبة].

وأقام رسول الله ﷺ وصاحبه أبو بكرٍ ﷺ في الغار ثلاث ليالٍ، حتىٰ ينقطع عنهما الطلب. وكان يبيت معهما عبدالله بن أبي بكرٍ، ويخرج من عندهما بالسحر، فيصبح مع قريشٍ في مكة كأنه نائم بها، وفي المساء يأتي إليهما، ومعه أخبار مكة وأهلها جميعاً. كما يغدو ويروح عليهما عامر بن فهيرة، مولىٰ أبي بكر، ومعه عدد من الأغنام يرعاها، ويتبع أثر عبدالله بن أبي بكر حتىٰ لا يظهر، ويسقيهما من لبن الغنم. فلما انقطع الطلب خرجا، وقد جاءهما الدليل صبح ثلاث مضت.

أما قريش فقد ذهب بعض أعيانها إلىٰ دار أبي بكرٍ الصدّيق ﷺ، فوقفوا علىٰ الباب، فخرجت إليهم أسماء بنت أبي بكرٍ، فقالوا لها: أين أبوك يا بنت أبي بكرٍ؟ فقالت: لا أدري والله أين أبي، فضرب أبو جهل خدّها ضربةً قاسيةً.

خرج رسول الله ﷺ من الغار مع صاحبه أبي بكر، ومعهما عامر بن فُهيرة، والدليل عبدالله بن أُريقط، وانطلقوا يسلكون طريق الساحل، وكانت قريش قد جعلت مائة ناقةٍ لمن يأتي بمحمدٍ أو صاحبه قتلاً أو أسراً، وسار

أصحاب الأطماع يُفتشون، وبينما كان سراقة بن مالك[1] يجلس في نادي قومه بني مدلج، وهو ممن عُرف بالعدوّ والصعلكة إذ يدخل رجل فيقول: لقد رأيت ثلاثةً ما أظنّ إلا أنهم محمد وصحبه، فأومأ إليه أن اسكت، وقال: ولكنهم بنو فلان، ثم خرج هو إثرهم، ويقول في ذلك: (لما خرج رسول الله ﷺ من مكة مهاجراً إلىٰ المدينة، جعلت قريش فيه مائة ناقةٍ لمن ردّه عليهم. قال: فبينما أنا جالس في نادي قومي إذ أقبل رجل منا، حتىٰ وقف علينا، فقال: والله! لقد رأيت ركبةً ثلاثةً مرُّوا عليّ آنفاً، إني لا راهم إلا محمداً وأصحابه، قال: فأومأت إليه بعيني: أن اسكت، ثم قلت: إنما هم بنو فلان، يبتغون ضالّةً لهم، قال: لعلّه، ثم سكت. قال: ثم مكثت قليلاً، ثم قمت فدخلت بيتي، ثم أمرت بفرسي، فقُيّد لي إلىٰ بطن الوادي، وأمرت بسلاحي، فأخرج لي من دِبرِ حُجرتي، ثم أخذت قِداحي التي أستقسم بها، ثم انطلقت، فلبست لأْمتي، ثم أخذت قِداحي فاستقسمت بها، فخرج السهم الذي أكره، قال: وكنت أرجو أن أردّه علىٰ قريشٍ، فآخذ المائة ناقة. قال: فركبت علىٰ أثره، فبينما فرسي يشتدّ بي، عثر بي، فسقطت عنه، قال: فقلت: ما هذا؟ قال: ثم أخرجت قداحي فاستقسمت بها، فخرج السهم الذي أكره، قال: فأبيت إلا أن أتبعه، فركبت في أثره، فلما بدا لي القوم ورأيتهم، عثر بي فرسي، فذهبت يداه في الأرض، وسقطت عنه، ثم انتزع يديه من الأرض، وتبعهما دخان كالإعصار. قال: فعرفت حين رأيت ذلك، أنه قد مُنع مني، وأنه ظاهر. قال: فناديت القوم، فقلت: أنا سُراقة بن جُعْشُم انظروني أُكلّمكم، فوالله لا أريبكم، ولا يأتيكم مني شيء تكرهونه. قال: فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر، قل له: وما تبتغي منا؟ قال: فقال ذلك أبو بكر. قال: قلت: تكتب لي كتاباً يكون آيةً بيني

(١) سُراقة بن مالك بن جعشم المدلجي الكناني، أبو سفيان: صحابي، له شعر، كان ينزل قديداً. له في كتب الحديث تسعة عشر حديثاً، كان في الجاهلية قائفاً (اقتضاص الأثر وإصابة الفراسة، اشتهر بها في العرب آل كنانة، واختصّ بها من كنانة بنو مدلج). أخرجه أبو سفيان ليقتفي أثر رسول الله ﷺ، حين خرج إلىٰ الغار مع أبي بكرٍ ﷺ، وأسلم بعد غزوة الطائف سنة ثمانٍ للهجرة، وتوفي سنة أربعٍ وعشرين للهجرة.

وبينك. قال: اكتبْ يا أبا بكرٍ. فكتب له. فرجع سُراقة، وتابع رسول الله ﷺ ومن معه حتىٰ وصل إلىٰ (قباء)، قبيل الظهر في اليوم الثاني عشر من شهر ربيع الأول في السنة الثالثة عشرة للبعثة يوم الاثنين).

أقام رسول الله ﷺ بـ(قباء) في بني عمرو بن عوف مدة خمسة أيام إذ سار يوم الجمعة، وبنىٰ هناك أول مسجدٍ في الإسلام، ووضع رسول الله ﷺ أول حجرٍ باتجاه القبلة، ووضع أبو بكر رضي الله عنه حجراً بجانب حجر رسول الله ﷺ وأدركته صلاة الجمعة في بني سالم بن عوف إذ صلاّها في بطن وادي (رانوناء)، وكانت أول جمعةٍ صلاها بالمدينة. وسار نحو المدينة، وكانت القبائل تعترض سبيله ترجوه أن ينزل عندها، وتتعهد بحمايته وإكرامه، ولكنه ﷺ، كان يقول: «دعوا الناقة فإنها مأمورة»، فبقيت تسير حتىٰ بَرَكت في حيّ بني مالك بن النجار، مكان مسجده ﷺ اليوم في مكانٍ كان يُجَفَّف فيه التمر، وكان يُسمّىٰ مِربداً، وهو لغلامين يتيمين، هما: سهل وسهيل ابنا عمرو، فنزل رسول الله ﷺ عن الناقة، ونزل بدار خالد بن زيد (أبي أيوب الأنصاري)[1]، واشترىٰ المِربد من ابنَي عمرو، وبدأ ببناء المسجد، وعُرفت (يثرب) باسم (مدينة الرسول) ثم (المدينة المنورة).

ونلاحظ في هذه المرحلة الثقة التامة من الناس برسول الله ﷺ، والثقة التامة من رسول الله ﷺ بنصر الله وتأييده، فأهل مكة من المشركين علىٰ الرغم من عدائهم لرسول الله ﷺ يضعون عنده أماناتهم، وعلىٰ الرغم من اتهامهم له بشتىٰ أنواع التهم، من جنونٍ، وسحرٍ، وكهانةٍ، وتفريقٍ بين المرء وزوجه كانوا لا يجدون مكاناً لودائعهم إلا عنده، فأية أمانةٍ وأية ثقةٍ أكبر من

---

(١) خالد بن زيد بن كليب بن ثعلبة (أبو أيوب الأنصاري) من بني النجار: صحابي، شهد العقبة، وبدراً، وأُحُداً، والخندق وسائر المشاهد. وكان شجاعاً، صابراً، تقياً، محباً للغزو والجهاد. عاش إلىٰ أيام بني أمية، وكان يسكن المدينة، ورحل إلىٰ الشام، ولما غزا يزيد بن معاوية القسطنطينية في خلافة أبيه، صحبه أبو أيوب غازياً، فحضر الوقائع، ومرض، فأوصىٰ أن يوغل به في أرض العدوّ، ثم توفي سنة أربعٍ وخمسين للهجرة، ودُفن في أصل حصن القسطنطينية. وله (١٥٥) حديثاً.

هذا، عدوّ مأمون، ومكروه محبوب، وعلىٰ الرغم من أن المسلمين قد تركوا أموالهم في مكة، ودورهم، وأملاكهم، وأن المشركين قد منعوا خروج صهيب حتىٰ يترك ما جناه لنفسه عندهم من تعبه وعرق جبينه. فإن رسول الله ﷺ لم يستحلّ درهماً واحداً مقابل هذا، فأبقىٰ رسول الله ﷺ ابن عمّه عليًّا رضي الله عنه ثلاثة أيام عن رسول الله، فأدّىٰ مُهمّته، ثم لحق برسوله الكريم، ووصل إلىٰ قباء ولَم يزل رسول الله ﷺ فيها.

عندما مضت الأيام الثلاثة، ورسول الله ﷺ وصاحبه في الغار، جاءهما الدليل عبدالله بن أُريقط بالراحلتين، فقدّم أبو بكر رضي الله عنه أفضلهما لرسول الله، فقال له عليه الصلاة والسلام: «لا أركب ما ليس لي»، فقال له أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله، فداك أبي وأمي، الراحلتان لك، فقال له: «لا، ولكن أركبها بالثمن». وقد يستغرب المرء هذا القول، فأبو بكر رضي الله عنه قد قدّم جلّ ماله في سبيل الدعوة، وهو يعطي الكثير الكثير، والآن وفي هذا الموقف الحرج يقول رسول الله ﷺ ما يقول، ولكن الأمر أبعد من هذا بكثير وأعمق، فرسول الله ﷺ علىٰ الرغم مما هم فيه من موقفٍ حرجٍ وشدّةٍ في الطلب لا ينسىٰ أنه المعلم، وأنه الأسوة الحسنة للمسلمين علىٰ مَدىٰ الأيام، فيُريد أن يُعلّم الناس، ويُعرّف الدعاة أن المسلم يجب ألا يكون عالةً علىٰ أحد في حياته كلها مهما اشتدت به الحال، وعليه أن يسعىٰ ويجدّ ليحصل علىٰ حاجياته كلها، ومُتطلبّاته، وأن رسول الله ﷺ سيوفي ثمن الناقة عندما يتهيأ لديه المال، وأنه إذ أصابها شيء فهو صاحبها والمسؤول عنها.

انطلق رسول الله ﷺ من مكة مُطارداً، خائفاً يترقّب، مُهدّداً بالقتل، مُعرّضاً للأسر، ولكنه كان واثقاً من نصر الله وتأييده إلىٰ أبعد الحدود، فعندما أدركه سُراقة بن مالك يُريد ردّه لقريش، قال له رسول الله ﷺ: «يا سُراقة، ما رأيك بسواري كسرىٰ؟» وهو في تلك الحالة يُمنّي الذي يُلاحقه بانهيار أكبر إمبراطورية وقتذاك، وهي إمبراطورية فارس، وأن يأخذ ذلك البدويّ من بني مُدلج الطامع في مائة ناقةٍ من قريشٍ مقابل ردّ رسول الله، أن يجلس مكان كسرىٰ، وأن يلبس سواريه... ولقد صدق الله وعده ونصر عبده.

ونلاحظ أنه بهجرة رسول الله ﷺ إلىٰ المدينة، التي غدت داراً للإسلام وجب علىٰ كل مسلم أن يُهاجر إلىٰ دار الإسلام، إذ تجب الهجرة إلىٰ البلاد التي يستطيع المسلم أن يُؤدّي فيها شعائر دينه إذا كان في موطنه لا يستطيع ذلك. كما تجب الهجرة إذا اقتضت الظروف لجمع المسلمين والإفادة من طاقاتهم وإمكاناتهم المادية، والعسكرية، والمعنوية. أما إذا كان غير ذلك بحيث يستطيع المسلم تأدية شعائره والدعوة إلىٰ عقيدته، فمن الأفضل أن يبقىٰ في موطنه حيث هو؛ ليقوم بدوره في إبلاغ الإسلام والدعوة إلىٰ الله.

وإن وجود دار الحرب يقتضي وجود دارٍ للإسلام، فقبل هجرة رسول الله ﷺ لم تكن توجد دار إسلام، وبمقتضىٰ الحال لا توجد دار للحرب، فلم تكن مكة داراً للحرب، وعندما بدأ تطبيق الإسلام في المدينة أصبحت مكة دار حربٍ، وكانت الهجرة واجبة علىٰ المسلمين منها، حتىٰ إذا فُتحت أصبحت داراً للإسلام، ولم تعد الهجرة واجبةً منها، لذلك قال رسول الله ﷺ: «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية»[1].

ودار الإسلام هي البلاد التي يُطبّق فيها شرع الله، ولو لم يكن أكثر أهلها من المسلمين. ودار الحرب هي البلاد التي لا يُطبّق فيها شرع الله، ولو كان سكانها جميعهم من المسلمين. وعلىٰ هذا فإن الزمن الذي لا يوجد فيه مكان فيه الإسلام لا توجد دار للحرب وبالتالي لا توجد دار للإسلام، وعلىٰ كل مسلم، وعلىٰ المسلمين جميعاً في أيّ مصرٍ كانوا، أن يعملوا للإسلام، ويدعوًا له، ويُجاهدوا في سبيل الله، حتىٰ إذا أمكنهم إقامة دولةٍ إسلاميةٍ وُجِدت داران إحداهما للإسلام، وأُخرىٰ للحرب. وفي أية بقعةٍ لا يتمكّن مسلموها من إقامة شعائرهم فعليهم أن يُهاجروا إلىٰ بلادٍ يمكنهم فيها تأدية شعائرهم وتطبيق شرع الله.

وفي أيّة بقعةٍ احتاجت منها دار الإسلام أخصائيين أو فنيين أو قادة أو

---

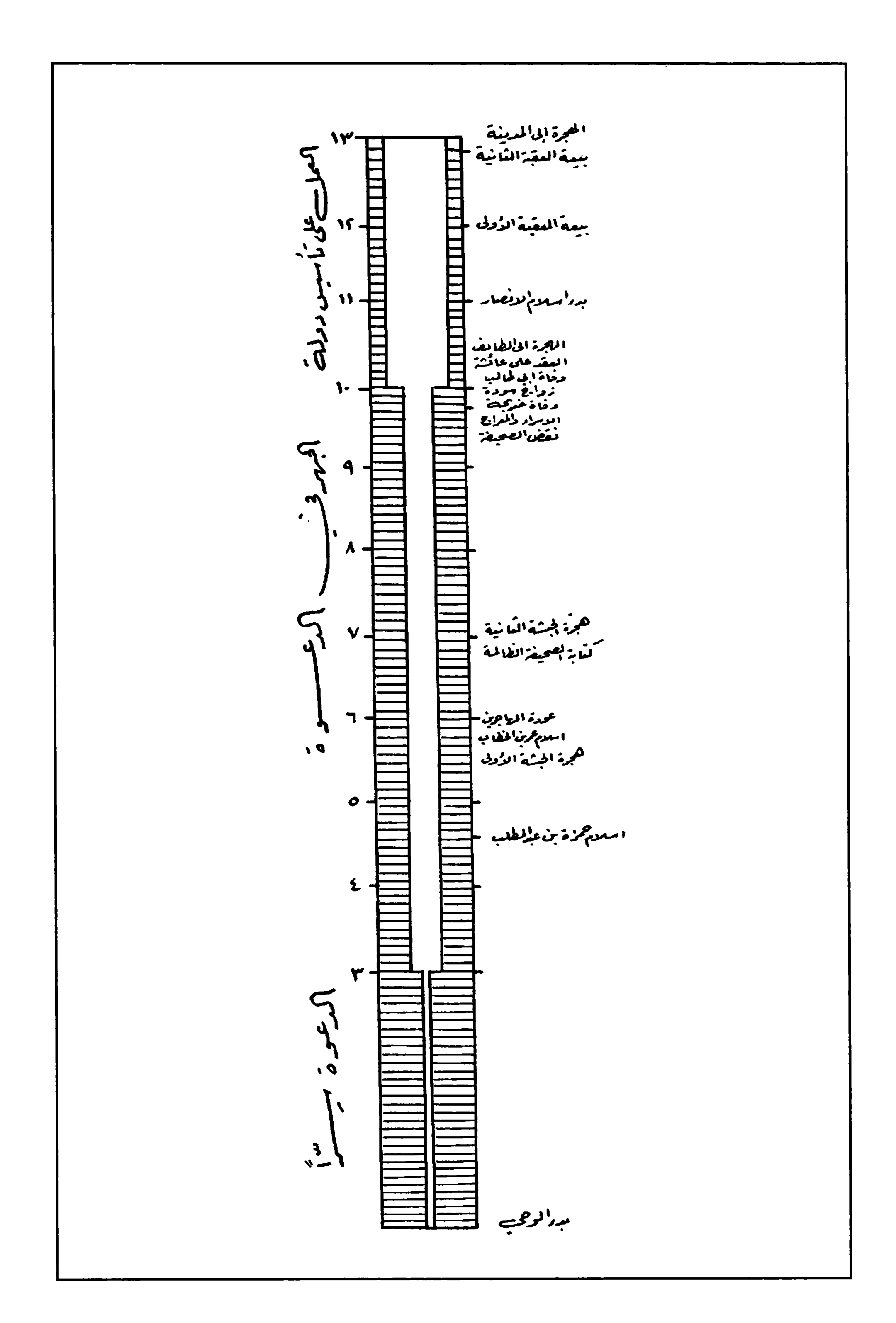
(١) متفق عليه من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

أفراداً مُخصّصين، فعلىٰ المسلمين أن يُهاجروا لتتقوّىٰ دار الإسلام، ونعمل علىٰ نشر الإسلام والدعوة له في كل مكانٍ حتىٰ يزول الظلم، وتنتهي الطواغيت من سطح الأرض. هذا مع الحذر والانتباه إذ يظهر المنافقون بصورٍ شتّىٰ ومنها الإيمان.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾﴾ [البقرة].

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن هذه الآيات نزلت في عبدالله بن أُبيّ بن سلول وأصحابه، وذلك أنهم خرجوا ذات يوم، فاستقبلهم نفر من أصحاب رسول الله ﷺ، فقال عبدالله بن أُبيّ: انظروا كيف أردّ هؤلاء السفهاء عنكم. فذهب فأخذ بيد أبي بكر، فقال: مرحباً بالصدّيق سيّد بني تَيْم، وشيخ الإسلام، وثاني رسول الله في الغار، الباذل نفسه وماله. ثم أخذ بيد عمر، فقال: مرحباً بسيّد بني عديّ بن كعب، الفاروق القوي في دين الله، الباذل نفسه وماله لرسول الله. ثم أخذ بيد عليّ، فقال: مرحباً بابن عمّ رسول الله، وختنه، سيّد بني هاشم ما خلا رسول الله. ثم افترقوا، فقال عبدالله بن أُبيّ بن سلول لأصحابه: كيف رأيتموني فعلت؟ فإذا رأيتموهم فافعلوا كما فعلت. فأثنوا عليه خيراً، فرجع المسلمون إلىٰ رسول الله ﷺ، وأخبروه بذلك فأنزل الله هذه الآية. فيجب أن لا يهتمّ المسلم بالمظاهر، وإبداء حسن الكلام.





العمل على تأسيس دولة
الجهر في الدعوة
الدعوة سراً
١٣
١٢
١١
١٠
٩
٨
٧
٦
٥
٤
٣
الهجرة إلى المدينة
بيعة العقبة الثانية
بيعة العقبة الأولى
بدء إسلام الأنصار
الهجرة إلى الطائف
العقد على عائشة
وفاة أبي طالب
زواج سودة
وفاة خديجة
الإسراء والمعراج
نقض الصحيفة
هجرة الحبشة الثانية
كتابة الصحيفة الظالمة
عودة المهاجرين
إسلام عمر بن الخطاب
هجرة الحبشة الأولى
إسلام حمزة بن عبد المطلب
بدء الوحي

دولة الإسلام في المدينة

عندما وصل رسول الله ﷺ إلىٰ يثرب (المدينة)، كان فيها مجموعات من السكان متباينة في عقيدتها، مختلفة في أهدافها، متفرقة في اجتماعاتها، كما كانت لديهم خلافات، بعضها قديم موروث، وبعضها حديث موجود، فكان هناك:

١ ـ المسلمون من الأوس والخزرج الذين دانوا بالإسلام، وعاهدوا الله ورسوله علىٰ نُصرة نبيّه، وإقامة شرعه، وهم يتعاونون من الناحية المادية، وهذا أمر طبيعي في كل مجتمعٍ.

٢ ـ المسلمون المهاجرون الذين هاجروا من مكة إلىٰ المدينة بعقيدتهم مع رسول الله ﷺ، وبأمرٍ وتوجيهٍ منه محافظةً علىٰ عقيدتهم، وجمعاً لأبناء دينهم، وتأسيساً لدولة الإسلام في سبيل تطبيق شرع الله، ودعوةً له، وللجهاد في سبيل الله. وقد تركوا أموالهم وأملاكهم في موطنهم الأول، كما تركوا أقرباءهم الذين لم يقبلوا الإسلام، وحافظوا علىٰ شِركهم وكفرهم. فالأخوة بالإيمان والدولة علىٰ أساس الإسلام، وهم فقراء لما تركوا في موطنهم الأول وبحاجةٍ إلىٰ دعم إخوانهم من سكان المدينة.

٣ ـ أناس أظهروا الإسلام عندما وجدوا قومهم قد دانوا به، وقد أظهروا الإسلام محافظةً علىٰ مركزهم، وعلىٰ الدعم القبلي، ومن هؤلاء بعض الوجهاء، أمثال عبدالله بن أُبي بن سلول[1] الذي كان قومه يهيئون له

---

(١) عبدالله بن أُبيّ بن مالك بن الحارث بن عبيد الخزرجي، أبو الحُباب، المشهور بـ(ابن سلول)، وسلول جدته لأبيه، من خُزاعة: رأس المنافقين في الإسلام من أهل المدينة. =

التاج ليُسوّدوه عليهم، فلما جاء الإسلام فقد ذلك المنصب الذي جعله يحقد علىٰ الإسلام، وعلىٰ نبيّه، ولكن لا بُدّ من مسايرة قومه حتىٰ تبقىٰ له بعض الوجاهة تُمكّنه من العمل ضد ما يحقد عليه، فأظهر الإسلام بعد غزوة بدرٍ، وفي نفسه حقد وشيء خفيّ.

٤ ـ المشركون من الأوس والخزرج الذين لم يدخلوا في الإسلام بعد. وكان لكل قبيلةٍ نادٍ خاص يلتقون به.

٥ ـ اليهود، وهم عدة قبائل: بنو قينقاع، بنو النضير، بنو قريظة، وكانوا يتحكّمون في يثرب سياسياً واقتصادياً قبل قدوم الرسول محمد ﷺ إليها، مستغلّين أوضاعهم المالية، ويوقدون نار الخلاف بين الأوس والخزرج فيُعطون السلاح لكلا الطرفين، فيتاجرون بالسلاح، ويمصُّون دم الحيين، ويشعرون بالسعادة حين يرون هلاك الآخرين من غير دينهم، وزيادةً في الكيد فقد حالف بنو قينقاع وبنو النضير الخزرج، وحالف بنو قريظة الأوس، وذلك ليتمكّنوا من إثارة الخلاف، وإيقاد نار البغضاء. وإضافةً إلىٰ هذه القبائل اليهودية وُجِد أفراد آخرون من اليهود لا ينتمون إلىٰ القبائل التي ذكرناها.

وكان اليهود حينما يصطدمون مع سكان يثرب، ويخسرون الجولة، يستفتحون عليهم، ويقولون لهم: لقد أظلّ زمان نبيٍّ من هذه البلاد، نتبعه، ونحاربكم معه، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به حقداً، وحسداً، ولؤماً إذ ليس منهم، فلعنة الله علىٰ الكافرين. ومن حقدهم بدأ تكذيبهم للرسول الكريم ﷺ، وإعلانهم للمسلمين أنه ليس هذا هو النبيّ المنتظر، ثم بدؤوا محاولة الدسّ والافتراء.

= كان سيّد الخزرج في آخر جاهليتهم، وأظهر الإسلام تقيةً بعد انتصار المسلمين في غزوة بدرٍ. ولما تهيّأ رسول الله ﷺ لغزوة أُحُدٍ انخزل ابن أُبيّ، وعاد بثلاثمائة رجلٍ إلىٰ المدينة، وفعل ذلك يوم السير إلىٰ تبوك. وكان كلما حلّت بالمسلمين نازلة شَمِتَ بهم، وكلما سمع بسيئةٍ نشرها. ومات سنة تسع للهجرة، وتقدّم رسول الله ﷺ فصلّى عليه. ولم يكن ذلك من رأي عمر رضي الله عنه، فنزلت الآية الكريمة ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [التوبة].

وكان عبدالله بن أُبيّ بن سلول عملاقاً، يركب الفرس فتخُطّ إبهاماه في الأرض.

قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [البقرة].

وقال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ [البقرة].

وقال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنعام].

٦ً ـ كان هناك خلاف مستحكم بين الأوس والخزرج، وكانت بينهم أيام وحروب في الجاهلية، وآخرها يوم (بُعاث)، ولا يزال في النفوس شيء منها.

كان على رسول الله ﷺ أن يحلّ هذه المشكلات جميعها بأن يُزيل آثار الماضي، ويُوحِّد قلوب المسلمين، ويُوجِد حلاً للمعضلة المالية، ويُؤلِّف بين سكان المدينة من مسلمي الأوس والخزرج والمهاجرين، ويجعلهم كتلةً واحدةً تقف في وجه اليهود فيما إذا أرادوا الغدر، وهو ديدنهم في الحياة، وأن يُعاهدهم ما دام لم يظهر منهم شيء.

كان أول عملٍ قام به رسول الله ﷺ أن بنى المسجد العام في الفناء الذي بركت فيه ناقته، وذلك بعد بناء مسجد قباء، وكان الفناء مِربداً للتمر، وفيه قبور، وفيه شجرات نخل، وجذوع هرمة، وحفر مهجورة، فنُبشت القبور، وقُطعت الجذوع، وسُوّيت الحُفر، واشترك المسلمون جميعاً في هذا العمل بما فيهم رسول الله ﷺ، وكانت تُنْشَدُ الأراجيز، وكان أول عملٍ تعاونيٍّ عام، وحّد بين القلوب، وأظهر الهدف العام للعمل.

وكان لكل حيٍّ في المدينة مكان يلتقون فيه، يسمرون ويسهرون، يتقايضون، وينشدون الأشعار. فكانت هذه الحال تدلّ على التفرقة والاختلاف، فعندما بُني المسجد كان مركز المسلمين جميعاً ومكان اجتماعهم، يلتقون به كل حينٍ، يسألون رسول الله ﷺ فيأخذون منه، يُرشدهم ويُوجّههم، يبيعون ويشترون، ويستقبلون ويجتمعون، حتى إذا

حدثت أصوات تُزعج المصلين خُصِّص جانب من المسجد لأعمال الدنيا، وآخر للصلاة والعبادة. وبهذا تجمّعت الأندية، والتقت الأحياء، واقتربت القبائل، وتحابّت البطون، وانقلبت التفرقة إلىٰ وحدة، وانقلبت التجزئة إلىٰ انسجام، ولم تعد في المدينة جماعات بل جماعة واحدة، ولم تعد زعامات بل قائد واحد هو رسول الله ﷺ يتلقّىٰ من ربِّه ويُعلِّم أُمَّته.

ولم يكن المسجد مركزاً لحيٍّ مُعيَّن أو أُسرةٍ خاصّةٍ كدار الأرقم بن أبي الأرقم رضي الله عنه في مكة، وإنما أصبح عاماً للمسلمين عامةً، يأتي إليه المسلم في الوقت الذي يراه، ولم تعد ضرورة لوجود جماعةٍ إسلاميةٍ معينةٍ ولا للدعوة السِّرِّيَّة التي كانت موجودة في مكة، وإنما أصبح المسلمون كلهم صفاً واحداً ترعاهم الدولة مُتمثّلةً بقيادة الجماعة التي كانت ترعىٰ جماعة مكة. وقد خفي هذا الأمر علىٰ الكثيرين، فأنكروا قيام جماعةٍ بعد أن اكتمل الإسلام في المدينة، وأنه لا ضرورة لوجود الجماعة بعدها حيث لم تكن في المدينة جماعة، ولكن العصر الذي كُنّا فيه إنما يتمثّل بمكة حيث لا توجد دار إسلام ولا دار حرب.

إننا نعيش في المجتمع المكي بكل ما في هذا المجتمع من مقومات ومعانٍ، لذا فإننا نستفيد من خطوات رسول الله ﷺ في مكة، ونسير علىٰ نهجه، وهو القدوة الحسنة لنا، ولكننا وإن كنا نعيش في مجتمع مكة إلا أننا لا نُطبّق ما كان يُطبِّقه المسلمون في مكة، ولكننا نُطبّق الإسلام الذي اكتمل في المدينة قبيل وفاة رسول الله ﷺ بقليل، أو أمر به رسول الله ﷺ أو فعله، قال الله تعالىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [المائدة]. نأخذ طريقة رسول الله ﷺ التي استطاع بها أن يتغلّب علىٰ المجتمع الجاهلي في الوقت الذي نُطبّق علىٰ أنفسنا، ونلزمها تعاليم الإسلام كافةً.

كان من نتائج العمل الأول لرسول الله ﷺ وهو بناء المسجد أن امتزجت النفوس والعقليات، وتقوّت الوحدة، وتآلفت الأرواح، وتعاونت الأجسام، فكان المسجد مركزاً لعملهم، وندوةً لهم ـ إن صحّ التعبير ـ ثم جاء عمل رسول الله ﷺ

الثاني تأكيداً للأول وزيادةً في مفهوم وحدة النفوس، فكانت المؤاخاة. ولم تكن المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، وإنما بين المسلمين، ولم تكن الغاية منها ماديةً بحتةً، واقتصاديةً صرفةً، وهو المتعارف عليه والمشهور، وعلىٰ هذا يُركّز المؤرخون، إذ لو كانت كذلك لكانت فعلاً بين المهاجرين والأنصار فقط، ولكننا نجد أن رسول الله ﷺ قد آخىٰ بينه ـ وهو سيّد البشر ـ وبين ابن عمه علي بن أبي طالب ﷺ وكلاهما مهاجر. وبين عمه الحمزة بن عبد المطلب وبين مولاه زيد بن حارثة وكلاهما مهاجر ﷺ. وبين الزبير بن العوام وعبدالله بن مسعود وكلاهما مهاجر ﷺ. وبين جعفر بن أبي طالب ومعاذ بن جبل ﷺ وجعفر غائب. وبين بلال وعبدالله الخثعمي ﷺ وكلاهما مهاجر. وكذلك بين أنصاري وآخر فلو كانت الغاية اقتصاديةً صرفةً لما كانت المؤاخاة بهذا الشكل. . .

وكذلك لو كانت الغاية من المؤاخاة اقتصاديةً لكانت بين مهاجرٍ وعددٍ من الأنصار حتىٰ يمكنهم مساعدة أخيهم، فالأنصار أكثر من المهاجرين ويُشكّلون أكثر من ثلاثة أمثالهم، ثم لو كانت الغاية من المؤاخاة اقتصاديةً فحسب لآخىٰ رسول الله ﷺ، بين أغنياء الأنصار وفقراء المهاجرين، ولكن هذا لم يحدث أبداً. ولكن إيثار الأنصار رضوان الله عليهم وبعض المظاهر والحوادث هي التي جعلت المؤرخين ينظرون إلىٰ هذا الجانب فقط، ويُركّزون عليه، الأمر الذي جعل المستشرقين يعتمدون علىٰ هذا، ويبحثون في الجانب الاقتصادي، ويدفعهم فكرهم المادي ليستنتجوا أن المادة هي رائد كل موقفٍ من مواقف المسلمين، وإن كانت الأخوة الإسلامية وسلوك الإخوان يكذبهم إذ كتب الحمزة بن عبد المطلب ﷺ وصيّته قبل غزوة أُحُدٍ لأخيه زيد بن حارثة ﷺ. وعندما أنشأ عمر بن الخطاب ﷺ الدواوين، وسأل بلالاً بن رباح ﷺ عن حقه، ولم يكن لبلال عقب قال: هو لأخي عبدالله بن عبدالرحمٰن الخثعمي أبي رويحة. ولننظر إلىٰ سعد بن الربيع يقول لأخيه عبدالرحمٰن بن عوف: (إني أكثر الأنصار مالاً، فاقسم مالي نصفين، ولي امرأتان فانظر أعجبهما إليك، فسمّها لي، أُطلِّقها، فإذا انقضت عِدّتها، تزوّجها). فأجابه عبدالرحمٰن: (بارك الله لك في أهلك ومالك، ولكن دُلّني علىٰ السوق فإني رجل

تاجر). هذا الإيثار من الأنصار، والمساعدة التي قدّموها دون مِنّة، والعون الذي لا ترفُّع فيه، إنه الحقّ الذي يدفعه الرجل لأخيه فيُريح به نفسه، والأمانة التي يُؤدّيها فيرفعها عن كاهله، وقد قال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحشر].

لقد كان الأنصار رضوان الله عليهم يتسابقون لاستقبال المهاجرين واستضافتهم، حتىٰ أصبحوا يقترعون فيما بينهم لأخذ إخوانهم القادمين، ولا يوجد أجمل من هذه المحبة وأحسن من هذه الأخوة وهذا الإيثار، كما أن المهاجرين لم يعيشوا عالةً علىٰ الأنصار - كما يتصوّر بعضهم - بل انصرفوا يعملون في الزراعة والتجارة، ويجنون الكسب الحلال مستعينين بالصبر، والنشاط، وكرم إخوانهم الأنصار، ولم يقبلوا أن يكونوا عالةً علىٰ المجتمع، إذ المسلم لا يقبل إلا أن يكون بنّاءً ومنتجاً في المحيط الذي يعيش فيه. إنه كرم الأنصار، وعفّة المهاجرين، وأخوة الإيمان، وهكذا يجب أن يستقبل المسلمون إخوانهم الذين يأتون إليهم في أيّ وقتٍ إما لدعم مجتمعهم الناشئ أو فراراً من حكمٍ غاشمٍ يريد أن يفتنهم عن دينهم ويسومهم سوء العذاب.

إن هذه المؤاخاة قد جعلت المسلمين من مهاجرين وأنصارٍ من أوسٍ وخزرجٍ أمةً واحدةً، وكتلةً واحدةً متراصّةً يشدّ بعضها بعضاً، ويمكن أنْ يقفوا وقفةً واحدة أمام يهود إذا ما حدّثتهم أنفسهم بالغدر. ولم يبقَ للأحلاف بين يهود وسكان يثرب من الأوس والخزرج إلا أثر خيوطٍ واهيةٍ أوهىٰ من خيط العنكبوت. كما لم تعد هناك خلافات بين الأوس والخزرج أو بين قبيلةٍ وثانيةٍ فالإسلام يجبّ ما قبله، وغدا الجميع أسرةً إسلاميةً

واحدةً كالجسد الواحد إذا اشتكىٰ منه عضو تداعىٰ له سائر الجسد بالسهر والحمىٰ. وأصبحت العقيدة هي التي تربط بين النفوس، وتسمو علىٰ كل رابطةٍ سواها من روابط الدم، والنسب، والعصبية، والقوم، والولاء، وغدا المسلمون من سكان المدينة إخواناً متحابين في الله، وكان الرجل منهم مجرد أن يدخل في الإسلام يترك قبل انتسابه إليه كل رواسب الجاهلية من خلافٍ، وتناحرٍ، وعصبيةٍ، وتفاخرٍ، ويدخل إليه نقي القلب، طاهر النفس، ليرفد المجتمع الإسلامي، ويزيده عضواً، ويكون لبنةً من لبناته يُساهم في دعمه وبنائه، يشعر بالراحة حين يرىٰ السعادة تُخَيِّم علىٰ الآخرين. وما استدار العام حتىٰ لم تبقَ دار من دور الأنصار إلا وأسلم أهلها إلا ما كان من خطمة، وواقف، ووائل، وأمية، وتلك أوس الله، وهم حيّ من الأوس بقوا علىٰ شركهم.

ولم تكن تلك المؤاخاة معاهدة دُوّنت علىٰ الورق فحسب، ولا كلمات قيلت باللسان فقط، وإنما كانت مؤاخاة سُجّلت علىٰ صفحات القلب، وارتبطت بشغافه، فكانت أقوىٰ من التدوين الذي يمكن أن يُؤوّل، ومتن من الكلمات التي يمكن أن تُفَسَّر وتُغَيَّر، كانت أسمىٰ من كل معاهدةٍ سطّرها البشر في سِجلّه منذ أن وُجِد البشر، وأسمىٰ من كل اتفاقٍ يمكن أن يعقده إنسان، إنها كانت عهداً أمام رسول الله ﷺ، كلمات خرجت من القلب، شهد عليها الله سبحانه وتعالىٰ وشهد عليها رسول الله ﷺ، وكفىٰ بهما شهيدين، إنها مؤاخاة في القول والعمل، في المال، والنفس، والمتاع، والأملاك في العسر واليسر.

وبعد هذه المرحلة انتقل رسول الله ﷺ ليُوادع يهود؛ لتكون المدينة كلها مسلمها وكافرها يداً واحدةً أمام الأعداء من الخارج، إذ أن قريشاً ربما تُفكّر بالقيام بعمل ضدّ المدينة، ومن ناحيةٍ ثانيةٍ حتىٰ يمكن تطبيق النظام داخل هذه المدينة المنبعثة من جديدٍ. وكتب رسول الله ﷺ، كتاباً بين المهاجرين والأنصار وادع فيه يهود، وعاهدهم، وأقرّهم علىٰ دينهم وأموالهم، وشرط لهم واشترط عليهم. وهذا الكتاب:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

هذا كتاب من محمد النبيّ ﷺ، بين المؤمنين المسلمين من قريشٍ ويثرب، ومن تبعهم، فلحق بهم، وجاهد معهم أنهم أمة واحدة من دون الناس، المهاجرون من قريشٍ علىٰ رِبْعَتهم[1] يتعاقلون بينهم، وهم يفدون عانيهم[2] بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو عَوْف علىٰ رِبْعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولىٰ، كل طائفةٍ تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو ساعدة علىٰ ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولىٰ، وكل طائفةٍ منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو الحارث علىٰ ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولىٰ، وكل طائفةٍ منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وبنو جُشَم علىٰ ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولىٰ، وكل طائفةٍ منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو النجار علىٰ ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولىٰ، وكل طائفةٍ منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو عمرو بن عوف علىٰ ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولىٰ، وكل طائفةٍ منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو النبيت علىٰ ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولىٰ، وكل طائفةٍ منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو الأوس علىٰ ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولىٰ، وكل طائفةٍ منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

وإن المؤمنين لا يتركون مُفْرَحاً[3] بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداءٍ أو عقلٍ. وأن لا يُحالف مؤمن مولىٰ مؤمنٍ دونه، وإن المؤمنين المتقين علىٰ مَن بغىٰ منهم دَسِيعة[4] ظلم، أو إثم، أو عُدوان، أو فساد بين المؤمنين، وأن أيديهم عليه جميعاً، ولو كان ولد أحدهم، ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافرٍ، ولا ينصر كافراً علىٰ مؤمنٍ، وأن ذِمَّة الله واحدة، يُجير عليهم

---

(١) الربعة: الحال التي جاء الإسلام، وهم عليها.

(٢) العاني: الأسير.

(٣) المفرح: ـ بوزن مُعْدَم ـ وهو المثقل بالدَّين والكثير العيال.

(٤) الدسيعة: العظيمة.

أدناهم، وإن المؤمنين بعضهم موالي بعضٍ دون الناس. وإنه من تبعنا من يهود، فإن له النصر والأسوة، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم، وإن سِلْم المؤمنين واحدة، لا يسالم مؤمن دون مؤمنٍ في قتالٍ في سبيل الله، إلا علىٰ سواءٍ وعدلٍ بينهم، وإن كل غازيةٍ غزت معنا يُعقب بعضها بعضاً، وإن المؤمنين يُنبئُ بعضهم علىٰ بعضٍ، بما نال دماءهم في سبيل الله، وإن المؤمنين المتقين علىٰ أحسن هدى وأقومه، وإنه لا يجير مشرك مالاً لقريشٍ ولا نفساً، ولا يحول دونه علىٰ مؤمنٍ، وأنه من اعتبط[1] مؤمناً قتلاً عن بيّنةٍ، فإنه قَوَدٌ به إلا أن يرضىٰ ولي المقتول، وإن المؤمنين عليه كافةً، ولا يحلّ لهم إلا قيام عليه، وإنه لا يحلّ لمؤمنٍ أقرّ بما في هذه الصحيفة، وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر مُحْدِثاً أو يُؤويه، وأنه مَن نصره أو آواه، فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، وإنه لا يؤخذ منه صرف ولا عدل، وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيءٍ، فإن مردّه إلىٰ الله عزّ وجلّ، وإلىٰ محمدٍ ﷺ. وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وإن يهود بني عَوف أُمّة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم، إلا من ظلم أو أثم فإنه لا يُوتِغ[2] إلا نفسه، وأهل بيته. وإن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف، وإن ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف، وإن ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوف، وإن يهود بني جُشَم مثل ما ليهود بني عوف، وإن ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوف، وإن ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف، إلا من ظلم أو أثم، فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته. وإن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم، وإن لبني الشُّطَيبة مثل ما ليهود بني عوف، وإن البرّ دون الإثم؛ وإن موالي ثعلبة كأنفسهم، وإن بطانة يهود كأنفسهم، وإنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد ﷺ، وإنه لا ينحجز علىٰ ثأرٍ جُرْح، وإنه من فتك فبنفسه فتك، وأهل بيته، إلا من ظَلم، وإن الله علىٰ أبرّ هذا[3]. وإن علىٰ اليهود نفقتهم

---

(١) اعتبطه: قتله دون جنايةٍ منه توجب قتله.

(٢) يوتغ: يهلك.

(٣) علىٰ أبر هذا: أي راضٍ كل الرضا عن هذا.

وعلىٰ المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصر علىٰ من حارب أهل هذه الصحيفة، وإن بينهم النصح والنصيحة، والبرّ دون الإثم، وإنه لم يُؤثم امرؤ بحليفه، وإن النصر للمظلوم، وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وإن يثرب حرام جَوْفها لأهل هذه الصحيفة، وإن الجار كالنفس غير مضارّ ولا آثم، وإنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها. وإن ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده، فإن مردّه إلىٰ الله عزّ وجلّ، وإلىٰ محمدٍ رسول الله ﷺ، وإن الله أتقىٰ ما في هذه الصحيفة وأبرّه، وإنه لا تُجار قريش ولا من نصرها، وإن بينهم النصر علىٰ من دهم يثرب، وإذا دعوا إلىٰ صلح يصالحونه ويَلْبسونه، فإنهم يصالحونه ويلبسونه وإنهم إذا دعوا إلىٰ مثل ذلك، فإنه لهم علىٰ المؤمنين، إلا مَن حارب في الدين، علىٰ كل أناسٍ حصّتهم من جانبهم الذي قِبَلهم، وإن يهود الأوس، مواليهم وأنفسهم، علىٰ مثل ما لأهل هذه الصحيفة، مع البِرّ المحض مع أهل هذه الصحيفة. وإن البِرّ دون الإثم، لا يكسب كاسبٌ إلا علىٰ نفسه، وإن الله علىٰ أصدق ما في هذه الصحيفة وأبرّه، وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم وآثم، وإنه من خرج آمن، ومن قعد آمن بالمدينة، إلا من ظَلم أو أثِم، وإن الله جار لمن برّ واتقىٰ، ومحمد رسول الله ﷺ[1].

وبهذا أصبح أهل المدينة علىٰ اختلاف فئاتهم يداً واحدةً ضدّ الأعداء الخارجين علىٰ تطبيق النظام، ويبدو من هذه الموادعة والمعاهدة:

أ ـ إن للجماعة الإسلامية شخصية دينية وسياسية، ومن حقّها أن تُؤمّن المطيع، وتعاقب المفسد.

٢ ـ الحرية الدينية مضمونة للجميع ما لم يحصل من طرفٍ ظلم أو إثم.

٣ ـ علىٰ سكان المدينة من مسلمين وغيرهم أن يتعاونوا مادياً، وعسكرياً، وأدبياً، وعليهم أن يردُّوا متساندين أيّ اعتداءٍ قد يُوجّه إلىٰ مدينتهم.

---

(١) «سيرة ابن هشام»: ١/٥٠١ ـ ٥٠٤.

٤ ـ رسول الله محمد ﷺ، هو الرئيس الأعلىٰ لسكان المدينة جميعهم.

٥ ـ الأمة تضمّ الجماعة التي تعتقد عقيدةً واحدةً بغضّ النظر عن الجوار أو القرابة أو الأرض أو النسب أو المصلحة أو اللغة أو الهوىٰ.

فكل هذا يُداس بالأقدام أمام العقيدة، فالمسلمون يُؤلّفون أمةً واحدةً، ويؤلّف اليهود أمةً واحدةً علىٰ الرغم من الجوار، واللغة، والأحلاف السابقة.

هذا بالنسبة إلىٰ العمل داخل المدينة أو ما يسمىٰ اليوم الجبهة الداخلية، أما الجبهة الخارجية فعلىٰ المسلمين أن يُخضعوا القبائل التي تعيش حول المدينة والتي يُحالف بعضها سكان يثرب، وكلها تعرف مداخل المدينة، وعلىٰ اتصالٍ دائم بمَن في داخلها وتفاعلٍ تامٍّ معهم... وذلك حتىٰ لا يكونوا أعواناً للأعداء الذين هم خارج المدينة فإن أثرهم ملموس، وإن كان أقلّ نسبياً من أثر الذين يعيشون داخل المدينة، وفي الوقت نفسه فعليهم أن تبرز قوتهم خارجياً حتىٰ لا تطمع بهم القبائل، وتسعىٰ قريش في القضاء عليهم هذا من جهةٍ ومن جهةٍ ثانيةٍ فإن القوة تُساعد علىٰ انتشار الإسلام، ووصول أخباره إلىٰ بقية القبائل، وفي كل الاتجاهات إذ أن الضعيف، لا يهتمّ به أحد، ولا يسمع به أحد، ويخاف الناس أن يعتنقوا فكرةً أصحابها علىٰ درجةٍ من الضعف، هذا عموماً، وخاصةً في ذلك الوقت من الجاهلية التي كان فيها يأكل القوي الضعيف، ويسطو عليه، ويغزو أرضه، ويشنّ الغارات عليه. ولهذا رأىٰ رسول الله ﷺ، أنه لا بدّ من إرسال السرايا إلىٰ أطراف المدينة؛ لإثبات الوجود ـ حسب الاصطلاح الحديث ـ وحتىٰ يجعل قريشاً تعترف بالوضع الجديد، وهذا يُشبه ما يحصل هذه الأيام عندما تتسلّم فئة ما الحكم في بلدٍ، فإنها تسعىٰ إلىٰ أن تثبت وجودها حتىٰ تعترف بحكمها بقية الدول.

بدأت الآيات القرآنية تنزل بالتشريع لهذا المجتمع الجديد، ويُطبّق في مجالات الحياة جميعها، وعاشت المدينة المُنوّرة الحياة الفاضلة التي يحلم بها بنو البشر، من أُخوةٍ صادقةٍ، وصدقٍ في المعاملات والحياة، وتكافلٍ تامٍّ

بين الأفراد جميعاً، وبقيت هذه المدينة أنموذجاً لكل من يريد السعادة في الدنيا والآخرة. ووضع رسول الله ﷺ، الأُسس السياسية والاقتصادية والاجتماعية للمجتمع الجديد، وأصبحت المدينة المنورة تعيش في إطارٍ واحدٍ في ظلّ نظام واحدٍ هو النظام الإسلامي، ورسول الله، محمد بن عبدالله ﷺ، هو القائد الأعلىٰ له، لذا كان السكان يؤلِّفون في المدينة مجتمعاً خاصاً هو المجتمع الإسلامي.

والمجتمع هو جماعة من الناس تعيش في مكانٍ واحدٍ، وتخضع لمنهجٍ واحدٍ، وليس من الضروري أن يكون كل من يخضع لنظامٍ معينٍ مؤمناً به، عاملاً له، فليس كل من يعيش في ظلّ النظام الاشتراكيّ اشتراكياً يعتقد بصلاحية النظام، وليس كل من يحيا في ظلّ النظام الرأسمالي يُعدّ رأسمالياً، ويؤمن بصحة النظام، ويدعو له، ولكن هذا يُعدّ ضمن المجتمع الرأسمالي، ويعدّ ذاك في عداد المجتمع الاشتراكي.

في المجتمع الواحد تختلف العقيدة، وتتباين الآراء، والنظام الذي يسود المجتمع، ويُطبّق عليه، هو الذي يُعرف به. وعندما نقول المجتمع الإسلامي في المدينة فإنما يشمل كل من كان يسكن المدينة آنذاك، ويخضع لنظامها العام علىٰ الرغم من وجود عدة فئات متغايرة في الفكرة، متباعدة في الهدف، ففي المدينة: المسلمون، وأهل الكتاب من اليهود، والأعراب فيها وما حولها الذين لا يزالون علىٰ الوثنية، إضافةً إلىٰ المنافقين الذين يتظاهرون بالإسلام، وهم ضدّه، ولكن النظام الإسلامي هو الذي كان يلفّ هؤلاء جميعاً، إذ كان محمد رسول الله ﷺ، هو الرئيس الأعلىٰ لسكان المدينة كلها ـ كما رأينا ـ فلو وقع خلاف بين مسلمٍ ويهوديٍّ لطُبِّق عليهما حُكم الله، ونُفِّذ علىٰ كليهما، أما إذا وقع بين يهوديين فلهما أنْ يتحاكما أمام لجنةٍ يهوديةٍ، أو يُحكما التوراة، والأعراف بينهما، وفي الوقت نفسه لهما أن يتحاكما إلىٰ الشريعة الإسلامية، ولهذا نقول عن المجتمع إنه إسلامي لأنه يخضع لنظام الإسلام.

وإذا كنا قد قلنا عن جماعة المسلمين في مكة: إنهم يُشكّلون مجتمعاً

إسلامياً، ولم تكن هيمنة على مكة، بل لم تكن لهم سلطة، فذلك لأنهم كانوا يؤلفون مجتمعاً خاصاً منفصلاً شعورياً تمام الانفصال عن المجتمع المكي الوثني، ويعدُّون لأنفسهم كياناً خاصاً، ويخضعون لنظام خاصٍّ يُطبِّقونه على أنفسهم، ولم تكن مفهومات قريشٍ وأحكام لتُطبَّق عليهم، أو لم يكن للجاهلية أي تأثير عليهم، ولهم رئيس أعلى يرجعون إليه في كل أمرٍ، وتُنفّذ أحكامه بدِقّةٍ، ولا يجدون حرجاً مما يقضي، ويُسلّمون التسليم كله.

لما ظهر رسول الله ﷺ بالمدينة قدم عليه حبران من أحبار أهل الشام، فلما أبصرا المدينة قال أحدهما لصاحبه: ما أشبه هذه المدينة بصفة مدينة النبيّ الذي يخرج في آخر الزمان. فلما دخلا على النبيّ ﷺ، عرفاه بالصفة والنعت، فقالا: أنت محمد؟ قال: نعم. قالا: وأنت أحمد؟ قال: نعم. قالا: إنا نسألك عن شهادة، فإن أخبرتنا بها آمنا وصدّقناك. فقال لهما رسول الله ﷺ: سلاني. فقالا: أخبرنا عن أعظم شهادة في كتاب الله. فأنزل الله تعالى على نبيّه ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [آل عمران].

فأسلم الرجلان، وصدّقا برسول الله ﷺ[1].

ظنّ بعض المسلمين أنهم قد حصلوا على الراحة التامة بعد المؤاخاة التي تمّت، والموادعة التي حصلت مع يهود، ظنُّوا ذلك حسب الارتياح النفسي والقناعة الذاتية، بأنهم سيعيشون حياةً فاضلةً بما لاحظوه في المحيط الجديد مع إخوانهم الذين يشكلون أعضاء المجتمع، ولكن رسول الله ﷺ ومن بعده أصحابه الكرام ﷺ، الذين عرفوا حقيقة الدعوة وطبيعتها، عرفوا أنهم سيخوضون معركةً قاسيةً طويلةً مع المجتمع الذي يعيشون فيه، ومع المحيط الذي حولهم، ثم مع العالم المعروف آنذاك، والمأهول كله وقتذاك. علموا أنهم سيحاربون على عدة جبهاتٍ، بعضها داخلية في المدينة ذاتها، وبعضها خارجية مع قريشٍ وبقية القبائل العربية الجاهلية، ثم مع

(١) «أسباب النزول»: أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري.

الدول الكبرىٰ يومئذٍ والقريبة إمبراطورية الروم الشرقية (بيزنطة)، والإمبراطورية الفارسية.

سيحاربون علىٰ الجبهة الداخلية العداوة المتأصّلة في طبيعة بعض الذين يُشكّلون جانباً من مجتمع المدينة، ويعادون كل شيءٍ ليس لهم فيه نصيب، أو ليسوا رأس السلطة فيه حسداً وغيظاً، ألا وهم اليهود. حدّثت صفية بنت حُييّ بن أخطب، أم المؤمنين ﵂، فقالت: كنت أَحَبَّ ولد أبي إليه، وإلىٰ عمّي أبي ياسر، فلم ألقهما قط مع ولدٍ لهما إلا أخذاني دونه. قالت: فلما قدم رسول الله ﷺ، إلىٰ المدينة، ونزل قُباء في بني عمرو بن عوف، غدا عليه أبي (حُييّ بن أخطب) وعمّي (أبو ياسر بن أخطب) مُغَلِّسَين، فلم يرجعا حتىٰ كانا مع غروب الشمس، قالت: فأتيا كالّين، كسلانين، ساقطين، يمشيان الهوينا، قالت: فهشِشت إليهما كما كنت أصنع، فوالله ما التفت إليّ واحد منهما، لما بهما من الغمّ، قالت: وسمعت عمي أبا ياسر، يقول لأبي حُييّ بن أخطب:

أهو هو؟ يعني النبيّ ﷺ. قال: نعم والله. قال: أتعرفه وتُثبته؟ قال: نعم. قال: فما في نفسك منه؟ قال: عداوته والله ما بقيتُ.

وحدّث عبدالله بن سلام[1] ـ وكان يهودياً ثم أسلم ـ قال: جئت رسول الله ﷺ، فقلت له: يا رسول الله إن يهود قوم بُهْت، وإني أحب أن تدخلني في بعض بيوتك، وتُغيّبني عنهم، ثم تسألهم عني، حتىٰ يخبروك

---

(١) عبدالله بن سلام بن الحارث الإسرائيلي، أبو يوسف، صحابي، قيل: إنه من نسل يوسف بن يعقوب ﵉، أسلم عند قدوم رسول الله ﷺ إلىٰ المدينة، وكان اسمه (الحصين) فسمّاه رسول الله ﷺ (عبدالله). ونزلت فيه الآية ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾﴾ [الأحقاف] والآية: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾ [الرعد].

وشهد مع الخليفة عمر ﵁ فتح بيت المقدس والجابية، ولما كانت الفتنة بين عليٍّ، ﵁ ومعاوية ﵁ اتّخذ سيفاً من خشبٍ، واعتزل الفتنة. وأقام بالمدينة حتىٰ توفي سنة ثلاثٍ وأربعين للهجرة، وله خمسة وعشرين حديثاً.

كيف أنا فيهم، قبل أن يعلموا إسلامي، فإنهم إن علموا به بهتوني، وعابوني، قال: فأدخلني رسول الله ﷺ، في بعض بيوته. ودخلوا لعنده، وكلّموه، وسألوه، ثم قال لهم: «أيّ رجلٍ الحُصين بن سلام فيكم؟» قالوا: سيدنا وابن سيدنا، وحَبْرنا، وعالمنا.

قال: فلما فرغوا من قولهم خرجت عليهم، فقلت لهم: يا معشر يهود، اتقوا الله، واقبلوا ما جاءكم به، فوالله إنكم لتعلمون إنه لرسول، تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة بـ(اسمه) وصفاته، فإني أشهد أنه رسول الله، وأؤمن به وأُصَدِّقه وأعرفه، فقالوا: كذبت ثم وقعوا بي، قال: فقلت: يا رسول الله، ألم أُخبرك أنهم قوم بُهْت، أهل غدرٍ وكذبٍ وفجورٍ؟

وعن عكرمة قال: كان بين هذين الحيين من الأوس والخزرج قتال في الجاهلية، فلما جاء الإسلام اصطلحوا وألّف الله بين قلوبهم. وجلس يهودي في مجلسٍ فيه نفر من الأوس والخزرج، فأنشد شعراً قاله أحد الحيين في حربهم في الجاهلية، فكأنهم دخلهم من ذلك، فقال رجال الحيّ الآخر: وقد قال شاعرنا في يوم كذا، كذا وكذا. فقال رجال الحيّ الثاني: وقد قال شاعرنا في يوم كذا، كذا وكذا، فقالوا: تعالوا نرد الحرب جذعاً كما كانت، فنادىٰ هؤلاء: يا آل أوس، ونادىٰ هؤلاء: يا آل خزرج، واجتمعوا، وأخذوا السلاح، واصطفوا للقتال، فأنزل الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [آل عمران].

فجاء النبيّ ﷺ، حتىٰ قام بين الصفين، وقرأ الآية، ورفع صوته، فلما سمعوا صوته أنصتوا وجعلوا يستمعون، فلما فرغ ألقوا السلاح، وعانق بعضهم بعضاً، وجعلوا يبكون.

وقال زيد بن أسلم: مرّ شاس بن قيس اليهودي، وكان شيخاً قد غبر في الجاهلية، عظيم الكفر، شديد الضغن علىٰ المسلمين، شديد الحسد لهم، فمرّ علىٰ نفرٍ من أصحاب رسول الله ﷺ، من الأوس والخزرج في

مجلسٍ جمعهم يتحدّثون فيه، فغاظه ما رأىٰ من جماعتهم، وألفتهم، وصلاحِ ذات بينهم في الإسلام، بعد الذي كان بينهم في الجاهلية من العداوة، فقال: قد اجتمع ملأ بني قَيْلَة في هذه البلاد، لا والله ما لنا معهم إذا اجتمعوا من قرارٍ، فأمر شاباً من يهود كان معه، فقال: اعمد إليهم فاجلس معهم، ثم ذكِّرهم بيوم بُعاث وما كان فيه، وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار. وكان بُعاث يوماً اقتتلت فيه الأوس والخزرج، وكان الظفر فيه للأوس علىٰ الخزرج، ففعل. فتكلّم القوم عند ذلك، فتنازعوا وتفاخروا حتىٰ تواثب رجلان من الحيين: أوس بن قَيْظي أحد بني حارثة من الأوس، وجابر بن صخر أحد بني سلمة من الخزرج، فتقاولا، وقال أحدهما لصاحبه: إن شئت رددتها جذعاً، وغضب الفريقان جميعاً، وقالا: ارجعا، السلاحَ السلاحَ، موعدكم (الظاهرة) وهي حَرّة، فخرجوا إليها، فانضمّت الأوس والخزرج بعضها علىٰ بعض علىٰ دعواهم التي كانوا عليها في الجاهلية، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين حتىٰ جاءهم، فقال: «يا معشر المسلمين، أتدعون الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن أكرمكم الله بالإسلام، وقطع به عنكم أمر الجاهلية، وألّف بينكم، فترجعون إلىٰ ما كنتم عليه كفاراً، الله الله»، فعرف القوم أنها نزغة وكيد من عدوّهم، فألقوا السلاح من أيديهم وبكوا، وعانق بعضهم بعضاً، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ، سامعين مطيعين، وكانت الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [آل عمران][1].

ولكن يهود لم ينقطعوا عن الفتنة، ولم يتركوا استغلال الفرص والمناسبات لإثارتها محاولين تهديم المجتمع الإسلامي وتقويض أركانه.

علم المسلمون أنهم سيحاربون علىٰ الجبهة الداخلية رجالاً همّهم الزعامة، والمصلحة، والجاه، هؤلاء يظهرون وقت السلم والرخاء،

---

(١) «أسباب النزول»: أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري.

ويتنطّحون للقيادة، ويختفون وقت الشدّة، ليعملوا من الخلف، ويتهجموا علىٰ القائد وأصحابه وأنصاره، كان علىٰ رأس هؤلاء عبدالله بن أُبيّ بن سلول رأس النفاق، وهو من الخزرج، وقد اتّهم رسول الله ﷺ يوم بدرٍ بالغرور ـ وقد نصح أصحابه بعد معركة بدر ـ أن يُعلنوا إسلامهم، حين قال مشيراً إلىٰ اشتداد شوكة المسلمين: هذا أمر قد توجه، فلا مطمع في إزالته، ثم أعلن إسلامه، وتبعه علىٰ ذلك فئات المنافقين، فتظاهروا بالإسلام، ولكنهم مع هذا ظلُّوا في الباطن يتربصون به الدوائر، وقد سبقه جماعة أظهروا الإسلام، والله يشهد إنهم لكاذبون. وقد بلغ بهؤلاء المنافقين الأوائل أن شيّدوا مسجداً ضراراً للتفريق بين المسلمين، وهو علىٰ طبيعته العبادة، وحقيقته التجزئة، وإمكانية الحركة للمنافقين، وتنسيق جهودهم.

وأُخبر رسولُ الله ﷺ بحقيقة أمره، فأمر بهدمه.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ ۖ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا ۚ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾ [التوبة].

وبعد تهديم مسجد الضرار عاد المنافقون يجتمعون في المسجد النبوي بعضهم مع بعض، ويسخرون من المسلمين، ويهزؤون، ويشيعون الأكاذيب، وقد رآهم رسول الله ﷺ يوماً يتحدثون فيما بينهم، خافضي رؤوسهم، وقد لصق بعضهم ببعض، فأمر بهم، فأُخرجوا من المسجد إخراجاً عنيفاً، ولكن المنافقين لم ينقطعوا عن الفتنة، ولم يتركوا استغلال المناسبة لإثارتها محاولين تهديم المجتمع الإسلامي، وتقويض أركانه وراء مصالحهم، ولم يفتّ تصرُّف المسلمين وحكمة رسول الله ﷺ في عضدهم كثيراً، بل استمرُّوا في غيّهم.

علم رسول الله ﷺ أن المسلمين سيحاربون علىٰ الجبهة الداخلية الأعراب الذين في المدينة وما حولها، هؤلاء الأعراب الذين لا يعرفون من الحق إلا ما يتفق مع مصالحهم، ولا يسيرون إلا وراءه، ولا يسعون وراء البينة لذلك يقودهم هواهم، وفوق ذلك فهم جهلة سذج يستطيع أقلّ الناس أن يُغيّر آراءهم، ويُعدّل مواقفهم، وقد أفاد اليهود والمنافقون من هذه السذاجة، فكانوا يُحرّضونهم ضدّ المسلمين لأخذ أموالهم، والإغارة علىٰ أملاكهم وبيوتهم، فلم يكن للأعراب موقف محدّد يسلك المسلمون مقابله سلوكاً معيناً، وهذه خطورة الجهل، لذا كان الإسلام حرباً علىٰ الجهل وكل ما يمتّ إليه بصلةٍ.

وقد استطاع المسلمون بفضل الله، ورعاية رسول الله ﷺ، وإيمانهم، وحُسْن تطبيقهم، وتصرّفهم، وانقيادهم لأوامر رسول الله ﷺ، أن يبقوا علىٰ تماسكهم، وأن يحفظوا وحدة صفهم، وبفضل هذا التماسك استطاع المسلمون أن يقفوا في وجه هذه العداوات كلها، وأن يخرجوا من معاركهم ظافرين بإذن الله.

أما الجبهة الخارجية فكان القصد منها ـ كما ذكرنا ـ فرض الهيمنة علىٰ القبائل والأعراب المجاورين للمدينة، وإثبات الوجود حتىٰ تعترف قريش بوضع المسلمين في المدينة، وإظهار القوة حتىٰ ينتشر الإسلام بين القبائل، وليشعر الفرد المسلم أينما كان، ومن أية قبيلةٍ كان أن هناك قوة تحميه، وينتسب إليها، إذ الضعيف لا ينتشر اسمه، ولا يُعرف خبره، ولا ينتمي إليه أحد بعيد عنه، والدعوة بحاجةٍ إلىٰ انتشار خبرها وحماية أتباعها. وكانت هذه الغاية ـ في هذه المرحلة ـ من تأسيس الدولة. وكانت تتمثّل هذه الجبهة بالدرجة الأولىٰ في قريش التي اضطهدت رسول الله ﷺ والمسلمين معه اضطهاداً يدلّ علىٰ غطرستها وتكبّرها، حتىٰ خرجوا من بلدهم مكة، ثم هناك القبائل العربية التي كانت جزيرة العرب مجال تنقُّلها، والتي كانت تدين بالوثنية، وتخضع لأحكامٍ جاهليةٍ كقريشٍ، هذا إضافةً إلىٰ كل دول العالم المعروفة آنذاك، والتي طغىٰ عليها الكفر، وعُرفت بالظلم، وخاصةً دولتَيْ فارس والروم اللتين كانتا علىٰ تخوم بلاد العرب، واللتين كان لهما نفوذ

علىٰ بعض قبائل العرب المجاورة لهما، كما لا توجد بقعة في أرض العرب لا ينظر سكانها إلىٰ هاتين الدولتين نظرة الاحترام والتقدير من جهةٍ، ونظرة الخوف والخشية من جهةٍ ثانيةٍ، وتنظر هاتان الدولتان إلىٰ العرب نظرة الازدراء والامتهان، وتعدّهم متأخرين، يعيشون في بواديهم وقراهم علىٰ الشحّ والقلّة، لذا فإن بدرت منهم بادرة أسكتوهم بحفناتٍ من الماء أو الطعام يعودون بها إلىٰ فيافيهم شاكرين حسن الصنيع، الذي لا يضيع معهم للوفاء، فيكونون أعواناً أوفياء، أو أنصاراً عملاء.

وإذا حدث خلاف بين قبائل العرب، تقوّىٰ طرف علىٰ خصمه بإحدىٰ الدولتين، فالغساسنة أعوان للروم، والمناذرة أنصار للفرس، وامرؤ القيس يلحق بقيصر الروم ليستعيد ملك أبيه المغتصب.

كان رسول الله ﷺ مطمئناً إلىٰ أن أول صدام سيكون مع قريش عدوّ المسلمين الأول، والتي لا تزال تسعىٰ للقضاء علىٰ الإسلام، وتظن أنه بإمكانها ذلك، فتحبس المستضعفين في مكة، وتحول دون التحاقهم بالركب الإسلامي في المدينة.

وكانت قريش تُشكّل مجتمعاً تجارياً، ينتقل أفرادها إلىٰ بلاد الشام في جهة الشمال وإلىٰ اليمن في جهة الجنوب، في رحلتَي الصيف والشتاء، وكان ذهابهم شمالاً في الصيف يتمّ عن طريق المدينة أو المسالك القريبة منها، فكانت هذه البقعة نقطة التماس بين الجانبين، أو ستكون ذلك، وفيها يمكن أن تدور رحىٰ المعركة المرتقبة، لذا كان علىٰ المسلمين أن يعرفوا هذه الأرض معرفةً جيدةً، إذ لا يمكن لجماعةٍ أن تخوض معركةً في أرضٍ لا تعرف معالمها، هذا بالإضافة إلىٰ أن سكانها يمكنهم أن يلعبوا دور في هذه الحرب، أو تكون لهم يد في التحرُّش بين الطرفين بسبب غدو قوافل قريشٍ ورواحها منها.

مضىٰ علىٰ الهجرة ما يقرب من ستة أشهرٍ، وطهّر القائد عليه الصلاة والسلام خلالها الجبهة الداخلية، ونظّم أمورها، وبدأ يستعدّ بعدها للجبهة الخارجية والقتال المنتظر، فأخذ يُسيّر السرايا، وينطلق مع الغزوات، وإن كانت استطلاعيةً بالدرجة الأولىٰ غايتها معرفة الطرق التي حول المدينة،

والمسالك المؤدية إلىٰ مكّة، وفجاج المنطقة التي هي ممر لقوافل قريشٍ، ثم معرفة القبائل التي تُقيم علىٰ تلك الأرض لإمكانية كسبها للإسلام، أو لصفّ المسلمين في البداية أو لضمان حيادها علىٰ الأقلّ، فيما إذا اندلعت نار الحرب بين المسلمين وقريشٍ في مواطن تلك القبائل ومنازلها، ثم إن استطاعت هذه السرايا التعرُّض لقوافل قريشٍ، ومنعها، أو أخذها لإضعافها اقتصادياً، وإثبات الكيان الإسلامي، وإجبار قريشٍ علىٰ الاعتراف بهذا الكيان، ثم نشر تلك الأخبار بين قبائل العرب كلها لمعرفة قوة المسلمين، وضعف قريشٍ، وإظهار أن المسلمين قد أصبحوا أكبر قوةٍ في بلاد العرب، وإسماع أصقاع الأرض المأهولة آنذاك ـ إن استطاعوا ـ بخبر هذا الدين الجديد، ومبادئه السامية التي تتماشىٰ مع فطرة البشر، وأنه تنزيل من رب العالمين خالق البشر، ومسيّر الكون، فيُقبل عليه الناس، ولا يخشون طواغيتهم، إذ أن وراءهم قوة رادعة، وبهذا تنتشر الدعوة، هذا إضافةً إلىٰ رفع الروح المعنوية لدىٰ المسلمين الذين هم في بداية الدعوة وقيام الدولة.

بلغ عدد تلك الفرق الاستطلاعية أربع غزواتٍ وأربع سرايا[1]، ابتدأت في شهر رمضان من السنة الأولىٰ للهجرة، وانتهت في شهر جمادىٰ الآخرة من السنة الثانية للهجرة، أعقبتها سرية عبدالله بن جحش ﵁، في شهر رجب لاستطلاع أخبار العدوّ في عقر دارهم بين مكّة والطائف في موقع (نخلة)، وذلك عندما بدأ انتهاء التعرُّف علىٰ ساحة المعركة المنتظرة، وظهر اكتمال استعداد المسلمين نفسياً لخوض أيّ قتالٍ ينشب بين الخصمين.

أرسل رسول الله ﷺ عمّه الحمزة بن عبد المطلب ﵁، في ثلاثين رجلاً كلهم من المهاجرين، ليعترض طريق قافلةٍ لقريشٍ عائدةٍ من الشام بإمرة أبي جهل عمرو بن هشام مع ثلاثمائة رجلٍ، فوصل الحمزة ﵁ إلىٰ

---

(١) الغزوة: هي التي يشهدها رسول الله ﷺ ويكون قائدها، والسرية التي لم يحضرها ويقودها أحد الصحابة بأمر رسول الله ﷺ.

ساحل البحر الأحمر من جهة (العيص) إلىٰ الغرب من المدينة المنورة، شمال ميناء (ينبع البحر)، والتقىٰ بـ(عير قريش)، ومع الفارق في عدد الخصمين إلا أن الحمزة ﷺ قد أصرّ علىٰ المواجهة مهما كانت النتائج إذ لا بدّ من تنفيذ أمر رسول الله ﷺ، واصطفّ الطرفان للقتال إلا أنه حجز بينهما أحد أفراد قبيلة (جُهينة) وهو (مجدي بن عمرو الجهني)، ودفع الطرفان للتسوية، وانصرف كل إلىٰ مقرّه. وقد شكر رسول الله ﷺ لمجدي صنيعه هذا لقلّة عدد المسلمين يومذاك بالنسبة إلىٰ المشركين جماعة أبي جهل عمرو بن هشام.

وأرسل رسول الله ﷺ ابن عمّ أبيه (عبيدة بن الحارث بن المطلب)[1] في شهر شوال من العام نفسه في ثمانين راكباً كلهم من المهاجرين ليعترض سبيل قافلةٍ لقريشٍ، وكانت تضمّ مائتَي راكبٍ فالتقىٰ بها قرب ميناء (رابغ)، وابتدأ القتال رمياً بالنبال، إلا أنه لم يستمرّ، إذ انهزم المشركون رغم كثرتهم، حيث خافوا أن يكون المسلمون قد نصبوا لهم كميناً إذ لم يتوقّعوا أن ينازل ثمانون راكباً مائتَي راكبٍ حيث لم يعرفوا بعد الروح المعنوية لدىٰ المسلمين. وكانت قافلة قريش بإمرة عكرمة بن أبي جهل[2]. وفرّ رجلان

---

(١) عبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف، أبو الحارث: من أبطال قريش في الجاهلية والإسلام، ولد سنة اثنتين وستين قبل الهجرة، أي قبل ولادة رسول الله ﷺ بتسع سنواتٍ. أسلم قبل دخول رسول الله ﷺ، دار الأرقم بن أبي الأرقم، وهاجر إلىٰ المدينة، وعقد له رسول الله ﷺ ثاني لواء عقده بعد أن قدم إلىٰ المدينة. ثم شهد معركة بدر، واستشهد فيها.

(٢) عكرمة بن أبي جهل: ولد سنة تسع وأربعين قبل الهجر، أي أنه بعد ولادة رسول الله ﷺ، وكان كأبيه من ألدّ أعداء الإسلام. ولما فتح رسول الله ﷺ مكة أهدر دماء رجالٍ من المشركين منهم عكرمة، فغادر مكة متجهاً نحو الجنوب الغربي يريد البحر، أو اليمن. غير أن زوجته ابنة عمه أم حكيم بنت الحارث بن هشام، قد جاءت مع أبيها إلىٰ مكة، وأسلما، وطلبت من رسول الله ﷺ أن يسمح لها باللحاق بزوجها عكرمة، وإعادته إن استطاعت، وقد أدركته، واستطاعت إقناعه بالعودة، وعندما وصلا إلىٰ مكة قابلا رسول الله ﷺ، وأعلن عكرمة إسلامه، وانطلق مجاهداً في سبيل الله، وشهد معركة اليرموك واستشهد فيها سنة ١٣هـ.

من المسلمين كانا مع المشركين، وهما: المقداد بن عمرو[1]، وعتبة بن غزوان[2]، والتحقا بالمسلمين.

وأرسل رسول الله ﷺ سعد بن أبي وقاص ؓ في ثمانية رجالٍ من المهاجرين إلىٰ (الخَرّار) إلىٰ الجنوب الشرقي من ميناء (رابغ)، وعلىٰ بُعد أربعين كيلومتراً منها، غير أنه لم يلقَ عدوًّا فعاد.

وخرج رسول الله ﷺ بنفسه بعد أن استخلف عليها سعد بن عبادة ؓ، وسار حتىٰ وصل إلىٰ (ودّان) شمال شرقي ميناء (رابغ)، وذلك من أجل أن يعترض عيراً لقريشٍ، غير أن العير قد فاتته، وهناك صالح بني ضَمْرة، وعقد معهم معاهدةً علىٰ أن ينصر بعضهم بعضاً هم والمسلمون، ورجع رسول الله ﷺ بجماعته إلىٰ المدينة بعد غيابٍ دام خمس عشرة ليلةً.

لم يمكث رسول الله ﷺ في المدينة إلا قليلاً حتىٰ بلغه أن قافلةً لقريشٍ آيبة من الشام بإمرة أمية بن خلف، ومعه مائة رجلٍ، وتضمّ هذه القافلةً ألفاً وخمسمائة بعير، فخرج رسول الله ﷺ مع مائتين من المهاجرين باتجاه جبل رضوىٰ، فلما وصل إلىٰ ثنية (بُواط) في منتصف الطريق بين المدينة المنورة والبحر الأحمر رأىٰ أن القافلة قد فاتته.

ولم يمضِ غير وقتٍ قصير من وصوله إلىٰ المدينة حتىٰ علم أن قريشاً قد أرسلت قافلةً لها إلىٰ الشام بإمرة أبي سفيان صخر بن حرب، وليس معه

---

(١) المقداد بن عمرو بن ثعلبة بن مالك بن ربيعة القضاعي الكندي البهراني، ويقال له: المقداد بن الأسود، أبو معبد، أو أبو عمرو: ولد سنة ٣٧ قبل الهجرة، أي أنه أصغر من رسول الله ﷺ بست عشرة سنةً. من السبعة الأوائل الذين أظهروا الإسلام، وأول من قاتل علىٰ حصانه في سبيل الله. وأقام بالمدينة، وتوفي حولها سنة ثلاثٍ وثلاثين للهجرة في خلافة عثمان بن عفان ؓ له ثمانية وأربعين حديثاً.

(٢) عتبة بن غزوان بن جابر بن وهيب الحارثي المازني، أبو عبدالله، باني مدينة البصرة، قديم الإسلام، هاجر إلىٰ الحبشة، ووجّهه الخليفة عمر بن الخطاب ؓ والياً علىٰ البصرة، وفتح بعض المناطق، ورحل إلىٰ المدينة، وقابل الخليفة عمر ؓ ثم عاد فمات في الطريق سنة سبع عشرة، وعمره سبع وخمسون سنةً، إذ كان قد ولد سنة أربعين قبل الهجرة.

إلا عدد قليل من الرجال، فخرج إليهم رسول الله ﷺ في مائةٍ وخمسين من المهاجرين، وذلك في شهر جمادىٰ الأولىٰ من السنة الثانية من هجرته عليه الصلاة والسلام، واستخلف علىٰ المدينة ابن عمته أبا سَلَمة عبدالله بن عبد الأسد المخزومي، فلما وصل إلىٰ (العشيرة) شمال (ينبع النخل) وجد القافلة قد فاتته، فحالف بني مُدْلج، ورجع إلىٰ المدينة، ولكنه أبقىٰ سعيد بن زيد وطلحة بن عبيدالله ليُخبراه عن عودة تلك القافلة، ووجههما شمالاً، إذ لاحظ رسول الله ﷺ أن الخروج والعودة دون قتالٍ لا يمنع قوافل قريش من التحرُّك نحو الشام، كما أن إيقاف تجارتها لا يُجبرها علىٰ الاعتراف بوضع المسلمين في المدينة المنورة، ولا يرتفع ذكرهم، فلا تتشجّع القبائل للدخول في الإسلام، إذن يجب مراقبة القافلة؛ بل وكل قافلةٍ أثناء حركتها، وفي أي مكانٍ تكون كل يومٍ.

ولم يلبث رسول الله ﷺ في المدينة إلا قليلاً حتىٰ أغار علىٰ المدينة (كُرْزُ بن جابر الفهري)، وهرب، فلحقه رسول الله ﷺ في جماعةٍ من قومه بعد أن استخلف علىٰ المدينة زيد بن حارثة، وتابع (كُرْزُ بن جابر الفهري) حتىٰ ناحية (سَفْوان) وهو أحد أودية بدرٍ، ولكنه لم يدركه، وتُسمّىٰ هذه الغزوة (بدر الأولىٰ).

وعندما رجع رسول الله ﷺ إلىٰ المدينة من بدر الأولىٰ، بعث في شهر رجب ابن عمته عبدالله بن جحش مع ثمانية رجالٍ من المهاجرين، وكتب إليه كتاباً، وأمره ألا ينظر فيه حتىٰ يسير يومين، ثم ينظر فيه، فيمضي لما أمره به، ولا يَسْتكره من أصحابه أحداً.

فلما سار عبدالله بن جحش يومين فتح الكتاب، فنظر فيه، فإذا فيه: إذا نظرت في كتابي هذا فامضِ حتىٰ تنزل (نخلة) ـ وهو اسم لواديين علىٰ طريق الطائف، يقال لأحدهما: نخلة الشامية، وللآخر: نخلة اليمانية ـ فترصد بها قريشاً، وتعلَّم لنا من أخبارهم. فلما نظر عبدالله بن جحش في الكتاب، قال: سمعاً وطاعةً، ثم قال لأصحابه: قد أمرني رسول الله ﷺ أن أمضي إلىٰ (نخلة)، أرصد بها قريشاً، حتىٰ آتيه منهم بخبر، وقد نهاني أن

أستكره أحداً منكم، فمَن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فلينطلق، ومن كره ذلك فليرجع؛ أما أنا فماضٍ لأمر رسول الله ﷺ، فمضىٰ ومضىٰ معه أصحابه، ولم يتخلّف منهم أحَد. وفي الطريق أضلّ سعد بن أبي وقّاص وعُتبة بن غزوان بعيرهما الذي كانا يتعاقبان عليه، فتخلّفا عن الركب. وسار أمير السرية عبدالله بن جحش رضي الله عنه وبقية أصحابه إلىٰ (نخلة) فنزلوا بها، فمرّت بهم قافلة لقريشٍ تحمل زبيباً وجلوداً، وتجارةً من تجارتهم، وعليها عبدالله بن الحَضْرمي. . . فلما رأوا ذلك، وكان آخر يوم من شهر رجب، رغبوا في القافلة، وخاصةً أن من فيها أقل منهم عدداً، وتَشاوروا في الأمر، فقال بعضهم: إن تركتم القافلة اليوم فإنها ستدخل الحرم، وستمتنع فيه، وتكون قد أُفلتت غنيمة منكم، وقال الآخرون: لئن أخذناها لنكونن قد انتهكنا حرمة الشهر الحرام. وهذا ما أحدث التردد، وهابوا الإقدام، ثم شجّعوا أنفسهم، وقرروا الهجوم علىٰ القافلة، وقتل من يمكن قتله، وأخذ العير غنيمةً لهم. فتقدّموا نحوها ورموها، وأصاب سهم أميرها فقُتل، وأُسر عثمان بن عبدالله بن المغيرة المخزومي، والحكم بن كَيْسان، وفرّ نَوفل بن عبدالله بن المغيرة. وسار عبدالله بن جحش رضي الله عنه بالقافلة والأسيرين إلىٰ رسول الله ﷺ بالمدينة. فلما وصلوا إلىٰ المدينة قال لهم رسول الله ﷺ: «ما أمرتكم بالقتال في الشهر الحرام»، ورفض أن يتسلّم شيئاً من القافلة، وظنّ القوم أنهم قد هَلكوا، وعنّفهم إخوانهم المسلمون علىٰ ما صنعوا، واتخذت قريش ذلك ذريعةً فشنّت هجوماً إعلامياً علىٰ المسلمين بأن محمداً يستحلّ الشهر الحرام؛ فقد سفك أصحابه الدم فيه، وأخذوا الأموال فيه، وأسروا الرجال فيه. أما المسلمون المستضعفون في مكة فكانوا يردُّون علىٰ ذلك، بأن الحادثة كانت في أول شعبان.

ولما كثر حديث الناس في هذا الشأن جاء كلام الله ﷻ.

قال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ

﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾ [البقرة].

وعند ذلك تسلّم رسول الله ﷺ الأسيرين والعير، ولم يقبل بفداء الأسيرين بناءً على طلب قريش حتى رجع سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان، إذ خشي رسول الله ﷺ أن يكونا قد أُسرا، وخاف عليهما من قتل قريشٍ، فلما رجعا قَبِل فداء الأسيرين، فأما الحكم بن كيسان فقد أسلم، وحسُن إسلامه، واستشهد في بئر معونة، وأما عثمان بن عبدالله فقد مات كافراً. وكانت هذه الغنيمة أول غنيمة غنمها المسلمون، وكان عمرو بن الحضرمي أول رجلٍ قتلوه، والحكم وعثمان أول أسيرين أسروهما. وكان عبدالله بن جحش قد وزّع على صحبه أربعة أخماس العير، وعزل الخمس الباقي للّه ولرسوله، وجاء تقسيم الفيء على هذا النحو فيما بعد.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾﴾ [الأنفال].

وبذا يكون هذا الصحابي الجليل عبدالله بن جحش رضي الله عنه قد وقع على الحقيقة.

وكان أفراد سرية عبدالله بن جحش رضي الله عنه الثمانية هم: سعد بن أبي وقاص الزهري، وعكاشة بن محصن الأسدي، وعتبة بن غزوان السلمي، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة، وسهيل بن بيضاء، وعامر بن ربيعة، وواقد بن عبدالله، وخالد بن بكير.

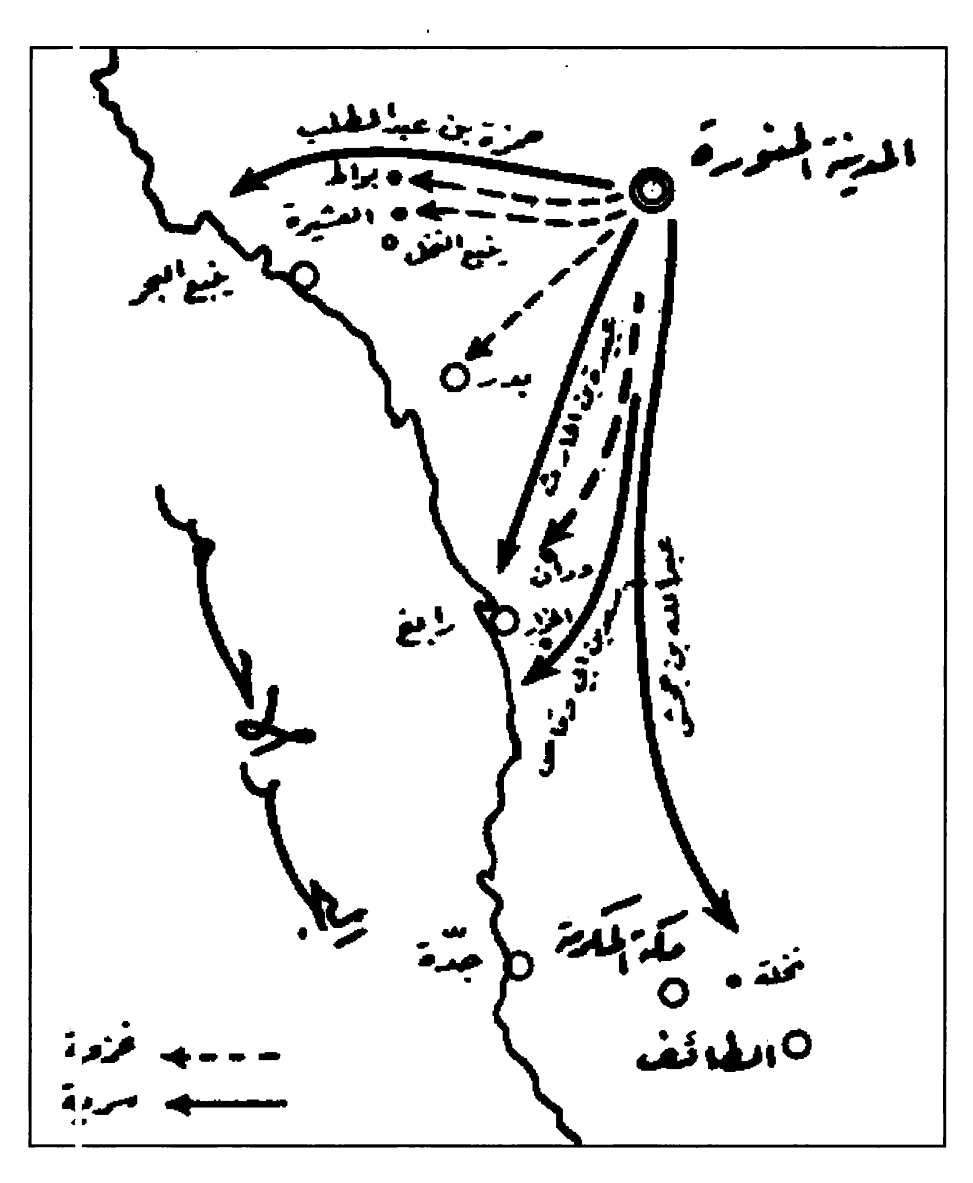
وأما أفراد قافلة قريشٍ فهم: عمرو بن الحضرمي، والحكم بن كيسان، وعثمان بن عبدالله بن المغيرة، ونوفل بن عبدالله.

وربما كانت سرية عبدالله بن جحش رضي الله عنه أهم السرايا السابقة لها، إذ كانت غزواً لقريش في عقر دارها، وذلك أنها وقعت على مقربةٍ من مكة،

كما وقع فيها قتال، وحدث أسر، وذهبت قافلة كاملة غنيمة للمسلمين، فبعُد صداها، وشعر العرب بقوة المسلمين وارتفاع معنوياتهم، وكثرة إمكاناتهم، وهذا ما يريده المسلمون، وأخذت قريش صورةً مغايرةً تماماً.

وبينما كانت الغزوات والسرايا تنطلق إلىٰ مختلف الجهات تجوس في الأرض بين مكة والمدينة، وتدرس الطرق والفجاج، وكانت كلها من المهاجرين لأن الأنصار إنما بايعوا في العقبة علىٰ أن يحموا رسول الله ﷺ، لا أن يخرجوا معه في قتالٍ خارج المدينة، أو يتعرّضوا للقوافل بعيداً عن منازلهم، وبينما كانت الغزوات والسرايا تسير إلىٰ النقط المرسومة لها... كانت الجماعة الإسلامية تتكامل شخصيتها، ويتنزّل التشريع يُحدّد المنهج، ويرسم لها الطريقة التي توصلها إلىٰ السعادة في الدنيا والنجاة في الآخرة.

وقد كان المسلمون يجتمعون للصلاة بمواقيتها دون دعوةٍ، ثم فكّروا أن يجعلوا بُوقاً يأتي المسلمون إلىٰ المسجد حين يسمعونه، ثم كره رسول الله ﷺ ذلك، لأنه تقليد لليهود، ثم فكّروا بالناقوس، ولكن كره ذلك، وبينما هم كذلك، إذ أتىٰ أحد الأنصار، وهو (عبدالله بن زيد)، وقال: يا رسول الله، إنه طاف بي هذه الليلة طائف: مرّ بي رجل عليه ثوبان أخضران، يحمل ناقوساً في يده، فقلت له: يا عبدالله، أتبيع هذا الناقوس؟ قال: وما تصنع به؟ قال: قلت: ندعو به إلىٰ الصلاة، قال: أفلا أدلّك علىٰ خيرٍ من ذلك؟ قلت: وما هو؟ قال: تقول: الله أكبر الله أكبر، الله أكبر الله أكبر، أشهد أن لا إلـٰه إلا الله، أشهد أن لا إلـٰه إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله، أشهد أن محمداً رسول الله، حيَّ علىٰ الصلاة، حيَّ علىٰ الصلاة، حيّ علىٰ الفلاح، حيّ علىٰ الفلاح، الله أكبر الله أكبر، لا إلـٰه إلا الله. فقال رسول الله ﷺ: «إنها لرؤيا حقّ، إن شاء الله، فقُم مع بلال، فألقها عليه، فليؤذّن بها، فإنه أندىٰ صوتاً منك». فلما أذّن بها بلال سمعها عمر بن الخطاب، وهو في بيته، فخرج إلىٰ رسول الله ﷺ وهو يقول: يا نبي الله، والذي بعثك بالحق، لقد رأيت مثل الذي رأىٰ، فقال رسول الله ﷺ: «فللّه الحمد علىٰ ذلك». وبهذا كان للمسلمين شخصيتهم المتميزة في الدعوة إلىٰ العبادة.


المدينة المنورة
حمزة بن عبد المطلب
بواط
العشيرة
ينبع النخل
ينبع البحر
بدر
ودان
رابغ
مكة المكرمة
جدة
نخلة
الطائف
غزوة
سرية

مصور رقم (٧)

ثم اتجه المسلمون في صلاتهم إلىٰ البيت الحرام، بعد أن كانوا يتجهون إلىٰ بيت المقدس مدة ستة عشر شهراً في المدينة، وكان رسول الله ﷺ يحبّ أن تكون الكعبة قبلته، وكان يقوم في الصلاة، ويدعو ربه بذلك، وبينما كان ذات يوم يصلي إذ جاءه الوحي بتحويل القبلة إلىٰ الكعبة فتحوّل وتحوّل من وراءه، وقد فُتن بعض المسلمين بهذه الحادثة ممن كانوا ضعفاء الإيمان. وأكثر اليهود الحديث عن هذا الأمر، فكانوا يقولون: هل صلواتكم السابقة غير صحيحة؟ ولماذا هذا التحوُّل؟ فأنزل الله سبحانه وتعالىٰ:

﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ [البقرة].

وبهذا كان للمسلمين قبلة، وتوجّه في الصلاة متميّزين عن غيرهم.

وفي شهر شعبان من السنة الثانية للهجرة فرض علىٰ المسلمين صوم

شهر رمضان، ومن قبل كان رسول الله ﷺ يصوم في الشهر ثلاثة أيام، وصام عاشوراء، وهي ذكرىٰ خلاص موسىٰ عليه السلام من فرعون، وقال لليهود: «نحن أولىٰ بـ(موسىٰ) عليه السلام منكم»، ثم قرّر صيام التاسع من شهر المحرم إضافةً إلىٰ العاشر تمييزاً عن يهود، ولكن الله سبحانه وتعالىٰ أوجب صوم رمضان، وأصبح للمسلمين شخصية متميزة في صومهم. كما أوجب زكاة الفطر عقب صيام رمضان.

قال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ۝١٨٣ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝١٨٤ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ۝١٨٥﴾ [البقرة].

كما أن الزكاة قد فُرضت في ذلك العام، وهذا النظام خاص أيضاً بالمسلمين، وقد بيّن الشارع الوجوه التي تنفق فيها. قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ۝٦٠﴾ [التوبة] ولا تنفق إلا في هذه الوجوه الثمانية. أما الصدقات الأخرىٰ فحيث يرىٰ المنفقون.

وكذلك قامت الحدود، وفُرض الحلال والحرام.

وفي هذه المدة جاء إلىٰ المدينة المنورة رؤساء نجران وهم من النصارىٰ، وصلُّوا في مسجد رسول الله ﷺ، وكانت صلاتهم إلىٰ جهة المشرق، وأسلم ملكهم وحسُن إسلامه، وأما هم فقد اختلفوا فيما بينهم، ورفضوا الملاعنة، وطلبوا رجلاً يحكم بينهم، فأرسل رسول الله ﷺ أبا عبيدة بن الجراح رضي الله عنه معهم.

وفي هذه المدة توفي من المهاجرين:

أ ـ عثمان بن مظعون ﵁، وهو أخو رسول الله ﷺ من الرضاعة، وقد كان من المسلمين الأوائل، وهاجر الهجرتين، وكان أمير المهاجرين الأوائل إلىٰ الحبشة.

وتوفي من الأنصار:

أ ـ أسعد بن زرارة، أبو أُمامة، أحد نقباء العقبة.

ب ـ البراء بن معرور، وهو أحد نقباء العقبة أيضاً، والناطق باسمهم يومذاك.

أما من المشركين في مكة فكان قد مات:

أ ـ العاص بن وائل السهمي، أبو عمرو بن العاص.

ب ـ الوليد بن المغيرة، أبو خالد بن الوليد.



خاتم الأنبياء والمرسلين

صلّى الله عليه وسلّم

الجزء الثاني

ظهرت دولة الإسلام في المدينة المنوّرة، وقد رسخت جذورها ـ بإذن الله ـ وثبتت قواعدها فقائدها رسول الله ﷺ هو القدوة الحسنة لكل مخلوقٍ علىٰ الأرض، فألدّ أعدائه يُسمُّونه (الصادق الأمين)، وأشدّ خصومه يحفظون عنده أماناتهم.

أما أصحابه فيفدونه بكل غالٍ من روحٍ ومالٍ، ويسعون للسير علىٰ نهجه، ومن خطا خطوةً علىٰ أثره فهو السعيدُ، ومن نال فهو الفائز.

بطولته تفوق كل بطولةٍ، ونهجه المثل الأعلىٰ لطلاب العُلا، وأخوته رضاه الداعي إلىٰ الخير، وصحبته الأمل هي الأمل المرتجىٰ، وكيف لا يكون ذلك وهو رسول الله ونبيّه، وحبيبه وصفيّه، وهو الأسوة الحسنىٰ للخلق، وأمل كل داعٍ للّه صادقٍ في دعوته.

وبالاقتداء برسول الله ﷺ كانت الأخوة الصادقة في مجتمع المدينة المثالي، وفي أبناء دولة الإسلام كافةً، لا ناقد ولا معترض، لا مخالف ولا مبتدع... بل هو الأسوة الحسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر، وأحبّ الناس إليه أقربهم له في جنّة النعيم.

أنزل الله سبحانه وتعالىٰ علىٰ رسوله تشريعاً لهذه الدولة فكانت الصلاة، والزكاة، والصيام وأركان الدولة كافةً، فكانت أسمىٰ دولة، وقدوةً لكل دولةٍ تسعىٰ للسمو والعلياء، والخير والاتباع.

إضافةً إلىٰ ذلك فقد قويت الدولة إذ أرهبت من حولها من الأعراب، وأخافت قريشاً وما قَرُبَ من إماراتٍ فغدا الإسلام ينتشر، وتتحالف مع دولته الأعراب.

ولقد أبدىٰ المسلمون روحاً معنويةً عاليةً في تلك السرايا التي بعثوها، والغزوات التي خاضوها بقيادة رسول الله ﷺ، فحققوا انتصاراتٍ، وأبدوا حسناتٍ رائعةٍ، فأقبل بعض الناس علىٰ الإسلام فارتفعت المعنويات وزادت الدعايات الحسنة.

وشملت دولة الإسلام المهاجرين والأنصار ومن أسلم في المدينة ومن حولها من الأعراب، ولكن كان بعض من أسلم إنما أظهر الإسلام بلسانه خوفاً علىٰ مصلحته، وحرصاً علىٰ مكانته، ولكنه أضمر الإساءة، وأخفىٰ العداوة، وهو ما يملأ القلب، ويشغل الصدر، وإن كان مكتوماً عن المسلمين، مخفياً عن العامة، ولكن إذا سنحت له الفرصة سعىٰ في الأرض فساداً، وعمل علىٰ طعن المسلمين والإساءة إليهم، وإلىٰ مجتمعهم ودولتهم.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾﴾ [البقرة].

وقال تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾ [البقرة].

وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾﴾ [التوبة].

وقال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الحشر].

وعلىٰ المسلمين أن يحذروا المنافقين (الذين أظهروا الإسلام بألسنتهم

وبقيت قلوبهم مرتبطةً بأهل الكتاب الذين كانوا منهم). ومن هؤلاء المنافقين عبدالله بن أبي سلول. وكثيراً ما يكون للمنافقين أدواراً فيجب الانتباه إليهم والحذر منهم في كل وقت.

غزوة بدر:

شعرت قريش أن طريق قوافلها إلىٰ الشام قد أصبحت مُعرّضةً للخطر، والتجارة عماد حياتها، وأرباحها سبب سيادتها وقوتها، وأكبر من هذا فإن المسلمين هم خصومها الألدّاء، وأعداؤها الأوائل وقد أصبحوا علىٰ درجةٍ من القوة، حيث أصبحوا يبعثون السرايا والدوريات إلىٰ قرب مكة بالذات، وبلغت بهم الجرأة إلىٰ أن يقتلوا من أفراد قوافلها، ويأخذوا أسلابهم، ويسوقوا ما تحمله القوافل غنائم لهم كما فعلت سرية عبدالله بن جحش التي اتجهت إلىٰ موقع (نخلة) بين مكة والطائف. وهذا ما جعل قريشاً تفكر في طريقةٍ للقضاء علىٰ خصومها المسلمين الذين يتحكّمون في طريق القوافل، وليتخلّصوا منهم قبل أن يشتدّ ساعدهم، ويقوىٰ عودهم أكثر مما أصبحوا عليه. ومن جهةٍ ثانيةٍ فإن المسلمين لا يزالون يُشكّلون جماعةً يرعاها الله بعنايته، ويُوجّهها في أمورها رسول الله ﷺ، فكان لا بد لها من دروسٍ لتستكمل الإيمان، وتستوعب طريق الإسلام.

إن المؤاخاة التي تمّت بين المسلمين علىٰ يد رسول الله ﷺ عند وصوله إلىٰ المدينة قد أعطت صورةً صادقةً عن الأخوة الحقّة، وعن الاستعداد الكبير للتضحية بالمال والإيثار في كل شيءٍ، وإذا كان المال يُعدّ مُعادلاً للنفس في غالب الأوقات، وقد يُقدّم عليها أحياناً في التضحية، وذلك لما يبذل الإنسان من جهدٍ لتحصيله، ويدفع به عن نفسه غوائل الأيام والأحداث الزمان.

قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الصف].

إلا أن بعض الرجال يجودون بالمال إلا أنهم يضنُّون بالنفس، ويصعب عليهم الجود بها، وخاصةً في الجاهلية التي عُرف فيها الكثيرون ممن وصلوا إلىٰ الإفراط في الكرم والإسراف في بذل المال. والإسلام يُطالب المسلم أن يبذل في سبيل الله كل شيءٍ، يجود بالمال ويجود بالنفس معاً، ولا يبخل بجانبٍ من جوانب الحياة، ما دام يصل بهذا البذل إلىٰ حياةٍ أخرىٰ هي النعيم الدائم، والاستقرار الخالد، والطمأنينة الأبدية. ولقد نجح المسلمون في بذل المال يوم المؤاخاة فلا بُدّ من أن يخوضوا تجربةً في بذل النفس، هذا من جانبٍ ومن جانبٍ آخر فالدعوة لا بدً ـ كما ذكرنا ـ من أن تعترضها العقبات، ولا بدّ من أن تخوض معارك في كل ميدانٍ.

نصّت بيعة العقبة بين رسول الله ﷺ والأنصار علىٰ أن يحموه في مدينتهم، أما خارج المدينة فلم تنصّ علىٰ ذلك. وقد أصبح الواجب علىٰ المسلمين من أنصارٍ ومهاجرين علىٰ حدٍّ سواء أن يخوضوا معركة مع خصومهم في كل ساحةٍ تفرضها المعركة وتقتضيها الدعوة، لذا يجب أن يتبدل المعنىٰ الذي نصت عليه بيعة العقبة عملياً لا نظرياً. وكانت هاتان الناحيتان مهمتين:

١ ـ أن يُمتحن المسلمون في خوض معركة البذل بالنفس.

٢ ـ أن يُبدّلوا دورهم في المعركة وأن لا يتقيّدوا بنصوص بيعة العقبة، وإنما المعركة هي التي تفرض ذاتها وتُحدّد دورها.

وكانت الجماعة الإسلامية تنمو وتسير برعاية الله، وكان لا بدّ من أن تتعرّض فيها لبذل النفس وتحديد الدور والمكانة. وكانت هذه المعركة المرتقبة بأمر الله وتقديره، لا بتخطيطٍ من الجماعة.

رأىٰ رسول الله ﷺ أن المسلمين قد خرجوا من ديارهم مهاجرين، وقد تركوا كل ما كانوا يملكون من مالٍ وأملاكٍ في سبيل عقيدتهم، وقد أخذت قريش هذه الأملاك والأموال، وآن للمسلمين أن يُعوّضوا ما فقدوا، وقد أصبح بإمكانهم ذلك، ما دامت قوتهم قد بدت، وقوافل قريشٍ تغدو وتروح بالقرب من ديارهم. وها هي قافلة أبي سفيان تحمل بضائع قريشٍ، وفيها

أموال ساداتهم وأثريائهم الذين سطوا على أموال المسلمين، فرأى رسول الله ﷺ أن يتعرّض لها، وقد فاتته أثناء سيرها إلى الشام، وقد رأينا كيف ترك رسول الله ﷺ طلحة بن عبيدالله وسعيد بن زيد رضي الله عنهما يرصدانها حين عودتها. وجاء إلى رسول الله ﷺ خبر عودتها، وفيها أربعون رجلاً بينهم عمرو بن العاص رضي الله عنه، فندب المسلمين إليهم، وقال ﷺ: «هذه عِيرُ قريش قد أقبلت، وفيها أموالهم، فاخرجوا إليها لعلّ الله أن يُنْفِلُكموها»، فخفّ بعضهم، وثقُل بعضهم، وذلك لأنهم لم يظنُّوا أن رسول الله ﷺ يلقى حرباً، إذ لم يجعل الخروج واجباً، فلم يكن التأهُّب للقتال، وإنما لأخذ القافلة، وليس في القافلة سوى أربعين رجلاً. هذا ما رآه المسلمون، وهذا ما أرادوه، ولكن الله سبحانه وتعالى أراد من المسلمين الجهاد، لإحراز النصر على الأعداء، وإظهار القوة لنشر الدعوة.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٦ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ[1] أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ[2] تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨﴾ [الأنفال].

كان أبو سفيان (صخر بن حرب) عند عودته ولما اقترب من الحجاز يرسل الطلائع أمامه، ويسأل الركبان، يتحسّس الأخبار، ويتلمّس أحوال الطرق، خوفاً على قافلته، فأصاب خبراً من بعض الركبان أن محمداً قد استنفر أهل المدينة للقافلة، فخاف عليها، فاستأجر أحد رجال القبائل، وهو ضَمْضَمْ بن عمرو الغفاري، وأرسله إلى مكة يستنفر أهلها إلى أموالهم، ويخبرهم الخبر، وما سيؤول إليه الأمر إن تأخّروا في نفيرهم. فخرج ضمضم سريعاً حتى وصل إلى مكة.

وفي هذه الأثناء، حدث أن رأت عمّة رسول الله ﷺ (عاتكة بنت

---

(١) النصر في الحرب أو القافلة.

(٢) غير ذات الشوكة: القافلة.

عبد المطلب) رؤيا أفزعتها، وذلك قبل قدوم ضَمْضَم بثلاث ليالٍ، وبعثت إلىٰ أخيها العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ تُحدّثه بها، فقالت له: يا أخي، والله لقد رأيت الليلة رؤيا أفزعتني، وتخوّفت أن يدخل علىٰ قومك منها شرّ ومُصيبة، فاكتُم عني ما أُحدّثك به، فقال لها: وما رأيتِ؟ قالت: رأيتُ راكباً أقبل علىٰ بعيرٍ له، حتىٰ وقف بالأبطح، ثم صرخ بأعلىٰ صوته: ألا انفروا يا لغدر لمصارِعكم في ثلاثٍ، فأرىٰ الناس اجتمعوا إليه، ثم دخل المسجد والناسَ يتبعونه، فبينما هم حوله، مَثُل (قام) به بعيره علىٰ ظهر الكعبة، ثم صرخ بمثلها، ألا انفروا يا لغدر لمصارعكم في ثلاثٍ. ثم مثُل به بعيره علىٰ قمة جبل أبي قُبَيس، فصرخ بمثلها. ثم أخذ صخرةً فأرسلها، فأقبلت تهوي حتىٰ إذا كانت بأسفل الجبل ارفضّت (تكسّرت)، فما بقي بيت من بيوت مكة، ولا دار إلا دخلتها منها فلقة، قال العباس لأخته عاتكة: اكتمي ذلك ولا تذكريها لأحد.

ذكر العباس هذه الرؤيا لصديقه الوليد بن عتبة بن ربيعة، واستكتمه علىٰ ذلك، وذكرها الوليد لأبيه، ففشا خبرها في مكة، وتحدّث الناس به في الأندية، فقال أبو جهل للعباس: يا بني عبد المطلب، متىٰ حدثت فيكم هذه النبيّة؟ أما رضيتم أن يتنبأ رجالكم حتىٰ تتنبّأ نساؤكم؟ فأنكر العباس أن يكون سمع شيئاً. ولامت نساء بني عبد المطلب العباس علىٰ سكوته عما تحدّث به أبو جهل، فخرج إليه يريد أن ينال منه، وإذا بالناس يسمعون صوت ضمضم بن عمرو الغفاري، وهو يصرخ ببطن الوادي واقفاً علىٰ بعيره، وحوّل رحله، وشقّ قميصه، وهو يقول: اللطيمة اللطيمة، أموالُكم مع أبي سفيان قد عَرض لها محمد في أصحابه، ولا أرىٰ أن تُدركوها، الغوث الغوث. وشغل العباس وصاحبه كل عن الآخر، وتجهّز الناس سراعاً حاقدين، وهم يقولون: أيظن محمد وأصحابه أن تكون كعير ابن الحضرمي[1]، كلا والله ليعلمنّ غير ذلك. فكانوا بين رجلين إما خارج،

---

(١) عمرو بن الحضرمي: أمير القافلة التي التقت بسرية عبدالله بن جحش عند نخلة بين مكة والطائف، وقُتل ابن الحضرمي فيها.

وإما باعث مكانه غيره، فخرجت قريش كلها، فلم يتخلّف أحد من أشرافها، إلا أن أبا لهب (عبد العزّىٰ بن عبد المطلب) تخلّف، ولكن أرسل مكانه العاص بن هشام بن المغيرة المخزومي.

ولما تجهّزت قريش تذكرت أن بينها وبين قبيلة كِنانة ثارات، فخشيت إن اتجهت شمالاً نحو المدينة أن تأتيها كنانة من خلفها من الجنوب، إلا أن الشيطان قد أغراهم بالخروج إلىٰ المدينة، إذ ذكروا أن الإسلام قد حجز بينهما، وأنه العدوّ المشترك لهما، فساروا نحو الشمال.

وكان رسول الله ﷺ قد خرج من المدينة، يريد قافلة أبي سفيان، وقد استعمل علىٰ المدينة عبدالله بن أم مكتوم، يُصلّي بالناس، وخرج مع رسول الله ﷺ ثلاثمائة وأربعة عشر رجلاً من المسلمين، ومعهم فرسان وسبعون بعيراً، يتعقّبون عليها، أما الفرسان فهما للزبير بن العوام، والمقداد بن عمرو. وكان خروجه ﷺ يوم الجمعة لثمانٍ خلون من شهر رمضان في السنة الثانية للهجرة، واتجه نحو الجنوب الغربي، حتىٰ إذا قطع ثلاثةً وأربعين ميلاً، وكان بـ(الروحاء)، أعاد أبا لبابة رفاعة بن عبد المنذر ليكون أميراً علىٰ المدينة. وكان الجيش الإسلامي يضمّ كتيبتين: أولاهما للمهاجرين، ويحمل لواءها علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وتضمّ نيفاً وسبعين رجلاً، وأخراهما للأنصار، ويحمل لواءها سعد بن معاذ رضي الله عنه، وتضمّ مائتين وأربعين رجلاً، وقيادة الكتيبتين العليا كانت بيد رسول الله ﷺ، ويحمل لواءها مصعب بن عمير رضي الله عنه، وكان علىٰ ميمنة الجيش الزبير بن العوام رضي الله عنه، وعلىٰ ميسرته المقداد بن عمرو رضي الله عنه، وعلىٰ مؤخرته قيس بن أبي صعصعة رضي الله عنه.

أرسل رسول الله ﷺ الاستطلاع أمامه، وأمر بقطع الأجراس من أعناق الإبل حذراً، وعندما غادر الرَّوحاء وصل إليه خبر خروج قريش، وأنها بعد ليلتين ستكون في بدر. وكان عدد جيش قريش تسعمائة وخمسين رجلاً، ومعهم مائة فرس، وسبعمائة بعيرٍ.

أما أبو سفيان فبقي يسير مسرعاً نحو مكة، وبطريقه الطبيعي نحو

(بدر)، ولكنه كان حذِراً متيقظاً، وكاد قبل أن يصل إلىٰ (بدر) يلتقي بجيش المسلمين، إلا أنه لقي (مجدي بن عمرو) فسأله عن جيش رسول الله، فقال له: ما رأيت أحداً أُنكره إلا أنني رأيت راكبين أناخا إلىٰ هذا التل، ثم استقيا، وانطلقا، فأسرع أبو سفيان إلىٰ مناخ راحلتَي الرجلين، وتفحّص بعراتهما، فوجد فيها نوىٰ المدينة، فعلم أنهم من أصحاب رسول الله ﷺ، فعاد إلىٰ قافلته مسرعاً، وتوجّه نحو الغرب باتجاه الساحل، ونجا بما معه، ولما تأكّد من النجاة أرسل إلىٰ قريشٍ رسالةً يقول فيها: إنكم قد خرجتم لتمنعوا عِيركم، ورجالكم، وأموالكم، وقد نجّا الله، فارجعوا. وقد وصلت رسالته إلىٰ قريشٍ، وهم في (الجُحفة) جنوب شرقي ميناء (رابغ) وعلىٰ بُعد ثلاثين كيلومتراً منها. ولكن أبا جهل (عمرو بن هشام) قد رفض هذه النصيحة، وأصرّ علىٰ متابعة السير، وقال: والله لا نرجع حتىٰ نَرِدَ (بدراً) فنُقيم بها ثلاثاً: نذبح الجزور، ونطعم الطعام، ونسقىٰ الخمر، وتعزف لنا القيان، وتسمع بنا العرب، وبمسيرنا، وجمعنا، فلا يزالون يهابوننا أبداً، فامضوا. ولكن (الأخنس بن شريق الثقفي) حليف بني زُهرة، وقائد حملتها، قد عرض أبا جهلٍ، وقال: يا بني زُهرة، قد نجّىٰ الله لكم أموالكم، وخلّص صاحبكم (مخرمة بن نوفل)[1]، وإنما نفرتم لتمنعوه وماله، فاجعلو لي جُبنها، وارجعوا، فإنه لا حاجة لكم بأن تخرجوا في غير ضيعةٍ، لا ما يقول هذا ـ يعني أبا جهل ـ. فأطاعه قومه ورجعوا من (الجُحفة)، وكانوا حوالي ثلاثمائة رجلٍ.

أما رسول الله ﷺ فقد شعر بحراجة الموقف فعندما بلغه مسير قريش، فإنه قد خرج بأصحابه يريد العير، ولا يريد القتال، إذ لم يكن المسلمون

---

(١) مخرمة بن نوفل بن أهيب بن عبد مناف الزهري القرشي، أبو صفوان: صحابي، عالم بالأنساب. أسلم يوم الفتح، وكان رسول الله ﷺ يتقي لسانه، ويُداريه بعد أن أسلم، عاش طويلاً، قيل: مائة وخمسة عشر عاماً. وكُفّ بصره في عهد خلافة عثمان بن عفان ﷺ. ومات في المدينة المنورة سنة أربعٍ وخمسين للهجرة، في خلافة معاوية بن أبي سفيان.

قد استعدُّوا لذلك، حتىٰ لم يخرج عدد من سراة القوم من المدينة المنورة لعلمهم أن الخروج إنما كان للقافلة وليس للقتال. والقافلة لا تحتاج لأكثر من جزءٍ ممن خرج، ولو علموا القتال ما تخلّفوا. فأراد رسول الله ﷺ أن يستشير القوم، وإن كان يعلم علم اليقين أن الله لن يُضيّعه، وقد أُفلتت عير أبي سفيان من قبضته.

جمع رسول الله ﷺ كبار الصحابة، وقال: «أشيروا عليّ أيها القوم»، فقام أبو بكر رضي الله عنه فقال وأحسن، ثم قام عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال وأحسن. فأثنىٰ عليهما رسول الله ﷺ، وقال: «أشيروا عليّ أيها القوم»، فقام المِقْداد بن عمرو رضي الله عنه، وقال: يا رسول الله، امضِ لما أراك الله، فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسىٰ: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾. ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلىٰ (بَرْك الغماد)[1] لجالدنا معك من دونه حتىٰ تبلغه، فقال له رسول الله ﷺ خيراً، ودعا له به. ثم قال رسول الله ﷺ: «أشيروا عليّ أيها الناس»، وذلك أنه كان ﷺ يريد أن يعرف رأي الأنصار، فهم أكثرية الجيش ـ كما رأينا ـ وهم أهل المدينة، وأنهم حينما بايعوه بالعقبة، قالوا: يا رسول الله، إنا برءاء من ذِمامك حتىٰ تصل إلىٰ ديارنا، فإذا وصلت إلينا، فأنت في ذمتنا، نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا. فكان رسول الله ﷺ يتخوّف ألا تكون الأنصار ترىٰ نصرته خارج المدينة، وأنه ليس عليهم أن يسيروا معه إلىٰ عدوٍّ بعيدٍ عن ذلك. فلما قال رسول الله ﷺ: «أشيروا عليّ أيها الناس» وقف سعد بن مُعاذ رضي الله عنه قائد كتيبة الأنصار، وسيّد الأوس، فقال: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «أجل».

فقال سعد بن مُعاذ رضي الله عنه: قد آمنا بك وصدّقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك علىٰ ذلك عهودنا ومواثيقنا، علىٰ السمع والطاعة، فامضِ يا رسول الله لما أردت، فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق، لو

(١) برك الغماد: ناحية باليمن في أقصىٰ شبه جزيرة العرب.

استعرضتَ بنا هذا البحر فخضته، لخُضناه معك، ما تخلّف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقىٰ بنا عدونا غداً، إنا لصُبْرٌ في الحرب، صُدْقٌ في اللقاء. لعلّ الله يريك منا ما تقرُّ به عينك، فَسِرْ بنا علىٰ بركة الله.

فسُرَّ رسول الله ﷺ بقول سعد، ونَشَّطَه، ثم قال: «سيروا وأبشروا، فإن الله تعالىٰ قد وعدني إحدىٰ الطائفتين، والله لكأني الآن أنظر إلىٰ مصارع القوم».

تابع رسول الله ﷺ باتجاه بدرٍ، ثم نزل قريباً منها، فركب هو وأبو بكر الصديق، فالتقيا بشيخ من العرب، يقال له: سفيان الضمري، فسأله رسول الله ﷺ عن قريشٍ، وعن محمدٍ وأصحابه، وما بلغه عنهم، فقال سفيان: لا أُخبركما حتىٰ تخبراني مَن أنتما؟ فقال رسول الله ﷺ: «إذا أخبرتنا أخبرناك». قال: أذاك بذاك؟ قال: «نعم».

قال سفيان: فإنه قد بلغني أن محمداً وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان صدق الذي أخبرني، فهم اليوم بمكان كذا وكذا ـ للمكان الذي به رسول الله ﷺ فعلاً، مما يدلّ علىٰ صحة تقدير الرجل ـ وبلغني أن قريشاً خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان الذي أخبرني صدقني، فهم اليوم بمكان كذا وكذا، للمكان الذي كانت فيه قريش، فلما فرغ من خبره، قال: ممن أنتما؟ فقال رسول الله ﷺ: «نحن من ماءٍ». قصد رسول الله ﷺ من الجنس الذي خلق من ماءٍ، إشارةً إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الأنبياء] وظنّ سفيان أنهما من أهل ماء معين.

وانصرف رسول الله ﷺ وأبو بكرٍ رضي الله عنه إلىٰ المسلمين. فلما كان المساء أرسل رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص مع نفرٍ من الصحابة يتحسّسون أخبار قريشٍ علىٰ ماء بدرٍ، فوجدوا رجلين يسقيان لقريشٍ، فأتوا بهما، ورسول الله ﷺ قائم يصلي، فسألوهما، فقالا: نحن سُقاة قريشٍ، بعثونا نسقيهم من الماء. فكره القوم منهما ما قالا، ورجوا أن يكونا لأبي سفيان، فضربوهما حتىٰ أوجعوهما، فقالا: نحن سقاة لأبي سفيان، فتركوهما.

فلما انتهىٰ رسول الله ﷺ من صلاته، قال: «إذا صدقاكم ضربتموهما، وإذا كذباكم تركتموهما، صدقا، والله إنهما لقريش، أخبراني عن قريشٍ؟» قالا: هم والله وراء هذا الكثيب الذي ترىٰ بالعُدوة القصوىٰ.

فقال لهما رسول الله ﷺ: «كم القوم؟» قالا: كثير. قال: «ما عدتهم؟» قالا: لا ندري. قال: «كم ينحرون كل يومٍ؟» قالا: يوماً تسعاً ويوماً عشراً.

فقال رسول الله ﷺ: «القوم بين التسعمائة والألف». ثم قال: «فمن فيهم من أشراف قريشٍ؟» قالا: عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو البختري بن هشام، وحكيم بن حزام، ونوفل بن خويلد، والحارث بن عامر بن نوفل، وطُعَيمة بن عدي بن نوفل، والنضر بن الحارث، وزمعة بن الأسود، وأبو جهل بن هشام، وأمية بن خلف، ونبيه ومُنبّه ابنا الحجاج، وسهيل بن عمرو، وعمرو بن عبد وُدّ، فأقبل رسول الله ﷺ علىٰ الناس، فقال: «هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها». ثم سار رسول الله ﷺ بالمسلمين حتىٰ نزلوا بعدوة الوادي الدنيا من المدينة المنورة بعيداً عن الماء في أرض سبخة، فأصبح المسلمون عِطاشاً، بعضهم علىٰ غير طهارةٍ، ووسوس لهم الشيطان، بأن المشركين لا ينتظرون أكثر من أن تموتوا ظمأً، فأرسل لهم الغيث، فشربوا، وسقوا، واغتسلوا، وتوضؤوا، وملؤوا أسقيتهم، وثبتت الأرض تحت أقدامهم، علىٰ حين كان هذا المطر بلاءً علىٰ المشركين، إذ أصبحت أرضهم وحلاً، فلم يستطيعوا الحركة والانتقال، فبقوا في مكانهم.

قال الله تعالىٰ: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾﴾ [الأنفال].

ثم تحرّك رسول الله ﷺ نحو ماء بدرٍ ليسبق عدوَّه إليها، قبل أن يمنعوه، فلما وصل إلىٰ أول بئرٍ نزل بها. فقال له الحُباب بن المنذر

الأنصاري[1]: يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل، أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدّمه ولا نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ فقال رسول الله ﷺ: «بل هو الرأي والحرب والمكيدة».

فقال: يا رسول الله، فإن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتىٰ نأتي أدنىٰ ماءٍ من القوم، فننزله، ثم نُغوّر ما وراءه من القُلُب، ثم نبني عليه حوضاً فنملؤه ماءً، ثم نُقاتل القوم، فنشرب ولا يشربون، فقال رسول الله ﷺ: «لقد أشرت بالرأي»، فنهض رسول الله ﷺ بالمسلمين، وسار إلىٰ أدنىٰ ماءٍ من القوم، فتزل عليه، ثم أمر بالقُلُب، فغُوِّرت، وبنىٰ حوضاً علىٰ القَليب الذي نزل عليه، فملؤوه ماءً، ثم قذفوا فيه الآنية.

بناء العريش:

وقال سعد بن معاذ ﷺ لرسول الله ﷺ: يا نبيّ الله، ألا نبني لك عريشاً تكون فيه، ونُعِدّ عندك ركائبك، ثم نلقىٰ عدوّنا، فإن أعزّنا الله وأظهرنا علىٰ عدوّنا، كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخرىٰ جلست علىٰ ركائبك، فلحِقْت بمن وراءنا، فقد تخلّف عنك أقوام، يا نبي الله، ما نحن بأشدّ لك حُباً منهم، ولو ظنُّوا أنك تلقىٰ حرباً ما تخلّفوا عنك، يمنعك الله بهم، يُناصحونك، ويُجاهدون معك. فأثنىٰ عليه رسول الله ﷺ خيراً وبنىٰ العريش، وجلس فيه رسول الله ﷺ.

وفي صباح يوم المعركة السابع عشر من شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة تحرّكت قريش نحو بدرٍ، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم هذه قريش

---

(١) الحباب بن المنذر بن الجموح الأنصاري الخزرجي ثم السلمي: صحابي من الشعراء الشجعان، يقال له (ذو الرأي). وهو صاحب المشورة يوم بدر. أخذ النبيّ ﷺ برأيه، ونزل جبريل ﷺ فقال لرسول الله ﷺ: «الرأي ما قال حُباب». وكانت له في الجاهلية آراء مشهورة. وهو الذي قال يوم بيعة أبي بكر الصديق ﷺ يوم السقيفة: أنا جذيلها المُحكّك، وعذيقها المرجب. فذهبت مثلاً. توفي سنة عشرين للهجرة أيام خلافة عمر بن الخطاب ﷺ، وقد زاد عمره على الخمسين.

الجذيل: أصل الشجرة. المحكك: تحتك به الإبل. العذيق: تصغير العذق وهو النخلة. المرجب: الذي له دعامة.

قد أقبلت بخُيلائها وفخرها، تُحادُّك وتُكذّب رسولك، اللهم فنصرك الذي وعدتني، اللهم أَحِنْهُمُ الغداة». ورأىٰ رسول الله ﷺ عتبة بن ربيعة علىٰ جملٍ أحمر، فقال: «إن يكن في أحدٍ من القوم خير، فعند صاحب الجمل الأحمر، إن يطيعوه يرشدوا».

المعرفة والجحود:

قدّم أحد بني غفار هدايا لقريشٍ مع ولدٍ له، وهي إبل، وطلب الأب من ولده أن يسأل رجال جيش قريشٍ إن كانوا يريدون رجالاً أو سلاحاً أمدّهم بما يطلبون، فأجابت قريش: وصلتك رحم، قد قضيت الذي عليك، فلعمري لئن كنا إنما نقاتل الناس فما بنا من ضعفٍ عنهم، ولئن كنا إنما نُقاتل الله، كما يزعم محمد، فما لأحدٍ بالله من طاقةٍ.

الخبرة والرأي:

أرسلت قريش أحد رجال استطلاعها، بعد أن استقرّ بهم المقام، وذلك ليتعرّف علىٰ أحوال المسلمين وجيشهم، فانطلق، وهو عُمير بن وهب الجُمحي[1]، فدار حول معسكر المسلمين ثم رجع فقال: ثلاثمائة رجلٍ يزيدون قليلاً أو ينقصون، ولكن أمهلوني حتىٰ أنظر أللقوم كمِينٌ أو مدد؟ فضرب في الوادي حتىٰ قطع مسافةً خلف جيش المسلمين فلم يَرَ أحداً،

---

(١) عمير بن وهب بن خلف الجُمحي، أبو أمية: صحابي، من الشجعان. أبطأ في قبول الإسلام، وشهد معركة بدرٍ مع المشركين، فأسر المسلمون ابنه وهباً، فرجع إلىٰ مكة، فخلا به صفوان بن أمية بالحِجْر، وقال له: ما عليك من دَين فهو عليّ، وعيالك عليّ، أُموِّنهم ما عِشْتُ، وأجعل لك كذا وكذا إن أنت خرجت إلىٰ محمدٍ فقتلته. فوافقه عمير، ورجع إلىٰ المدينة المنورة، فدخل بسيفه علىٰ النبيّ ﷺ وهو في المسجد، فسأله: «لما قَدِمْتَ؟» قال: أريد فداء ابني. فقال: «ما لك والسلاح؟» قال: نسيته عليّ لما دخلت. قال: فما جعل لك صفوان بن أمية في الحِجْر؟ فأنكر، فأخبره النبيّ ﷺ بما كان، فدُهش وأسلم، وعاد إلىٰ مكة فأشهر إسلامه، ثم هاجر إلىٰ المدينة، وشهد مع المسلمين معركة أُحُدٍ وما بعدها، وتوفي سنة ٢٣ للهجرة في أواخر خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

فرجع إليهم، فقال: ما وجدت شيئاً، ولكني قد رأيت يا معشر قريش، البلايا تحمل المنايا، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع، قوم ليس معهم منَعة ولا ملجأ إلا سيوفهم، والله ما أرىٰ أن يُقتل رجل منهم، حتىٰ يَقتل رجلاً منكم، فإذا أصابوا منكم أعدادهم، فما خير العيش بعد ذلك؟ فَرَوا رأيكم.

وسمع أحد أشراف قريش، وهو حكيم بن حزام ما قاله عمير بن وهب، فمشىٰ بين الناس، فأتىٰ عتبة بن ربيعة، فقال له: يا أبا الوليد، إنك كبير قريش وسيّدها، والمُطاع فيها، هل لك إلىٰ أن لا تزال تُذكر فيها بخير إلىٰ آخر الدهر؟ قال: وما ذاك يا حكيم؟ قال: ترجع بالناس، وتحمل أمر حليفك عمرو بن الحضرمي الذي قتلته سرية عبدالله بن جحش في نخلة، قال: قد فعلت، أنت عليّ بذلك إنما هو حليفي، فعليّ عقله (ديته)، وما أُصيب من ماله، فأتِ ابن الحنظلية (يعني أبا جهل) فإني لا أخشى ألا يخالف غيره.

الحكيم الذي لا يُطاع:

وقف عتبة بن ربيعة، فقال: يا معشر قريش، إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمداً وأصحابه شيئاً، والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر في وجه رجلٍ يكره النظر إليه، قتل ابن عمه، أو ابن خاله، أو رجلاً من عشيرته، فارجعوا وخلّوا بين محمدٍ وبين سائر العرب، فإن أصابوه فذلك الذي أردتم، وإن كان غير ذلك ألفاكم ولم تعرّضوا منه ما تريدون.

سار حكيم بن حزام إلىٰ أبي جهل عمرو بن هشام، فقال: يا أبا الحكم، إن عتبة بن ربيعة أرسلني إليك بكذا وكذا، فقال: انتفَخ والله سحره (ظهر خوفه وجُبنه) حين رأىٰ محمداً وأصحابه، كلا والله لا نرجع حتىٰ يحكم الله بيننا وبين محمد، وما بعتبة ما قال، ولكن رأىٰ محمداً وأصحابه أكلةُ جَزُور، وفيهم ابنه[1]، فقد تخوّفكم عليه.

---

(١) كان أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة مسلماً، وكان مع قوات المسلمين يوم بدر.

ثم بعث أبو جهل إلىٰ عامر بن الحضرمي، فقال: هذا حليفك يريد أن يرجع بالناس، وقد رأيتَ ثأرك بعينك، فقم فانشد خُفْرتك، ومقتل أخيك[1].

فقام عامر بن الحضرمي، وبدأ يصرخ: واعمراه... واعمراه، فحميت نار الحرب، واجتمع الناس، وظهر الشرّ، وأفسد الرأي الذي اقترحه عتبة بن ربيعة وهو الرجوع بالناس.

بدء القتال:

بينما كان المسلمون في غنًى بالماء ولا يحتاجونه، فحوضهم مليء، وبئرهم وافرة المياه، كانت قريش بحاجةٍ ماسّةٍ إلىٰ ذلك فقد ظمئ أفرادها، وخرج منهم الأسود بن عبد الأسد المخزومي ـ أخو أبي سلمة عبدالله ابن عمّة رسول الله ﷺ (برّة بنت عبد المطلب) ـ وكان رجلاً شرساً سيِّئ الخُلق، فقال: أُعاهد الله لأشربنّ من حوضهم، أو لأَهْدِمَنَّهُ، أو لأَمُوتَنَّ دونه، فلما خرج من بين قومه حتىٰ خرج له الحمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه، فلما التقيا ضربه الحمزة ضربةً أطاحت بنصف ساقه، فوقع علىٰ الأرض، ومع هذا فقد بدأ يحبو نحو الحوض، فأتبعه بأخرىٰ أودت بحياته.

المبارزة:

خرج عتبة بن ربيعة بين أخيه شيبة وابنه الوليد بن عتبة، يدعو إلىٰ المبارزة رداً علىٰ أبي جهل الذي اتهمه بالجبن والخوف من المعركة، فخرج لهم فتية من الأنصار، هم: عبدالله بن رواحة، وعوف بن الحارث، وأخوه مُعوّذ بن الحارث.

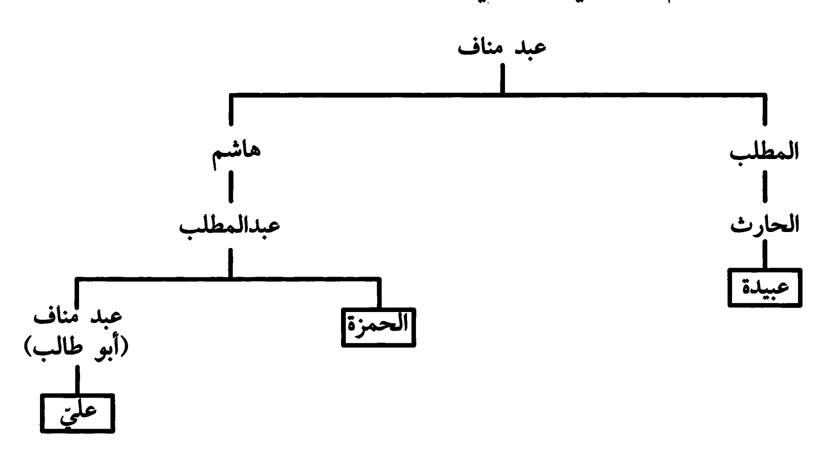
قال عتبة بن ربيعة: مَن أنتم؟ قالوا: رهط من الأنصار. قال القرشيون:

---

(١) قتل عمرو بن الحضرمي يوم نخلة بأيدي قوات عبدالله بن جحش قائد السرية، وعمرو بن الحضرمي أخو عامر بن الحضرمي.

ما لنا بكم من حاجةٍ. ثم نادىٰ مناديهم: يا محمد، أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا.

فقال رسول الله ﷺ: «قُم يا عبيدة بن الحارث، وقُم يا حمزة بن عبد المطلب، وقُم يا علي بن أبي طالب».



فلما قاموا ودنَوا من خصومهم، قال الخصوم: مَن أنتم؟ فعرّف الصحابة أنفسهم. فقال المشركون: نعم أكفاء كرام.

وقف عبيدة وكان أكبر المبارزين المسلمين سِنًّا أمام عتبة، ووقف الحمزة أمام شيبة، ووقف عليّ أمام الوليد.

أما الحمزة وعليّ فلم يمهلا صاحبيهما أن قتلاهما، وأما عبيدة وعتبة فقد ضرب كل منهما الآخر، فأسرع الحمزة وعليّ فضربا عتبة فقتلاه، وحملا عبيدة إلىٰ صفوف المسلمين، وكان جريحاً ينزف الدم من رجله، فأضجعاه إلىٰ جانب رسول الله ﷺ، فأفرشه رسول الله ﷺ قدمه الشريفة، فوضع خدّه عليها، وبشّره عليه الصلاة والسلام بالشهادة، فقال: وددت والله أن أبا طالب كان حياً ليعلم أننا أحقّ منه بقوله:

ونُسلمه حتىٰ نُصرّع حولَه ... ونَذْهل عن أبنائنا والحلائلِ[1]

---

(١) من قصيدةٍ طويلةٍ لأبي طالبٍ عدد أبياتها ٩٨ بيتاً من الشعر. ومطلعها:

ولما رأيت القوم لا وُدَّ فيهمُ ... وقد قطعوا كل العُرا والوسائلِ

ثم لم يلبث عبيدة ﷺ أن فارق الحياة.

وتقدّم كل جيشٍ من الآخر، وأمر رسول الله ﷺ أصحابه ألا يحملوا حتىٰ يأمرهم، وقال: «إن اكتنفكم القوم، فانضحوهم عنكم بالنَّبل».

وخرج رسول الله ﷺ يسوّي الصفوف، وفي يده سهم يعدل به القوم، فمرّ بـ(سَوّاد بن غُزَيّة)، وهو بارز قليلاً في النسق الأول، فمسّه السهم، فقال له رسول الله ﷺ: «استوِ يا سَوّاد»، فقال: يا رسول الله أوجعتني وقد بعثك الله بالحق والعدل، فأقدني. فكشف رسول الله ﷺ عن بطنه، وقال: استقد، فاعتنقه سوّاد فقبّل بطنه، فقال رسول الله ﷺ: «ما حملك علىٰ ذلك يا سوّاد؟» فقال: يا رسول الله، حضر ما ترىٰ، فأردتُ أن يكون آخر العهد بك أن يمسّ جلدي جلدك. فدعا له رسول الله ﷺ بخير. ورجع رسول الله ﷺ إلىٰ العريش بعد أن سوّىٰ الصفوف.

الجيشان:

رأينا أن جيش قريشٍ منقسم علىٰ نفسه، بعضه يريد العودة إلىٰ مكة دون قتالٍ، وبعضه حاقد، ناقم، متغطرس يريد القتال. بعضه يتهم الآخرين بالجبن والخور. الحكيم فيهم غير مُطاع، والسيد غير مسموع الكلمة، وأبو جهل عمرو بن هشام يفرض نفسه علىٰ الجيش وأشراف قريشٍ. أما المسلمون فكتلة واحدة يأتمرون بأمر رسول الله ﷺ، وهم علىٰ السمع والطاعة كأحسن ما يكون جندي لقائده، بل إنسان لنبيّه وسيّده وحبيبه، يفدونه بأنفسهم وأموالهم، لا يصدر أمر إلا عنه، ولا يتكلم متكلم إلا بأمره، ولا يشير مشير إلا بإذنه، وهو في منتهىٰ التواضع والتقدير.

مناشدة الرسول ربّه:

عاد رسول الله ﷺ بعد أن عدّل الصفوف إلىٰ العريش، ومعه أبو بكرٍ الصدِّيق ﷺ يُؤنسه، فكان رسول الله يُناشد ربّه، ويقول: «اللهم إن تُهلكْ هذه العصابة اليوم لا تُعبد». ويقول له أبو بكر: يا نبيّ الله بعض مُناشدتك ربك، فإن الله مُنجزٌ لك ما وعدك. ثم أخذت رسول الله ﷺ سِنة من

النوم، ثم صحا، فقال: «أبشِر يا أبا بكر، أتاك نصر الله، هذا جبريل عليه السلام آخذ بعِنان فرسه يقوده، على ثنايا النقع».

وخرج رسول الله ﷺ من العريش إلى الناس يُحرّضهم على القتال، فقال: «والذي نفس محمدٍ بيده، لا يقاتلهم اليوم رجل فيُقتل صابراً محتسباً، مُقبلاً غير مُدبرٍ، إلا أدخله الله الجنّة». فقال عُمير بن الحُمام، وفي يده تمرات يأكلها: بخٍ بخٍ، أفما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء، ثم قذف التمَراتِ من يده، وأخذ سيفه، فقاتل حتى قتل. وبهذه الروح المعنوية خاض المسلمون المعركة فانتصروا، وخاضوها في بقية المعارك، فكتب الله لهم النصر، ولكن عندما أضاعوها، وأهملوا الإيمان كانت عاقبتهم ـ فاعتبروا يا أولي الألباب ـ فالجندي المؤمن عندما يدخل المعركة لا يهاب الموت، بل يطلبه، ولأن المشتاق إلى الجنّة لا يمكن أن تقف الرجال أمامه، ولا تحدّ الأسلحة من زحفه، ولكن إذا زُجّ الجندي في الميدان زجًّا، وليس له هدف، ولا رغبة، فإنه يُدافع عن ترابٍ، أو يُقاتل من أجل أمورٍ زائلةٍ، وشعاراتٍ فارغةٍ فلن يثبت في الساحة، وإنما ينتهز فرصة غياب العيون عنه ليُولّي الأدبار، لا يسأل عن شيءٍ، لأن الذي يعمل من أجله زائل، يُعوَّض ويُستبدل.

ولما التقى الفريقان، قال أبو جهل: اللهم أقطَعنا للرحم، وآتانا بما لا يُعرف، فأَحِنْه الغداةَ. فكان هو المُستفتح.

ثم إن رسول الله ﷺ أخذ حفنةً من الحصباء، فاستقبل بها قريشاً. ثم قال: «شاهتِ الوجوه»، ثم نفحهم بها، وأمر أصحابه، فقال: «شدُّوا»؛ فكانت هزيمة قريش ـ بإذن الله ـ. وقال رسول الله ﷺ لأصحابه يومئذٍ: «إني عرفت أن رجالاً من بني هاشم وغيرهم قد أُخرجوا كرهاً لا حاجة لهم بقتالنا، فمن لقي منكم أحداً من بني هاشم فلا يقتله، ومن لقي أبا البَخْتري بن هشام بن الحارث بن أسد[1] فلا يقتله، ومن لقي العباس بن

---

(١) أبو البختري: العاص بن هشام بن الحارث بن أسد بن عبد العزى، من زعماء قريش في الجاهلية، كان ممن نقض الصحيفة التي تعاقد فيها مشركو قريش على مقاطعة =

عبد المطلب فلا يقتله، فإنه إنما أُخرج مُستكرهاً». قال أبو حذيفة[1]: أنقتُل آباءنا وأبناءنا وإخوتنا وعشيرتنا، ونترك العباس، والله لئن لقيته لألُحمنّه بهذا السيف.

بلغ رسول الله ﷺ ما قال أبو حذيفة، فقال لعمر بن الخطاب: يا أبا حفص، أيُضرب وجه عمّ رسول الله بالسيف؟ فقال عمر: يا رسول الله، دعني فلأضرب عنقه بالسيف، فوالله لقد نافق. يقول عمر رضي الله عنه: والله إنه لأول يومٍ كنّاني فيه رسول الله ﷺ بأبي حفص. ويقول أبو حذيفة: ما أنا بآمنٍ من تلك الكلمة التي قُلتُها يومئذٍ، ولا أزال خائفاً، إلا أن تُكفّرها عني الشهادة. وقد استشهد رضي الله عنه في اليمامة أثناء قتال المرتدّين وذلك سنة ١٢هـ.

وقضت حكمة الله سبحانه وتعالىٰ أن تُرفع معنويات المسلمين، فقد رأىٰ رسول الله ﷺ المشركين في المنام قلّة، ممّا شجّعه علىٰ المضي في القتال، وقد حدّث المسلمين بذلك فارتفعت معنوياتهم، لأنه لو رآهم كثرة لكثر النقاش في الموضوع المتعلّق بالحرب، ولأنهم إنما خرجوا لقافلة أبي سفيان، ثم رأىٰ المسلمون المشركين قلّةً أثناء اللقاء للسبب نفسه، فكان كل فردٍ منهم مِقداماً، وفي الوقت نفسه فقد رأىٰ المشركون المسلمين قلّةً حتىٰ يندفعوا أيضاً للحرب إذ لو رأوهم كثرةً لهابوهم ولاستمعوا إلىٰ كلام عتبة بن ربيعة في ترك القتال، كل ذلك لتكون النتيجة التي أرادها الله للفريقين، لتتمّ بأيدي الطرفين لا بمعجزةٍ، فالإسلام يُطبّق بأيدي أبنائه، لا بالمعجزات، هكذا أراد الله لدينه.

قال الله تعالىٰ: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا

= بني هاشم وبني المطلب حتىٰ يُسلّموا إليهم محمداً ﷺ، واتفق مع آخرين علىٰ تمزيقها، فشقُّوها، ولم يُعرف عنه إيذاء لرسول الله، بل كان في بدء الدعوة يكفّ الناس عنه، وحضر معركة بدر مع المشركين، ونحر لهم علىٰ ماء بدرٍ عشرة جزور، ونهىٰ رسول الله عن قتله إلا أن المجذر بن زياد البلوي قتله.

(١) أبو حذيفة هو ابن عتبة بن ربيعة، كان أبوه عتبة علىٰ رأس المشركين، وقُتل بالمبارزة، قتله الحمزة وعليّ رضي الله عنهما بعد أن تبادل عبيدة وعتبة الضربات.

﴿لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِي ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِيٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِيٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنفال].

وكذلك فقد أنزل الله سبحانه وتعالىٰ ملائكةً ليطمئن المسلمون وتثبت أقدامهم لا ليقاتلوا، إذ لو كان ذلك لكفىٰ ملك واحد ليُهلك ما شاء الله أن يُهلك، بل لكفىٰ أن تكون إرادة الله في قتلهم، ليقتلوا جميعاً ولو كان عددهم عدد الحصىٰ... ولكن كان إنزال الملائكة بهذه الأعداد ليثبت المسلمون، وتطمئن نفوسهم.

قال الله تعالىٰ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الأنفال].

وقال الله تعالىٰ: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾﴾ [الأنفال].

وكانت معركة بدرٍ، وفاز المسلمون حقيقةً، ونجحوا في بذل النفس، وتحقيق معاني الأخوة الصحيحة، فكانت فوق القرابة والأرحام، وفوق كل ما يمتّ بصلةٍ غير صلة العقيدة، فقد قتل المسلم أباه المخالف له بالعقيدة، وقتل أخاه المغاير له في العقيدة، لم يقتله في الحرب فقط، وهو ثائر مُتحمّس، لا يعي ولا يُفكّر، ويخشىٰ علىٰ نفسه من أن تنتاشه سيوف الأعداء ورماحهم قبل أن ترتفع كلمة الله، وهو يحيا لتعلو، وإنما أيضاً يريد قتله وهو أسير بين يديه قبل نهاية المعركة، وهو ينظر إليه نظرة الضعف، وتنبعث في نفسه ذكرىٰ الأيام الخالية قضياها معاً، أو ربّىٰ فيها أحدهما الآخر، وكان العطف يغمر نفسيهما، ولكن هذا كله يُداس بالأقدام إذ لا يجتمع الإيمان مع الكفر. لقد قتل أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه أباه، وقتل

عمر بن الخطاب ﷺ خاله العاص بن هشام المخزومي، ورغب أبو بكر الصديق ﷺ منازلة ابنه عبدالرحمٰن قبل إسلام الابن، ولكن هذا الابن كان يفرّ من وجه أبيه.

كانت معركة بدر تشير إلىٰ أن الجماعة المؤمنة إن استقامت علىٰ الطريق، وأخذت بأسباب النصر، لا بد من أن يأتيها نصر الله بغضّ النظر عن العدد وتكافؤ السلاح، كانت معركة بدرٍ أول معركةٍ في الإسلام، وكانت الإشارة لهذه الحقيقة.

قال الله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً ۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾ [البقرة].

انتهت معركة بدرٍ بنصرٍ عظيم للمسلمين، وهزيمةٍ ساحقةٍ للمشركين الذين فقدوا في ساحة المعركة أكثر من سبعين قتيلاً، بينهم زعماؤهم والذين وقفوا في وجه الدعوة الإسلامية، وآذوا رسول الله ﷺ، كما تركوا ثلاثةً وأربعين أسيراً بينهم بقية زعمائهم والقادة.

فكان من بين قتلىٰ المشركين:

١ ـ عتبة بن ربيعة. ٢ ـ الوليد بن عتبة. ٣ ـ شيبة بن ربيعة. ٤ ـ حنظلة بن أبي سفيان. ٥ ـ عقبة بن أبي معيط. ٦ ـ عبيدة بن سعيد بن العاص. ٧ ـ العاص بن سعيد بن العاص. ٨ ـ أبو جهل عمرو بن هشام. ٩ ـ أبو البختري العاص بن هشام. ١٠ ـ أمية بن خلف. ١١ ـ علي بن أمية بن خلف. ١٢ ـ أبو قيس بن الوليد أخو خالد بن الوليد. ١٣ ـ النضر بن الحارث بن كلدة. ١٤ ـ نوفل بن خويلد أخو أم المؤمنين خديجة.

وكان من بين الأسرىٰ:

١ ـ العباس بن عبد المطلب، عمّ رسول الله. ٢ ـ عقيل بن أبي طالب، أخو عليّ. ٣ ـ نوفل بن الحارث بن عبد المطلب، ابن عمّ رسول الله. ٤ ـ عمرو بن أبي سفيان. ٥ ـ أبو العاص بن الربيع، ختن رسول الله، زوج ابنته زينب. ٦ ـ أبو عزيز بن عمير، أخو مصعب بن عمير. ٧ ـ سهيل بن عمرو. ٨ ـ عقبة بن الحارث. ٩ ـ عمرو بن الأزرق.

التباين:

	المسلمون	المشركون
الرجال	٣١٤	٩٥٠
الخيل	٢	١٠٠
الإبل	٧٠	٧٠٠

ومع هذا التباين في العدد والعتاد فقد كان النصر للمسلمين ـ بإذن الله ـ.

الخسائر:

	المسلمون	المشركون
الشهداء	١٤	ـ
القتلىٰ	ـ	٧٠
الأسرىٰ	٢٤	٤٣

الخاتمة:

إنما هي في الآخرة حيث تبدو نتائج الأعمال في الحياة الدنيا.

قال الله تعالىٰ: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾﴾ [آل عمران].

وأمر رسول الله ﷺ بنقل قتلىٰ المشركين، فنقلوا من مصارعهم التي كان رسول الله ﷺ أخبر بها قبل المعركة إلىٰ قليب بدرٍ فدفنوا فيه، ثم قام علىٰ ظهر راحلته علىٰ شفة القليب، فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم: «يا فلان بن فلان! ويا فلان بن فلان، أيسركم أنكم كنتم أطعتم الله ورسوله؛ فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟» فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: يا رسول الله، ما تُكلِّم من أجساد لا أرواح فيها، فقال: «فوالذي نفس محمدٍ بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم». وتقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها إنما قال: «إنهم الآن ليعلمون أن ما كنت أقول لهم حق».

وروي أنه لما سُحب عتبة بن ربيعة إلىٰ القليب نظر رسول الله ﷺ في وجه أبي حذيفة بن عتبة، فإذا هو كئيب قد تغيّر لونه، فقال: «يا أبا حذيفة، لعلك قد دخلك من شأن أبيك شيء؟» فقال: لا، والله يا رسول الله، ما شككت في أبي ولا في مصرعه، ولكنني كنت أعرف من أبي رأياً، وحلْماً، وفضلاً، فكنت أرجو أن يهديه ذلك إلىٰ الإسلام، فلما رأيت ما أصابه، وذكرت ما مات عليه من الكفر، بعد الذي كنت أرجوه له، أحزنني ذلك، فدعا له رسول الله ﷺ.

ثم أرسل رسول الله ﷺ عبدالله بن أبي رواحة إلىٰ المدينة المنوّرة مُبشّراً أهل العوالي، وزيد بن حارثة مُبشّراً أهل السافلة، وقد وصلا إلىٰ المدينة وقت انصراف المسلمين من دفن رُقيّة رضي الله عنها بنت رسول الله ﷺ، وكانت زوج عثمان بن عفان رضي الله عنه، فسُرَّ المسلمون من سكان المدينة بما حمله المُبشِّران. أما المنافقون والكفار واليهود فقد بدؤوا يُرجفون برسول الله ﷺ والمسلمين، ويقولون: لقد عاد هذان منهزمين من المعركة.

وساق رسول الله ﷺ الأسرىٰ أمامه، وعاد باتجاه المدينة، وكان قد ترك أربعة عشر شهيداً من المسلمين في معركة بدرٍ. وعندما أمر أن يجمع ما حواه الناس من الغنائم اختلف المسلمون في ذلك، اختلف الجامعون والمقاتلون، اختلف الذائدون عنها والذائدون عن رسول الله ﷺ... فجعل الله ذلك كله للّه ولرسوله ثم أمر أن تُوزّع بالتساوي علىٰ أن تكون

أربعة أخماس الغنائم للمقاتلين والخُمس الباقي للّه ولرسوله، يُوزعها رسول الله ﷺ على الفقراء، وقد جعل رسول الله ﷺ بين المقاتلين أشخاصاً لم يحضروا معركة بدرٍ، منهم: سعيد بن زيد وطلحة بن عبيدالله رضي الله عنهما، وكانا ينتظران عودة قافلة أبي سفيان من الشام، وقد كلّفهما بذلك رسول الله ﷺ عندما فاتته القافلة، وهي في طريقها إلى الشام، وأبو لبابة، رضي الله عنه وقد خلفه رسول الله ﷺ أميراً على المدينة، والحارث بن حاطب، وقد كلّفه رسول الله ﷺ بمهمةٍ في بني عمرو بن عوف، والحارث بن الصمّة، وقد كُسِر بالروحاء، ولم يتمكن من السير، وعثمان بن عفان رضي الله عنه وكان رسول الله ﷺ قد تركه عند زوجته المريضة، رقية بنت رسول الله ﷺ، وعاصم بن عديّ، وكان أميراً على أهل قباء والعالية من قبل رسول الله ﷺ، ثم شهداء معركة بدر وهم أربعة عشر شهيداً.

من المهاجرين:

١ ـ عبيدة بن الحارث بن المطلب. ٢ ـ عمير بن أبي وقاص. ٣ ـ عاقل بن البكير (حليف). ٤ ـ مهجع، مولى عمر بن الخطاب. ٥ ـ صفوان بن بيضاء. ٦ ـ ذو الشمالين، (حليف).

من الأنصار:

١ ـ سعد بن خيثمة. ٢ ـ مُبَشِّر بن عبد المنذر. ٣ ـ يزيد بن الحارث. ٤ ـ عُمير بن الحُمام. ٥ ـ رافع بن المعلّى. ٦ ـ حارثة بن سُراقة. ٧ ـ عوف بن الحارث. ٨ ـ معوذ بن الحارث.

قال الله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَـٰدِ ۙ وَلَـٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾ [الأنفال].

أعطىٰ الله سبحانه وتعالىٰ المسلمين درساً بأن المعركة كانت فرقاناً، وهي أعظم بكثيرٍ من هذه الغنائم والأموال التي مآلها إلىٰ الزوال، بينما هذه المعركة هي فاصل هام في تاريخ البشرية كلها، وقد تمّت بأمر الله وتدبيره، في كل حركةٍ وكل خطوةٍ حدثت فيها ليقضي الله من وراء ذلك أمراً أراده هو، فلم يكن هذا النصر وما وراءه من عظائم الأمور دون تدبيرٍ، وسواء أتلك الغنائم أم نتائجها الكبيرة فكلها من أمر الله وتدبيره.

وصل رسول الله ﷺ إلىٰ المدينة المنوّرة، وتبعه الأسرىٰ بعد يوم، فاستشار عليه السلام أصحابه فيما يفعل بالأسرىٰ. فقال أبو بكرٍ الصديق رضي الله عنه: "يا رسول الله، هؤلاء أهلك وقومك قد أعطاك الله الظفر والنصر عليهم، أرىٰ أن تستبقيهم، وتأخذ الفداء منهم، فيكون ما أخذنا منهم قوةً لنا علىٰ الكفار، وعسىٰ أن يهديهم الله بك فيكونوا لك عضداً. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: يا رسول الله، قد كذّبوك، وقاتلوك، وأخرجوك فأرىٰ أن تمكنني من خالي (خالد بن هشام بن المغيرة)، فأضرب عنقه، وتمكّن الحمزة من أخيه العباس، وعليًّا من أخيه عقيل، وهكذا حتىٰ يعلم الناس أنه ليس في قلوبنا مودة للمشركين، ما أرىٰ أن يكون لك أسرىٰ، فاضرب أعناقهم، هؤلاء صناديدهم، وأئمتهم، وقادتهم، ووافقه علىٰ ذلك سعد بن معاذ رضي الله عنه، وعبدالله بن رواحة رضي الله عنه، فقال عليه الصلاة والسلام: «إن الله ليُليّن قلوب أقوامٍ حتىٰ تكون ألين من اللبن، وإن الله ليُشدِّد قلوب أقوامٍ حتىٰ تكون أشدّ من الحجارة، وإن مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم عليه السلام إذْ قال: ﴿فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ [إبراهيم] وإن مثلك يا عمر مثل نوح عليه السلام إذ قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾ [نوح]».

أخذ رسول الله ﷺ برأي أبي بكرٍ الصديق رضي الله عنه، ثم قال لأصحابه: «أنتم اليوم عالة فلا يفلتنّ أحد من أسراكم إلا بفداء»، ووصّاهم عليه السلام بهم، وكان قد فرّقهم بين أصحابه، وقال: «استوصوا بالأُسارىٰ خيراً».

قال عزيز بن عمير ـ وكان أحد الأُسارىٰ ـ مرّ بي أخي مصعب بن عمير، ورجل من الأنصار يأسرني، فقال: شُدّ يديك به، فإن أمه ذات متاعٍ، لعلّها

تفديه منك، قال: وكنت في رهطٍ من الأنصار حين أقبلوا بي من بدرٍ، كانوا إذ قدّموا غداءهم وعشاءهم خصُّوني بالخبز، وأكلوا التمر، لوصيّة رسول الله ﷺ إياهم بنا، ما تقع في يد رجلٍ منهم كِسْرةُ خبزٍ إلا نفحني بها. قال: فأستحيي، فأردّها على أحدهم، فيردّها عليّ ما يمسّها. وكان أبو عزيز زرارة بن عمير صاحب لواء المشركين بعد النضر بن الحارث، وقد أسره أبو اليسر، وعندما قال مصعب بن عمير لأبي اليسر ما قال، قال له أخوه أبو عزيز: يا أخي هذه وصايتك بي، فقال له مصعب: إنه أخي دونك. وقد فدته أمه بأربعة آلاف درهمٍ، وهذا المبلغ أعلىٰ مبلغٍ فُديَ به قرشي في بدرٍ.

وصول خبر بدرٍ إلىٰ قريشٍ:

ووصل خبر معركة بدرٍ عن طريق الحَيْسُمان بن عبدالله الخزاعي فإنه أول من قدم مكة بذلك الخبر، فقالوا: ما وراءك؟ قال: قُتل عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو الحكم بن هشام، وأمية بن خلف، فلما صار يُعدِّد أشراف قريشٍ لم يكد يُصدِّق من يستمع إليه، وظنُّوا أنه مجنون، حتىٰ أن صفوان بن أمية بن خلف، وكان جالساً في الحجر، قال: سلوه عني، لعلّي بين القتلىٰ، فلما سألوه عنه، قال لهم: ها هو ذاك جالساً في الحجْر، وقد رأيت والله أباه وأخاه حين قُتلا.

وعندما تأكّدت قريش من الخبر ناحت علىٰ قتلاها، ثم قالت: لا تفعلوا، فيبلُغ محمداً وأصحابه فيشمتوا بكم، ولا تبعثوا في فداء أسراكم، ولكن تأخّروا في ذلك، كيْ لا يشتدّ محمد في الفداء فيطلب الكثير.

ثم بعثت قريش في فداء أسراها، ولم يُبالغ رسول الله ﷺ في الفداء، إذ لم يكن المال شاغله، ولا شاغل أصحابه، وإنما كان يشغله هداية الناس، وإعلامهم رأيه ليجذبهم إلىٰ الدين، وإبلاغهم دعوة الله. فعندما جاء مِكْرَز بن حفص في فداء سهيل بن عمرو، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، دعني أنزع ثنِيَّتَي سهيل بن عمرو، فيدلع لسانه، فلا يقوم عليك خطيباً في موطَنٍ أبداً، فقال رسول الله ﷺ: «لا أُمثّل به، فيُمثّل الله بي، وإن كنت نبيًّا». ورويَ أنه قال له: «إنه عسىٰ أن يقوم مقاماً لا تُذمّه عليه».

فلما قاولهم (مكرز بن حفص)، وانتهىٰ إلىٰ رضاهم، قالوا: هات الذي لنا، قال: اجعلوا رجلي مكان رجله، وخلوا سبيله حتىٰ يبعث إليكم بفدائه، فخلُّوا سبيل سهيل، وحبسوا (مكرز) مكانه عندهم، حتىٰ أرسل سهيل الفداء.

ورفض أبو سفيان أن يفدي ابنه عمرو، وكان ابنه الآخر وهو (حنظلة) قد قُتِل، فصعُب عليه أن يفقد الولد ويدفع المال، وبقي ابنه في الأسر حتىٰ احتجز أبو سفيان أحدهم جاء مُعتمراً وهو سعد بن النعمان، وكان شيخاً هرماً، فافتداه رسول الله ﷺ بالسماح لعمرو بن أبي سفيان بالرجوع إلىٰ مكة.

وكان بين الأسرىٰ أبو العاص بن الربيع، ختن رسول الله ﷺ، إذ كانت عنده زينب بنت رسول الله، وهو ابن خالتها هالة بنت خويلد، وتزوجها قبل البعثة، وعندما أُوحي لأبيها محمد ﷺ، أسلمت، وبقي زوجها علىٰ شِركه، ففرّق بينهما رسول الله ﷺ، ولكن لم يستطع عزلهما لما كان في المجتمع من اضطهاد. وبينما طلّق عتبة بن أبي لهب زوجته رقية بنت رسول الله ﷺ، وترك أخوه عتيبة بن أبي لهب زوجته أم كلثوم بنت رسول الله ﷺ، بناءً علىٰ رأي وجهاء مشركي قريشٍ في سبيل إضعاف رسول الله ﷺ، وزيادة الهمّ عليه، ويتعهد مشركو قريشٍ بتزويجهما فتاتين يختارانهما من قريش، ولكن أبو العاص بن الربيع رفضَ ذلك، وقال: لا أرضىٰ بديلاً بزينب.

ولما كانت معركة بدرٍ خرج أبو العاص بن الربيع مع قريشٍ، وكان بين الأسرىٰ، فأرسلت له زينب مالاً، وقلادةً كانت قد أهدتها لها أمها خديجة بنت خويلد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فلما رأىٰ رسول الله ﷺ ذلك رقّ لها رِقّةً شديدةً، وقال: «إن رأيتم أن تُطلقوا لها أسيرها، وتعيدوا لها مالها فافعلوا»، فقالوا: نعم، وفعلوا ذلك، وقد أخذ رسول الله ﷺ عهداً علىٰ ختنه أن يرسل له زينب من مكة؛ لتلحق بأبيها في المدينة حيث لا يجمع بينهما دين.

فلما أُطلق سراح أبي العاص، ووصل إلىٰ مكة، أرسل زينب إلىٰ أبيها. وكان رسول الله ﷺ قد أرسل زيد بن حارثة ورجلاً من الأنصار ليصحباها في الطريق، وقبل أن تصل إليهما مع كنانة بن الربيع أخي زوجها، روّعها هبّار بن الأسود، وكانت حاملاً فأسقطت، وأصابها النزيف، واضطرت أن

تعود إلىٰ مكة، وتخرج ثانيةً علىٰ حين غفلةٍ ممن تعيش معهم، وذلك لأنها خرجت في المرة الأولىٰ علانيةً وعلىٰ رؤوس الأشهاد، وهذا ما جعل هبّار بن الأسود وغيره يتبعونها، ووصلت إلىٰ أبيها في المدينة مريضةً. أما زوجها فقد بقي علىٰ شِركه في مكة علىٰ حين مكثت هي عند أبيها في المدينة إذ فرّق الإسلام بينها وبين بعلها.

وخرج أبو العاص في تجارةٍ لقريشٍ إلىٰ الشام، وأثناء عودته وقع في قبضة سريةٍ لرسول الله ﷺ فأخذت ما معه، وفرّ هو هارباً، حتىٰ إذا كان الليل دخل المدينة سِرًّا، ولجأ إلىٰ بيت زينب، واستجار بها فأجارته، فطلب رسول الله ﷺ من السريّة التي أخذت ماله أن تردّه عليه إن شاءت، وإن أبت فهو لها، فردّ رجال السريّة كل ما كان لديهم، فاحتمله أبو العاص، وسار به إلىٰ مكة، فلما وصل إليها أعطىٰ كل ذي حقٍّ حقّه من أهل مكة، ثم قال: يا معشر قريشٍ، هل بقي لأحدٍ منكم عندي مال لم يأخذه؟ قالوا: لا، فجزاك الله خيراً، فقد وجدناك وفياً كريماً؛ قال: فأنا أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، والله ما منعني من الإسلام عنده إلا تخوُّف أن تظنُّوا أني إنما أردت أن آكل أموالكم، فلما أدّاها الله إليكم، وفرغتُ منها، أسلمتُ. ثم خرج حتىٰ قدم علىٰ رسول الله ﷺ مسلماً فردّ رسول الله ﷺ عليه زوجته زينب بعقد نكاحٍ ثانٍ.

وكذلك قد منَّ رسول الله ﷺ علىٰ بعض الأسرىٰ الآخرين من غير فداءٍ، فقد أطلق سراح المطلب بن حنطب بن الحارث المخزومي، وكان قد أسره خالد بن زيد أبو أيوب الأنصاري، وصيفي بن أبي رفاعة المخزومي، وأبا عزّة عمرو بن عبدالله الجمحي، وكان فقيراً ذا بناتٍ، وقد أخذ عليه عهداً ألا يُظاهر علىٰ المسلمين.

أما العباس بن عبد المطلب عمّ رسول الله ﷺ وهو أحد الأسرىٰ، فقد أمره رسول الله ﷺ أن يفدي نفسه، وأن يدفع الفداء عن ابنَي أخيه، وهما: عقيل بن أبي طالب، ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب، كما أمره أن يدفع عن حليفه عتبة بن عمرو بن جحدم، فاعتذر العباس مُحتجًّا بأنه

لا مال له، فقال له رسول الله ﷺ: «أين المال الذي وضعته عند أم الفضل، وقلت لها: إن أُصبتُ فللفضل كذا، ولعبيدالله كذا»، قال: والذي بعثك بالحق، ما علم به أحد غيري وغيرها، وإني لأعلم أنك رسول الله، وفدىٰ نفسه وابنَيْ أخويه، وحليفه، وكان المسلمون قد أخذوا أربعين أوقيةً من الذهب من العباس بن عبد المطلب أثناء غزوة بدرٍ عند أسره، وعندما جاء عند إطلاق الأسرىٰ. فطلب العباس من رسول الله ﷺ أن يحسب كمية الذهب التي أُخذت منه من الفداء، فرفض رسول الله ﷺ ذلك، وقال: «لا، ذلك شيء أعطاناه الله ﷻ»، أي أصبح غنيمةً للمسلمين المقاتلين بعد أخذها منه أثناء القتال.

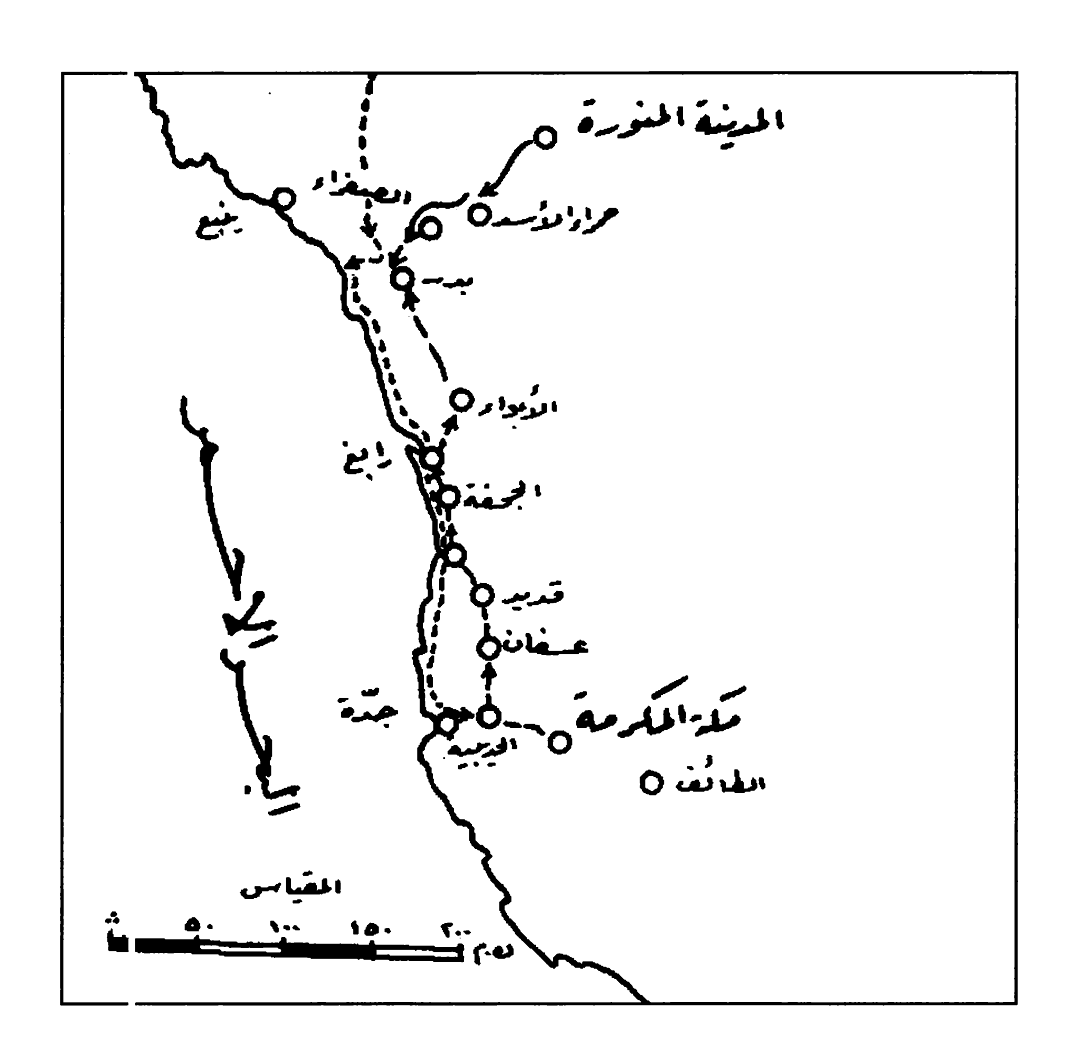
وقد جاء عتاب من الله سبحانه وتعالىٰ لرسوله الكريم في شأن فداء الأسرىٰ.

قال الله تعالىٰ: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنفال].

ثم عفا الله عنهم.

قال الله تعالىٰ: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًاۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾﴾ [الأنفال].

وروىٰ مسلم عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه قال: دخلت علىٰ رسول الله ﷺ بعد أن قضىٰ بافتداء الأسرىٰ، فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر قاعدَين يبكيان. فقلت: يا رسول الله، أخبرني من أي شيءٍ تبكي أنت وصاحبك؟ فإن وجدت بكاء بكيت، وإن لم أجد بكاءً تباكيت لبكائكما. فقال رسول الله ﷺ: «أبكي للذي عرض عليّ أصحابك من أخذهم الفداء، لقد عرض عليّ عذابهم أدنىٰ من هذه الشجرة» (شجرة قريبة من رسول الله ﷺ).



المدينة المنورة
الصفراء
ينبع
بدر
الأبواء
رابغ
الجحفة
قديد
عسفان
جدة
مكة المكرمة
الطائف
المقياس
٥٠
١٠٠
١٥٠
٢٠٠

مصور رقم (٨)

أثر معركة بدرٍ

حقّق المسلمون في معركة بدرٍ النصر فشعروا بالسعادة والطمأنينة بما نالوا من فوزٍ، ولكن كانوا علىٰ يقينٍ أن راحتهم لن تستمرّ إذ زاد حقد الأعداء، وأخذوا يُفكّرون بأسلوب الاستعداد للقوة والعمل للانتقام من المسلمين، وإذا كانت معركة بين المسلمين ومشركي قريش فقط إلا أنه إثر المعركة قد تفتحت عيون بقية الأعداء من منافقين، ويهود، وأعراب، ومنهم أولئك الذين يُقيمون في المدينة المنورة، ويتربّصون الفرص للنيل من المسلمين وتحقيق أهدافهم منهم.

وعندما وصل خبر نتيجة معركة بدرٍ إلىٰ المدينة المنورة انطلقت الشائعات ضدّ المسلمين من اليهود والمنافقين إذ لم يتوقّعوا ما حدث، وانبثّت الأراجيف، وبدأ السخر من الذي نقل الخبر، فقالوا: هذا زيد بن حارثة قد رجع علىٰ ناقة محمد حتىٰ إذا وصل محمد رسول الله ﷺ خرست بعض الألسن، ولكن استمرّت ألسن أخرىٰ تدّعي هزيمة المسلمين، ووصول فلولهم الواحد إثر الآخر، ولكنهم شُدِهوا عندما وصل الجيش الإسلامي يسوق أمامه سادة قريشٍ أُسارىٰ مُكبّلين فانقدحت نار الحقد فجأةً.

أظهر اليهود ما في نفوسهم من كرهٍ للمسلمين، وبدت البغضاء من أفواههم، وما تُخفي صدورهم أكبر، فانتهكوا حرمة سيدةٍ من نساء الأنصار قدمت بحُليٍّ لها لتبيعه في سوق بني قينقاع، ولما وقفت عند صائغ هناك اجتمع حولها عدد من اليهود يتحرّشون بها، ويجرحون شعورها، وأرادوا أن تكشف عن وجهها رغبةً بإضعاف الإيمان من النفوس بترك جزءٍ بعد جزءٍ تهاوناً في شأنه وعدم أهمية ذلك، ولكنها رفضت، فعقد أحد هؤلاء اليهود

طرف ثوبها إلىٰ ظهرها علىٰ حين غفلةٍ منها، وهي جالسة، فلما قامت انكشف جزء من أسفل جسدها، فبدأ اليهود يضحكون ويسخرون، ويقولون: ترفض كشف الوجه ولكنها تكشف العورة، فاستغاثت، فإذا أحد المسلمين وكان حاضراً في السوق يثب علىٰ اليهودي ويقتله، فحمل اليهود علىٰ المسلم واغتالوه، وهكذا اندلعت شرارة الحرب بين المسلمين وبين يهود بني قينقاع.

وسار رسول الله ﷺ مع بعض أصحابه إلىٰ سوق بني قينقاع، فجمع تلك الفئة من اليهود، وقال لهم: «يا معشر اليهود، احذروا من الله ﷻ أن يُنزل بكم مثل ما أنزل بقريشٍ، وأسلموا، فإنكم قد عرفتم أني نبيّ مرسل تجدون ذلك في كتابكم، وفي عهد الله إليكم».

قالوا: يا محمد، إنك ترىٰ أنا كقومك، لا يغرّنّك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب، فأصبت منهم فرصةً؛ إنّا والله لو حاربتنا لتعلمنَّ أنّا نحن الناس. فأنزل الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ۝٥٨﴾ [الأنفال].

فلما فرغ جبريل عليه السلام من هذه الآية، قال رسول الله ﷺ: «إني أخاف من بني قينقاع». فسار إليهم في شهر شوال من السنة الثانية للهجرة أي بعد معركة بدرٍ بأقلّ من شهرٍ، وكانوا قد اعتصموا في حصونهم، فحاصرهم مدة خمس عشرة ليلةً، ثم فكّ الحصار عنهم بعد إلحاح رأس المنافقين عبدالله بن أُبيّ بن سلول الخزرجي، وقد كان بنو قينقاع حلفاء الخزرج. ثم أمر بإجلائهم عن المدينة بعد أن نزلوا علىٰ حكمه بإجلاء الذراري، وغنيمة السلاح والعتاد، ولم تكن لهم أراضٍ، وإنما كان عملهم الصياغة. وكانوا أشجع يهود المدينة، ولم يجرؤ بقيةٌ يهود المدينة علىٰ مساندتهم خوفاً من المسلمين، علىٰ الرغم من كرههم الشديد للمسلمين، وحقدهم الدفين. وكان الذي قاد حصارهم أبو لُبابة بشير بن عبد المنذر[1]، والذي ساقهم

---

(١) أبو لبابة بشير بن عبد المنذر الأنصاري: وقيل: إن اسمه (رُفاعة)، وقيل: (مروان)، وهو أحد النقباء ليلة العقبة. وردّ رسول الله ﷺ أبا لبابة والحارث بن حاطب بعد أن خرجا=

خارج المدينة عبادة بن الصامت[1]، وقد انتقلوا إلىٰ أذرعات (درعا) من بلاد الشام، ولم يستدر عليهم العام حتىٰ هلكوا. وكذلك فإن كعب بن الأشرف أحد زعماء بني النضير حيث كانت أمه منهم، قد آلمه انتصار المسلمين في معركة بدرٍ، فقال: بطن الأرض خير من ظهرها، وكان أحد الأغنياء المعروفين، وعُرف أنه من كبار المرابين، ولم يتّعظ بما أصاب بني قينقاع، ولم يحسب أيّ حسابٍ للمعاهدة التي بين المسلمين ويهود والتي تنصّ علىٰ عدم مظاهرة قريشٍ أو تأييدها بل نكث بالعهد، وخرج من المدينة يُحرّض قبائل العرب علىٰ رسول الله ﷺ، ويدعوهم إلىٰ حربه، حتىٰ وصل إلىٰ مكة، فشجّع قريشاً علىٰ قتال المسلمين، وأثار حقدها، ووعد بدعمها، وأجاب أبا سفيان في مكة بأن قريشاً أكثر هدايةً من المسلمين، فأنزل الله في حقه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ [النساء]. ورجع من رحلته فأقام بالمدينة يُحرّض علىٰ قتال المسلمين، ويتغزّل بنسائهم، ويذكر أسماءهنّ صراحةً، الأمر الذي آذىٰ المسلمين أشدّ الإيذاء، وبهذا لم تعُدْ له ذِمّة، ولم يبقَ له عهد، والتفّ حوله جماعة من اليهود أغراهم بماله ليُمالئوه ويُظهروا حقيقة ما في نفوسهم، وأصبح خطراً علىٰ المسلمين، يُخشىٰ بأسه، ويجب القضاء عليه قبل أن يشتدّ ساعده، فأرسل له رسول الله ﷺ محمد بن مسلمة الأنصاري[2] مع جماعةٍ من الأنصار، قاموا بقتله خارج حصنه المنيع

= معه إلىٰ غزوة بدرٍ، فأمّر أبا لبابة علىٰ المدينة، وضرب لهما بسهميهما وأجرهما مع أصحاب بدر. وكانت راية بني عمرو بن عوف يوم الفتح معه، وتوفي في خلافة عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه.

(١) عبادة بن الصامت بن قيس الأنصاري الخزرجي، أبو الوليد، صحابي، وُصِف بالورع، شهد العقبة، وكان أحد النقباء، وشهد بدراً وسائر المشاهد. ثم حضر فتح مصر، وهو أول من ولي القضاء في فلسطين، وتوفي بـ(الرملة) أو بـ(بيت المقدس) سنة ٣٤ للهجرة في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه، روىٰ ١٨١ حديثاً. وكان من سادات الصحابة.

(٢) محمد بن مسلمة الأوسي الحارثي الأنصاري، أبو عبدالرحمٰن، صحابي من الأمراء: ولد في المدينة المنورة سنة ٣٥ قبل الهجرة، فهو أصغر سِنًّا من رسول الله ﷺ بثماني=

في ضواحي المدينة المنورة بعد أن استدرجوه منه. وبعد هذا القتل لجأ اليهود إلىٰ السكوت، وخافوا من أن يقوموا بأيّة حادثةٍ، وأظهروا أنهم علىٰ عهودهم ومواثيقهم.

أما المنافقون فقد أجمعوا كيدهم، وأعلن رأسهم عبدالله بن أُبيٍ بن سلول أن الأمر قد توجّه، فأظهر إسلامه، ودعا أعوانه لإظهار إسلامهم، واستمرّ عملهم الخفيّ لتهديم المجتمع الإسلامي، ونسف جذوره، فقد شعروا بمصيرهم، وهم علىٰ علمٍ بما يُبطنون من حقدٍ، وبما تُخفي نفوسهم من شرّ، فالإيمان لم يدخل قلوبهم، وبقي في نفوسهم شيء يريدون أن يفعلوه ضدّ المسلمين عندما تتهيّأ لهم الفُرص، وقد أظهروا الإسلام خوفاً وتخطيطاً، وعملوا بجانب اليهود، فلما نزل يهود بني قينقاع علىٰ حكم رسول الله ﷺ، قام إليه عبدالله بن أُبيّ بن سلول، فقال: يا محمد، أحسِن في مواليّ، فأبطأ عليه رسول الله ﷺ بالجواب، فكرّر عبدالله بن أُبيٍ بن سلول طلبه، فأعرض عنه رسول الله ﷺ، فأدخل ابن أُبيّ يده في جيب درع رسول الله ﷺ، فتغيّر لون النبيّ عليه الصلاة والسلام وقال له: «أرسلني»، وغضب رسول الله ﷺ، حتىٰ رأوا لوجهه ظللاً، ثم أعاد رسول الله، وهو مغضب: «أرسلني ويحك»، فقال ابن أُبيّ: لا والله لا أرسلك حتىٰ تُحسن في موالي، أربعمائة حاسرٍ، وثلاثمائة دارعٍ قد منعوني من الأحمر والأسود، تحصدهم في غداةٍ واحدةٍ، إني والله امرؤ أخشىٰ الدوائر، فقال رسول الله ﷺ: «هم لك».

هذا ما كان داخل المدينة المنورة من اليهود والمنافقين، أما خارجها فالأعراب في المدينة وما حولها ساءهم انتصار المسلمين في معركة بدرٍ، لأن هذا الانتصار معناه سيطرة المبدأ الإسلامي الذي سيحول بينهم وبين

= عشرة سنةً، شهد معركة بدرٍ وما بعدها إلا غزوة تبوك، واستخلفه رسول الله ﷺ علىٰ المدينة في بعض غزواته، وولاّه عمر بن الخطاب رضي الله عنه علىٰ صدقات جُهينة، واعتزل الفتنة أيام علي رضي الله عنه فلم يشهد معركة الجمل ولا معركة صفّين، وكان عند الخليفة عمر رضي الله عنه مُعدًّا لكشف أمور الولاة في البلاد. توفي في المدينة المنورة سنة ٤٣ للهجرة، في خلافة معاوية رضي الله عنه، وعمره سبع وسبعون سنة.

السلب والنهب الذي اعتادوا عليه، أو قانون الغاب الذي يُطبّقونه علىٰ أنفسهم، ولم يكن أثر انتصار المسلمين عند هؤلاء الأعراب يحمل وجهة نظرٍ سياسيةٍ أو عقيديةٍ، وإنما فقط خوفاً من أن يُحرموا ما اعتادوا عليه.

وقد بدأت بعض القبائل تتجمّع بعضها مع بعضٍ، وتُشكّل أحلافاً تريد غزو المدينة، وإظهار قوتها، بعد هزيمة قبيلة قريشٍ سيدة العرب، ولسلب أموال المدينة التي غدت غنيةً بعد انتصارها، وغدت محطّ أنظار القبائل التي اعتادت أعمال الإغارة.

وقد حذّر الله سبحانه وتعالىٰ رسوله عليه الصلاة والسلام من المنافقين، وأعوانهم، وأوليائهم من أهل الكتاب.

قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُواْ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ [المائدة].

غزوة بني سُليم:

بلغ رسول الله ﷺ أن قبائل غطفان وسُليم قد شكّلت حِلفاً فيما بينها تريد غزو المدينة، وقد أخذت بالاستعداد لذلك، فرأىٰ أن يُداهمها في عقر دارها قبل أن يشتدّ ساعدها، فسار إليها بمائتَيْ فارس، وداهمها في مكان تحشّدها في (قرقرة الكدر) علىٰ الطريق التجارية الشرقية بين مكة والشام، ففرّ الأعراب الأعداء بعد أن علموا بالهجوم المفاجئ، وتركوا في الوادي خمسمائة بعيرٍ، فغنمها رسول الله ﷺ، فأعطىٰ أربعة أخماسها لجنوده، فكان لكل رجلٍ منهم بعيران، وبقي في أرضهم ثلاثة أيام، ثم عاد إلىٰ المدينة، ولما ينقضِ شهر شوال من السنة الثانية للهجرة، وما كان هذا البقاء إلا لإظهار قوة المسلمين.

غزوة ذي أمر:

احتشدت جموع من بني ثعلبة، وهم فرع من غطفان، وجموع من بني محارب في (ذي أمَرّ) يريدون الإغارة على المدينة، فسار إليهم رسول الله ﷺ على رأس حملةٍ قوامها أربعمائةٍ وخمسون مقاتلاً بين راكبٍ وراجلٍ، وخلّف على المدينة عثمان بن عفان رضي الله عنه، ولما علم الأعداء بمسير المسلمين إليهم فرُّوا إلى قِمم الجبال، ووصل المسلمون إلى مكان تجمّعهم في (ذي أمَرّ) فلم يجدوا أحداً، فمكثوا مدةً ليرهبوا الأعداء، ولتسمع الأعراب بقدرتهم فيخافوهم فلا تُحدّثهم أنفسهم بغزو المدينة. وهطلت الأمطار على تلك الديار فابتلّت ثياب رسول الله ﷺ، فانزوى جانباً يُجفّفها على شجرةٍ، واضطجع ينتظر جفافها، وكان جنده في شُغلٍ، كل بأعماله الخاصة. ويظهر أن الأعداء كانوا يرقبونهم من بعض التلال، فلما رأى ذلك قائد جيش العدوّ وهو (دعثور بن الحارث الغطفاني) تسلّل بين صفوف المسلمين على غفلةٍ منهم، ووصل إلى رسول الله ﷺ فرآه مضطجعاً، فوقف عند رأسه، شاهراً سيفه يريد الفتك به، والنبيّ ﷺ أعزل ليس في يده سلاح، فقال دعثور: مَن يمنعك مني الآن؟ فقال له رسول الله ﷺ: «الله»، وبينما هما كذلك، إذ وقع على ظهره، وسقط السيف من يده، فأخذه رسول الله ﷺ، ووقف على رأس دعثور، وقال له: «مَن يمنعك مني الآن؟» فقال دعثور: لا أحد، ثم أعلن إسلامه، فأعاد له رسول الله سيفه، وتوجّه دعثور إلى قومه يدعوهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما حدث معه، وأن الذي أوقعه على الأرض رجل طويل، دفعه في صدره، ولا شكّ أنه ملك... وعاد المسلمون إلى المدينة المنورة يحملون الروح المعنوية العالية.

غزوة بحران:

وبلغ رسول الله ﷺ أن بني سُليم عادوا لحشد قواتٍ لغزو المدينة المنورة، فأسرع إليهم بقوةٍ قوامها ثلاثمائة مقاتل، فلما بلغهم ذلك تفرّقوا في الجبال، فبقي في ديارهم شهرين إخافةً لهم، وإرهاباً لبقية الأعراب.

وأما مشركو قريشٍ فقد بدؤوا بالاستعداد للأخذ بالثأر، والانتهاء من

الإسلام ورسوله مباشرةً، ورأىٰ بعضهم أن أقرب طريق إلىٰ ذلك إنما هو التخلُّص من رسول الله ﷺ، وذلك قبل البدء بالمعركة. فقد كان عُمير بن وهب من شياطين قريش، ومن الذين آذوا رسول الله ﷺ، وقد وقع ابنه وهب بن عُمير في أسر المسلمين يوم بدرٍ، فجلس يوماً في الحِجْر يتحدّث مع صفوان بن أُميّة[1] الذي قُتل أخوه وأبوه يوم بدرٍ، فقال عمير: أما والله لولا دَيْن عليّ ليس له عندي قضاء، وعيال أخشىٰ عليهم الضيعة بعدي، لركبت إلىٰ محمدٍ حتىٰ أقتله، فإن لي قبلهم عِلّة، ابني أسير في أيديهم (أي له في ذهابه إلىٰ المدينة حيلة هي فكاك أسر ابنه)، فاغتنم ذلك صفوان، وقال له: دَينك عليّ، أنا أقضيه عنك، وعيالك مع عيالي أُواسيهم ما بقوا، لا يسعني شيء ويعجز عنهم، فقال عمير: فاكتم شأني، قال: أفعل.

ثم أمر عمير بسيفه فشُحِذَ له وسُمّ، ثم سار حتىٰ أتىٰ المدينة، فرآه عمر بن الخطاب رضي الله عنه حتىٰ أناخ علىٰ باب المسجد مُتوشِّحاً السيف، فقال: هذا الكلب عدوّ الله عُمير بن وهب، والله ما جاء إلا لشرٍّ، وهو الذي حرّش بيننا، وحزرنا للقوم يوم بدر.

ثم دخل عمر رضي الله عنه علىٰ رسول الله ﷺ، فقال: يا نبيّ الله، هذا عدوّ الله عمير بن وهب قد جاء متوشّحاً سيفه، قال: «فأدخله عليّ»، فأقبل عمر إلىٰ عمير، وأخذ بحمّالة سيفه في عنقه فلَبَّبَهُ بها، وقال لرجلٍ ممن كانوا معه من الأنصار: ادخلوا علىٰ رسول الله ﷺ، فاجلسوا عنده، واحذروا عليه من هذا الخبيث، فإنه غير مأمون.

ثم دخل علىٰ رسول الله ﷺ ومَن معه، فلما رآهم رسول الله ﷺ قال لعمر رضي الله عنه: «أرسله يا عمر، ادنُ يا عمير»، فدنا ثم قال: أنعموا صباحاً.

فقال رسول الله ﷺ: «قد أكرمنا الله بتحيةٍ خير من تحيتك يا عمير،

---

(١) صفوان بن أمية بن خلف بن وهب الجُمحي القرشي المكي، أبو وهب: صحابي، فصيح جواد. كان من أشراف قريشٍ في الجاهلية والإسلام، وكان ثرياً، أسلم بعد الفتح، وكان من المؤلَّفة قلوبهم. شهد اليرموك، مات في مكة سنة ٤١ للهجرة، في خلافة معاوية رضي الله عنه، له في كتب الحديث ثلاثة عشر حديثاً.

بالسلام: تحية أهل الجنّة». قال عمير: أما والله يا محمد، إن كنتُ بها لحديث عهدٍ. قال رسول الله ﷺ: «فما جاء بك يا عمير؟». قال عمير: جئت لهذا الأسير الذي في أيديكم، فأحسِنوا فيه. قال رسول الله ﷺ: «فما بال السيف في عنقك؟». قال عمير: قبّحها الله من سيوف، وهل أغنت عنا شيئاً؟. قال رسول الله ﷺ: «أصدقني، ما الذي جئت به؟». قال عمير: ما جئت إلا لذلك.

قال رسول الله ﷺ: «بل قعدت أنت وصفوان بن أُميّة في الحِجر، فذكرتما أصحاب القَليب من قريشٍ، ثم قلتَ: لولا دَيْن عليّ، وعيال عندي، لخرجت حتىٰ أقتل محمداً، فتحمّل لك صفوان ديونك وعيالك، علىٰ أن تقتلني له، والله حائل بينك وبين ذلك».

قال عمير: أشهد أنك رسول الله، وقد كُنّا يا رسول الله نُكذّبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء، وما ينزل عليك من الوحي، وهذ أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان، فوالله إني لأعلم ما أتاك به إلا الله، فالحمد للّه الذي هداني للإسلام، وساقني هذا المساق. ثم شهد عمير شهادة الحق.

قال رسول الله ﷺ: «فقِّهوا أخاكم في دينه، وأقرئوه القرآن، وأطلقوا له أسيره». ففعلوا ذلك.

قال عمير بعد أن عزم علىٰ السفر والعودة إلىٰ مكة: يا رسول الله، إني كنت جاهداً علىٰ إطفاء نور الله، شديد الأذىٰ لمن كان علىٰ دين الله ﷻ. وأنا الآن أُحب أن تأذن لي فأعود إلىٰ مكة، فأدعوهم إلىٰ الله تعالىٰ، وإلىٰ رسوله ﷺ وإلىٰ الإسلام، لعلّ الله يهديهم، وإلا آذيتهم في دينهم، وقد كنتُ أؤذي أصحابك في دينهم.

فأذن له رسول الله ﷺ فلحق بمكة. وكان صفوان بن أمية حين خرج عمير بن وهب، يقول: أبشروا بوقعةٍ تأتيكم الآن في أيام، تُنسيكم وقعة بدرٍ، وكان صفوان يسأل عنه الركبان، حتىٰ قدم أحد الركبان فأخبره عن إسلامه، فحلف ألاّ يُكلّمه أبداً، ولا ينفعه بنفعٍ أبداً.

غزوة السويق:

لقد تأثر أبو سفيان صخر بن حرب كثيراً لغزوة بدرٍ، وخاصةً أنه لم يحضرها، وقد قُتل ابنه (حنظلة)، وأُسِر ولده الثاني (عمرو)، فأقسم ألا يمسّ رأسه الماء حتىٰ يغزو محمداً ﷺ في المدينة، فخرج في مائتي راكبٍ من قريشٍ، وسار بهم حتىٰ اقترب من المدينة، فانتظر حتىٰ أقبل الليل، فدخلها تحتَ جُنح الظلام خائفاً يترقّب، وقد اتجه إلىٰ حُيي بن أخطب أحد زعماء بني النضير من اليهود، فرفض استقباله، فسار إلىٰ سلاّم بن مِشكم، وكان سيد بني النضير، فاستقبله وأكرمه، وأخذ منه أخباراً عن المسلمين، ثم عاد في ليلته إلىٰ أصحابه وهم ينتظرونه خارج المدينة، وبعث رجالاً من قريشٍ ليُفسدوا في الأرض، فحرقوا بعض النخل فيها، ووجدوا رجلاً من الأنصار فقتلوه، وولُّوا هاربين، وانطلقوا مع جمعهم نحو مكة لا يلوون علىٰ شيءٍ، وقد تخفّفوا من كل شيءٍ حتىٰ من أزوادهم، وكان أكثرها من السَّويق، وهو من الحنطة المُحمّصة المطحونة، وبعضها ممزوج بالسمن والعسل، أو مجبولة بالماء، ووصل الخبر إلىٰ رسول الله ﷺ، فتبعهم مسرعاً بمائتي مقاتلٍ، وترك علىٰ المدينة أبا لُبابة بشير بن عبد المنذر، ولكنهم فاتوه، وغنم المسلمون كمياتٍ من الزاد (السويق)، الأمر الذي جعل الغزوة تُعرف بذلك، وكانت هذه الغزوة في أوائل شهر ذي الحجة من السنة الثانية للهجرة النبوية.

سرية زيد بن حارثة[1]:

خافت قريش من إرسال قوافلها إلىٰ الشام عن طريق الغرب القريب من

---

(١) زيد بن حارثة بن شراحيل (شرحبيل) الكلبي: صحابي. اختطف في الجاهلية صغيراً، واشترته خديجة بنت خويلد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فوهبته إلىٰ رسول الله ﷺ حين تزوجها، فتبنّاه رسول الله ﷺ قبل الإسلام، وأعتقه، وزوّجه ابنة عمته زينب بنت جحش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا. وكان الناس يسمُّونه زيد بن محمد حتىٰ نزلت الآية: ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ فَإِن لَّمۡ تَعۡلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمۡۚ وَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٞ فِيمَآ أَخۡطَأۡتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتۡ قُلُوبُكُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا ٥﴾ [الأحزاب].

وهو من أقدم الصحابة إسلاماً. وكان رسول الله ﷺ لا يبعثه في سريةٍ إلا أمّره عليها، وكان يُحبّه ويُقدّمه، وجعل له الإمارة في غزوة مؤتة فاستشهد فيها، وذلك في السنة الثامنة للهجرة.

البحر الأحمر بعد ما كان من غزوة بدرٍ، وهذا ما جعلها تجعل الطريق الشرقية مسلكها إلىٰ الشام، وهذه الطريق علىٰ مقربةٍ من منطقة نجدٍ.

أرسلت قريش قافلةً كبيرةً، فيها أبو سفيان صخر بن حرب، وصفوان بن أُمية وغيرهما من وجهاء قريش، وكان دليلها (فرات بن حيان)، ومع القافلة كميات من الفضة. وعلم رسول الله ﷺ بخبر هذه القافلة فأرسل لها سريةً بإمرة زيد بن حارثة فلقيهم علىٰ ماء (القَرْدة) من مياه نجد، وما إن وجد رجال قافلة قريشٍ سرية رسول الله ﷺ، إلا ولُّوا هاربين، وتركوا العير غنيمةً للمسلمين، فأخذ زيد العير، وسار بها إلىٰ المدينة، فخمّسها رسول الله ﷺ.

غزوة أُحد:

بعد معركة بدرٍ والمعارك واللقاءات التي سبقتها والتي تلتها والتي فيها النصر والتوفيق للمسلمين، ظنّ بعضهم أن النصر سيكون حليف المسلمين ـ بإذن الله ـ ما داموا علىٰ دين الله، وأعداؤهم مشركين، فالنصر للمسلمين سواء استعدوا أم لم يستعدّوا، أخذوا بالأسباب أم لم يأخذوا فإن الله ناصرهم ومؤيّدهم بدعم من عنده، وخاصةً أنهم قد رأوا الملائكة يوم بدرٍ بجانبهم تُثبّتهم، وتُطمئن نفوسهم، فأراد الله سبحانه وتعالىٰ أن يُعلمهم أن النصر بأمر الله ولكن يجب الأخذ بالأسباب والاستعداد للقتال، واقتضت إرادة الله سبحانه وتعالىٰ أن يكون التعليم بالدرس العملي وذوق المرارة. فقد كانت معركة أُحُدٍ درساً عملياً قاسياً ذاق المسلمون مرارته، فقد خلّفوا في ساحة المعركة شهداء كراماً منهم:

١ ـ الحمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه أسد الله وأسد رسوله، وهو عمّ رسول الله ﷺ. ٢ ـ عبدالله بن جحش[1] رضي الله عنه، ابن عمّة رسول الله ﷺ أميمة بنت عبد المطلب. ٣ ـ سعد بن الربيع[2] رضي الله عنه أحد وجهاء الأنصار.

---

(١) عبدالله بن جحش بن رئاب بن يعمر الأسدي، ابن عمة رسول الله ﷺ، قديم الإسلام، هاجر إلىٰ الحبشة، ثم إلىٰ المدينة، وكان من أمراء السرايا، قتل في معركة أُحُدٍ شهيداً في سنة ثلاثٍ للهجرة، ودُفن هو وخاله الحمزة بن عبد المطلب في قبرٍ واحدٍ.

(٢) سعد بن الربيع بن عمرو بن أبي زهير بن مالك من بني الحارث من الخزرج. آخىٰ رسول الله ﷺ بينه وبين عبدالرحمٰن بن عوف، كان أحد النقباء يوم العقبة، شهد معركة بدرٍ، واستشهد يوم أُحُدٍ، أي في السنة الثالثة للهجرة.

٤ ـ مصعب بن عمير ﷺ حامل لواء المسلمين. ٥ ـ عمرو بن معاذ ﷺ أخو سعد بن معاذ، سيد الأوس ﷺ.

وخمسة وستون آخرون، كما جرح أكثر من مائة وخمسين، وفوق هذا كله، وأصعب من هذا كله، فقد جُرح رسول الله ﷺ، وكُسرت رباعيته، ودخلت حلقتان من حلقة المغفر في وجنته الشريفة، ووقع في الحفرة، وكان من نتائج هذا كله هزّة في النفوس، وصدمة لم تكن مُتوقّعةً بعد النصر الطيب في بدرٍ حتىٰ لقد قال المسلمون حين أصابهم ما أصابهم: (أنّىٰ هذا؟ وكيف تجري الأمور معنا هكذا ونحن المسلمون؟).

عندما هُزمت قريش في معركة بدرٍ، ولحقها من الخزي والعار ما لحقها، قررت الأخذ بالثأر والقضاء علىٰ المسلمين، وغزوهم في عقر دارهم وذلك لإعادة هيبتها واستعادة مركزها بين قبائل العرب، وزادها تصميماً علىٰ ذلك غنيمة المسلمين في سرية زيد بن حارثة، للعير التي سلكت الطريق الشرقية بعد أن قطعت قريش الأمل بالطريق الغربية السهلة القريبة من المدينة، وبهذا توقّفت تجارة قريشٍ إلىٰ الشام تماماً إذا لم تقم بعملٍ حاسمٍ، وهذا ينطبق علىٰ ما قاله صفوان بن أمية عندما قرّروا التحوّل إلىٰ الطريقِ الشرقية، إذ قال: إن محمداً وصحبه عوّروا علينا متجرنا، فما ندري ماذا نصنع بأصحابه وهم لا يبرحون الساحل، وأهل الساحل قد وادعوهم، ودخل عامتهم معه، فما ندري أين نسلك؟ وإن أقمنا في ديارنا هذه أكلنا رؤوس أموالنا فلم يكن لها من بقاء، وإنما حياتنا بمكة علىٰ التجارة إلىٰ الشام في الصيف، وإلىٰ اليمن في الشتاء، ولكن ذلك لم يفدهم شيئاً إذ وقعت قافلتهم، وهو فيها، وقد فرّ من زيد بن حارثة ﷺ، وذلك عندما انتقلوا إلىٰ الطريق الشرقية ـ كما ذكرنا ـ.

بدأ الاستعداد لمعركةٍ مقبلةٍ، وكان أكبر المُتحمِّسين لها بنو مخزوم، وعبدالله بن أبي ربيعة، إضافةً إلىٰ أبي سفيان صخر بن حرب، وصفوان بن أمية، فقد حرّضوا قريشاً ومَن جاورها من ثقيفٍ وكنانة. واجتمعت قريش في دار الندوة، وقرّر المجتمعون بالإجماع أن يكون تجهيز الجيش المرتقب

إرساله إلىٰ المدينة من أموال قافلة أبي سفيان التي نجت من قبضة المسلمين قبيل غزوة بدرٍ، لذا فقد احتجزت تلك الأموال في دار الندوة، ولم يُدفع لأصحابها شيء منها.

انطلقت قريش تُحرّض القبائل الأخرىٰ، وخاصةً كِنانة، وقد نجحت في مسعاها إذ تطوّع عدد من أفراد هذه القبيلة للقتال، وتكامل الجيش، وكان عدده ثلاثة آلاف مُقاتلٍ، ألفان وتسعمائة مقاتلٍ من قريشٍ والأحابيش من بني المصطلق، وبني الهون، ومائة من كنانة، ومع الجيش ثلاثة آلاف بعير أي أنهم جميعاً من الركبان، ومع الجيش أيضاً مائتا فرس، لم يمتطوها حتىٰ وصلوا إلىٰ أُحُدٍ، إضافةً إلىٰ سبعمائة درع، وقد أخرجوا معهم النساء تشجيعاً لهم، وظناً منهم أن ذلك أدعىٰ للثبات. وكان قائد الجيش أبو سفيان صخر بن حرب، وحامل اللواء طلحة بن أبي طلحة العبدري، وقائد سلاح الفرسان خالد بن الوليد، وعكرمة بن أبي جهل، وخرج مع الجيش أبو عزّة الجمحي[1] ـ وقد حرّضه علىٰ ذلك صفوان بن أمية ـ الذي وقع أسيراً في معركة بدرٍ، ومنَّ عليه رسول الله ﷺ يومذاك. كما خرج أبو عامر الراهب الأوسي الذي فارق المدينة كرهاً لرسول الله ﷺ، وخرجت مع قريش القيان يعزفن علىٰ الدفوف. وكانت النقمة أكبر ما تكون علىٰ حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه عم رسول الله ﷺ، لما أبلاه في معركة بدرٍ من ابلاء

---

(١) أبو عزة عمرو بن عبدالله بن عثمان الجمحي: شاعر جاهلي، من أهل مكة، أدرك الإسلام، وأُسر مشركاً يوم بدر، فأُتي به إلىٰ رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله لقد علمت ما لي من مالٍ، وإني لذو حاجةٍ وعيالٍ، فامنن عليّ، ولك أن لا أظاهر عليك أحداً، فامتنّ عليه، فنظم قصيدةً يمدحه بها، منها البيت المشهور:

فإنك من حاربته لمحارَب ... شقيّ، ومن سالمته لسعيد

ثم لما كان يوم أُحُدٍ دعاه صفوان بن أمية، سيد بني جمح للخروج، فقال: إن محمداً قد منّ عليّ وعاهدته أن لا أُعين عليه، فلم يزل يُطمعه حتىٰ خرج وسار في بني كنانة، وشارك في استنفار القبائل، وأسر في المعركة فقال: يا رسول الله، مُنّ عليّ، فقال النبيّ ﷺ: «لا يُلدغ المؤمن من جحر مرتين، لا ترجع إلىٰ مكة تمسح عارضيك، وتقول خدعت محمداً مرتين» ثم أمر رسول الله ﷺ به عاصم بن ثابت فضرب عنقه.

الحسن، لذا دعا جبير بن مُطعم بن عديّ[1] غلاماً حبشياً يُدعىٰ (وحشيّ)[2]، وكان يرمي بالحربة وقلما يُخطئ بها، وطلب منه أن يرمي الحمزة ﷺ، وأنه حُرّ إن قتله.

انطلق جيش قريش إلىٰ عسفان (شمال مكة وعلىٰ بُعد سبعين كيلومتراً منها) ومنها إلىٰ (خُلَيص) فـ(الجُحفة) فميناء (رابغ) بين جدة ميناء مكة وينبع ميناء المدينة فالأبواء فالمدينة. واقترحت هند بنت عتبة زوج أبي سفيان صخر بن حرب قائد جيش قريشٍ أن تنبش قبر آمنة بنت وهب أُمّ رسول الله ﷺ، الموجود في بلدة (الأبواء) حيث دُفنت هناك أثناء زيارةٍ لها للمدينة، ومعها رسول الله ﷺ، وكان في السادسة من عمره، غير أن هذا الاقتراح قد رُفض.

وصل إلىٰ رسول الله ﷺ خبر مسيرة جيش قريش إلىٰ المدينة عن طريق عمّه العباس ﷺ، الذي لم يخرج هذه المرّة مع قريشٍ مُعتذراً بما أصابه يوم بدرٍ. وقد قرأ رسالة العباس لرسول الله ﷺ أُبي بن كعب[3]، وكتم الخبر عن سكان المدينة علىٰ الرغم من استعدادهم... وبعد التأكُّد استنفر المسلمون، وكانوا علىٰ حذرٍ، فلم يتركوا سلاحهم حتىٰ أثناء صلواتهم، كما

---

(١) جبير بن مطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف القرشي، أبو عدي: صحابي، كان من علماء قريش وسادتهم، كان من كبار النسّابين، توفي بالمدينة المنورة سنة تسعٍ وخمسين، له ستون حديثاً.

(٢) وحشي بن حرب الحبشي، أبو دسمة، مولىٰ بني نوفل، من سودان مكة، قتل حمزة عمّ رسول الله ﷺ يوم أُحد إذ رماه بالحربة، ثم وفد علىٰ رسول الله ﷺ مع وفد أهل الطائف بعد أخذها، وأسلم، فقال له رسول الله ﷺ: «غيّب عني وجهك يا وحشيّ، لا أراك» وشهد اليرموك، وشارك في قتل مسيلمة الكذاب، ويزعم أنه رماه بالحربة التي رمىٰ بها الحمزة ﷺ، وسكن مدينة حمص، ومات فيها سنة ٢٥ للهجرة.

(٣) أُبيّ بن كعب بن قيس بن عبيد، أبو المنذر، من الخزرج، صحابي، أنصاري. كان قبل الإسلام حبراً من أحبار اليهود، يكتب ويقرأ، ولما أسلم كان من كتّاب الوحي، شهد بدراً، وأُحُداً، والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وشهد مع عمر بن الخطاب ﷺ معركة الجابية، وكتب كتاب الصلح لأهل بيت المقدس. وأمره عثمان بن عفان ﷺ بجمع القرآن، فاشترك في جمعه، وله في الصحاح (١٦٤) حديثاً.

نشطت دوريات المدينة الاستطلاعية، وجاءت بخبر قدوم جيش مكة عن طريق وادي العقيق حتىٰ إذا وصل إلىٰ (ذو الحليفة) تحرك نحوه في غربي الحرّة الغربية، ثم استقرّ في السبخة من وادي قناة الواقع شمالي المدينة بالقرب من جبل الرماة.

ورأىٰ رسول الله ﷺ في المنام رؤيا تشير إلىٰ وقوع أشياء كثيرةٍ، قال: «رأيت بقراً لي تُذبح؟ ورأيت في ذباب سيفي ثلماً، ورأيت أني أدخلت يدي في درعٍ حصينةٍ»، فأوّلها بقوله: «أما البقر فهم أُناس من أصحابي يُقتلون، وأما الثَلم فهو رجل من أهل بيتي يُقتل، وأما الدرع فهي المدينة».

مشاورة المسلمين:

استشار رسول الله ﷺ أصحابه عن المكان الذي سيواجهون فيه قريشاً، وقد كان رأيه أن يبقوا في المدينة، وأن تكون هي وشوارعها ساحة المعركة، فقال: «فإن رأيتم أن تُقيموا في المدينة، وتدعوهم حيث نزلوا، فإن أقاموا أقاموا بشر مقام، وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها». وكان عبدالله بن أُبيّ بن سلول رأس المنافقين يحضر هذه المشاورة، بصفته أحد زعماء الخزرج، ويرىٰ هذا الرأي فقال: يا رسول الله، أقم بالمدينة لا تخرج إليهم، فوالله ما خرجنا منها إلىٰ عدوٍّ لنا قطّ، إلا أصاب منا، ولا دخلها علينا إلا أصبنا منه، فدعْهم يا رسول الله، فإن أقاموا، أقاموا بشرّ محبسٍ، وإن دخلوا قاتلهم الرجال في وجههم، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم، وإن رجعوا رجعوا خائبين كما جاؤوا.

أما الصحابة الذين فاتتهم معركة بدرٍ، فقد كانوا مُتحمّسين للخروج ولقاء المشركين خارج المدينة، وكذا غالبية الشباب، وحُجّتهم في ذلك حتىٰ لا يُرموا بالجُبن، وكان علىٰ رأس الذين يرون الخروج حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه، إذ قال لرسول الله ﷺ: والذي أنزل عليك الكتاب، لا أطعم طعاماً حتىٰ أُجالدهم بسيفي خارج المدينة، ومالت الأكثرية إلىٰ هذا الرأي، إذ كانوا يرون أنهم منصورون لا محالة ـ بإذن الله ـ ومن يستشهد في سبيل الله فيا حبذا الجنّة، ومن لا يطلبها من المسلمين؟ وهذا الأمر الذي

كان يدفعهم لطلب الخروج، فهي إحدىٰ الحُسنيين: الشهادة لمن يستشهد، والنصر لمن يبقىٰ ليُجاهد في المستقبل.

رأىٰ رسول الله ﷺ أن أكثرية المسلمين ترىٰ الخروج، وعلىٰ خلاف رأيه، فعدل عن رأيه، واستجاب للأغلبية، وأعلن أنه خارج لمقاتلة العدوّ حيث هو في وادي قناة. وكان يوم جمعة الرابع عشر من شهر شوال من السنة الثالثة للهجرة، وبعد أن صلّىٰ رسول الله ﷺ الجمعة بالمسلمين، وصلّىٰ علىٰ جنازة مالك بن عمرو النجاري، دخل بيته، وتسلّح، فلبس درعاً فوق درع، وخرج علىٰ المسلمين، وأذّن فيهم بالخروج إلىٰ العدوّ. ونَهَرهم أولئكَ الذين ألحُّوا عليه بالخروج حيث شعروا أنهم استكرهوه علىٰ ذلك، فأبدوا طاعتهم له، وندمهم علىٰ ما ظهر منهم، أنهم تركوا الأمر للّه ولرسوله، وأنهم علىٰ استعدادٍ للتنازل عن رأيهم والعودة إلىٰ رأيه، فقال لهم عليه الصلاة والسلام: «ما ينبغي لنبيٍّ إذ لبس لأمته أن يضعها حتىٰ يحكم الله بينه وبين عدوّه، وقد دعوتكم إلىٰ هذا الحديث فأبيتم إلا الخروج، فعليكم بتقوىٰ الله، والصبر عند البأس، وانظروا ما آمركم به فافعلوا».

اجتمع الجيش، وتجهّز، واستعدّ، فقسّم رسول الله ﷺ المقاتلين إلىٰ ثلاثة كتائب:

١ ـ كتيبة المهاجرين: وأعطىٰ لواءها لمصعب بن عمير.

٢ ـ كتيبة الأوس: وتسلّم لواءها أُسَيْد بن حُضير[1].

٣ ـ كتيبة الخزرج: وتسلّم لواءها الحباب بن المنذر.

---

(١) أُسيد بن الحُضير بن سِماك بن عتيك الأوسي، أبو يحيىٰ، صحابي، كان شريفاً في الجاهلية والإسلام، مقدّماً في قبيلة الأوس من أهل المدينة، يُعدّ من عقلاء العرب وذوي الرأي فيهم، وكان يُسمّىٰ (الكامل)، شهد العقبة الثانية مع السبعين من الأنصار، وكان أحد النقباء الاثني عشر. شهد معركة أُحُدٍ فجُرح سبع جراحات، وثبت مع رسول الله ﷺ حين انكشف الناس عنه، وشهد معركة الخندق، والمشاهد كلها. وفي الحديث: «نِعم الرجلُ أُسَيْد بن الحُضير»، توفي في المدينة سنة ٢٠ للهجرة في خلافة عمر بن الخطاب ﷺ، وله (١٨) حديثاً.

وكان عدد الجيش الإسلامي ما يقرب ألف مقاتلٍ معهم مائة درعٍ، ولم يكن معهم من الخيل إلا فرس الزبير بن العوام ﷺ.

وسأل الأنصار رسول الله ﷺ، فقالوا: يا رسول الله، ألا نستعين بحلفائنا من يهود ضدّ هؤلاء الأعداء، فقال: «لا نستنصر بأهل الكفر علىٰ أهل الشرك». فالكافر لا يمكن أن يُقاتل بإخلاص إذ لا إيمان يدفعه، وهو عدوّ ظاهر للإسلام، وإنما يُقاتل لمصلحةٍ، فإن وجد في قتاله مصلحةً في الغنيمة أو في شيءٍ آخر جالد وإلا ترك ساحة المعركة وانصرف، وعندها يكون عامل إضعافٍ وخذلان إذ يقع الوهن في صفوف المحاربين الآخرين، بل وربما يتعاون مع أهل الشرك ضدّ الإسلام، وأثناء احتدام المعركة ينلب ظهر المجنّ، وينتقل إلىٰ صفوف الأعداء، وعندها تكون الطامة الكبرىٰ كمن يستجير من الرمضاء بالنار، إذ لا يمكن الاستنصار بأهل الكفر أبداً، وخاصةً إذا وجد المسلمون في أنفسهم الإمكانية التامة، والروح المعنوية العالية، والاستعداد لمجابهة الخصوم، وهذا ما كان أثناء سير رسول الله ﷺ لغزوة أُحُدٍ، أما إذا وجد المسلمون في أنفسهم ضعفاً، وأمنوا أهل الكفر كلياً، ولم يكونوا في قتالٍ لقريشٍ هؤلاء الكفار بالذات، فيمكن الاستعانة بهم مع بقاء الحذر.

استعمل رسول الله ﷺ علىٰ المدينة عبدالله بن أم مكتوم ﷺ، وانطلق بالجيش نحو العدوّ، وفي الطريق استعرض الجند فأجاز مَن أجاز، وأعاد مَن أعاد إلىٰ المدينة إذ رأىٰ في بعضهم صغراً في السِّنّ لا تُؤهِّلهم لخوض معركةٍ قاسيةٍ تحتاج إلىٰ صلابةٍ في العود، ومراسٍ علىٰ الصبر، وصبرٍ علىٰ الشدّة، وتحمُّل المشاقّ، إلا أن الروح الإيمانية كانت تدفع هؤلاء الشباب لطلب القتال دعماً للحق، وحُباً في الشهادة، ورغبةً في قتال أهل الباطل. وعندها قال سَمُرة بن جندب، وهو من الذين استصغرهم رسول الله ﷺ: يا رسول الله، إني أصرع رافعاً، فطلب رسول الله ﷺ منهما المصارعة، فصرع سَمُرة[1]

---

(١) سمرة بن جندب بن هلال الفزاري: من علماء الصحابة، نزل البصرة، كان صدوقاً، أميناً، وكان زياد بن أبيه يستخلفه علىٰ البصرة إذا سار إلىٰ الكوفة، ويستخلفه علىٰ الكوفة إذا سار إلىٰ البصرة، وكان شديداً علىٰ الخوارج، توفي سنة ٥٨هـ.

رافعاً، فأجاز رسول الله سَمُرة. وقال رافع بن خديج[1]، أحد هؤلاء الذين طلب منهم رسول الله ﷺ العودة: يا رسول الله، إني ماهر بالرمي، وشهد بذلك من يعرفه، فأجازه.

وأعاد رسول الله ﷺ عبدالله بن عمر بن الخطاب، وأسامة بن زيد، وزيد بن ثابت[2]، والبراء بن عازب[3]، وأُسَيْد بن ظهير، وعمرو بن حزم[4].

وبات رسول الله ﷺ ليلةً مع المسلمين بين المدينة المنورة وأُحُد، وصلّىٰ هناك المغرب والعشاء. وقام خمسون من المسلمين بحراسة المعسكر ليلاً بإمرة محمد بن مسلمة علىٰ حين تولىٰ حراسة القيادة الخاصة برسول الله ﷺ ذكوان بن عبد قيس.

وانطلق رسول الله ﷺ قبل الفجر، واقترب من العدوّ، وأدركته هناك صلاة الفجر، فصلّىٰ بالناس، وعليهم السلاح، حيث كانوا علىٰ رؤيةٍ من العدوّ إذ يرىٰ كل منهما الآخر. وفي هذه الساعة الحرجة انخذل عبدالله بن

---

(١) رافع بن خديج بن عديّ الأنصاري الخزرجي: شهد أُحُداً، وأصابه يومها سهم، فانتزعه، فبقي النصل في لحمه إلىٰ أن مات، وشهد صفين مع علي رضي الله عنه.

كان يُفتي في المدينة أيام معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما.

توفي في أوائل سنة أربع وسبعين للهجرة، وهو ابن ستٍّ وثمانين سنةً.

(٢) زيد بن ثابت بن الضحاك الأنصاري الخزرجي، أبو خارجة، صحابي، ولد في المدينة سنة ١١ قبل الهجرة، ونشأ بمكة، وهاجر مع رسول الله، وتعلّم، وتفقّه، وكان ابن عباس رضي الله عنهما يأخذ عنه، وكان الخليفة عمر رضي الله عنه يستخلفه علىٰ المدينة إذا سافر، وهو من كتاب الوحي، وأحد الذين جمعوا القرآن، وتوفي سنة ٤٥ للهجرة.

(٣) البراء بن عازب بن الحارث الخزرجي، أبو عمارة: قائد صحابي، أسلم صغيراً، وغزا مع رسول الله ﷺ خمس عشرة غزوةً، أولها غزوة الخندق، ولما ولي عثمان بن عفان رضي الله عنه الخلافة جعله أميراً علىٰ مدينة الريّ بـ(فارس) سنة ٢٤ للهجرة. ففتح (أبهر) و(قزوين) و(زنجان) من بلاد فارس، وتوفي سنة ٧١هـ، وروىٰ له البخاري ومسلم ثلاثمائة وخمسةً من الأحاديث.

(٤) عمرو بن حزم بن زيد بن لوذان الأنصاري، أبو الضحاك، والٍ من الصحابة، شهد غزوة الخندق وما بعدها، واستعمله رسول الله ﷺ علىٰ نجران، وكتب له عهداً مطوّلاً فيه توجيه وتشريع. وتوفي سنة ٥٣ للهجرة.

أُبيّ بن سلول بثلث الناس عن المسلمين رغبةً في أن تضعف المعنويات، وينزل الوهن، ويحلّ الضعف، وقال: أطاعهم وعصاني، ما ندري عَلامَ نقتل أنفسنا هاهنا أيها الناس، فرجع بمن تبعه من قومه أهل النفاق والريب، فلحق بهم عبدالله بن عمرو بن حرام الأنصاري يطلب منهم العودة والانضمام إلىٰ الجيش قائلاً لهم: أُذكّركم الله ألا تخذلوا قومكم ونبيّكم، عندما حضر عدوّهم، فقالوا: لو نعلم أنكم تُقاتلون لما أسلمناكم، ولكننا لا نرىٰ أن يكون قتال، وأصرُّوا علىٰ الانصراف، وعندها قال لهم: أبعدكم الله يا أعداء الله فسيُغني الله نبيّه عنكم. وهذا شأن المنافقين في كل زمانٍ، وكل ميدانٍ، يسيرون مع من يرونه قوياً، فإذا أحسُّوا منه ضعفاً تركوه، ويكونون مع الحاكم ما دام يقبض علىٰ السلطة بيدٍ قويةٍ، فإذا لاحظوا ضعف النبضة تراخوا في مساندته ودعمه، حتىٰ إذا ظهر ضعفه انقلبوا عليه، وتركوه حتىٰ يسقط، فإذا قام عهد جديد انتظروا حتىٰ إذا لمسوا منه قوةً ساروا معه، مظهرين الطاعة والخضوع، كما فعلوا مع سابقه. وقد لاحظ عبدالله بن أُبيّ بن سلول والمنافقون معه أن المشركين أكثر عدداً وأكثر عُدّةً ومتاعاً، وهذا عندهم سبيل النصر، فخافوا أولاً علىٰ أنفسهم فانخذلوا، وفي الوقت نفسه ظنُّوا أنه سيكون لهم أيادٍ بيضاء عند المشركين الذين سيكون النصر بجانبهم علىٰ هذا الانسحاب الذي جاء في الوقت المناسب، هذ مع ملاحظة الكراهية والحقد الذي في نفوسهم علىٰ المسلمين، وربما يكون خذلانهم سبباً في الانتهاء من المسلمين في المدينة علىٰ الأقل، وعودة الزعامة لزعيم المنافقين عبدالله بن أُبيّ بن سلول الذي كان مُرشّحاً لأن يكون ملكاً علىٰ يثرب، وما منع الأمر أن يتمّ له إلا انتشار الإسلام وهجرة رسول الله ﷺ من مكة إلىٰ يثرب، حيث أصبح سيّدها، بل وأصبح اسم يثرب المدينة المنوّرة برسول الله ﷺ وبالإسلام، وقد حاز رسول الله علىٰ درجةٍ من المحبة من أهلها الذين أسلموا لا يحلم بها أحد. هذا ما أراد المنافقون وزعيمهم ابن أُبيّ بن سلول، وكادوا ينجحون إذ همّ بنو حارثة من الأوس وهمّ بنو سلمة من الخزرج بالانسحاب والعودة إلىٰ المدينة.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ

سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [آل عمران]. ولكن الله أراد غير هذا، أراد أن يميز الخبيث من الطيب، وأن يُصفّي قلوب المؤمنين من كل شائبةٍ حتىٰ تبقىٰ صفوفهم نقيةً، سليمةً، مؤمنةً، خارجةً في سبيل الله، تُقاتل في سبيله، لا تبغي عرضاً من أعراض الدنيا، ولا تختلف أثناء القتال ولا تفترق ساعة المعركة.

قال الله تعالىٰ: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾﴾ [آل عمران].

وقال الله تعالىٰ: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الأنفال].

وبعد هذا الانشقاق وقع خلاف بين المسلمين، ففريق يرىٰ أنه يجب تأديب هؤلاء المتمرّدين الذين لا يختلفون كثيراً عن أعدائهم الذين أمامهم، فما انسحابهم إلا تأييداً ومناصرةً للأعداء ودعم وتقوية، وفريق آخر يرىٰ إهمالهم وترك أمرهم لله، لأن في قتالهم خوفاً علىٰ المسلمين من أن يقعوا بين نارين نار المنافقين من جهةٍ ونار المشركين من جهةٍ ثانيةٍ، وربما كان هذا هدف المنافقين من انسحابهم، إذ أن عدد المنافقين ليس قليلاً حيث يُقدّرون بنصف عدد المسلمين، وما أن يرىٰ المشركون أن المسلمين قد بدؤوا بقتال المنافقين حتىٰ يعملوا فيهم السيف، وإذا لم يحدث هذا مع احتماله الكبير، فإن قتال المسلمين للمنافقين يُضعفهم بأن يُقلّل من عددهم وينهكهم في القتال، وعندها يصبحون لُقمةً سهلة الابتلاع عند المشركين.

وكان رسول الله ﷺ يرىٰ هذا الرأي الأخير، وما دام المسلمون قد بقوا كتلةً واحدةً من الإيمان فلا يمكن أن يصدروا عن غير رأي رسول الله ﷺ.

قال الله تعالىٰ: ﴿فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾﴾ [النساء].

سار رسول الله ﷺ بأصحابه نحو جبل أُحُدٍ، وقد سار في طريقٍ يوصلهم إلىٰ الجبل من غير أن يمرُّوا علىٰ معسكر قريشٍ الموجود في قناة منذ وصولهم إلىٰ ذلك المكان قبل خروج المسلمين من المدينة المنوّرة، وكان دليل المسلمين في هذه الطريق أبو خيثمة ﷺ وهو أحد الأنصار من الخزرج. وكانت رغبة رسول الله ﷺ بالوصول إلىٰ جبل أُحُدٍ كي يحمي ظهره بالجبل، وقطع المسلمون وادي قناة حتىٰ إذا وصلوا إلىٰ فم الشعب من جبل أُحُدٍ عسكروا هناك في عدوة الوادي، وجعلوا ظهرهم إلىٰ الجبل. وكان قد بقي عدد المسلمين سبعمائة مقاتلٍ يُقابلهم ثلاثة آلافٍ من قريش وأحلافها.

بدأ رسول الله ﷺ في تعبئة الجيش للقتال، فاختار من عسكره خمسين مُقاتلاً، وضعهم علىٰ جبل الرماة بإمرة عبدالله بن جبير[(١)]، وأمرهم أن ينضحوا المشركين بالنبل وألا يُغادروا أمكنتهم مهما كانت النتائج سواء انتصر المسلمون أم هُزموا، وذلك خشية أن يلتفّ المشركون علىٰ المسلمين من وراء الجبل، فإن لدىٰ المشركين قوة من الفرسان تسهل عليهم الحركة والالتفاف، وكان خالد بن الوليد قائد ميمنة الفرسان، وعكرمة بن أبي جهل قائد الميسرة.

وقال رسول الله ﷺ لعبدالله بن جبير: «انضح الخيل عنا بالنبل، لا يأتون من خلفنا، إن كانت لنا أو علينا، فاثبُت مكانك، لا نُؤتين من قبلك».

ثم رتّب رسول الله ﷺ باقي الجند صفوفاً وهيّأهم للقتال، وقال لهم: «ما أعلم من عملٍ يُقرّبكم إلىٰ الله تعالىٰ إلا وقد أمرتكم به، ولا أعلم من عمل يُقرّبكم إلىٰ النار إلا وقد نهيتكم عنه، وإنه قد نفث الروح الأمين في روعي أنه لن تموت نفس حتىٰ تستوفي رزقها لا ينقص منه شيء، وإن أبطأ عنها، فاتقوا الله وأجمِلوا في طلب الرزق، لا يحملنّكم استبطاؤه أن تطلبوه

(١) عبدالله بن جبير بن النعمان الأنصاري: صحابي، شهد العقبة وبدراً، وكان أمير الرماة يوم أُحُدٍ، وقد استشهد يومذاك.

بمعصية الله، والمؤمن من المؤمن كالرأس من الجسد، إذا اشتكىٰ عضو تداعىٰ إليه سائر جسده».

وجعل رسول الله ﷺ في مقدمة صفوف المسلمين:

ـ حمزة بن عبد المطلب، وعلي بن أبي طالب، وعبدالله بن جحش، وسعد بن الربيع، وأنس بن النضر، وأبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وطلحة بن عبيدالله، ومُصعب بن عمير، والزبير بن العوام، وسعد بن مُعاذ، وسعد بن عُبادة، وسعد بن الربيع، وأبا دجانة سِماك بن خرشة، والمقداد بن عمرو.

وكان الزبير بن العوام هو الفارس الوحيد في صفوف المسلمين والمقداد بن عمرو. وقد أوكل رسول الله ﷺ إلىٰ الزبير والمقداد مهمة الصمود أمام خيل قريش، التي يقودها خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل.

وأخرج رسول الله ﷺ سيفاً، وقال: «مَن يأخذ هذا السيف بحقه؟» فقام إليه رجال منهم: الزبير بن العوام، وعمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب ﷺ، فأمسكه عنهم، حتىٰ قام أبو دجانة[1]، فقال: أنا، وما حقّه يا رسول الله؟ قال: «أن تضرب به العدوّ حتىٰ ينحني»، قال: أنا آخذه بحقه يا رسول الله، فأعطاه إيّاه. وكان أبو دجانة رجلاً شجاعاً يختال عند الحرب إذا كانت. فلما أخذ السيف من يد النبيّ عليه الصلاة والسلام أخرج عصابةً حمراء، فعصب بها رأسه، وجعل يتبختر بين الصفَّين. فقال رسول الله ﷺ: «إنها لمشية يبغضها الله؛ إلا في مثل هذا الموطن».

وعندما انتهت تعبئة رسول الله ﷺ، قال لهم: «لا تبدؤوا حتىٰ آمركم».

أما قريش فقد عبّأت جيشها كذلك علىٰ شكل صفوف علىٰ غير عادتها،

---

(١) أبو دُجانة: سِماك بن خَرَشة الخزرجي البياضي الأنصاري، صحابي، كان شجاعاً بطلاً، شهد معركة بدر، وثبت يوم أُحُد، وأُصيب بجراحاتٍ كثيرةٍ، وكان يقال له (ذو المشهرة) وهي درع يلبسها في الحرب، كما يقال له (ذو السيفين) لقتاله يوم أُحُد بسيفه وسيف رسول الله ﷺ، واستشهد باليمامة سنة ١١ للهجرة في حرب المرتدين.

وكان علىٰ الميمنة خالد بن الوليد، وهو علىٰ الخيل، وعلىٰ الميسرة عكرمة بن أبي جهل، وعلىٰ الرماة عبدالله بن أبي ربيعة، ويحمل للواء طلحة بن أبي طلحة العبدري. وكان أبو سفيان صخر بن حرب هو لقائد العام للجيش.

اتجه أبو سفيان القائد العام للجيش إلىٰ حملة اللواء من بني عبد الدار فحرّضهم علىٰ القتال قائلاً لهم: يا بني عبد الدار، إنكم قد وليتم لواءنا يوم بدرٍ، فأصابنا ما قد رأيتم، وإنما يُؤتىٰ الناس من قِبل راياتهم، إذا زالت زالوا، فإما أن تكفونا لواءنا، وإما أن تخلّوا بيننا وبينه، فنكفيكموه، فهمّوا به، وتواعدوه، وقالوا: نحن نُسلم إليك لواءنا. وستعلم غداً إذا التقينا كيف نصنع؟

وكانت نسوة قريشٍ خلف الرجال يضربن بالدفوف ويُحرضنهم علىٰ القتال، ومنهن:

١ ـ هند بنت عتبة، زوجة أبي سفيان صخر بن حرب. ٢ ـ أم حكيم بنت الحارث بن هشام، زوجة عِكرمة بن أبي جهل. ٣ ـ بَرْزَة بنت مسعود، زوجة صفوان بن أمية. ٤ ـ فاطمة بنت الوليد، زوجة الحارث بن هشام، وهي أخت خالد بن الوليد. ٥ ـ ريْطة بنت مُنبّه بن الحجاج، زوجة عمرو بن العاص. ٦ ـ خُناس بنت مالك، أم مُصْعب بن عمير. ٧ ـ سُلافة بنت سعد، زوجة طلحة بن أبي طلحة. أي أن النسوة كنّ نساء زعماء قريشٍ.

وكان أبو عامر الفاسق، عبد عمرو بن صيفي أحد زعماء قبيلة الأوس قبل الإسلام، فلما انتشر الإسلام في المدينة شعر هذا الفاسق أن أمره قد ضعُف، فذهب مغاضباً إلىٰ قريشٍ مع عددٍ من أتباعه يُحرّضهم علىٰ قتال المسلمين، ويعدهم أنه لو لقي قومه لم يختلف عليه منهم رجلان. فلما كان يوم أُحُدٍ، ووصلت قريش إلىٰ مكان معسكرها قام هذا الفاسق بحفر بعض الحفر وتغطيتها ليقع فيها أبطال المسلمين. ولما التقىٰ الجمعان كان أول من لقيهم أبو عامر بالأحابيش، وعبدان أهل مكة، ومن معه من الأوس الذين خرجوا مغاضبين قومهم، وعددهم مختلف فيه بين الخمسة عشر والخمسين رجلاً، فنادىٰ: يا معشر الأوس، أنا أبو عامر، قالوا: فلا أنعم الله بك عيناً يا فاسق ـ وكان أبو عامر يُسمّىٰ في الجاهلية (الراهب)، فسمّاه

رسول الله ﷺ (الفاسق) ـ، فلما سمعهم وما قالوا، قال: لقد أصاب قومي بعدي شرّ. ولقد قاتل هذا الفاسق قتالاً شديداً، وكان يرمي المسلمين بالحجارة.

ولما التقىٰ الناس ودنا بعضهم من بعضٍ، قامت هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان قائد المشركين، في النسوة اللاتي معها، وأخذن الدفوف يضربن بها خلف الرجال، ويُحرّضنهم علىٰ القتال، فقالت هند فيما تقول:

وَيْهاً بني عبد الدار وَيْهاً حُماة الأدبار
وضرباً بكل بتّار

وتقول:

إن تُقْبِلوا نُعانقْ ونَفْرش النمارق
أو تُدْبِروا نُفارق فراقاً غير وامق[1]

وكان شِعار أصحاب رسول الله ﷺ: أَمِتْ، أَمِتْ.

وخرج أبو دُجانة (سِماك بن خَرَشة) بعد أن أخذ السيف من رسول الله ﷺ، وهو يقول:

أنا الذي عاهدني خليلي ونحن بالسفح لدىٰ النخيل
ألاّ أقوم الدهر في الكَيول أضرب بسيف الله والرسول

وجعل لا يلقىٰ أحداً إلا قتله حتىٰ أمعن في الناس.

وطلب أبو سفيان قائد جيش قريشٍ من الأنصار التخلّي عن محمدٍ فهو دخيل عليهم، وأنه من قريش فهم أوْلىٰ به، وأن قريشاً لم تأتِ لتُقاتل أهل المدينة، وإنما أتت لقتال قومها الذين جاؤوا إلىٰ المدينة دخلاء. إلا أن الأنصار قد ردُّوا عليه ردًّا عنيفاً، وأسمعوه ما أغاظه.

---

(١) الوامق: المحب.

كان جيش قريشٍ بين معسكر المسلمين والمدينة المنورة، وكان جيش المسلمين علىٰ العدوة الشمالية لوادي قناة في السفوح الجنوبية لجبل أُحُد.

بدأت المعركة بهجومٍ من قِبل ميمنة جيش قريشٍ بقيادة أبي عامر الفاسق (عبد عمرو بن صيفي بنً مالك بن النعمان) تُساندهم الخيل بقيادة خالد بن الوليد، وكان الهجوم علىٰ ميسرة جيش المسلمين، إلا أن رماة جيش المسلمين علىٰ جبل أُحُدِ قد نضحوا خيل قريشٍ بالنبال فتراجعت وتقهقرت أمام الزبير بن العوام رضي الله عنه ومن معه... وتكرر الهجوم ثلاث مراتٍ علىٰ هذا الجانب، وما اختلفت النتيجة في المرات الثلاثة، هذا خالد بن الوليد الذي عُرف عنه أنه ما تراجع أمام عدوٍّ، ولم يتراجع فعلاً أمام باطل، ولكنه تقهقر هنا لأنه أمام حق، فالحق أقوىٰ من أن يقف أمامه باطل خالدٍ وغير خالد.

وقام المسلمون بهجومٍ معاكسٍ، وركّزوا هجومهم علىٰ حملة اللواء، فاللواء عنوان النصر أو الهزيمة، وطلّب حامل لواء قريش طلحة بن أبي طلحة فتقدّم إليه الزبير بن العوّام، وعاجله بطعنة قبل أن ينزل عن جمله، ووثب عليه حتىٰ صار معه علىٰ الجمل، ورماه، وبرك فوقه، واحتزّ رأسه بالسيف.

وأخذ لواء المشركين بعد طلحة بن أبي طلحة أخوه شيبة عثمان بن أبي طلحة فقتله الحمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه، فرفع لواء المشركين أخوهما الثالث أبو سعيد ابن أبي طلحة، فرماه سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه فقتله، فأخذ الراية القرشية مسافع بن طلحة بن أبي طلحة فرماه عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح فقتله، فأخذها أخوه كلاب فقتله الزبير بن العوام، فرفعها أخوهما الجلاس فطعنه طلحة بن عبيدالله رضي الله عنه فقتله، وتتالىٰ أبناء عبد الدار يرفعون اللواء حتىٰ قتلوا جميعاً وعددهم عشرة أفرادٍ يُعدّون من أبطال قريشٍ المشهورين، وأخذه بعدهم رجل قاتل أفضل منهم حتىٰ قُتل، وسقط اللواء، وديس بالأقدام، واندفع المسلمون اندفاع رجلٍ واحدٍ، وتسابق الحمزة وأبو دُجانة في حصد الأعداء، وهُزم المشركون ـ بإذن الله ـ علىٰ كثرتهم، إذ كان كل واحدٍ من المسلمين يُقابل أربعةً من المشركين، ومع ذلك فقد ولّت قريش الأدبار لا تعي علىٰ شيءٍ، وبدت المعركة أنها قد انتهت.

وبينما كان الحمزة بن عبد المطلب ﷺ يحصد بالقوم إذ جاءته حربة من (وحشي)، هو عبد لـ(جبير بن مُطعم)، ووقعت في ثُنّته (ما بين أسفل البطن إلىٰ العانة) وخرجت من بين رجليه، فوقع، ومات ﷺ. وقد حدّث (وحشي) نفسه بعد إسلامه عن مقتل الحمزة ﷺ، فقال: كنت غلاماً لجبير بن مطعم، وكان عمّه طُعيمة بن عديّ قد أُصيب يوم بدرٍ، فلما سارت قريش إلىٰ أُحدٍ، قال لي جبير: إن قتلت الحمزة عمّ محمدٍ بعمّي، فأنت عتيق، قال: فخرجت مع الناس، وكنت رجلاً حبشياً أقذف بالحربة قذفَ الحبشة، قلما أُخطئ بها شيئاً، فلما التقىٰ الناس خرجت أنظر (الحمزة) وأتبصّره، حتىٰ رأيته وسط الناس مثل الجمل الأورق، يهدّ الناس بسيفه هدًّا، ما يقوم له شيء، فوالله إني لأتهيأ له، أريده وأستتر منه بشجرةٍ أو حجرٍ، ليدنو مني إذ تقدّمني إليه سباع بن عبد العزّىٰ، فلما رآه الحمزة قال له: هلمّ إليّ يا ابن مُقطِّعة البظور. قال: فضربه ضربةً ما أخطأ رأسه. قال: وهززت حربتي، حتىٰ إذا رضيت منها دفعتها عليه، فوقعت في ثُنّته، حتىٰ خرجت من بين رجليه، وذهب لينوء نحوي، فغُلب، وتركته وإياها حتىٰ مات ثم أتيته، فأخذت حربتي، ثم رجعت إلىٰ العسكر، فقعدت فيه، ولم يكن لي بغيره حاجة، وإنما قتلته لأُعْتَق. وكانت هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان قائد جيش قريش، كلما مرّت بـ(وحشي) تقول له: ويها (أبا دسمة) اشفِ غليلي. ولما مرّت (هند) علىٰ جُثّة (الحمزة) بقرت بطنه، وأخذت كبده، فلاكتها، فلم تستطع أن تُسيغها فلفظتها، وقالت:

نحن جزيناكم بيوم بدرٍ	والحرب بعد الحرب ذات سُعْرِ
ما كان عن عتبة[1] لي من صبر	ولا أخي[2] وعمّه[3] وبكري[4]
شفيتُ نفسي وقضيتُ نذري	شفيتَ وحشي غليل صدري
فشُكرَ وحشي علي عُمري	حتىٰ ترم أعظُمي في قبري

(١) عتبة بن ربيعة: انظر ترجمته في الصفحة (٨٣).
(٢) الوليد بن عتبة أخو هند، قُتل يوم بدرٍ بالمبارزة، وقتله عليّ بن أبي طالب ﷺ.
(٣) عمّه: عمّ أخيها الوليد أي عمّها شيبة بن ربيعة، قُتل يوم بدرٍ بالمبارزة، قتله الحمزة ﷺ.
(٤) بكرها: حنظلة بن أبي سفيان، قُتل يوم بدرٍ.

وقُتل من المسلمين في هذه الأثناء مصعب بن عمير ﷺ، وهو حامل لواء المسلمين، وقد قتله ابن قميئة الليثي، وهو يظنّ أنه رسول الله ﷺ، فرجع إلىٰ قريشٍ، فقال: قتلت محمداً. وتسلّم لواء المسلمين بعده علي بن أبي طالب.

أما أبو دُجانة (سِماك بن خَرَشة) فقد كان أيضاً يحصد في جيش المشركين، والتقىٰ أثناء حصاده هذا ببطلٍ يرتدي لباس الميدان فرفع عليه السيف يريد حصده، فإذا بها امرأة إذ رفعت صوتها مُوَلولةً عندما رأت الموت يدنو منها، فرفع السيف عنها، فإذا بها هند بنت عتبة. يقول أبو دجانة: رأيت يوم أُحُدٍ إنساناً يُحمّس الناس حماسةً شديدةً فصمدت له، فإذا امرأة، فأكرمت سيف رسول الله ﷺ أن أضرب به امرأةً، وكانت المرأة هي هند بنت عتبة.

ولما بدا أن المعركة قد انتهت، وولّىٰ المشركون الأدبار، وركب المسلمون ظهورهم يعملون فيهم قتلاً، وأسراً، وغنيمةً. وراية المشركين أُلقيت علىٰ الأرض تدوسها الأقدام، عندها رأىٰ بعض أفراد رماة المسلمين الذين يرابطون في الجبل أن ينزلوا من مكانهم الذي وضعهم فيه رسول الله ﷺ، ليشاركوا إخوانهم في مطاردة أعدائهم، وليجمعوا الغنائم المبعثرة في الأرض. فإن القتال قد انتهىٰ حسبما رأوا، وإن النفس قد بدأت تُفكّر في الغنيمة. ولكن قائد الرماة عبدالله بن جبير كان يرىٰ غير هذا الرأي، إذ كان يرىٰ أن يبقىٰ في مكانه لا يحيد عنه، وقد وضعه فيه رسول الله ﷺ، وتعاليم رسول الله ﷺ يجب أن تُنفّذ حرفياً، ولهذا أصرَّ علىٰ البقاء حتىٰ تأتيه تعاليم رسول الله ﷺ، وأمام هذا الإصرار تمرّد أكثر الرماة علىٰ قائدهم، وتركوا مواقعهم، والتحقوا بالجيش يعملون في جمع الغنائم. وبهذا انكشفت مُؤخّرة المسلمين إذ لم يبقَ علىٰ الجبل سوىٰ عشرة رماة مع قائدهم عبدالله بن جبير، فاهتبل قائد ميمنة فرسان قريش وقائدهم خالد بن الوليد هذا النزول، فأسرع بخيله، وارتقىٰ الجبل من الخلف، وقتل من بقي عليه من الرماة بعد أن قاتلوا بضراوةٍ، ولكنهم عشرة أمام مائتين من الفرسان، فقُتلوا كلهم مع قائدهم عبدالله بن جبير. وأصبح المسلمون بين

نارين، إذ نزل خالد بن الوليد بخيله من خلفهم بعد أن قضىٰ علىٰ الرماة، والتفت المشركون ورأوا ما حدث، وقد سمعوا صياح خالد، فرجعوا وقاموا بهجومٍ معاكسٍ، وأسرعت إحدىٰ النساء القرشيات من اللواتي كنّ مع القوم، وهي عمرة الحارثية، فرفعت اللواء، وتنادت قريش وقد رأت لواءها قد رُفع، وعاد المنهزمون، وبدأت المعركة من جديدٍ. . . وفقد المسلمون تنظيمهم، وعمّت بينهم الفوضىٰ، وبدأ بعضهم يقتل بعضاً، وخاصةً عندما ارتفع صياح ابن قميئة (قتلت محمداً). فرسول الله ﷺ قائد المعركة وعنوانها، وإنّ قتلَ القائد بداية الهزيمة، وقد قتل اليمان (حُسيل بن جابر) والد حُذيفة بين المسلمين، ولم ينتبهوا إلىٰ أنفسهم، حتىٰ قال حذيفة: أبي. . . أبي، فانتبهوا إلىٰ أن بعضهم يقتل بعضاً، ولكن (اليمان) كان قد قُتل.

كان المسلمون ساعة التفاف خالد بن الوليد من الخلف علىٰ شكل تجمُّعاتٍ. فجماعة صغيرة مع رسول الله ﷺ لا تُفارقه، وتُعدّ هيئة الأركان. وجماعة أخرىٰ صغيرة أيضاً لم تبتعد في مطاردة العدوّ. والجماعة الثالثة ـ وهي أكثرية الجيش ـ وقد استمرّت في ملاحقة العدوّ، واحتلّت مقرّ قيادته، واستولت علىٰ ما فيه، فعندما جاء خالد بن الوليد من الخلف، وقعت هذه الجماعة بين نارين، فطُوِّقت، وقُتل عدد منها، حتىٰ انهزم بعضهم نحو المدينة، وفكّر بعضهم بالاستسلام، ولكن شجّع بعضهم بعضاً، ورغبوا في الشهادة، ومن هؤلاء أنس بن النضر، إذ قال لهم: ما لكم هكذا؟ فقالوا له: قُتل رسول الله ﷺ، فقال: ماذا تصنعون بالحياة بعده؟ قوموا فموتوا علىٰ ما مات عليه رسول الله، واستقبل المشركين بسيفه، وظلّ يقاتل، وهو يقول: اللهم إني أبرأ إليك مما جاء به هؤلاء المشركون، وأعتذر مما يقول هؤلاء المسلمون، واستمرّ في جهاده حتىٰ استشهد.

ومنهم ثابت بن الدحداح الذي استشهد مع جماعةٍ من قومه استبسلوا في القتال.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ

مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْأَخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾﴾ [آل عمران].

كان رسول الله ﷺ يراقب الموقف بشكلٍ جيدٍ، ولما رأىٰ ما رأى من هزيمة المسلمين وانخفاض الروح المعنوية، وجد أنه من الضروري بمكانٍ أن يعلن عن مكان وجوده، مع ما في ذلك من مخاطرةٍ علىٰ نفسه؛ إذ أنه هو الهدف لا بصفته القائد فحسب، وإنما بصفته صاحب الدعوة. فإن هذا الإعلان يُؤدّي إلىٰ:

١ ـ تجمّع المسلمين غير المطوّقين حوله، ويستطيع أن يقوم بهم بهجومٍ معاكسٍ يجعل جماعة خالد بن الوليد محصورةً بين نارين.

٢ ـ ارتفاع الروح المعنوية عند الناس المطوّقين، فيُقاتلون بحماسةٍ عندما يعلمون أن نبيّهم لا يزال علىٰ قيد الحياة، وأن المعركة لا تزال قائمةً.

٣ ـ اتجاه عدد من المقاتلين المشركين نحو المكان الذي فيه رسول الله حيث هو الهدف الأول من المعركة، الأمر الذي يُخفّف الضغط عن المسلمين المطوّقين.

وتترّس رسول الله ﷺ بسفوح جبل أُحُدٍ، وبدأ يُنادي بأعلىٰ صوته: «هلمُّوا إليّ أنا رسول الله».

قال الله تعالىٰ: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [آل عمران].

وما أن سمع المسلمون صوت نبيّهم حتىٰ اطمأنت نفوسهم، وارتفعت معنويات المقاتلين المطوّقين، واستطاعوا شقّ طريقهم عبر صفوف أعدائهم غير مُبالين بما يُصيبهم، ووصلوا إلىٰ رسول الله ﷺ، كما تجمّع حوله أولئك الموزّعين من المسلمين، والتفّ الجميع حول قيادتهم من جديد، وكذلك فقد اتجهت جموع المشركين نحو مركز قيادة رسول الله ﷺ، إذ عرفوا مكانه، وأصبح هدفهم القائد والتجمُّع الجديد. ودارت المعركة مرةً

أخرىٰ وبشكلٍ أشدّ عنفاً وأكثر ضراوةً، وكان الهدف الرئيسي رسول الله ﷺ، فتترّس المسلمون أمامه، وجعلوا حوله سوراً من الأبطال، وقاتلوا دونه، ومن هؤلاء الأبطال: سعد بن أبي وقاص الذي دافع بسهامه هو وأبو طلحة زيد بن سهل، وسهل بن حنيف، وطلحة بن عبيدالله، وأبو دُجانة سِماك بن خَرَشة الذي جعل ظهره هدفاً لسهام المشركين من أجل أن يحمي رسول الله ﷺ، وحاطب بن أبي بلتعة الذي انتقم من عتبة بن أبي وقاص عندما ضرب رسول الله ﷺ فكسر رباعيته، فقتل حاطب عتبة، وأبو عبيدة بن الجراح، وأبو بكر الصديق، وعبدالرحمٰن بن عوف، وعمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وسعد بن معاذ، وسعد بن عبادة، وقتادة بن النعمان، ونسيبة بنت كعب وغيرهم.

وقد حمل علىٰ رسول الله ﷺ أحد فرسان المشركين وهو ابن قميئة الذي قتل مصعب بن عمير، وقد ضربه بسيفه ضربةً قويةً ذهبت في درع رسول الله ﷺ وآذته، وضربه ضربةً أخرىٰ فدخلت حلقتان من حلقات مغفر رسول الله ﷺ في وجهه، فجُرح من أثرها في وجنته الشريفة، وأخذ الدم الشريف يسيل.

وشجّ عبدالله بن شهاب الزهري وجه رسول الله ﷺ.

وضرب عتبة بن أبي وقّاص رسول الله ﷺ بحجرٍ فكُسرت رباعيته السفلىٰ، وانشقّت شفته، ووقع في حفرةٍ فجُرحت ركبتاه، وأُغمي عليه، فأخذ بيده علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ورفعه طلحة بن عبيدالله رضي الله عنه.

وعندما سال الدم علىٰ وجه رسول الله ﷺ أخذ يمسحه، ويقول: «كيف يُفلح قوم خضبوا وجه نبيّهم، وهو يدعوهم إلىٰ ربهم». فأنزل الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [آل عمران].

لاحظ رسول الله ﷺ قِلّة جنده، فأراد أن يُنقذهم من خطر الإحاطة بهم، فلما اجتمع جمعهم حوله انسحب بهم عِبر الشِّعب إلىٰ الجبل الذي ما اختاره رسول الله ﷺ مكاناً للمعركة إلا ليستفيد منه في مثل هذه الساعة،

وكان الانسحاب مُنظّماً بحيث تنسحب جماعة، جماعة تحت حماية مجموعةٍ مقاتلةٍ.

وهجم أحد المشركين وهو أُبيٌّ بن خَلَف الجُمحي علىٰ رسول الله ﷺ، فوقف له النبيّ ﷺ، وقذفه بحربةٍ قبل أن يصل إليه فأرداه قتيلاً، وهو الرجل الوحيد الذي قتله رسول الله ﷺ بيده الكريمة.

وارتقىٰ المسلمون هضبةً عاليةً في جبل أُحُدٍ فتحصّنوا بها، وصدُّوا جميع المحاولات التي قام بها المشركون للقضاء علىٰ رسول الله ﷺ والمسلمين الذين معه، لأنهم كانوا في مكانٍ حصينٍ يستطيعون منه صدّ أيّ هجومٍ.

وصعد رسول الله ﷺ علىٰ صخرةٍ ليشرف منها علىٰ تحرُّك المشركين، ولكنه لم يستطع الارتقاء إلا بعد أن ارتقىٰ علىٰ ظهر طلحة بن عبيدالله رضي الله عنه، وذلك لما أصابه من إعياءٍ وتعبٍ. وطلب الماء، فأتاه علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ببعض الماء فغسل به وجهه لأنه لم يكن صافياً نظيفاً، ثم جاءه محمد بن مسلمة رضي الله عنه بماءٍ عذبٍ فشرب منه، وصلّىٰ قاعداً للسبب نفسه.

ثم قام المشركون بآخر هجومٍ لهم بقيادة أبي سفيان صخر بن حرب، وخالد بن الوليد، غير أن رماة المسلمين وخاصةً سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قد ردُّوهم علىٰ أعقابهم خاسرين، وقاد الدفاع عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ولما فشل هذا الهجوم القرشي يئس المشركون من أن ينالوا شيئاً من المسلمين إذ كان التعب قد أضناهم، والإعياء قد أنهكهم لما وجدوا من ضراوة قتال الصحابة وشدّة بأسهم عليهم، وبصورةٍ خاصةٍ في بدء المعركة عندما كانت الجولة للمسلمين. ولهذا قرّر أبو سفيان صخر بن حرب القائد العام لجيش قريش إنهاء القتال.

أمر أبو سفيان جنده بالتهيؤ للرحيل، ولما تمّ الاستعداد للمسير ارتقىٰ علىٰ تلّةٍ قريبةٍ من المسلمين، وقال: أنعمت فعالِ. ثم خاطب المسلمين قائلاً: الحرب سِجال، يوم بيومٍ، يوم علينا ويوم لنا، يوم نُساء ويوم نُسرّ، ثم قال: اعلُ هُبَل.

فأمر النبيّ ﷺ عمر بن الخطاب ﵁ قائلاً: «قُم يا عمر فأجبه». فقال: الله أعلىٰ وأجلّ، لا سواء، قتلانا في الجنّة وقتلاكم في النار.

فقال أبو سفيان: العُزّىٰ لنا ولا عُزّىٰ لكم.

فأجابه المسلمون حسب أوامر رسول الله ﷺ: الله مولانا ولا مولىٰ لكم.

ثم عاد أبو سفيان منادياً المسلمين بأعلىٰ صوته: أفيكم محمد؟ فلم يجيبوه. ثم نادىٰ: أفيكم ابن أبي قُحافة؟ فلم يجيبوا. ثم نادىٰ: أفيكم عمر بن الخطاب؟ فلم يجيبوا.

ولم يسأل إلا عن هؤلاء الثلاثة. ولما لم يُجبه أحد، التفت إلىٰ جيش قريش، وقال: أما هؤلاء فقد كُفيتموهم، أي قُتلوا. ولكن عمر بن الخطاب ﵁ لم يملك نفسه من أن لا يُجيب عندما سمع أبا سفيان وقوله لجنده، فأجابه: يا عدوّ الله، إن الذين ذكرتهم أحياء، وقد أبقىٰ الله لك ما يسوؤك.

فلما سمع أبو سفيان صوت عمر ﵁، طلب مقابلته، فقال: هلمّ يا عمر.

فأمر رسول الله ﷺ عمرَ ﵁ أن يستجيب ويُلبّي.

فلما التقيا، قال أبو سفيان: أُنشدك الله يا عمر، أقتلنا محمداً؟

قال عمر: اللهم لا، وإنه ليسمع كلامك الآن.

فقال أبو سفيان: أنت أصدق عندي من (ابن قميئة) وأبرّ.

ثم وقف أبو سفيان مرةً أخرىٰ علىٰ التلّة وخاطب المسلمين قائلاً: إنكم ستجدون في قتلاكم مثل، والله ما رضيت، وما سخطت، وما نهيت، وما أمرت.

ولما انصرفت قريش نادىٰ أبو سفيان: إن موعدكم بدر للعام القادم؛ فقال رسول الله ﷺ لرجلٍ من أصحابه: «قل لهم: هو بيننا وبينكم موعد».

وبعث رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقال له: أخرج في آثار القوم، فانظر ماذا يصنعون وماذا يريدون؟ فإن كانوا قد جنّبوا الخيل، وامتطوا الإبل فإنهم يريدون مكة، وإن ركبوا الخيل، وساقوا الإبل فإنهم يريدون المدينة، والذي نفسي بيده لئن أرادوها لأسيرنّ إليهم فيها، ثم لأُناجزنّهم. ولما خرج عليّ رضي الله عنه في أثرهم وجد أنهم قد جنّبوا الخيل، وامتطوا الإبل، واتجهوا نحو مكة.

وبعد أن انصرفت قريش التفت المسلمون يبحثون عن قتلاهم وجرحاهم، فقال رسول الله ﷺ: «مَن رجل ينظر لي ما فعل سعد بن الربيع؟» فقال محمد بن مسلمة: أنا أنظر لك يا رسول الله ما فعل سعد، فنظر فوجده جريحاً بين القتلىٰ، وبه رمق. قال: فقلت له: إن رسول الله ﷺ أمرني أن أنظر، أفي الأحياء أنت أم في الأموات؟ قال: أنا في الأموات، فأبلِغ رسول الله ﷺ عني السلام، وقل له: إن سعد بن الربيع يقول لك: جزاك الله عنا خير ما جزىٰ نبياً عن أُمته، وأبلِغ قومَك عني السلام، وقل لهم: إن سعد بن الربيع يقول لكم: إنه لا عذر لكم عند الله، إن خلِص إلىٰ نبيّكم ﷺ وفيكم عينٌ تطرف. ولم يلبث أن فارق سعد الحياة، ولم يغادره بعدُ محمد بن مسلمة.

وقد بلغ عدد خسائر المسلمين في معركة أُحُدٍ ما يقرب من سبعين شهيداً، أي عشر عدد المقاتلين، منهم أربعة فقط من المهاجرين وهم:

١ ـ الحمزة بن عبد المطلب. ٢ ـ عبدالله بن جحش. ٣ ـ مصعب بن عمير. ٤ ـ شماس بن عثمان المخزومي.

أما عدد شهداء الأنصار فكان خمسةً وستين شهيداً، منهم أربعة وعشرون من الأوس، وواحد وأربعون من الخزرج، وهم:

١ ـ عمرو بن معاذ، أخو سعد بن معاذ سيد الأوس. ٢ ـ الحارث بن أنس بن رافع. ٣ ـ عُمارة بن زياد بن السكن. ٤ ـ سلمة بن ثابت بن وَقْش. ٥ ـ عمرو بن ثابت بن وقش. ٦ ـ رفاعة بن وقش. ٧ ـ حُسيل بن جابر. ٨ ـ أبو حذيفة بن اليمان. ٩ ـ صيفي بن قيظي. ١٠ ـ حَباب بن

قيظي. ١١ ـ عباد بن سهل. ١٢ ـ الحارث بن أوس بن معاذ. ١٣ ـ إياس بن أوس. ١٤ ـ عبيد بن التيهان. ١٥ ـ حبيب بن يزيد بن تيم. ١٦ ـ يزيد بن خاطب بن أمية. ١٧ ـ أبو سفيان بن الحارث. ١٨ ـ حنظلة بن أبي عامر (غسيل الملائكة)، قتله شدّاد بن الأسود. ١٩ ـ أُنيس بن قتادة. ٢٠ ـ عبدالله بن جبير، أمير الرماة. ٢١ ـ عبدالله بن سلمة. ٢٢ ـ عمرو بن قيس. ٢٣ ـ قيس بن عمرو. ٢٤ ـ ثابت بن عمرو بن زيد. ٢٥ ـ أبو هُبيرة بن الحارث. ٢٦ ـ عمرو بن مُطرِّف. ٢٧ ـ أوس بن ثابت بن المنذر. ٢٨ ـ أنس بن النضر، عمّ أنس بن مالك. ٢٩ ـ سُليم بن الحارث. ٣٠ ـ نعمان بن عبد عمرو. ٣١ ـ خارجة بن زيد. ٣٢ ـ سعد بن الربيع. ٣٣ ـ أوس بن الأرقم. ٣٤ ـ مالك بن سنان، والد أبي سعيد الخدري. ٣٥ ـ سعيد بن سويد. ٣٦ ـ عتبة بن ربيع. ٣٧ ـ ثعلبة بن سعد. ٣٨ ـ ثَقَفْ بن فَرْوة. ٣٩ ـ عبدالله بن عمرو بن وهب. ٤٠ ـ ضمرة الجهني. ٤١ ـ نوفل بن عبدالله. ٤٢ ـ عباس بن عبادة. ٤٣ ـ نعمان بن مالك. ٤٤ ـ المُجذَّر بن زياد البلوي. ٤٥ ـ عبادة بن الحَسْحاس. ٤٦ ـ رفاعة بن عمرو. ٤٧ ـ عبدالله بن عمرو بن حرام. ٤٨ ـ عمرو بن الجموح. ٤٩ ـ خلاّد بن عمرو بن الجموح. ٥٠ ـ أبو أيمن، مولىٰ عمرو بن الجموح. ٥١ ـ سُليم بن عمرو بن حديدة. ٥٢ ـ عنترة مولىٰ سليم بن عمرو. ٥٣ ـ سهل بن قيس. ٥٤ ـ ذكوان بن عبد قيس. ٥٥ ـ عبيد بن المُعَلىٰ. ٥٦ ـ مالك بن نُميلة. ٥٧ ـ الحارث بن عدي. ٥٨ ـ مالك بن إياس. ٥٩ ـ إياس بن عدي. ٦٠ ـ عمرو بن إياس.

وخمسة آخرون.

وحنظلة بن أبي عامر هو ابن أبي عامر الفاسق الذي كان مع قريش. وقد كان حنظلة رضي الله عنه عروساً يوم الاستعداد للخروج إلىٰ أُحُدٍ، فلما سمع صيحة الجهاد ترك عروسه، وحمل سلاحه، وخرج بسرعةٍ، والتحق برسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يغتسل من الجنابة، فلما استشهد، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن صاحبكم لتغسله الملائكة، فاسألوا أهله ما شأنه؟» فقالت زوجته (جميلة بنت أُبيّ بن سلول): خرج وهو جُنُب حين سمع الهاتفة، لذا عُرف باسم

(غسيل الملائكة). وقد التقىٰ حنظلة ﷺ في ساحة المعركة أثناء احتدامها بأبي سفيان صخر بن حرب قائد المشركين، فعقر حنظلة ﷺ فرس أبي سفيان، فوقع أبو سفيان علىٰ الأرض، فعلاه حنظلة، وبرك علىٰ صدره، وأراد أن يذبحه، فلاحظ أحد مرافقي أبي سفيان هذا المنظر، وهو شدّاد بن الأسود، المعروف بـ(ابن الشعوب)، فأسرع لإنقاذ قائده، وضرب حنظلة بالسيف فقتله وهو فوق أبي سفيان.

أما عدد الجرحىٰ فكان يزيد علىٰ المائة والخمسين جريحاً. ولم يقع أسرىٰ من المسلمين بيد المشركين.

قتلىٰ المشركين:

كان عدد قتلىٰ المشركين اثنين وعشرين قتيلاً:

١ ـ طلحة بن أبي طلحة، قتله علي بن أبي طالب ﷺ. ٢ ـ أبو سعيد بن أبي طلحة، قتله سعد بن أبي وقاص ﷺ. ٣ ـ عثمان بن أبي طلحة، قتله الحمزة بن عبد المطلب ﷺ. ٤ ـ مسافع بن طلحة، قتله عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح ﷺ. ٥ ـ الجُلاس بن طلحة، قتله عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح ﷺ. ٦ ـ كلاب بن طلحة، قتله قُزمان حليف بني ظفر. ٧ ـ الحارث بن طلحة، قتله قُزمان حليف بني ظفر. ٨ ـ أرطأة بن عبد شُرَحْبيل، قتله الحمزة بن عبد المطلب ﷺ. ٩ ـ أبو يزيد بن عمير بن هاشم، قتله قزمان. ١٠ ـ صُؤَاب (مولىٰ أبي يزيد)، قتله قزمان. ١١ ـ القاسط بن شُريح بن هاشم، قتله قزمان. ١٢ ـ عبدالله بن حميد، قتله علي بن أبي طالب ﷺ. ١٣ ـ أبو الحكم بن الأخنس الثقفي، قتله علي بن أبي طالب ﷺ. ١٤ ـ سباع بن عبد العُزّىٰ، قتله الحمزة بن عبد المطلب ﷺ. ١٥ ـ هشام بن أبي أمية، قتله قزمان. ١٦ ـ الوليد بن العاص، قتله قزمان. ١٧ ـ أبو أمية بن أبي حذيفة، قتله علي بن أبي طالب ﷺ. ١٨ ـ خالد بن الأعلم، قتله قزمان. ١٩ ـ عمرو بن عبدالله الجُمحي، قتله رسول الله ﷺ صبْراً. ٢٠ ـ أُبيّ بن خلف، قتله رسول الله ﷺ بيده. ٢١ ـ عبيدة بن جابر، قتله قزمان. ٢٢ ـ شيبة بن مالك، قتله قزمان.

أمر رسول الله ﷺ بدفن الشهداء بدمائهم، في ثياب المعركة، لم يُغسَّلوا، ولم يُصلَّ عليهم، وقد دُفن أكثر من شهيدٍ في قبرٍ واحدٍ، فقد دُفن الحمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه، وابن أخته عبدالله بن جحشٍ في قبرٍ واحدٍ. ودُفن عبدالله بن عمرو بن حرام وعمرو بن الجموح في قبرٍ واحد، ودُفن سعد بن الربيع وخارجة بن زيد في قبرٍ واحدٍ.

وبلغ رسول الله ﷺ أن بعض الناس قد نقلوا شهداءهم إلىٰ المدينة، فأمر بأن يُعادوا إلىٰ مضاجعهم في مكان المعركة.

وكان بين صفوف المسلمين رجلان قاتلا معهم من غير إيمانٍ، أحدهما يُدعىٰ (قُزمان)، وهو من أعراب المدينة، قاتل دفاعاً عن أرض المدينة كي لا تطأها قريش، وكان شجاعاً مقداماً، قتل أحد عشر بطلاً من أبطال المشركين، وكانت نتيجته أن انتحر بعد أن اشتدّ ألمه من كثرة الجراح، وكان من أهل النار، كما حدّث رسول الله ﷺ، عندما سأله أحد المسلمين، فقال: يا رسول الله، أيّهم في سبيل الله، الرجل يُقاتل رياءً، أم يُقاتل حميةً، أم يُقاتل شجاعة؟ فقال رسول الله ﷺ: «مَن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله».

وكذلك قاتل بجانب المسلمين أحد اليهود، واسمه (مُخَيريق)، قاتل علىٰ ما قاتل عليه (قُزمان)، وكره أن تصل قريش إلىٰ المدينة، ورأىٰ أن يُدافع عن مدينته، وأن يشترك مع المسلمين في هذا الدفاع، تنفيذاً للموادعة التي بين المسلمين ويهود المدينة، ولم يُوافق يهود علىٰ اعتذارهم، بأن ذلك اليوم كان يوم السبت، وهو يوم عيدهم، ثم حمل سلاحه، وقاتل يوم أُحُدٍ مع المسلمين، وقُتل، ولكنه من أهل النار، فالدفاع عن الأرض وعن الجنس لا يُغني شيئاً.

وخرج مع المسلمين يوم أُحُدٍ رجل من الأوس يُدعىٰ (الأُصَيرم) يقاتل في سبيل الله، وعلىٰ عقيدة الإسلام، ولم يكن قبلها مسلماً، بل يكره ذلك، ويعيب علىٰ قومه اتباع محمدٍ ﷺ، وأُصيب يوم أُحُدٍ، ومات، وكان في عداد الشهداء علىٰ حين أنه لم يُصلِّ، ولم يصُم.

ولما انتهىٰ المسلمون من دفن موتاهم تحرّكوا نحو المدينة، وخرج من فيها لاستقبالهم والسؤال عنهم، وكان من بين من خرج امرأة من بني دينار تسأل عن رسول الله ﷺ، وعن أهلها، فنُعي إليها أبوها، وأخوها، وابنها، وزوجها فلم تكترث، وسألت عن رسول الله ﷺ، فقيل لها: بخير، فقالت: أرُونيه، فلما رأته، قالت: كل مصيبة بعدك جَلَل.

والتقىٰ رسول الله ﷺ في طريقه بـ(حمنة بنت جحش)، فقال لها: «احتسبي»، فقالت: مَن يا رسول الله؟ فقال: «خالك حمزة». قالت: إنا للّه وإنا إليه راجعون، غفر الله له، هنيئاً له بالشهادة. فقال لها: «احتسبي». فقالت: مَن يا رسول الله؟ قال: «أخاك عبدالله بن جحش». قالت: إنا للّه وإنا إليه راجعون، غفر الله له، هنيئاً له بالشهادة. فقال لها: «احتسبي». فقالت: مَن يا رسول الله؟ فقال لها: «زوجك مُصعب بن عمير». فقالت: واحزناه... وصاحت ووَلْولت. قال لها: «لِمَ قُلْتِ هذا؟». قالت: تذكّرت يُتم بنيه. فراعني. فدعا لها رسول الله ﷺ.

ثم جاءت إلىٰ رسول الله ﷺ أم سعد بن معاذ سيد الأوس من الأنصار، وكانت تركب فرس ابنها وهو آخذ بلجامها، فقال سعد: أي يا رسول الله، فقال: «مرحباً بها»، فلما اقتربت منه عزّاها بابنها عمرو بن معاذ، فقالت: أما إذ رأيتك سالماً فقد هانت مصيبتي، فدعا لها رسول الله ﷺ، وقال لها: «أبشري، وبشّري أهلهم أن قتلاهم ترافقهم في الجنة جميعاً، وقد شفعوا في أهلهم جميعاً» بعد أن دعا لأهلهم.

وكانت من عادة العرب أن تنوح النساء علىٰ القتلىٰ، وقد ارتجّت المدينة بأصوات الباكيات النائحات، ومرّ رسول الله ﷺ علىٰ دور بني عبد الأشهل، فسمع نواح النساء، فقال: «ولكن حمزة لا بواكي له...» فأمر سعد بن معاذ أن يبكين علىٰ حمزة رضي الله عنه، ففعلن، فقال لهن رسول الله ﷺ: «ارجعن يرحمكن الله فقد آسيتنّ بأنفسكن»، ثم نهىٰ رسول الله ﷺ، عن النياحة بعدئذٍ أبداً.

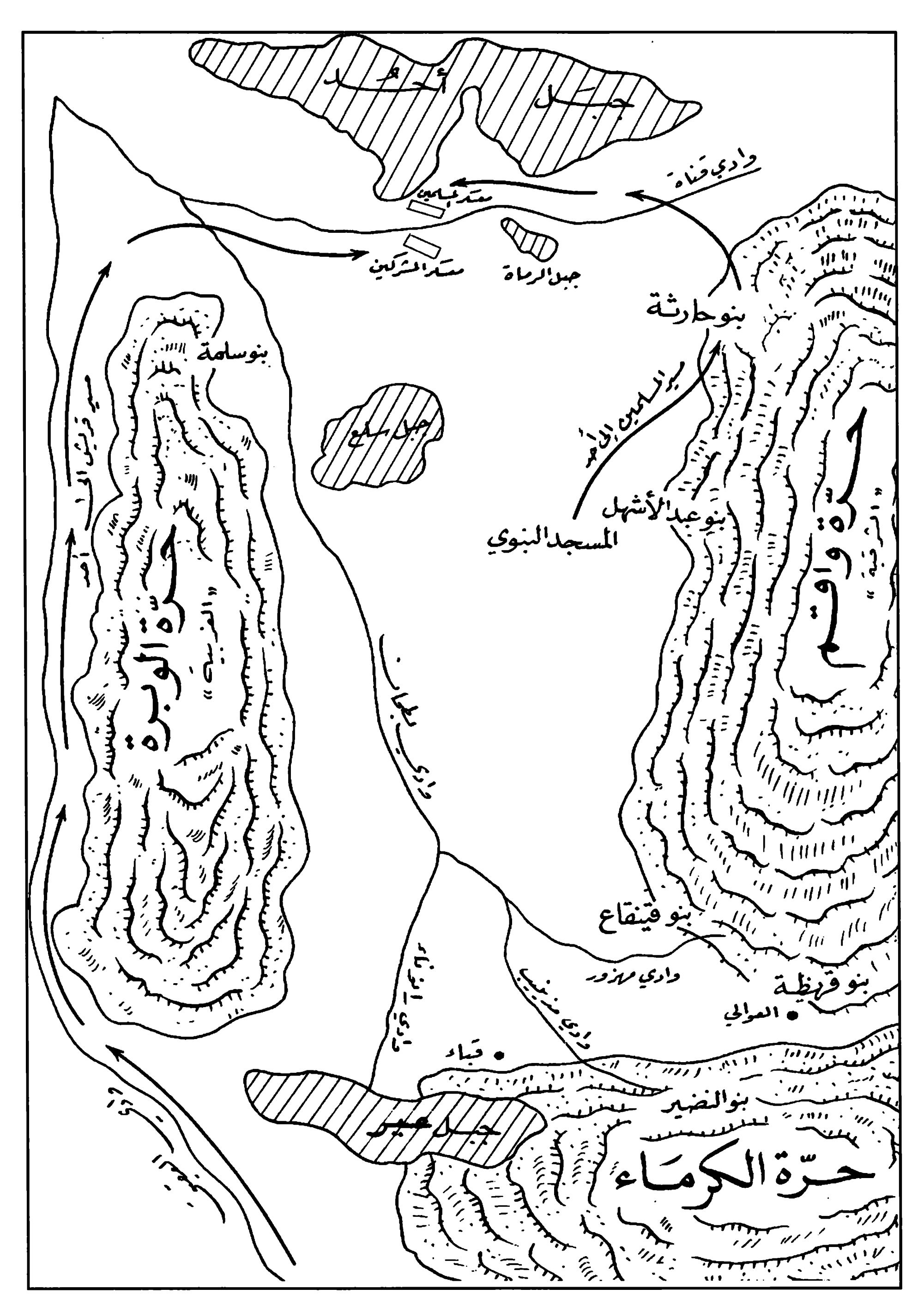
لقد كانت معركة أُحُدٍ نصراً إسمياً لقريش إذ استطاعت أن تقتل تسعةً

وستين رجلاً من المسلمين، وأن تحصر جماعةً منهم، وأن تعمل فيهم السيف، كما أنها حاصرت المسلمين في مكان من الجبل، إلا أن هذا كله لا يُعدّ نصراً في الاعتبارات العسكرية، إذ لا تُعدّ الانتصارات بعدد الضحايا من الخصم، وإنما بالنتائج، فلو أن جيشاً استطاع أن يهزم عدوّه في معركة، ويتقدّم حتىٰ يحصره في قلعةٍ يتحصّن فيها، ثم لا يستطيع أن يقتحمها عليه، ولا يبقىٰ محاصراً، وإنما يضطر إلىٰ مغادرة ميدان المعركة بسرعةٍ، دون أن يُحقّق شيئاً، هل نعدّ هذا نصراً واضحاً أم هزيمةً بيّنةً؟ إن قريشاً استطاعت أن تحصر المسلمين في الجبل، ولكنها لم تتمكن من الاستمرار في الحصار، وإن عدّت هذا لها نصراً، وقال قائدها: الحرب سجال يوم بيوم، ثم انسحب مسرعاً، لم ينسحب ليدخل عاصمة عدوّه المكشوفة الخالية من أيّ مقاتلٍ، ولكنه انسحب فراراً إذ قطع في اليوم الأول أكثر من ستين كيلومتراً ليبتعد عن المكان الذي يتبع المسلمين خائفاً منهم، فقد لقي منهم في المعركة شِدّةً لم يعهدها من غيرهم، وكان بينه وبين الموت لحظةً إذ عقر حنظلة بن أبي عامر فرسه، وألقاه علىٰ الأرض، وبرك فوقه يريد ذبحه، حتىٰ أيقن أبو سفيان بالهلاك، ولكن مشيئة الله فوق كل مشيئةٍ إذ ضُرب حنظلة بالسيف فمات ونجا أبو سفيان. وكذلك عدّ المنافقون، واليهود، والأعراب الذين حول المدينة معركة أُحُدٍ كانت نصراً اسمياً لقريش شماتةً وحقداً. أما المسلمون فقد عدُّوها نصراً لهم أيضاً، إذ انتصروا في بداية المعركة، وأعملوا السيف في خصومهم. كما فعل أعداؤهم في نهاية المعركة. وصمدوا لقريش صموداً قوياً حتىٰ أنها لم تستطع أن تُزيلهم عن مواقعهم التي تحصّنوا فيها، ولا أن تتقدّم إليهم، ثم فرّت قريش من الميدان فراراً، لا انسحاباً تسير فيه ببطءٍ تتبختر بنصرها، وتفتخر بالظفر الذي حصلت عليه. وهذا يدلّ علىٰ المعنويات الضعيفة، بل المنهارة التي كانت عند جنود قريشٍ لا علىٰ التعب المزعوم، فلو كان التعب لفكّر قادة قريشٍ في أن يأخذوا راحةً قريباً من الميدان الذي خرجوا فيه من المعركة ما دامت لا تُبالي بخصم، ولا تهتمّ بعدوٍّ، ولا تفكّر بجيش المدينة، بل لم يخطر علىٰ بال قادة قريشٍ آنذاك بالتوجُّه نحو المدينة علىٰ حين فكّر المسلمون

بذلك وحسبوا لذلك حساباً، وكما توقّعه اليهود والمنافقون. وإنما كانت قريش تفكّر بالفرار مباشرةً والبُعد عن أعدائها، ولكن بعد أن قطعت مسافةً، وأخذ أفرادها قسطاً من الراحة، وتنفّسوا الهواء بطلاقة خطر على بالهم: أن لو دخلوا المدينة قاعدة المسلمين، وفعلوا فيها ما فعلوا أو ما شاء لهم هواهم أن يفعلوا. ولاحظ المسلمون أن مدينتهم بقيت كما هي لم تُمسّ بأذًى، فبقيت معنوياتهم مرتفعةً عاليةً، لم يستطع العدوّ أن يحطمها كما كان يتراءىٰ له، وعندهم من القوة في نهاية المعركة ما يُمكّنهم من منازلة العدوّ مرةً ثانيةً، أو البدء بالمعركة من جديدٍ، وهذا ما سنُلاحظه إذ عدُّوا أنفسهم قد انتصروا، فلم يُبالوا باليهود، فأجلوا عن المدينة قبيلةً أخرىٰ من يهود غير مبالين بهم ولا بحلفائهم، كما رجعوا إلىٰ المدينة المنوّرة من غير اهتمام بالمنافقين الذين انخذلوا عنهم أثناء سيرهم إلىٰ أُحُدٍ، ولا بالأعراب الذين حول المدينة والذين كانوا من وراء المنافقين أيضاً، بل عادوا ليهدّدوهم، وليتلوا عليهم القرآن الذي يتوعّدهم والكفار من أهل الكتاب والمشركين من قريش وغيرهم من الأعراب بنار جهنم، والعذاب في الدنيا والآخرة. وعادوا إلىٰ المدينة ليُلاحقوا قريشاً وليُنازلوها من جديدٍ. ومع هذا فقد عُدّت معركة أُحُدٍ هزيمةً لسببين:

١ ـ لكثرة عدد الضحايا التي فُقدت في المعركة، وبينهم عدد من صناديد القتال أمثال: الحمزة بن عبد المطلب، وعبدالله بن جحش، وسعد بن الربيع، وأنس بن النضر و. . . كما فُقد حامل اللواء مصعب بن عمير مُقرئ المدينة، وحامل لواء الدعوة فيها قبل أن يُهاجر رسول الله ﷺ إليها.

٢ ـ لما أُصيب به رسول الله ﷺ من جروحٍ، وكسورٍ، وتعبٍ، وإنهاكٍ، وكان هذا سيِّئ عليهم في الدنيا، وهذا ما أغَمّهم، وأهمّهم، وأبقىٰ أثراً كبيراً في نفوسهم، وكلما تذكّروا ذلك شعروا أن المعركة لم تكن في صالحهم، وشعروا بالضيق، فلهذا لم يعدُّوا غزوة أُحُدٍ لصالح المسلمين.



جبل أحد
وادي قناة
جبل الرماة
معسكر المشركين
بنو حارثة
بنو سلمة
جبل سلع
بنو عبد الأشهل
المسجد النبوي
حرة واقم
حرة الوبرة
بنو قينقاع
وادي مهزور
بنو قريظة
العوالي
قباء
بنو النضير
جبل عير
حرة الكرماء

مصور رقم (٩)

ويجب ألا ننسىٰ أبداً، أن المسلمين لم يُبالوا بعدد جيش قريش الكبير بالنسبة لعددهم، ولا بانسحاب المنافقين وانخذالهم عنهم، وبقائهم قلّة، ولا باليهود الذين في داخل المدينة مع أن قوات المسلمين خارجها، وكذلك لم يُبالوا بعدد جيش قريشٍ وكثرته عندما لاحقوهم إلىٰ حمراء الأسد مع أن عدد المسلمين قد قلّ بما فقدوا، ولم يقبل رسول الله ﷺ أن يخرج في هذه الملاحقة إلا مَن كان في معركة أُحُدٍ. كل هذا من ملاحقة قريشٍ، وإجلاء يهود بني النضير، والتصدّي للمنافقين لا يدلّ علىٰ فعل المنهزم الذليل، وإنما يدلّ علىٰ عمل المنتصر المعتزّ بعقيدته والذي يشعر أنه هو الأعلىٰ ما دام متمسّكاً بإيمانه ملتزماً بمبادئه.

غزوة حمراء الأسد:

أراد رسول الله ﷺ أن يردّ علىٰ اليهود، والمنافقين، والأعراب ردًّا عملياً يُبيّن لهم أن المسلمين يتمتعون بروحٍ معنويةٍ عاليةٍ، وأن بإمكانهم المحافظة علىٰ كيانهم، والحماية للمدينة المنورة، والردّ علىٰ كل مَن تُحدّثه نفسه بإلحاق أذًى بالمسلمين، وأن يكون هذا الردّ هو الخروج بالمسلمين ومطاردة قريشٍ.

عاد المسلمون من جبل أُحُدٍ مساء يوم السبت الخامس عشر من شهر شوال في السنة الثالثة للهجرة، وما أن أصبح الصباح وخرج الناس من صلاة الفجر إلا وأذّن مُؤذّن رسول الله بالتهيؤ علىٰ جناح السرعة لمطاردة العدوّ، وألا يخرج مع الناس إلا من شهد أُحُداً، فاستجاب الناس لنداء رسول الله ﷺ، مع ما بهم من جراحاتٍ وتعبٍ، وكان في مُقدّمتهم رسول الله ﷺ، ولم يسمح لعبدالله بن أُبيّ بن سلول كبير المنافقين بالخروج معه لانخذاله ومَن معه من جماعته المنافقين عند المسير إلىٰ غزوة أُحُدٍ، كما لم يسمح لمن لم يشهد معركة أُحُدٍ إلا جابر بن عبدالله بن عمرو بن حرام الذي استشهد أبوه يوم أُحُدٍ، وكان الذي منعه من المشاركة في غزوتَي بدرٍ وأُحُدٍ البقاء عند أخواته البنات السبع برأي رسول الله ﷺ.

انطلق المسلمون بسرعةٍ، وفي مُقدّمتهم رسول الله ﷺ، ويحمل علي بن أبي طالب رضي الله عنه اللواء وهو لواء أُحُدٍ نفسه. واستعمل رسول الله ﷺ علىٰ المدينة عبدالله بن أم مكتوم. ووصل المسلمون بقيادة رسولهم الكريم إلىٰ (حمراء الأسد) التي تقع جنوب غربي المدينة وعلىٰ بُعد ثلاثة عشر كيلومتراً منها، وقبل بلدة (بدر) بخمسة كيلومترات، حيث حطّوا الرحال فيها. وقد أدهشت هذه الحركة اليهود والمنافقين لما فيها من جرأةٍ وشجاعةٍ، وعلموا حقيقةً أن المسلمين لم يهزموا في معركة أُحُدٍ، وأن الروح المعنوية عندهم عالية، وأنهم لو كانوا قد هُزموا لما عملوا علىٰ مطاردة قريشٍ وأن حالتهم لو كانت ضعيفة لما تحرّكوا بهذه السرعة، ولما كان تجاوبهم بهذه الحالة، ولو كان عندهم شيء من الخوف لما غادروا المدينة بهذه الصورة.

وفي الوقت نفسه كانت قريش قد حطّت الرحال في منطقة (الروحاء) التي تبعُد عن المدينة ثمانية وأربعين كيلومتراً، في مكان غير بعيدٍ عن (حمراء الأسد) التي نزل بها المسلمون، وفي الروحاء وبعد أن أخذ جند قريشٍ قسطاً من الراحة بدؤوا يتساءلون، إذا كانت هزيمة المسلمين في (أُحُدٍ) كبيرة كما يتبجّح قادة قريش، فلماذا لم نتوجّه إلىٰ المدينة ونقضي علىٰ مَن فيها، ونأخذ منها السبايا؟ وما دُمْنا قد حصلنا علىٰ النصر الكبير الأكيد فلماذا لا نرجع إلىٰ المدينة ونقضي علىٰ الجيش المدني الذي وصل إليها مُثقلاً بالجراح، مُنهكاً بالتعب فنقضي عليه نهائياً؟ لكن القادة يعرفون تمام المعرفة أن نصرهم كان اسمياً، وأن الخوف يملأ قلوبهم، وخاصةً أبا سفيان القائد العام، وصفوان بن أمية قائد المشاة.

وبدأت المناقشة حول العودة، وبينما هم كذلك إذ فاجأتهم الأخبار بأن المسلمين بقيادة النبيّ الكريم يطاردونهم، وقد نزلوا حمراء الأسد، فأخذ الخوف من قريشٍ كل مأخذٍ، إذ اعتقد جيشهم أن محمداً ﷺ قد جاء بمددٍ من المدينة، وعمل علىٰ مطاردتهم، وزاد الأمر عندهم يقيناً عندما جاء معبد الخزاعي، وقال لهم: إن محمداً مُصِرّ علىٰ منازلتهم، وأن معه قوة لم يُرَ مثلها من قبل، وأنه من الأفضل لقريش أن تتابع الانسحاب إلىٰ مكة.

خاف أبو سفيان صخر بن حرب أن تذهب سمعة النصر المزيّف الذي حقّقه، وذلك عندما تسمع القبائل أن المسلمين قد طاردوه لمنازلته لكنه خشي لقاءهم، ففرّ من وجههم، ورغب ألا يلحقه المسلمون فيظهر للملأ أنهم علىٰ خوفٍ من جيش أبي سفيان بسبب هزيمتهم، وينسحبوا إلىٰ المدينة بالتهديد، ويبقىٰ هو في مكانه، وعندها تزداد قوة النصر المزيّف.

ووجد أبو سفيان الفرصة مناسبةً له، إذ رأىٰ جماعةً من بني عبد القيس يتجهون إلىٰ المدينة فحمّلهم رسالةً إلىٰ محمدٍ ﷺ، مفادها أن قريشاً قد وافقت علىٰ النزال بل أصرّت عليه، وأنها سائرة إلىٰ (حمراء الأسد) حيث يُعسكر المسلمون. وعندما وصل الخبر إلىٰ رسول الله ﷺ، رغب في هذا اللقاء، ومكث ينتظر قدوم قريش، ويوقد النار طيلة الليل تأكيداً علىٰ بقائه، ويُعلم عن موقعه، ومكث ثلاثة أيامٍ علىٰ هذه الحال، إلا أن قريشاً عندما لاحظت إصرار المسلمين علىٰ القتالٍ، وعدم خوفهم، علمت قوتهم وارتفاع معنوياتهم فخافت مغبّة الأمر، وخاصةً القادة منها، ففضّلوا الانسحاب وعدم اللقاء، وتابعوا المسير نحو مكة، وبعد أن سارت قريش آيبةً إلىٰ بلدها رجع رسول الله ﷺ، وقد حقّق ما خرج من أجله في إظهار قوة المسلمين وقدرتهم علىٰ القتال، علىٰ الرغم مما يشيعه اليهود والمنافقون عن هزيمة المسلمين في أُحُدٍ، وأنهم قد غدوا جماعةً ضعيفةً لا تستطيع حماية نفسها، والمحافظة علىٰ كيانها.

وقيل كثير من الشعر في غزوة أُحُدٍ، فخراً، وردًّا، ورثاءً، ومنها ما قاله عبدالرحمٰن بن رواحة ؓ، في رثاء الحمزة بن عبد المطلب ؓ. ونسبت أيضاً لكعب بن مالك ؓ، والقصيدة هي:

بكتْ عيني وحُقّ لها بُكاها	وما يُغني البكاء ولا العويلُ
علىٰ أسد الإلـٰه غداةَ قالوا	أحمزةُ ذاكم الرجلُ القتيلُ
أُصيب المسلمون به جميعاً	هناك وقد أُصيب به الرسولُ
أبا يَعلىٰ لك الأركانُ هُدّتْ	وأنت الماجدُ البَرُّ الوصولُ
عليك سلامُ ربِّك في جِنانٍ	مُخالطها نعيمٌ لا يزولُ

ألا يـا هـاشـمَ الأخـيـار صـبـراً ... فـكـلُّ فِـعـالـكـم حَـسَـنٌ جـمـيـلُ
رسـول الله مُـصْـطَـبِـرٌ كـريـمٌ ... بـأمـر الله يـنـطـق إذ يـقـولُ
ألا مـن مُـبْـلِـغٌ عـنـي لُـؤَيًّـا ... فـبـعـد الـيـوم دائـلـةٌ[1] تـدولُ
وقـبـل الـيـوم مـا عـرفـوا وذاقـوا ... وقـائـعـنـا بـهـا يُـشـفىٰ الـغـلـيـلُ
نـسـيـتـم ضـربـنـا بـقَـلـيـب بـدرٍ ... غـداة أتـاكـمُ الـمـوتُ الـعـجـيـلُ
غـداةً ثـوىٰ أبـا جـهـلٍ صـريـعـاً ... عـلـيـه الـطـيـر حـائـمـة تـجـولُ
وعـتـبـة وابـنـه خـرّا جـمـيـعـاً ... وشـيـبـةُ عـضّـه الـسـيـفُ الـصـقـيـلُ
ومَـتـركُـنـا أمـيـة مُـجْـلَـعِـبًّـا[2] ... وفـي حَـيْـزُومِـهِ[3] لَـدْنٌ نـبـيـلُ[4]
وهـامَ بـنـي ربـيـعـةَ سـائـلـوهـا ... فـفـي أسـيـافـنـا مـنـهـا فـلـولُ
ألا يـا هـنـدُ فـابـكـي لا تَـمَـلّـي ... فـأنـت الـواله الـعـبرىٰ الـهـبـولُ[5]
ألا يـا هـنـدُ لا تُـبـدي شِـمـاتـاً ... بـحـمـزة إنّ عـزّكـم ذلـيـلُ

وقد رثىٰ كعب بن مالك شهداء أُحُدٍ عامةً فقال:

أبلغْ قريشاً وخيرُ القول أصدقُه ... والصدقُ عند ذوي الألباب مقبولُ
أن قد قتلنا بقتلانا سَراتكم ... أهلَ اللواء ففيمَ يكثر القيلُ
ويوم بدرٍ لقيناكم لنا مددٌ ... فيه مع النصر ميكالٌ وجبريلُ
إن تقتلونا فدينُ الحقِّ فِطرتُنا ... والقتلُ في الحقِّ عند الله تفضيلُ

وقال كعب بن مالك يبكي الحمزة، ويدعو صفية لتبكي أخاها الحمزة:

صـفـيّـة قُـومـي ولا تَـعْـجـزي ... وبَـكّـي الـنـسـاءَ عـلـىٰ حـمـزةِ
ولا تـسـأمـي أن تُـطـيـلـي الـبُـكـا ... عـلـىٰ أسـد الله فـي الـهِـزَّةِ

---

(١) دائلة: الحرب.
(٢) مُجْلَعبًّا: ممدداً علىٰ الأرض.
(٣) الحيزوم: أسفل الصدر.
(٤) اللدن النبيل: الرمح العظيم.
(٥) الهبول: الفاقدة.

فقد كان عِزًّا لأيتامنا ... ولَيْثَ الملاحم في البِزَّةِ[1]
يريد بذاك رضا أحمدٍ ... ورضِوانَ ذي العرش والعِزَّةِ

وقالت صفية بنت عبد المطلب ترثي أخاها الحمزة بن عبد المطلب:

أسائلة أصحاب أُحدٍ مخافةً ... بناتُ أبي من أعجمٍ وخبيرِ
فقال الخبير إنّ حمزة قد ثوىٰ ... وزيرُ رسول الله خيرُ وزيرِ
دعاه إلٰه الحق ذو العرش دعوةً ... إلىٰ جنّةٍ يحيا بها وسرورِ
فذلك ما كُنّا نُرجّي ونرتجي ... لحمزة يوم الحشر خير مصيرِ
فوالله لا أنساكِ ما هبّت الصبا ... بُكاءً وحُزناً مَحْضري ومسيري
علىٰ أسد الله الذي كان مِدْرَها ... يذود عن الإسلام كل كفورِ
فيا ليت شلْوي عند ذاك وأعظُمي ... لدىٰ أضبُعٍ تعتادني ونسورِ
أقول وقد أعلىٰ النعي عشيرتي ... جزىٰ الله خيراً من أخٍ ونصيرِ

يوم الرجيع:

ظنّ الأعراب كما ظنّ اليهود والمنافقون أن المسلمين لن تقوم لهم قائمة إلا بعد مدةٍ من الزمن، لذا طمعوا في المدينة، ولكن أنّىٰ لهم هذا، وقتال المسلمين يُرعبهم، ونِزالهم يقطع القلوب، لذا لجأ الأعراب إلىٰ الخِداع، والحيَل الرخيصة التي يلجأ إليها الجبان، والتي لا يُقدم عليها إلا الوضيع، وجاء رجال قبيلة عَضَل، ورجال قبيلة القارة إلىٰ رسول الله ﷺ، وقالوا: يا رسول الله، إن فينا إسلاماً، فابعث معنا نفراً من أصحابك يفقّهونا في الدين، ويقرئونا القرآن، ويعلمونا شرائع الإسلام. فبعث لهم رسول الله ﷺ ستةً من أصحابه، وهم:

١ ـ مَرثد بن أبي مرثد الغنوي، وهو أمير القوم. ٢ ـ خالد بن البُكير الليثي. ٣ ـ عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح. ٤ ـ خُبيب بن عدي. ٥ ـ زيد بن الدَّثِنة. ٦ ـ عبدالله بن طارق.

---

(١) البِزَّة: السلاح.

فخرجوا وساروا باتجاه مكة، حتىٰ إذا صاروا علىٰ ماء الرجيع بين عسفان ومكة، غدر بهم رجال القبائل، إذ بينما هم علىٰ الماء مطمئنون انسحب رجال القبائل من بينهم، واستصرخوا رجال من هذيل ليُساعدوهم عليهم، وبينما كان الرجال المسلمون علىٰ حالهم إذ بأكثر من مائتَي رامٍ يحيطون بهم، وقالوا لهم: والله ما نريد قتلكم، ولكنا نريد أن نُصيب بكمً شيئاً من أهل مكة، ولكم عهد الله وميثاقه أن لا نقتلكم.

أما مرثد، وعاصم، وخالد، فقد قالوا: لا نقبل من مشركٍ عهداً ولا عقداً أبداً، فقاتلوا القوم حتىٰ قتلوا، أما الثلاثة الباقون فقد سلّموا أيديهم لأعدائهم، فأسروهم، وساقوهم أمامهم.

وأرادت (هذيل) أن تأخذ رأس عاص لتبيعه إلىٰ (سُلافة بنت بن شهيد) التي نذرت حين قُتل ولداها (مسافع) و(الجُلاس) ابنا طلحة العبدري، وكانا قد حملا لواء المشركين يوم أُحُدٍ، فرماهما عاصم، فكان الواحد منهما يأتي أمه (سُلافة)، فيضع رأسه في حِجرها، فتقول: يا بني، مَن أصابك؟ فيقول: سمعت رجلاً حين رماني يقول: خذها ابن أبي الأقلح، فنذرتْ إن أمكنها الله من رأس عاصم، أن تشرب فيه الخمر، وكان عاصم قد عاهد الله ألا يمسّ مشركاً أبداً، ولا يمسّه مشرك. فحمته الدبر عندما أرادت هذيل أخذه، إذ اجتمعت عليه الدَّبر بكثرة، فقالوا: ننتظر حتىٰ يُمسي، فما جاء المساء حتىٰ جرىٰ السيل في الوادي، واحتمل رأس عاصم.

وسارت هُذيل ورجال القبائل بأسراها الثلاثة حتىٰ إذا كانوا بالظهران عند الحديبية نزع عبدالله بن طارق يديه من الحبل الذي يشدّهما، وأخذ سيفه فخافه القوم، وابتعدوا عنه، ورموه بالحجارة حتىٰ قتلوه، ثم واصلوا السير بالأسيرين إلىٰ مكة فباعوهما بأسيرين من هذيل كانا عند قريشٍ. وقد اشترىٰ صفوان بن أمية أحد الأسيرين وهو زيد بن الدثنة ليقتله بأبيهٍ أمية بن خلف الذي قُتل في معركة بدرٍ، وقد بعثه مع مولًى له يُقال له (نسطاس) إلىٰ التنعيم ليقتله هناك، والتنعيم في الحِلّ خارج الحرم، وخرج عدد من رجال قريشٍ ليحضروا هذا القتل، ومن بينهم أبو سفيان صخر بن حرب، فقال أبو سفيان لـ(زيد بن الدثنة) حين قُدِّم ليُقتل: أُنشدك الله يا زيد، أتحب أن

محمداً عندنا الآن مكانك تُضرب عنقه، وأنت في أهلك؟ قال زيد: والله ما أحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تُصيبه شوكة تُؤذيه، وأنا جالس في أهلي. فقال أبو سفيان: ما رأيت من الناس أحداً يُحبّ أحداً كحب أصحاب محمد محمداً، ثم قُتل زيد بن الدثنة ﷺ.

وأما خُبيب بن عدي فقد ابتاعه رجل يُقال له (حُجير) ليقتله بأحد أقربائه، فوضعه عند مولاة له تُدعىٰ (ماويّة)، فحدّثت بعد أن أسلمت، فقالت: كان خُبيب عندي، حُبس في بيتي، فلقد اطلعت عليه يوماً فإذا في يده قطف من عنب، مثل رأس الرجل يأكل منه، وما أعلم في أرض الله عنباً يؤكل، وكذلك حدّثت فقالت: قال لي حين حضره القتل: ابعثي لي بحديدةٍ أتطهّر بها للقتل، قالت: فأعطيت ابني الموسىٰ، فقلت: ادخل بها علىٰ هذا الرجل البيت، قالت: فوالله ما هو إلا أن ولّىٰ الغلام بها إليه، فقلت: ماذا صنعتُ؟ أصاب والله الرجل ثأره، بقتل هذا الغلام، فيكون رجلاً برجلٍ، فلما ناوله الحديدة أخذها من يده، ثم قال: لعمرك ما خافت أمك غدري حين بعثتك بهذه الحديدة إليّ، ثم خلّىٰ سبيله، ثم خرجوا بـ(خُبيب) إلىٰ التنعيم ليصلبوه، فقال لهم: إن رأيتم أن تدعوني حتىٰ أركع ركعتين فافعلوا، قالوا: دونك فاركع. فركع ركعتين أتمّهما وأحسنهما، ثم أقبل إلىٰ القوم، فقال: أما والله لولا أن تظنُّوا أني أطلت جزعاً من القتل، لاستكثرت من الصلاة. فكان خبيب أول مَن سنَّ هاتين الركعتين عند القتل، ثم رفعوه علىٰ الخشبة، فلما شدُّوا وثاقه، قال: اللهم إنا قد بلّغنا رسالة رسولك، فبلّغه الغداة ما يُصنع بنا؛ ثم قال: اللهم أحصهم عدداً، واقتلهم بدداً، ولا تغادر منهم أحداً. ثم قتلوه ﷺ. وكان معاوية بن أبي سفيان ﷺ يقول: حضرته يومئذٍ فيمن حضره مع أبي سفيان، فلقد رأيته يلقيني علىٰ الأرض، فرقاً من دعوة خُبيب.

بئر معونة:

وحدثت حادثة ثانية من الغدر تُشبه الأولىٰ، فقد أقبل علىٰ رسول الله ﷺ في المدينة، في شهر صفر من السنة الرابعة للهجرة، أي بعد أشهرٍ من غزوة أُحُدٍ أبو براء عامر بن مالك مُلاعب الأسِنّة، فعرض عليه رسول الله ﷺ

الإسلام، ودعاه إليه، فلم يُسْلِم، ولم يَبْعُد من الإسلام، إلا أنه قال: يا محمد، لو بعثت رجالاً من أصحابك إلىٰ أهل نجد، يدعونهم إلىٰ أمرك، رجوت أن يستجيبوا لك، فقال رسول الله ﷺ: «إني أخشىٰ عليهم أهل نجد».

قال أبو براء: فإني أنا جار لهم، فابعثهم، فليدعوا الناس إلىٰ أمرك.

فبعث رسول الله ﷺ أربعين رجلاً من أصحابه، وجعل عليهم المنذر بن عمرو الأنصاري، فساروا حتىٰ نزلوا (بئر معونة) إلىٰ الجنوب الشرقي من المدينة المنورة بين حرّة بني سُليم ومنازل بني عامر. فلما نزلوها أرسلوا حرام بن مِلحان بكتاب رسول الله ﷺ إلىٰ عامر بن الطفيل، فلما سلّمه الكتاب، قتله دون أن ينظر في الكتاب، ثم استصرخ عليهم بني عامر، فلم يُطيعوه، وقالوا: لن نخفر أبا براء في جواره؛ فاستصرخ عليهم قبائل بني سُليم من عُصَيّة، ورِعْل، وذكوان، فأجابوه إلىٰ ذلك، فخرجوا حتىٰ غشوا المسلمين، وأحاطوا بهم من كل جهةٍ، فاستلّ المسلمون سيوفهم وقاتلوا حتىٰ قتلوا جميعاً، لم ينجُ منهم أحد سوىٰ كعب بن زيد، سقط جريحاً بين الموتىٰ، ثم صحا بعد مدةٍ، وسار حتىٰ لحق بالمدينة، وشهد معركة الخندق، واستُشهد فيها، كما نجا رجلان منهم كانا يرعيان للقوم، هما: عمرو بن أمية الضمري، والمنذر بن محمد، ولم يعرفا مصرع القوم إلا من الطير، فاتجها نحو المكان، فإذا إخوانهم صرعىٰ، وأعداؤهم لا يزالون في أماكنهم، فقال المنذر لعمرو: ما ترىٰ؟ قال: أرىٰ أن نلحق برسول الله ﷺ فنخبره الخبر، فقال المنذر: لكني ما كنت لأرغب بنفسي عن موطن قُتل فيه المنذر بن عمرو، ثم قاتل حتىٰ قُتل، وأُخذ عمرو أسيراً، ثم أطلقه عامر بن الطفيل، فوجد أثناء عودته رجلين من بني عامر، فتركهما حتىٰ ناما، فعدا عليهما، وقتلهما، ولم يعلم أن معهما عقداً من رسول الله ﷺ، فلما وصل عمرو إلىٰ رسول الله ﷺ، وأخبره الخبر، دفع رسول الله ﷺ ديتهما.

إجلاء بني النضير:

ووقعت حادثة غدرٍ أخرىٰ، ولكنها من سكان المدينة من اليهود الذين يحقدون علىٰ الإسلام، وعلىٰ رسوله الكريم، وهؤلاء يعلمون قوة المسلمين

حق العلم لمجاورتهم إياهم، وكلما ظنُّوا أن أمرهم قد ضعف، وأنه قد آن لليهود أن تتحرّك، وجدوا أن القوة لدىٰ المسلمين كبيرة، وأنه ليس بإمكانهم فعل شيءٍ، وأن عليهم أن يعودوا إلىٰ جحورهم، يختبئون فيها، وأخيراً رأت فرقة منهم أن يغدروا برسول الله ﷺ.

خرج رسول الله ﷺ إلىٰ بني النَّضير في شهر ربيع الأول من السنة الرابعة للهجرة، يستعينهم في دفع دية الرجلين اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضمريّ، فوافق بنو النَّضير، وقالوا: نعم يا أبا القاسم، نُعينك علىٰ ما أحببت، مما استعنت بنا عليه.

وكان رسول الله ﷺ جالساً بجانب جدارٍ لهم. فقال بعضهم لبعضٍ: مَن يستطيع أن يعلوَ البيت، ويُلقي صخرةً علىٰ محمدٍ، فتعهد بذلك أحدهم وهو (عمرو بن جحّاش بن كعب)، فصعد إلىٰ السطح، وهمّ بذلك، ولكن رسول الله قد أُخبر بذلك من السماء، فترك مكانه من بين أصحابه الذين كانوا معه، متشاغلاً ببعض حاجته، ورجع إلىٰ المدينة، فلما تأخّر عن أصحابه، قاموا يسألون عنه، فالتقوا مع رجلٍ قادم من المدينة، فأخبرهم أن رسول الله ﷺ قد دخلها، فلحقوا به، حتىٰ انتهوا إليه، فأخبرهم بما كان من يهود ومحاولة الغدر به.

أمر رسول الله ﷺ الناس بالتهيؤ لحربهم، والسير إليهم. ولما استعدّ الناس سار إليهم، واستعمل عبدالله بن أم مكتوم علىٰ المدينة، حتىٰ إذا وصل إلىٰ منازلهم تحصّنوا بحصونهم. وكان عبدالله بن أُبيّ بن سلول، كبير المنافقين، قد وعدهم بالنصر، وأمرهم بالثبات، وقال لهم: إن قوتلتم لنُقاتلن معكم، ولئن أُخرجتم لنخرُجَنَّ معكم، ولا نطيع فيكم أحداً أبداً، وإنا لن نُسلّمكم أبداً ـ إذ كان بينهم حلف ـ.

وحاصرهم رسول الله ﷺ ست ليالٍ، وهم مُتحصِّنون في حصونهم ثم أمر رسول الله ﷺ بقطع النخيل وحرقه، فنادوه من وراء الحصون، قائلين: أنّىٰ هذا يا محمد؟ قد كنت تنهىٰ عن الفساد، وتُعيبه علىٰ مَن صنعه، فما بال قطع النخيل وتحريقه؟ واليهود أحرص الناس علىٰ الحياة وعلىٰ الأموال.

وقذف الله الرعب في نفوس المنافقين فلم يجرؤوا علىٰ نصرة اليهود، وألقاه في قلوب اليهود، فطلبوا من رسول الله ﷺ أن يُجليهم عن المدينة، ويكفّ عن دمائهم، علىٰ أن يكون لهم ما تحمله الإبل دون السلاح، فوافق رسول الله ﷺ، فمنهم من رحل إلىٰ خيبر، ومنهم من سافر إلىٰ الشام. ومن أشرافهم الذين رحلوا إلىٰ خيبر:

سلّام بن أبي الحُقَيق، كِنانة بن الربيع بن أبي الحُقَيق، حُيي بن أخطب.

فلما نزلوا بخيبر قدّمهم أهلها عليهم، ودانوا لهم.

وقسّم رسول الله ﷺ أموال يهود بني النضير علىٰ المهاجرين الأوّلين دون الأنصار الذين لم يُعطِ منهم سوىٰ أبي دُجانة (سِماك بن خَرَشَة)، وسهل بن حُنيف لفقرهما.

وأنزل الله سورة الحشر كاملةً في حق بني النضير. وهكذا لم يبقَ في المدينة سوىٰ يهود بني قريظة.

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَاۖ وَلَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ

أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ۖ ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾».

غزوة ذات الرقاع:

تأثّر رسول الله ﷺ مما حدث من الأعراب في (ماء الرجيع) و(بئر معونة)، وما حدث من يهود بني النضير إذ كل منهم كان يُفكّر في أن يغتنم فُرصة ما حلّ بالمسلمين في معركة أُحُدٍ، ويغدر ما يسمح له هواه من الغدر، فأجلىٰ يهود بني النضير، وأراد الالتفاف إلىٰ الأعراب، فجاءه خبر

تجمُّع في نجد لغزو المدينة علناً من قبائل محارب وثعلبة من غطفان، فسار في الناس إليهم بعد أن استعمل على المدينة أبا ذر الغفاري (جندب بن جنادة الغفاري)، حتىٰ إذا وصل إلىٰ ذات الرقاع، وكان الفريقان قريبين بعضهما من بعض، وجد رسول الله ﷺ جموعاً غفيرةً من غطفان، وخاف كل طرفٍ من الآخر، فصلّىٰ رسول الله ﷺ، صلاة الخوف، ولم يحدث قتال بين الجانبين، ورجع رسول الله ﷺ في شهر جمادىٰ الأولىٰ من السنة الرابعة للهجرة. وفي هذه الغزوة حاول أحد جند بني محارب قتل رسول الله ﷺ، بعد أن طلب منه سيفه لينظر فيه، ولقد همّ بالفعل ولكنه لم يستطع، وردّ السيف إلىٰ رسول الله ﷺ. ولم يحدث قتال في هذه الغزوة إلا أنها أرهبت هؤلاء الأعراب، وأعلمتهم أن لدىٰ المسلمين قوةً كبيرةً، وأن لديهم معنويات عاليةً.

غزوة بني أسد:

وصلت الأخبار إلىٰ رسول الله ﷺ، بأن بني أسد بزعامة طليحة بن خويلد[1] يتجمعون لغزو المدينة، فأرسل لهم سريةً فيها مائة وخمسون راكباً من المهاجرين والأنصار بإمرة أبي سلمة عبدالله بن عبد الأسد المخزومي،

---

(١) طليحة بن خويلد الأسدي، من أسد خزيمة: متنبئ، شجاع، من الفصحاء، يُقال له: (طليحة الكذاب)، كان من أشجع العرب، يُعدّ بألف فارس. قدم علىٰ النبيّ ﷺ في وفد بني أسد سنة تسعٍ للهجرة، وأسلموا، ولما رجعوا ارتدّ طليحة، وادّعىٰ النبوة في حياة رسول الله ﷺ، فوجّه إليه ضرار بن الأزور على رأس قوة، فضربه ضرار بسيفٍ يريد قتله، فنبا السيف، فشاع بين الناس أن السلاح لا يُؤثّر فيه. وتوفي رسول الله ﷺ سنة إحدى عشرة للهجرة، فكثر أتباع طليحة من أسد، وغطفان، وطيئ. وكان يقول إن جبريل يأتيه، وتلا على الناس سجعاً أمرهم فيه بترك السجود في الصلاة. وكانت رايته حمراء، وطمع باحتلال المدينة المنورة، فهاجمها بعض أشياعه، فردّهم أهلها. وغزاه أبو بكر رضي الله عنه، وسيّر إليه خالد بن الوليد رضي الله عنه فانهزم طليحة، وكانت إقامته في (سميراء) علىٰ طريق مكة، وتكررت هزائمه أمام خالد بن الوليد رضي الله عنه ففرّ إلىٰ الشام، ثم أسلم بعد أن أسلمت أسد وغطفان كافةً. ووفد علىٰ الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه في المدينة، فبايعه، ثم خرج إلىٰ الجهاد في العراق، وحسُن بلاؤه في الفتوحات، واستشهد في (نهاوند) سنة ٢١ للهجرة في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

فسارت السرية في كتمانٍ شديدٍ، تتحرّك ليلاً وتكمن نهاراً، حتىٰ فاجأت العدوّ قبل أن يتهيأ، ففرّ بنو أسد، وغنم المسلمون كثيراً من الإبل والأغنام. وتُعدّ بنو أسد من القبائل القوية الكبيرة في جزيرة العرب.

تأديب هذيل:

جاءت الأخبار إلىٰ المدينة المنورة أن خالد بن سفيان الهُذَلي يحشد الجموع ليقوم بالإغارة علىٰ المدينة، ولما كانت ديار هُذَيل قريبةً من مكة لم يكن من الحكمة إرسال غزو إلىٰ تلك الديار النائية عن المدينة، والتي يمكن أن تجعل قريشاً وبني سُليم وغيرها من القبائل تناصرُ هذيلاً وتدعمها، وبالتالي تكون النتيجة غير سليمةٍ، ولكن لا بُدّ من تأديب هذيل، لذا فقد أرسل رسول الله ﷺ عبدالله بن أُنَيس[1] ليستطلع الأمر، وإذا وجد الخبر صحيحاً ينتهي من خالد بن سفيان المحرّض علىٰ الحشد، وصاحب الكلمة المسموعة هناك. وقد وجد عبدالله بن أنيس الخبر صحيحاً، وقد عرف حقيقة الأمور عن قرب، ففتك بخالد بن سفيان، وأراح المسلمين من الحركة.

وهكذا كان تأديب القبائل كل قبيلةٍ في موطنها الأمر الذي يدلّ علىٰ قوة المسلمين، وكان تأديب اليهود بإجلاء بني النضير عن المدينة المنورة، ولم يبقَ إلا قريش العدوّ الأول، وكان العام قد استدار علىٰ معركة أُحُدٍ، وجاء الموعد المضروب من أبي سفيان صخر بن حرب للقاء في بدر.

غزوة بدرٍ الآخرة:

خرج أبو سفيان صخر بن حرب من مكة علىٰ رأس قوةٍ قوامها ثلاثة آلاف مقاتل، وفي نفسه ألا يحدث هذا اللقاء الذي ينتظر نتيجته كثير من رجال القبائل، والأعراب، وأهل المدن، إذ قضىٰ أهل المدينة ومكة عاماً في

---

(١) عبدالله بن أنيس، أبو يحيىٰ، من بني وبرة، من قضاعة: صحابي، من القادة الشجعان، من أهل المدينة، كان حليفاً لبني سلمة من الأنصار، صلّىٰ إلىٰ القبلتين، وشهد العقبة، وقاد بعض السرايا في العصر النبوي. رحل بعد ذلك إلىٰ مصر، وتوفي بالشام سنة أربع وخمسين للهجرة.

الاستعداد له، وكان في خروج أبي سفيان محاولة لإخافة المسلمين وإرهابهم كي لا يخرجوا، فيكونوا قد نكلوا بالموعد والخروج، وقد بعث للغرض نفسه نُعيم بن مسعود[1] ليُخيف المسلمين في المدينة من كثرة أعداد قريشٍ وقوتها، وجعل له عشرين بعيراً إن أدّىٰ هذه المهمة، ولم يخرج محمد، وقال له: إنه بدا لي أن لا أخرج، وأكره أن يخرج محمد، ولا أخرج أنا، فيزداد المسلمون جرأةً، فلأن يكون التخلُّف من قبلهم أحبّ إليّ من أن يكون من قِبلي، فالحقْ بالمدينة، وأعلمهم أني في جمعٍ كثيرٍ، ولا طاقة لهم بنا، ولك عندي من الإبل عشرون، أُعطيها لك علىٰ يد سهيل بن عمرو.

وصل نُعيم بن مسعود إلىٰ المدينة، وبدأ يبث إشاعاته، وساعده علىٰ ذلك اليهود والمنافقون، وقالوا: لا يفلت محمد من هذا الجمع. ولعبت هذه الإشاعات دورها، وسار أبو بكرٍ الصديق ﷺ، وعمر بن الخطاب ﷺ إلىٰ رسول الله ﷺ، وقالا له: يا رسول الله، إن الله مُظهِرٌ دينه، ومُعِزٌّ نبيه، وقد وعدنا القوم موعداً لا نحب أن نتخلّف عنه، فيرون أن هذا جبن، فتوكّل علىٰ الله، وسِرْ لموعدهم، فوالله إن في ذلك لخيراً إن شاء الله. فسُرَّ النبيّ عليه الصلاة والسلام مما قاله صاحباه، وأعلن أنه في طريقه إلىٰ بدرٍ، وقال: «والذي نفسي بيده لأخرجنّ وإن لم يخرج معي أحد». ونادىٰ في الناس للخروج، فاجتمع حوله ألف وخمسمائة مقاتل، وسار بهم إلىٰ بدرٍ، بعد أن أناب علىٰ المدينة عبدالله بن عبدالله بن أُبيّ بن سلول.

وصل رسول الله ﷺ إلىٰ بدرٍ في جيشه، وعسكر هناك، وبقي ثمان ليالٍ ينتظر قريشاً، ولكنها لم تأتِ، إذ عادت جموعها من (عسفان)، خوفاً من اللقاء حقيقةً، وحجتها في ذلك أن الظروف غير ملائمة للحرب، إذ كانت سنوات قحطٍ وجدبٍ.

وهكذا دان عدوّ المسلمين الأول، وهو قريش، وهي أقوىٰ قوةٍ في

---

(١) نُعيم بن مسعود بن عامر الأشجعي، صحابي، قدم علىٰ رسول الله ﷺ أيام غزوة الخندق واجتماع الأحزاب، فأسلم، وكتم إسلامه، وعاد إلىٰ الأحزاب المجتمعة لقتال المسلمين، فألقىٰ الخلاف بين قبائل قريظة، وغطفان، وقريش فتفرقوا، وتوفي في خلافة عثمان بن عفان ﷺ سنة ثلاثين للهجرة.

الجزيرة، وجيشها أكثر الجيوش تنظيماً وعتاداً، وكانت هي المتحدّية، وهي الفارّة من اللقاء، وخافت القبائل، وأُجلي جزء من يهود المدينة المنورة. وبدا أن معركة أُحُدٍ لم تكن ضربةً أليمةً يخنع المسلمون بعدها. وكذلك دان رجالات الأعراب فيما حول المدينة والمنطقة كلها.

وأثناء وجود رسول الله ﷺ في بدرٍ جاء (مخشي بن عمرو الضمري) إليه، وقال له: يا محمد، أجئت للقاء قريشٍ على هذا الماء الواقع في أراضي بني ضمرة، ولم تحسب لهم حساباً، وكأن البئر وما حولها مشاع لكم - وكان بين رسول الله ﷺ وبني ضمرة معاهدة عدم اعتداء منذ غزوة (ودان) قبل غزوة بدر الكبرىٰ - فقال له رسول الله ﷺ: «نعم، يا أخا ضمرة وإن شئت مع ذلك رددنا إليك ما كان بيننا وبينك، ثم جالدناك حتىٰ يحكم الله بيننا وبينك»، فلما رأىٰ الضمريّ شدّة رسول الله ﷺ وثقته بالله، قال: لا والله يا محمد، ما لنا بذلك من حاجةٍ.

غزوة دومة الجندل:

لم تتأدّب القبائل كلها، بل تأدّبت التي وصل المسلمون إلىٰ ديارها فقط، وأصاب الغرور غيرها من الأعراب، وظنّوا أن بإمكانهم غزو المدينة، وأن غيرهم ليس مثلهم، فهم يستطيعون تحقيق ما لا يستطيعه غيرهم. ومن هؤلاء الأعراب المغرورين الذين حول دومة الجندل شمال شرقي المدينة المنورة وعلىٰ بُعد ستمائةٍ وأربعين كيلومتراً، والذين بدؤوا يستعدون لغزو المدينة، وعندما وصل خبرهم إلىٰ رسول الله ﷺ، أسرع إليهم بألف مقاتلٍ، ففرُّوا من وجهه، وأخذ المسلمون كثيراً من حيوانات القوم، وأثناء عودة المسلمين عقد رسول الله ﷺ مع عُيينة بن حصن[1] معاهدة عدم

---

(١) عيينة بن حصن بن بدر من بني فزارة، أبو مالك. يُقال: كان اسمه حذيفة ولُقِّب عُيينة لأنه كان قد أصابته شجّة فجحظت عيناه، أسلم قبل فتح مكة، وشهد حنين والطائف، وبعثه رسول الله ﷺ لبني تميم فسبىٰ بعض بني العنبر، ثم كان ممن ارتدّ، ومال إلىٰ طليحة بن خويلد الأسدي فبايعه، ثم عاد إلىٰ الإسلام، وتزوج عثمان بن عفان ﷺ أم لبنين بنت عيينة بن حصن. وتوفي في خلافة عثمان بن عفان ﷺ.

اعتداءٍ، وسمح رسول الله ﷺ لعُيينة أن يرعىٰ بأراضي المسلمين التي تقع علىٰ بُعد ستين كيلاً ـ بالتقدير الحالي ـ لأن عُيينة اشتكىٰ أراضي قبيلة فزارة.

غزوة بني المصطلق:

وظنّ بنو المصطلق بأنفسهم قوة، وغرّتهم كثرة عددهم، وموقعهم بين مكة والمدينة حيث كان الناس يُجاملونهم أثناء مرورهم بمنازلم في طريقهم إلىٰ الشام أو آيبين منها، وحسبوا أن خُزاعة كلها تُناصرهم ما داموا بطناً من بطونها، فأخذوا يستعدّون للإغارة علىٰ المدينة المنورة، وبلغ رسول الله ﷺ خبرهم، فأرسل إليهم بُريدة بن الحصيب[1] يستوضح الأمر، فإذا به حق. فأسرع إليهم رسول الله ﷺ وخرج معه في هذه المرّة المنافقون الذين يطمعون بالغنيمة، كما يطمعون ببذر الخلاف، وكان زعيم بني المصطلق الحارث بن أبي ضرار[2] قد أرسل عيونه يستطلعون له الطريق قبل سيره، وينبئونه عن تحركات المسلمين، فالتقىٰ المسلمون بأحد هذه العيون، فسيق إلىٰ رسول الله ﷺ، فعرض عليه الإسلام فأبىٰ. ولما كان رسول الله ﷺ يريد مفاجأة القوم، لذا فقد أمر بإعدام هذا الجاسوس، فضرب عمر بن الخطاب رضي الله عنه عنقه، وعلم بنو المصطلق بما حدث فأصابهم ذعر شديد، الأمر الذي جعل أعداداً منهم تتفرّق عن ذلك

---

(١) بُريدة بن الحصيب بن عبدالله بن الحارث الأسلمي، صحابي، أسلم قبل معركة بدرٍ، وشهد خيبر، وفتح مكة، واستعمله النبيّ ﷺ علىٰ صدقات قومه، وسكن المدينة، وانتقل إلىٰ البصرة، ثم إلىٰ مدينة (مرو) ومات بها سنة ثلاث وستين للهجرة، وله (١٦٧) حديثاً.

(٢) الحارث بن أبي ضرار بن حبيب بن عائذ بن مالك بن المصطلق، أبو مالك. فلما كان بالعقيق نظر إلىٰ الإبل فرغب في بعيرين منهما فغيّبهما في شِعب، ثم جاء فقال: يا محمد هذا فداء ابنتي، فقال له رسول الله ﷺ: فأين البعيران اللذان غيبتهما بـ(العقيق).

فقال الحارث: أشهد أن لا إلٰه إلا الله، وأنك رسول الله، والله ما يتحقق علىٰ ذلك إلا الله. وأسلم، كما أسلم ابنان له، وأناس من قومه.

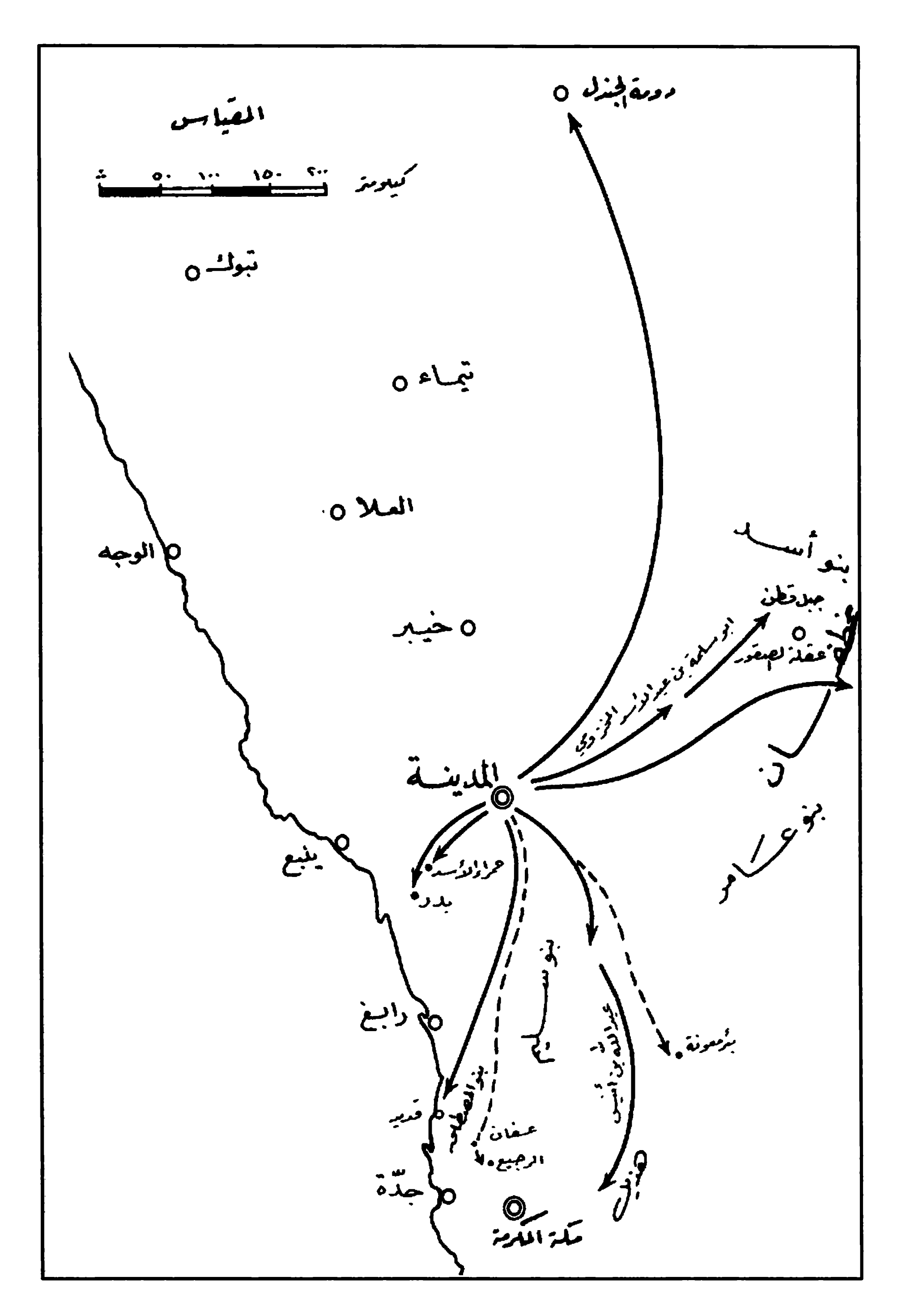
التجمُّع، وفاجأهم رسول الله ﷺ وهم علىٰ ماء (المُرَيسيع)، فدعاهم إلىٰ الإسلام، فأبوا، فحمل عليهم المسلمون، وأحاطوا بهم من كل مكانٍ، ولم يفلت منهم رجل واحد، وقتلوا منهم عشرة أفرادٍ، ثم استسلموا جميعاً، وغنم المسلمون ديارهم وأملاكهم، وسبوا نساءهم. وزادت الغنائم علىٰ ألفَيْ رأسٍ من الإبل، وخمسة آلافٍ من الأغنام، وبلغ عدد السبايا سبعمائة فتاةٍ.

وقد أُطلق سراح بعض الأسرىٰ والسبايا، وافتدي بعضهم، ولم يقتل أحد من الأسرىٰ. وتزوج رسول الله ﷺ جويرية بنت الحارث سيد بني المصطلق، بعد أن كاتبت ثابت بن قيس بن شماس[1] الذي كانت من نصيبه، ثم جاء أبوها ليفتديها فخطبها رسول الله ﷺ من أبيها وتزوجها علىٰ مهرٍ قدره أربعمائة درهم، وأسلم أبوها بعد أن رأىٰ معجزة من رسول الله ﷺ، كما أسلم بنو المصطلق جميعاً. وعندها أطلق المسلمون ما بأيديهم من الأسرىٰ والسبايا إكراماً لنبيّهم الكريم.

وحدثت في هذه الغزوة حادثتان كان لهما وقع شديد في نفوس المسلمين. أما أولاهما: فهي أن رجلاً حليفاً للأنصار من جُهينة تخاصم مع رجلٍ من غفارٍ حليفٍ للمهاجرين، فدعوَا بدعوىٰ الجاهلية إذ نادىٰ أحدهما يا لكِنانة، وصرخ الثاني يا للأنصار، فأخذت الحمية بعض الصحابة وكادت تقع فتنة لولا أن رسول الله ﷺ أسرع إلىٰ ذلك المكان مستنكراً ما حدث، وقال: «ما بال دعوىٰ الجاهليّة، دعوها فإنها مُنتنة، ومَن دعا بدعوىٰ الجاهليّة كان من جثيّ جهنم، وإن صلّىٰ وصام وزعم أنه مسلم»، وقد انتهت هذه الفتنة، وتنازل الجُهني عن حقّه بالضرب.

---

(١) ثابت بن قيس بن شماس الخزرجي الأنصاري: صحابي، كان خطيب رسول الله ﷺ وشهد معركة أُحُدٍ وما بعدها من المشاهد. وفي الحديث: «نِعم الرجل ثابت» ودخل عليه النبيّ ﷺ وهو عليل، فقال: «أذهب الباس ربّ الناس عن ثابت بن قيس بن شماس». قُتل يوم اليمامة شهيداً في خلافة أبي بكرٍ الصديق رضي الله عنه.



المقياس
كيلومتر
تبوك
تيماء
العلا
الوجه
خيبر
دومة الجندل
بنو أسد
جبل قطن
المدينة
ينبع
حمراء الأسد
بدر
رابغ
قديد
جدّة
عسفان
الرجيع
بنو سليم
بئر معونة
مكة المكرمة
بنو عامر

مصور رقم (١٠)

وغضب عبدالله بن أُبيّ بن سلول كبير المنافقين لما حدث، وغضب علىٰ ضرب الرجل الأنصاري، وهو يعدّ نفسه كبير الأنصار، وغضب علىٰ هدوء الفتنة بهذه السرعة التي تمّ فيها، وهو يريد أن تشتعل فقال ـ وعنده رهط من قومه بينهم شاب حدث اسمه زيد بن أرقم[1] ـ: أوَقد فعلوها، قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا، والله ما أعُدّنا وجلابيب قريش[2] إلا كما قال الأول: سَمِّن كلبك يأكلك، أما والله لئن رجعنا إلىٰ المدينة ليُخرِجنّ الأعزّ منها الأذلّ. ثم اتجه إلىٰ مَن كان عنده فقال لهم: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم دياركم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحوّلوا إلىٰ غير دياركم. ومشىٰ زيد بن أرقم إلىٰ رسول الله ﷺ، وأخبره بما حدث، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه عند رسول الله ﷺ، فغضب رسول الله غضباً شديداً حتىٰ تغيّر وجهه، فقال عمر: مُر به عبّاد بن بشر[3] فليقتله، فقال رسول الله ﷺ: «فكيف يا عمر إذا تحدّث الناس، أن محمداً يقتل أصحابه! لا، ولكن أذّن بالرحيل»، وذلك في ساعةٍ لم يكن رسول الله ﷺ يرحل فيها، فارتحل الناس، وسار بهم رسول الله ﷺ جادًّا بالرحيل مدةً تقرب من ثلاثين ساعةً، وذلك ليُشغل الناس عن الحديث الذي تكلّم به عبدالله بن أُبيّ بن

---

(١) زيد بن أرقم الخزرجي الأنصاري، صحابي، غزا مع النبيّ ﷺ سبع عشرة غزوة، وشهد معركة صفين مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ومات بالكوفة سنة ٦٨ للهجرة، وله في كتب الحديث سبعين حديثاً.

(٢) جلابيب قريش: لقبُ المهاجرين المسلمين، لقَّبَهم بذلك كفار قريشٍ، إذ كانوا يأتزرون بأزرٍ غليظةٍ.

(٣) عباد بن بشر بن وقش الأشهلي، الخزرجي، الأنصاري: ولد سنة ثلاثٍ وثلاثين قبل الهجرة فهو أصغر من رسول الله ﷺ بعشرين سنة، صحابي، من الأبطال، أسلم في المدينة، وشهد المشاهد كلها، وكان رسول الله ﷺ يرسله إلىٰ القبائل لجمع الصدقات، وجعله علىٰ مقاسم حُنين، وجعله علىٰ حرسه بـ(تبوك)، واستشهد يوم اليمامة سنة اثنتي عشرة للهجرة.

وذكر ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه حتىٰ يكون قاتله من الأنصار سكان المدينة لا من المهاجرين إليها.

سلول، ثم نزل بالناس، فلم يلبثوا أن وقعوا نياماً مجرّد أن جلسوا، وجاء أُسيد بن حُضير إلىٰ رسول الله ﷺ، وهو من سادات الأوس من الأنصار، وقال له أثناء الرحيل: يا نبيّ الله، والله لقد رحلت في ساعةٍ منكرةٍ، ما كنت تروح في مثلها. فقال له رسول الله ﷺ: «أوَما بلغك ما قال صاحبكم؟».

قال: وأيّ صاحبٍ يا رسول الله؟ قال: «عبدالله بن أُبيّ بن سلول». قال: وماذا قال؟

قال رسول الله ﷺ: «زعم أنه إن رجع إلىٰ المدينة ليُخرجنّ الأعزّ منها الأذلّ».

قال أُسيد: فأنت يا رسول الله، والله لتُخرجنّه إن شئت، وهو والله الذليل، وأنت العزيز. ثم قال: يا رسول الله، ارفق به، فوالله لقد جاءنا الله بك، وإن قومه لينظمون له الخرز ليُتوِّجوه، فإنه ليرىٰ أنك قد استلبته ملكاً.

وعاتبَ عبدالله بنَ أُبيّ بن سلول قومه، فقالوا له: يا أبا الحباب، إن كنت قلت ما نُقل عنك، فأخبر به النبيّ ﷺ، فليستغفر لك، ولا تجحده فينزل له ما يُكذّبك، وإن كنت لم تقله فأتِ رسول الله ﷺ فاعتذر له. فحلف لقومه بالله العظيم أنه ما قال من ذلك شيئاً، ثم مشىٰ إلىٰ رسول الله ﷺ وأخذ يحلف له بالله أنه لم يقل شيئاً مما نقله إليه زيد بن أرقم، وأنزل الله سبحانه وتعالىٰ سورة المنافقون في حق عبدالله بن أُبيّ بن سلول.

﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم

مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَـٰكِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾.

والواقع أن عبدالله بن أُبيّ بن سلول لم يدخل الإيمان إلىٰ قلبه ولم يعرف حقيقته، لذا لم يُدرك حبّ أصحاب رسول الله ﷺ لنبيّهم الكريم، ومن هذا كان يظنّ نفسه أنه سيِّد في قومه، وقد يُطيعونه في أمرٍ ضدّ رسول الله ﷺ. ولو أن الإيمان قد دخل إلىٰ قلبه، وعرف حقيقته، لأدرك حبّ المسلمين لمحمدٍ، عليه الصلاة والسلام لعرف مركزه، وعلم مكانته، وتكلّم قدر ذلك. ولننظر إلىٰ بعض هذا الحبّ الذي يبدو من هذه الحادثة فقط.

فقد رأينا كلام أُسَيْد بن حُضير رضي الله عنه وكلام زيد بن أرقم الذي نقل الحديث لرسول الله ﷺ، وقد لامه بعض المنافقين علىٰ هذا النقل، فأجابهم وهو الغلام الحدث: والله لو قال أبي كلمةً عن رسول الله ﷺ لأخبرته. وحتىٰ ابن عبدالله بن أُبيّ، ويُسمّىٰ عبدالله أيضاً (عبدالله بن عبدالله بن أُبيّ بن سلول) جاء إلىٰ رسول الله ﷺ، فقال له: يا رسول الله، إنه بلغني أنك تريد قتل عبدالله بن أُبيّ فيما بلغك عنه، فإن كنت لا بُدّ فاعلاً، فمُرني به، فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجلٍ أبرّ بوالده مني، وإني أخشىٰ أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعُني نفسي أنظر إلىٰ قاتل عبدالله بن أُبيّ يمشي في الناس فأقتلَه، فأقتلَ رجلاً مؤمناً بكافرٍ، فأدخل النار، فقال رسول الله ﷺ: «بل نترفق

به، ونُحْسِن صحبته ما بقي معنا». وعندما وصلوا إلىٰ المدينة وقف عبدالله بن عبدالله بن أُبيّ أمام بابها فلما جاء أبوه منعه من الدخول، وقال: والله لا تدخلها حتىٰ يأذن لك رسول الله، وتقول: إنه العزيز، وإنك الذليل.

وقال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: «يا عمر، أما والله لو قتلته يوم قلت، لأُرْعِدَتْ له أنف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته». فقال عمر رضي الله عنه: قد علمت والله لأمر رسول الله ﷺ أعظم بركةً من أمري.

أما الحادثة الثانية التي وقعت إثر غزوة بني المصطلق فهي حديث الإفك، وهو الذي تولّىٰ كِبْرَهُ المنافقون، وأشاعوه. ونكتفي بذكر ما روته عائشة رضي الله عنها عن نفسها، قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه، فأيتهنّ خرج سهمها خرج بها معه، فلما كانت غزوة بني المصطلق أقرع بين نسائه، كما كان يفعل، فخرج سهمي عليهنّ معه، فخرج بي رسول الله ﷺ، قالت: وكانت النساء إذ ذاك يأكلن العُلَق[١] ولم يَهِجْهن[٢] اللحم فيثقلن، وكنت إذا رُحِّل لي بعيري، جلست في هودجي، ثم يأتي القوم الذين يرحلون لي ويحملونني، فيأخذون بأسفل الهودج، فيرفعونه فيضعونه علىٰ ظهر البعير، فيشدُّونه بحباله، ثم يأخذون برأس البعير فينطلقون به.

قالت: فلما فرغ رسول الله ﷺ من سفره ذلك، توجّه قافلاً، حتىٰ إذا كان قريباً من المدينة نزل منزلاً، فبات به بعض الليل، ثم أذّن في الناس بالرحيل، فارتحل الناس، وخرجتُ لبعض حاجتي، وفي عنقي عِقْد لي، فيه جَزْع ظفار[٣]، فلما فرغت انسلّ من عنقي ولا أدري، فلما رجعت إلىٰ رحلي، ذهبت ألتمسه في عنقي، فلم أجده، وقد أخذ

---

(١) العُلَق: جمع علقة، وهي ما فيه بلغة من الطعام إلىٰ وقت الغداء.

(٢) التهييج: كالورم في الجسم.

(٣) الجزع: الخرز، وظِفار: مدينة قرب اليمن.

الناس بالرحيل، فرجعت إلىٰ مكاني الذي ذهبت إليه، فالتمسته حتىٰ وجدته، وجاء القوم خلافي، الذين كانوا يُرحِّلون لي البعير، وقد فرغوا من رحلته، فأخذوا الهودج، وهم يظنُّون أني فيه، كما كنت أصنع، فاحتملوه، فشدُّوه علىٰ البعير، ولم يشكُّوا أني فيه، ثم أخذوا رأس البعير فانطلقوا به، فرجعت إلىٰ العسكر وما فيه من داعٍ ولا مجيب، قد انطلق الناس.

قالت: فتلفّفت بجلبابي، ثم اضطجعت في مكاني، وعرفت أن افتقدت لَرُجِع إليّ. قالت: فوالله إني لمضطجعة إذ مرّ بي صفوان بن المعطل السلمي[1]، وقد كان تخلّف عن الجيش لبعض حاجته، فلم يبت مع الناس، فرأىٰ سوادي، فأقبل حتىٰ وقف عليّ، وقد كان يراني قبل أن يُضرب علينا الحجاب، فلما رآني قال: إنا للّه وإنا إليه راجعون، ظعينة رسول الله ﷺ، وأنا مُتلفّفة في ثيابي، قال: ما خلّفك يرحمك الله؟ قالت: فما كلمته، ثم قرّب البعير، فقال: اركبي، واستأخر عني. قالت: فركبت، وأخذ برأس البعير، فانطلق سريعاً، يطلب الناسَ، فوالله ما أدركنا الناس، وما افْتُقِدْتُ حتىٰ أصبحت، ونزل الناس، فلما اطمأنوا، طلع الرجل يقود بي، فقال أهل الإفك ما قالوا، فارتجّ العسكر، ووالله ما أعلم بشيء من ذلك.

ثم قدِمنا المدينة، فلم ألبث أن اشتكيت شكوى جديدة، ولم يبلغني من ذلك شيء. وقد انتهىٰ الحديث إلىٰ رسول الله ﷺ وإلىٰ أبواي، لا يذكرون لي منه قليلاً ولا كثيراً، إلا أني قد أنكرتُ من رسول الله ﷺ بعض لطفه بي، كنت إذا اشتكيت رحمني، ولطف بي، فلم يفعل ذلك بي في شكواي تلك، فأنكرت ذلك منه، كان إذا دخل عليّ، وعندي أُمّي تُمرّضني، قال:

---

(١) صفوان بن المعطل السلمي الذكواني، أبو عمرو: صحابي شهد معركة الخندق والمشاهد كلها، وحضر فتح دمشق، واستشهد بأرمينية سنة تسع عشرة للهجرة في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهو الذي قال أهل الإفك فيه وفي عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، ما قالوا. روىٰ عن النبيّ ﷺ حديثين.

«كيف تِيكم؟» لا يزيد علىٰ ذلك. قالت: حتىٰ وجدت في نفسي، فقلت: يا رسول الله، حين رأيت ما رأيت من جفائه لي: لو أذنتَ لي، فانتقلت إلىٰ أُمي، فمرّضتني؟ قال: «لا عليك». قالت: فانتقلت إلىٰ أمي، ولا علم لي بشيءٍ مما كان، حتىٰ نقهت من وجعي بعد بضعٍ وعشرين ليلةً، وكنا قوماً عرباً، لا نتخذ في بيوتنا هذه الكنف التي تتخذها الأعاجم، نعافها ونكرهها، إنما كنا نذهب في فُسح المدينة، وإنما كانت النساء يخرجن كل ليلةٍ في حوائجهنّ، فخرجت ليلة لبعض حاجتي ومعي أم مِسْطح بنت أبي رُهم بن المطلب بن عبد مناف، وكانت أمها بنت صخر بن عامر بن كعب بن سعد بن تيم خالة أبي بكر الصديق ﷺ، قالت: فوالله إنها لتمشي إذ عثرت في مِرْطِها، فقالت: تعس مسطح ـ مسطح لقب واسمه عوف[1] ـ قالت: قلت: بئس لعمر الله ما قلته لرجلٍ من المهاجرين، قد شهد بدراً، قالت: أوَما بلغك الخبر يا بنت أبي بكرٍ؟ قالت: قلت: وما الخبر؟ فأخبرتني بالذي كان من قول أهل الإفك، قالت: قلت: أوَقد كان هذا؟ قالت: نعم والله لقد كان، قالت: فوالله ما قدرت أن أقضي حاجتي، ورجعت، فوالله ما زلت أبكي حتىٰ ظننت أن البكاء سيُصدِّع كبدي، قالت: وقلت لأمي: يغفر الله لك، تحدّث الناس بما تحدّثوا به، ولا تذكرين لي من ذلك شيئاً!

قالت: أي بُنيّة، خفّفي عنك الشأن، فوالله لقلّما كانت امرأة حسناء، عند رجلٍ يُحبّها، لها ضرائر، إلا كثّرن، وكثّر الناس عليها.

---

(١) مسطح بن أثاثة بن عباد بن المطلب بن عبد مناف، أبو عباد: من قريش، صحابي من الشجعان الأشراف. كان اسمه (عوف)، ولُقِّبَ بـ(مسطح) فغلب عليه، أمه ابنة خالة أبي بكر الصديق ﷺ، وكان أبو بكر ﷺ يُموِّنه لقرابته منه، فلما كان حديث أهل الإفك في أمر عائشة ﵂ جلده رسول الله ﷺ، مع من خاضوا فيه، وحلف أبو بكر ﷺ أن لا يُنفق عليه، فنزلت الآية الكريمة: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [النور]. فعاد أبو بكر ﷺ إلىٰ الإنفاق عليه، وأطعمه رسول الله ﷺ بخيبر خمسين وسقاً، وهو ممن شهد بدراً، وأُحُداً والمشاهد كلها، وتوفي سنة ٣٤ للهجرة.

قالت: وقد قام رسول الله ﷺ في الناس يخطبهم، ولا أعلم بذلك، فحمد الله وأثنىٰ عليه، ثم قال: «أيها الناس، ما بال رجالٍ يؤذونني في أهلي، ويقولون عليهم غير الحق، والله ما علمت منهم إلا خيراً، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً وما يدخل بيتاً من بيوتي إلا وهو معي».

قالت: وكان كُبْر ذلك عند عبدالله بن أُبيّ بن سلول، في رجال من الخزرج، مع الذي قال مِسْطح وحمنة بنت جحش، وذلك أن زينب بنت جحش كانت عند رسول الله ﷺ، ولم تكن من نسائه امرأة تُناصيني (تُساويني) في المنزلة عنده غيرها، فأما زينب فعصمها الله تعالىٰ بدينها فلم تقل إلا خيراً، وأما حمنة بنت جحش، فأشاعت من ذلك ما أشاعت، تضادني لأختها، فشقيت بذلك.

فلما قال رسول الله ﷺ تلك المقالة، قال أُسيد بن حضير: يا رسول الله، إن يكونوا من الأوس نكفكهم، وإن يكونوا من إخواننا من الخزرج، فمُرنا بأمرك، فوالله إنهم لأهل أن تُضرب أعناقهم، قالت: فقام سعد بن عبادة، وكان قبل ذلك يُرىٰ رجلاً صالحاً، فقال: كذبت لعَمْر الله، لا تضرب أعناقهم، أما والله ما قلتَ هذه المقالة إلا أنك قد عرفت أنهم من الخزرج، ولو كانوا من قومك ما قلتَ هذا.

فقال أُسيد: كذبت لعَمْر الله، ولكنك منافق تجادل عن المنافقين.

قالت: وتساور الناس، حتىٰ كاد يكون بين هذين الحيين من الأوس والخزرج شرّ. ونزل رسول الله ﷺ، فدخل عليّ. قالت: فدعا عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، وأسامة بن زيد رضي الله عنه، فاستشارهما، فأما أسامة فأثنىٰ عليّ خيراً، ثم قال: يا رسول الله، أهلك ولا تعلم منهم إلا خيراً، وهذا الكذب والباطل، وأما عليّ فإنه قال: يا رسول الله إن النساء لكثير، وإنك لقادر علىٰ أن تستخلف، وسَل الجارية، فإنها ستصدقك.

فدعا رسول الله ﷺ بُريرة ليسألها، قالت: فقام إليها علي بن أبي طالب، فضربها ضرباً شديداً، ويقول: اصدقي رسول الله ﷺ، قالت: فتقول: والله ما أعلم إلا خيراً، وما كنت أعيب علىٰ عائشة شيئاً، إلا أني كنت أعجن عجيني، فآمرها أن تحفظه، فتنام عنه، فتأتي الشاة فتأكله.

قالت: ثم دخل عليّ رسول الله ﷺ، وعندي أبواي، وعندي امرأة من الأنصار، وأنا أبكي، وهي تبكي معي، فجلس، فحمد الله وأثنىٰ عليه، ثم قال: يا عائشة، إنه قد كان ما قد بلغك من قول الناس، فاتقي الله، وإن كنت قد قارفت سوءاً مما يقول الناس، فتُوبي إلىٰ الله، فإن الله يقبل التوبة عن عباده. قالت: فوالله ما هو إلا أن قال لي ذلك، فقلَص دمعي، حتىٰ ما أُحسّ منه شيئاً، وانتظرت أبواي أن يُجيبا عني رسول الله ﷺ، فلم يتكلّما، قالت: وايم الله لأنا كنت أحقر في نفسي، وأصغر شأناً من أن يُنزل الله فيّ قرآناً يُقرأ به في المساجد، ويُصلىٰ به، ولكني كنت أرجو أن يرىٰ رسول الله ﷺ في نومه شيئاً يكذب به الله عني، لما يعلم من براءتي، أو يُخبر خبراً، فأما قرآن ينزل فيّ، فوالله لنفسي كانت أحقر عندي من ذلك. فلما لم أرَ أبواي يتكلمان، قالت: قلت لهما: ألا تجيبان رسول الله ﷺ؟ قالت: فقالا: والله ما ندري بماذا نجيبه.

قالت: ووالله ما أعلم أهل بيتٍ دخل عليهم ما دخل علىٰ آل أبي بكرٍ في تلك الأيام.

قالت: فلما استعجما عليّ، استعبرت فبكيت، ثم قلت: والله لا أتوب إلىٰ الله مما ذكرت أبداً، والله إني لأعلم لئن أقررت بما يقول الناس، والله يعلم إني منه بريئة، لأقولن ما لم يكن، ولئن أنا أنكرت ما يقولون لا تُصدّقوني.

قالت: ثم التمست اسم يعقوب عليه السلام فما أذكره، فقالت: ولكن

سأقول: كما قال أبو يوسف عليه السلام: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يوسف].

قالت: فوالله ما برح رسول الله ﷺ مجلسه حتىٰ تغشّاه من الله ما كان يتغشاه، فسُجّي بثوبه، ووُضِعت له وسادة من أدَم تحت رأسه، فأما أنا حين رأيت من ذلك ما رأيت، فوالله ما فزِعت ولا باليت، فقد عرفت أني بريئة، وأن الله عز وجل لن يظلمني فما الله بظلام للعبيد. أما أبواي، فوالذي نفس عائشة بيده، ما سُرّي عن رسول الله ﷺ حتىٰ ظننت لتخرجنّ نفسيهما، فرقاً من أن يأتي من الله تحقيق ما قال الناس.

قالت: ثم سُرّي عن رسول الله ﷺ، فجلس، وإنه ليتحدّر منه مثل الجُمان في يوم شاتٍ، فجعل يمسح العرق عن جبينه، ويقول: «أبشري يا عائشة، فقد أنزل الله براءتك».

فقالت: قلت: بحمد الله، ثم خرج إلىٰ الناس، فخطبهم، وتلا عليهم ما أنزل الله عليه من القرآن في ذلك ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ

يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ . . .﴾ [النور].

والذي تولّىٰ كبر حادثة الإفك هو كبير المنافقين عبدالله بن أُبيّ بن سلول.

وأمر رسول الله ﷺ بـ(مِسْطح بن أثاثة، وحسّان بن ثابت، وحمنة بنت جحش)، فضُربوا حدّهم. وكانوا ممن أفصح بالفاحشة.

أما المؤمنون فقد قالوا مذ سمعوا الإشاعة: (إن هذا بهتان وباطل، وكذب صريح)، وما ظنُّوا إلا خيراً، وما قالوا إلا كذلك، وكان ظنّهم أحسن مما يظنّون بأنفسهم. ويكفي أن نأخذ مثلاً علىٰ ذلك أبا أيوب خالد بن زيد الذي قالت له زوجته أم أيوب، ألا تسمع ما يقول الناس في عائشة؟

قال: بلىٰ، وذلك هو الكذب، أكنتِ يا أم أيوب فاعلةً؟

قالت: لا والله ما كنت لأفعله. قال: فعائشة والله خير منك.

كما نعرف رأي المؤمنين تماماً مما أنزل الله، وأنه ما كانت الشائعات إلا من المنافقين. قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [النور].

وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: والله لا أنفق علىٰ مسطح شيئاً أبداً. وذلك بعد أن قال عن عائشة ما قاله الناس، وكان من قبل يُنفق عليه لقرابته

وحاجته. فأنزل الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [النور]. فقال أبو بكر رضي الله عنه بعد ذلك: بلىٰ والله، إني لأحب أن يغفر الله لي، فأرجع إلىٰ مسطح نفقته التي كان ينفقها عليه، وقال: والله لا أنزعها منه أبداً.

غزوة الخندق:

يحقد اليهود علىٰ الناس جميعاً، وليس عليهم في الأميين سبيل، وأكثر حقدهم علىٰ المسلمين، وقد حرصوا علىٰ ضرب الدعوة الإسلامية في مهدها الأول، ولكن لم يتمكّنوا من ذلك بل رُدّ كيدهم في نحرهم، وأُجلوا عن المدينة فرقةً بعد فرقةٍ، فلما أُجلي بنو النضير زاد حقد قادتهم وخاصةً الذين أقاموا منهم بخيبر، إذ أن الإسلام تزداد قوته يوماً بعد يوم، وكلما أرادت فئة أن تُغير علىٰ أبنائه أصابتها الضربة القاسية، ونزلتْ بديارها المصيبة، وخرج المسلمون أقوىٰ مما كانوا. لذا فكّر الحاقدون أن يُحزِّبوا الأحزاب من كل الجهات والقبائل، وأن يقوموا بحملة رجلٍ واحدٍ علىٰ المدينة، فيقضوا علىٰ الإسلام وأهله، ويجتثّوا جُذوره، وينالوا ثأرهم، فخرج لهذا الغرض من مدينة خيبر:

حُييّ بن أخطب، وسلّام بن أبي الحُقَيق، وكنانة بن أبي الحُقَيق، وهَوْذة بن قيس الوائلي، وغيرهم.

واتجهوا إلىٰ مكة قاعدة قريشٍ العدوّ الأول للمسلمين، ودعوها إلىٰ حرب نبيّ الإسلام، وقالوا لها: إنا سنكون معكم عليه حتىٰ نستأصله وأصحابه، فسُرّت قريش، وأعدّت العدّة لتلك الحرب المرتقبة.

وسأل القرشيون اليهود، فقالوا لهم: يا معشر يهود، إنكم أهل الكتاب الأول، والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، أفديننا خير أم دينه؟

قالوا: بل دينكم خير من دينه، وأنتم أوْلىٰ بالحق منه.

فأنزل الله فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ [النساء].

وقد ترك اليهود قريشاً بعد أن تواعدوا، واتجهوا إلىٰ غطفان الذين ديارهم شمال شرقي المدينة المنورة علىٰ بُعد أربعمائة وثلاثين كيلومتراً، فدعَوهم إلىٰ حرب محمدٍ وأتباعه المسلمين، وأخبروهم بأنهم سيكونون معهم عليه، وأن قريشاً قد اتفقت معهم، فوافقوا علىٰ ذلك، ووافقوا علىٰ الموعد المحدّد بين قريشٍ ويهود.

خرجت قريش حسب الموعد المقرّر بإمرة أبي سفيان صخر بن حرب، وخرجت من غطفان فزارة، ومرّة، وأشجع بإمرة عُيينة بن حِصْن الفزاري والحارث بن عوف المُرّي[1]، ومِسْعر بن رُخَيلة الأشجعي.

ولما وصل خبرهم إلىٰ رسول الله ﷺ، جمع أصحابه، واستشارهم، فأشاروا عليه بحفر الخندق حول المدينة، وقيل: إن سلمان الفارسي رضي الله عنه هو الذي أشار عليه بحفر الخندق، فابتدؤوا بالعمل فيه، وكان رسول الله ﷺ يعمل معهم، ويُشجّعهم، أما المنافقون فكانوا يختفون عن العمل، ويفرُّون منه دون إذنٍ.

وما أن انتهىٰ العمل من الخندق بين الحرّتين حتىٰ جاءت قريش، ونزلت عند مجمع الأسيال (التقاء وادي قناة مع وادي العقيق)، وكان عدد قوات قريش مع الأحابيش ومن وافقها من كِنانة وأهل تِهامة عشرة آلاف مقاتل، وجاءت غطفان ومن سار معها من أهل نجد، ونزلت قرب جبل أحدٍ (قريباً من التقاء وادي قناة مع وادي بطحان). وخرج رسول الله ﷺ

---

(١) الحارث بن عوف بن أبي حارثة المري: من فرسان الجاهلية، أدرك الإسلام، وأسلم، قال حسان بن ثابت فيه شعراً.

مع المسلمين، وجعلوا جبل سَلْع إلىٰ ظهورهم، وكان بين الفريقين الخندق الذي حفر.

وسار حُييّ بن أخطب حتىٰ أتىٰ كعب بن أسد القرظي في ديار بني قريظة جنوب حرّة واقم (الحرة الشرقية)، فردّه، فبقي يحاوره حتىٰ أجابه، وعاهده أن ينقض ما كان بينه وبين رسول الله من عهدٍ، وصعُب علىٰ رسول الله ﷺ ما كان من يهود بني قريظة إذ أن ديارهم إلىٰ الجنوب من المدينة، وليس هناك من فاصل بينها وبين سكان المدينة التي خلت من المحاربين حيث لم يبقَ فيها غير النساء والأطفال، فأرسل إليهم وفداً يستطلع أخبارهم، فوجدهم علىٰ أخبث حالٍ، وتنكّروا أن يكون بينهم وبين رسول الله عهد أو ميثاق.

عظم البلاء علىٰ المسلمين، واشتدّ الخوف، وأتاهم العدوّ من فوقهم (قريش وغطفان من الشمال) ومن أسفل منهم (بنو قريظة من الجنوب)، وزاغت الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر، وداخلهم كل ظنٍّ، وظهر المنافقون، وقالوا: إن بيوتنا عورة، وما هي بعورة إن يريدون إلا فراراً.

ولما رأىٰ رسول الله ﷺ ما هم عليه أراد أن يُفرّق الأحزاب، فأرسل وفداً إلىٰ قبيلة غطفان يدعوهم إلىٰ ترك مواقعهم، والسفر إلىٰ بلادهم، ويكون لهم ثلث ثمار المدينة، فوافقوا، وكُتبت بذلك الاتفاقية، وبقي التوقيع علىٰ ذلك، فأرسل رسول الله ﷺ إلىٰ سيدي الأنصار سعد بن عبادة وسعد بن معاذ يستشيرهما في ذلك بصفتهما سادة سكان المدينة، وأهل الزروع فيها، فقالا له: يا رسول الله، أمراً تُحبّه فنصنعه، أم شيئاً أمرك الله به، فلا بُدّ من العمل به، أم شيئاً تصنعه لنا؟ قال: «بل شيئاً أصنعه لكم، والله ما أصنع إلا لأني رأيت العرب قد رمتكم عن قوسٍ واحدةٍ، وكالبوكم من كل جانبٍ، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلىٰ أمرٍ ما».

فقال سعد بن معاذ رضي الله عنه: يا رسول الله، قد كُنّا وهؤلاء القوم علىٰ شركٍ

بالله وعبادة الأوثان، لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرةً إلاّ قِرًى أو بيعاً، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له، وأعزّنا به وبك، نُعطيهم أموالنا؟ والله ما لنا بهذا من حاجةٍ، والله لا نُعطيهم إلا السيف حتىٰ يحكم الله بيننا وبينهم.

قال رسول الله ﷺ: «فأنت وذاك». فتناول سعد بن معاذ الصحيفة فمحا ما فيها من الكتابة، ثم قال: ليجهدوا علينا.

حاول بعض فرسان قريشٍ اقتحام الخندق، ومنهم: عمرو بن عبد وُدّ العامري[1]، وعِكرمة بن أبي جهل المخزومي، وهُبيرة بن أبي وهب المخزومي، وضرار بن الخطاب المحاربي[2]، وقد لبسوا للقتال، وطلبوا من قومهم التهيؤ له، فلما وصلوا إلىٰ الخندق، وقفوا عليه، وقالوا: والله إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها. ثم ذهبوا إلىٰ مكانٍ ضيّقٍ فضربوا خيلهم فاقتحمت الخندق، فخرج عليهم عليّ بن أبي طالب ﵁، في نفرٍ من المسلمين، فوقفوا مقابلهم.

فقال عمرو بن عبد وُدّ العامريّ: مَن يبارز؟ فبرز له عليّ بن أبي طالب ﵁، فقال له: يا عمرو، إنك كنت عاهدت الله ألا يدعوك رجل من قريشٍ إلىٰ إحدىٰ خلّتين إلا أخذتها منه. فقال له عمرو: أجل. قال له عليّ: فإني أدعوك إلىٰ الله، وإلىٰ رسوله، وإلىٰ الإسلام. قال عمرو: لا حاجة لي بذلك. قال عليّ ﵁: إني أدعوك إلىٰ النزال. قال عمرو: لِمَ يا

---

(١) عمرو بن عبد ودّ العامري، من بني لؤي، من قريش: فارس قريش وشجاعها في الجاهلية. أدرك الإسلام ولم يُسلم، وعاش إلىٰ أن كانت وقعة الخندق فحضرها وقد تجاوز الثمانين، فقتله عليّ بن أبي طالب ﵁.

(٢) ضرار بن الخطاب بن مرداس: فارس، شاعر، صحابي، من القادة، من سكان الشراة فوق الطائف. قاتل المسلمين يوم أُحُدٍ، والخندق أشدّ قتال، وأسلم يوم فتح مكة، ولم يكن في قريشٍ أكثر منه شعراً. له أخبار في فتح الشام، واستشهد في وقعة أجنادين سنة ثلاث عشرة للهجرة، وكانت المعركة بقيادة عمرو بن العاص ﵁، وأجنادين في منطقة فلسطين قرب غزة، وهي موقع (الفالوجة) اليوم.

ابن أخي؟ فوالله ما أحب أن أقتلك. فقال عليّ ﷺ: لكني والله أُحب أن أقتلك.

فأخذت الحميّة حينئذٍ عَمْراً، فنزل عن فرسه، وعقره، وضرب وجهه، ونزل لعليٍّ ﷺ، فقتله عليّ ـ بإذن الله ـ وفرّت خيل المشركين مقتحمة الخندق.

وأُصيب سعد بن معاذ ﷺ، بسهم فقطع الأكحل، وشعر بالألم فقال: اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريشٍ شيئاً فأبقني لها، فإنه لا قوم أحبّ إليّ أن أُجاهدهم من قومٍ آذوا رسولَك، وكذّبوه، وأخرجوه، اللهم وإن كنت قد وضعت الحرب بيننا وبينهم فاجعلها لي شهادة، ولا تمتني حتىٰ تقرّ عيني من بني قريظة.

وكان رسول الله ﷺ يشعر بما حلّ بالمسلمين، وما هم عليه من الجوع والتعب، ومن الصبر علىٰ ذلك، والثبات علىٰ الحق، ولكن لا يملك إلا الدعاء، وهو واثق بنصر الله وتأييده. وجاء نصر الله، وكان من أسبابه أن رجلاً من بني أشجع، وهو نُعيم بن مسعود، قد أسلم ساعتذاك فجاء إلىٰ رسول الله ﷺ، فقال له: يا رسول الله إني قد أسلمتُ، وإن قومي لم يعلموا بإسلامي، فمُرني بما شئت.

فقال رسول الله ﷺ: «إنما أنت فينا رجل واحد، فخذِّل عنا إن استطعت، فإن الحرب خدعة».

فخرج نُعيم بن مسعود إلىٰ بني قُريظة، وكان نديماً لهم في الجاهلية، فقال: يا بني قريظة، قد عرفتم ودّي إياكم، وخاصةً ما بيني وبينكم، قالوا: صدقت، ولست عندنا بمتهم، فقال لهم: إن قريشاً وغطفان ليسوا كأنتم، البلد بلدكم فيه أموالكم، وأبناؤكم، ونساؤكم، لا تقدرون أن تتحولوا منه إلىٰ غيره، وإن قريشاً وغطفان قد جاؤوا لحربِ محمدٍ وأصحابه وقد ظاهرتموهم عليه، وبلدهم، وأموالهم، وأبناؤهم، ونساؤهم بغيره، فليسوا كأنتم، فإن رأوا نُهزةً أصابوها، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم، وخلّوا بينكم وبين الرجل ببلدكم، ولا طاقة لكم به إن خَلا بكم، فلا تُقاتلوا مع

القوم حتىٰ تأخذوا منهم رُهناً من أشرافهم، يكونون بأيديكم ثقةً لكم، علىٰ أن تُقاتلوا معهم محمداً حتىٰ تناجزوه. فقالوا له: لقد أشرت بالرأي.

وكان اليهود قد وعدوا قريشاً وغطفان أن يُباشروا بالقتال مجرد أن يصطدموا بالمسلمين فيأتونهم من الخلف، ولكن لم يحدث هذا الصدام، ولم يتحرك بنو قريظة رسمياً إلا أنهم أرسلوا قافلةً للمشركين مؤلفةً من عشرين بعيراً تحمل تمراً، وزبيباً، وتيناً، ولكنها لم تصل إلىٰ هدفها إذ استولىٰ المسلمون عليها، حيث التقوا بها عرضاً بينما كانوا يدفنون أحد موتاهم فأخذوها، ووجدوها لقمةً سائغةً أثناء اشتداد أزمة الجوع عليهم إذ كان عامهم سنة قحط وجدب. كما أن قريشاً وغطفان قد طلبوا من بني قريظة أن يُشاغلوا المسلمين ويتحرّشوا بهم حتىٰ يتمكّنوا من اقتحام الخندق، وقد حاولوا ذلك، ولكن الخوف جعل الحذر منهم شديداً، ولم يتمكّنوا من أن يقوموا بعملٍ ـ بإذن الله ـ.

ثم خرج نُعيم بن مسعود حتىٰ أتىٰ قريشاً، وقال لأبي سفيان صخر بن حرب ومن معه من رجال قريش: قد عرفتم ودّي لكم، وفِراقي محمداً، وإنه قد بلغني أمر قد رأيت عليّ حقاً أن أُبلّغكموه، نُصحاً لكم، فاكتموا عني. فقالوا نفعل. قال: تعلمون أن معشر يهود قد ندموا علىٰ ما صنعوا فيما بينهم وبين محمدٍ، وقد أرسلوا إليه: إنا قد ندمنا علىٰ ما فعلنا، فهل يُرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين، من قريشٍ وغطفان رجالاً من أشرافهم، فنعطيكهم، فتضرب أعناقهم، ثم نكون معك علىٰ من بقي منهم حتىٰ نستأصلهم؟ فأرسل إليهم: أن نعم. فإن بعثت إليكم يهود يلتمسون منكم رهناً من رجالكم فلا تدفعوا إليهم منكم رجلاً واحداً.

وكانت قريش قد يئست من القتال، فقد طال عليهم الوقت، ولم تدخل معركةً حاسمةً، وكانت العادة في القتال الكرّ والفرّ، فلما لبثوا ما يقرب من عشرين ليلةً دون قتالٍ ضاقوا ذرعاً به، وإن استمرُّوا هذه المدة كلها يحاولون اقتحام الخندق، مُفتّشين عن أضيق نقطةٍ فيه، ليُشغلوا المسلمين، وليجعلوهم في ذعرٍ شديدٍ، وخوفٍ كبيرٍ، وقد حدث هذا، إلا

أن الإيمان قد تغلّب، وثبت المسلمون ثباتاً لا يُعادله ثبات، وشعرت قريش أن تفوّقها العددي لا يُساوي شيئاً أمام الإيمان، إذ أن جيشها يزيد علىٰ عشرة آلافٍ علىٰ حين أن جيش المسلمين لا يصل إلىٰ ثلاثة آلاف علىٰ أكبر تقديرٍ إذ أن بعضهم يُقدّره بتسعمائة مُقاتلٍ، وهذا ما جعل اليأس يقع في صفوف جند قريشٍ بل في نفوس قادتها.

ثم خرج نُعيم بن مسعود حتىٰ أتىٰ غطفان، فقال: يا معشر غطفان، إنكم أصلي وعشيرتي، وأحبّ الناس إليّ، ولا أراكم تتهموني، قالوا: صدقت، ما أنت عندنا بمُتَّهمٍ، قال: فاكتموا عني، قالوا: نفعل، فما أمرك؟ قال لهم مثل ما قال لقريشٍ، وحذّرهم ما حذّرهم.

أرسل أبو سفيان إلىٰ بني قريظة عكرمة بن أبي جهل مع نفرٍ من قريشٍ وغطفان يحثُّونهم علىٰ مناجزة المسلمين والبدء بالقتال حتىٰ يلتفت إليهم رسول الله، ويتمكّن الأحزاب من اقتحام الخندق، وكان يوم السبت الخامس من شهر شوال سنة خمسٍ للهجرة، فقال لهم عكرمة: إنا لسنا بدار مقام، قد هلك الخفّ والحافر، فاستعدّوا للقتال حتىٰ نناجز محمداً، ونفرغ مما بيننا وبينه.

فقالوا له: إن اليوم يوم السبت، وهو يوم لا نعمل فيه شيئاً، وقد كان بعضنا أحدث فيه حدثاً، فأصابه ما لا يخفىٰ عليكم، ولسنا مع ذلك نُقاتل محمداً حتىٰ تعطونا رهناً من رجالكم، يكونون بأيدينا ثقةً لنا، حتىٰ نناجز محمداً، فإنا نخشىٰ إن ضرستكم الحرب، واشتدّ عليكم القتال أن تنشمروا إلىٰ بلادكم وتتركونا، والرجل في بلدنا، ولا طاقة لنا بذلك منه.

فلما رجع عكرمة مع من كان معه إلىٰ الأحزاب، وأخبروهم بالذي قالت بنو قريظة. قالت قريش وغطفان: صدق والله نُعيم، فأرسلوا إليهم: إنا والله لا ندفع إليكم رجلاً واحداً من رجالنا، فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا وقاتلوا.

فقالت بنو قريظة: صدق والله نُعيم، ما يريدوا القوم إلا أن يُقاتلوا، فإن رأوا فرصةً انتهزوها، وإن كان غير ذلك انشمروا إلىٰ بلادهم، وخلّوا بيننا

وبين الرجل في بلدنا، فأرسلوا إلىٰ قريشٍ وغطفان: إنا والله لا نقاتل معكم محمداً حتىٰ تعطونا رهناً، فأبوا عليهم، ووقع الخلاف بينهم.

وجاء نصر الله، إذ هبّت علىٰ أعداء الإسلام ريح عاصف في ليلةٍ شاتيةٍ شديدة البرد، فانقلبت قدورهم، وأوعية مائهم، وأُزيلت خيامهم، وعمّتهم الفوضىٰ. وعلم رسول الله ﷺ بما حدث من خلافٍ بين اليهود والأحزاب، فأرسل حذيفة بن اليمان[1] ليدخل في القوم، ولينظر ماذا يصنعون، وأمره ألا يُحدث شيئاً حتىٰ يعود.

قال حذيفة: فذهبت فدخلت في القوم، والريح وجنود الله تفعل بهم ما تفعل، لا تقرّ لهم قدراً، ولا ناراً، ولا خياماً.

قام أبو سفيان، فقال: يا معشر قريشٍ، لينظر كل امرئ من جليسه؟

---

(١) حذيفة بن اليمان: حذيفة بن حسل بن جابر العبسي، أبو عبدالله، واليمان لقب حسل، صحابي، من الولاة الشجعان الفاتحين، كان صاحب سرّ النبيّ ﷺ في المنافقين، لم يعلمهم أحد غيره، ولما ولي عمر بن الخطاب ﷺ الخلافة سأله: أفي عمّالي أحد من المنافقين؟ فقال: نعم، واحد. قال: مَن هو؟ قال: لا أذكره. وحدّث حذيفة بهذا الحديث بعد حين، فقال: وقد عزله عمر ﷺ كأنما دُلّ عليه.

وكان عمر ﷺ إذا مات ميت يسأل عن حذيفة، فإن حضر الصلاة عليه، صلّىٰ عليه عمر، وإلا لم يُصلِّ عليه.

وولاّه عمر ﷺ علىٰ المدائن في بلاد فارس، وكانت عادته إذا استعمل عاملاً كتب في عهده: (وقد بعثت فلاناً، وأمرته بكذا)، فلما استعمل حذيفة كتب في عهده: (اسمعوا له وأطيعوه، وأعطوه ما سألكم)، فلما قدم المدائن استقبله الدهاقين (سادة المجوس)، فقرأ عهده، فقالوا: سلنا ما شئت، فطلب ما يكفيه من القوت، وأقام، فأصلح بلادهم. وهاجم مدينة (نهاوند) سنة ٢٢ للهجرة، فصالحه صاحبها علىٰ مالٍ يُؤدّيه كل سنةٍ. وغزا (الدينور) و(ماه سندان) فافتتحهما عنوةً، وكان سعد بن أبي وقّاص ﷺ قد فتحهما، ونقضتا العهد.

ثم غزا (همذان) و(الريّ)، فافتتحهما عنوةً.

واستقدمه الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ إلىٰ المدينة، فلما قرُب وصوله اعترضه الخليفة في ظاهرها، فرآه علىٰ الحال التي خرج بها، فعانقه وسُرّ بعفّته، ثم أعاده إلىٰ المدائن، فتوفي فيها سنة ستٍّ وثلاثين للهجرة في بداية خلافة علي بن أبي طالب ﷺ. ولحذيفة بن اليمان ﷺ في كتب الحديث (٢٢٥) حديثاً.

قال حذيفة: فضربت بيدي علىٰ يد الذي عن يميني، فأخذت بيده، فقلت: مَن أنت؟ قال: معاوية بن أبي سفيان، ثم ضربت بيدي علىٰ يد الذي عن شِمالي، فقلت: مَن أنت؟ قال: عمرو بن العاص.

ثم قال أبو سفيان: يا معشر قريشٍ، إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام، لقد هلك الكُراع والخُفّ، وأخلفتنا بنو قريظة، وبلغنا عنهم الذي نكره، ولقينا من شِدّة الريح ما ترون، ما تطمئن لنا قِدْر، ولا تقوم لنا نار، ولا تستمسك لنا خيمة، فارتحلوا إني مرتحل، ثم قام إلىٰ بعيره فامتطاه، وأعطىٰ أوامره للفرسان بحماية الانسحاب، ففعلوا، وغادرت قريش مواقعها، وارتحلت غطفان عن مواضعها، ثم انسحب الفرسان.

ولما أصبح الصباح وجد رسول الله ﷺ أن الأحزاب قد ذهبوا، فانصرف إلىٰ المدينة راجعاً، ووضع المسلمون السلاح. وانتهت غزوة الأحزاب، وانتهت مؤامرة اليهود، وباء الجميع بالفشل، وكانت آخر إغارةٍ علىٰ المدينة أو آخر حربٍ يشنّها المشركون واليهود، إذ أصبح المسلمون بعدها هم الأقوياء، ويقومون بالجهاد ونشر الدعوة، وقتال كل من يقف في وجه الإسلام مهما بلغت قوته.

وقد استشهد ثمانية من المسلمين في هذه المعركة، وكلهم من الأنصار، إثنان منهم كانا يقومان بأعمال الدورية لنقل أخبار الأحزاب إلىٰ رسول الله ﷺ، فقبض عليهما المشركون، وقتلوهما.

أما الستة الباقون فهم ثلاثة من بني عبد الأشهل، وهم:

١ ـ سعد بن معاذ. ٢ ـ أنس بن أوس بن عتيك. ٣ ـ عبدالله بن سهل.

وإثنان من بني جُشم من الخزرج، وهما:

١ ـ الطفيل بن النعمان. ٢ ـ ثعلبة بن غنمة.

وشهيد واحد من بني النجار، وهو: كعب بن زيد.

وكان عدد قتلىٰ المشركين أربعة فقط، منهم:

١ ـ مُنبِّه بن عثمان من بني عبد الدار. ٢ ـ نوفل بن عبدالله بن المغيرة من بني مخزوم. ٣ ـ عمرو بن عبد وُدّ الذي قتله علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

وعُرفت هذه المعركة باسم غزوة (الخندق)، كما عُرفت باسم غزوة (الأحزاب). وأنزل الله سورة الأحزاب.

قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ

بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾ [الأحزاب].

وقال الله تعالىٰ: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ [الأحزاب].



توسُّع الدولة الإسلامية

تجمّعت الأحزاب ليقضوا علىٰ المسلمين ودولتهم، وينتهوا منهم، وهؤلاء الأحزاب هم أعداء الله في جزيرة العرب كلها، اليهود والمنافقون في داخل المدينة المنورة، وقريش والأعراب في خارجها. وفشلت الأحزاب بل وخرجت متنافرةً لا يثق بعضها ببعضٍ، وانصرف الأحزاب، وكان علىٰ المسلمين أن يضربوا عدوًّا بعد عدوٍّ إذْ افترقوا بعد اتفاقٍ، وكانت الضربة الأولىٰ يجب أن تتوجّه إلىٰ يهود بني قريظة الذين يعيشون في ضاحية المدينة المنورة فهم والمسلمون في موقعٍ واحدٍ، والذين كان بينهم وبين المسلمين عهد فنقضوه، عندما وجدوا قوةً تُحيط بالمسلمين، ومعنىٰ هذا أنه لا يوثق بهم، وكلما سنحت لهم الفرصة قاموا بغدرٍ جديدٍ، هذا من جهةٍ، ومن جهةٍ ثانيةٍ فإن التوسُّع يقضي أن يكون تطهير مركز الحكم قبل كل شيءٍ، ثم يكون الانطلاق خارجه، ويُطهّر جزء بعد جزءٍ، والبدء باليهود أمر طبيعي، حيث إن المنافقين يُظهرون الإسلام، ويضمرون الحقد علىٰ أهله، ولا يعرفهم المسلمون كلهم، وإنما البعض يعرف أفراداً منهم من تصرّفاتهم. ولما كنا غير مكلّفين بالشقّ عن القلب، ومعرفة الخفايا فإننا نحكم علىٰ الظاهر، وعليه فهم مسلمون، ثم إن المنافقين لا ينشطون إلا إذا خافوا علىٰ أنفسهم من القتال مع المسلمين، أو وجدوا قوةً تكاد تعصف بالمسلمين عندها يبزغ قرن النفاق جلياً إما بالهروب من الجهاد أو بالتفاهم والاتفاق مع أعداء الإسلام، أما إذا قوي أمر المسلمين اختفىٰ المنافقون وزاد إظهارهم للطاعة والعبادة.

غزوة بني قريظة:

عندما نفض بنو قريظة يدهم من قريشٍ وغطفان في غزوة الأحزاب آخر

الأمر، رأوا أن يُناوروا ويُخاتلوا علىٰ المسلمين خوفاً علىٰ حياتهم، فطلبوا من رسول الله ﷺ أن يعيدوا العهد الذي بينه وبينهم، شريطة أن يعود يهود بني النَّضير إلىٰ ديارهم في المدينة المنورة، إلا أن رسول الله ﷺ قد رفض ذلك لما رأىٰ من غدرهم.

فلما انصرف الأحزاب، وعاد المسلمون من الخندق، ووضعوا السلاح، إذ بأمرٍ من السماء يأتي به جبريل عليه السلام، فيقول له: «أوَقد وضعت السلاح يا رسول الله؟ قال: نعم، قال: فما وضعت الملائكة السلاح، وما رجعت الآن إلاّ من طلب القوم، إن الله يأمرك بالمسير إلىٰ بني قريظة، فإني عامد إليهم فمزلزلهم».

أمر رسول الله ﷺ مؤذناً، فأذَّن بالناس: مَن كان سامعاً مطيعاً فلا يُصلّين العصر إلا في بني قريظة. فأسرع المسلمون إلىٰ بني قريظة، ومنهم مَن صلّىٰ بالطريق، وأخذ الأمر علىٰ باب السرعة، ومنهم مَن لم يُصلِّ إلا هناك حسب الأمر فصلّىٰ متأخِّراً، وفي غير وقت الصلاة. وعندما ذُكر ذلك لرسول الله ﷺ، لم يُعنّف أحداً من الطرفين.

ولما رأىٰ بنو قريظة المسلمين دخلوا حصونهم، واعتصموا بها، ودخل معهم حُييّ بن أخطب سيد بني النضير، وحاصرهم رسول الله ﷺ، خمساً وعشرين ليلةً، فلما طال عليهم الحصار، ورأوا أنهم سيموتون جوعاً إن استمرّ، قال لهم سيّدهم كعب بن أسد: يا معشر يهود، قد نزل بكم من الأمر ما ترون، وإني عارض عليكم خلالاً ثلاثاً، فخذوا أيها شئتم، قالوا: وما هي؟ قال: نُتابع هذا الرجل ونُصدّقه، فوالله لقد تبيّن لكم إنه نبيّ مُرسل، وإنه للذي تجدونه في كتابكم، فتأمنون علىٰ دمائكم، وأموالكم، وأبنائكم، ونسائكم.

قالوا: لا نفارق حكم التوراة أبداً، ولا نستبدل به غيره.

قال: فإذا أبيتم هذه، فهلمُّوا فلنقتل أبناءنا ونساءنا ثم نخرج إلىٰ محمدٍ وأصحابه رجالاً مُصلّتين السيوف، لم نترك وراءنا ثقلاً، حتىٰ يحكم الله بيننا وبين محمدٍ، فإن نهلك نهلك، ولم نترك وراءنا نسلاً نخشىٰ عليه، وإن نظهر فلعمري لنجدنّ النساء والأولاد.

قالوا: نقتل هؤلاء المساكين، فما خير العيش بعدهم؟

قال: فإن أبيتم عليّ هذه، فإن هذه الليلة هي ليلة السبت، وإنه عسىٰ أن يكون محمد وأصحابه قد أمنونا فيها، فانزلوا لعلّنا نصيبُ من محمدٍ وأصحابه غرةً. قالوا: نفسد سبتنا علينا، ونُحدِث فيه ما لم يُحدِث من كان قبلنا إلا من قد علمت، فأصابه من المسخ ما لم يخفَ عليك.

قال: ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلةً واحدةً من الدهر حازماً. وألقىٰ باللوم علىٰ حييّ بن أخطب الذي حملهم علىٰ الغدر بالمسلمين، ونقض عهد رسول الله ﷺ.

وطلب بنو قريظة من رسول الله ﷺ أن يسمح لهم بالجلاء عن ديارهم بالشروط التي جلا فيها بنو النضير، بحيث يحملون أموالهم ومتاعهم معهم ويتركون سلاحهم. فلم يقبل رسول الله ﷺ منهم، وإنما طلب منهم أن ينزلوا لحكمه دون شروط، ثم طلبوا منه أن يرسل إليهم أحد حلفائهم من الأوس ليستشيروه، وهو أبو لبابة بشير بن عبد المنذر، فأرسله إليهم، فلما رأوه قام إليه الرجال، وبكت النساء والأولاد في وجهه، فأشفق عليهم، وسألوه: هل ننزل علىٰ حكم محمد؟ قال: نعم، وأشار بيده إلىٰ حلقه، أي أنه الذبح.

قال أبو لبابة: فوالله ما زالت قدماي من مكانهما حتىٰ عرفتُ أني قد خنت الله ورسوله، ثم انطلق أبو لبابة علىٰ وجهه ولم يأتِ رسول الله ﷺ، بل ذهب إلىٰ المسجد فربط نفسه في أحد أعمدته، وقال: لا أبرح مكاني هذا، حتىٰ يتوب الله عليّ مما صنعت، وعاهد الله ألا يطأ ديار بني قريظة أبداً، حتىٰ لا يُرىٰ أبداً في بلدٍ خان فيه الله ورسوله.

استبطأ رسول الله ﷺ أبا لبابة، فسأل عنه، فقيل له: فعل كذا وكذا، فقال عليه الصلاة والسلام: «أما إنه لو جاءني لاستغفرتُ له، فأما إذ قد فعل ما فعل، فما أنا بالذي أُطلقه من مكانه حتىٰ يتوب الله عليه». ثم تاب الله عليه، وأنزل في توبته.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [التوبة].

وعندما علم أبو لبابة بما أنزل الله في توبته أراد أن يتصدّق بكل ماله تتمة لتوبته، ولكن رسول الله ﷺ قال له: «يُجزئك الثلث أن تتصدّق به».

انهارت معنويات بني قريظة رغم أنهم داخل حصونهم، وفيها مُؤنهم، علىٰ حين كان المسلمون في العراء، ويتعرّضون للفحات البرد في شتاء ذلك الفصل القارص البرد، ومع الجزع الشديد الذي أصاب اليهود إلا أنهم ماطلوا في الاستسلام، مع أنهم لم يكونوا ينتظرون نجدةً من أيّة جهةٍ، واشتدّ علىٰ المسلمين الموقف، ورأوا ما أصاب اليهود من انهيارٍ، لذا هدّد المسلمون بني قريظة باقتحام الحصون عليهم إن لم يسرعوا بالاستسلام، ولم يكن بدّ عند اليهود من ذلك لما لحقهم من خوفٍ وذعرٍ، وخاصةً عندما وجدوا المسلمين قد همُّوا فعلاً بالانطلاق، فأعلن بنو قريظة استسلامهم، وفتحوا أبواب حصونهم، وألقوا سلاحهم، وخرجوا، فأمر رسول الله ﷺ أن توضع القيود في أيدي الرجال، ويعزلوا في جانب بإشراف محمد بن مسلمة، ثم نقلوا إلىٰ المدينة حيث سجنوا في دار أسامة بن زيد[1]. أما النساء والأطفال فقد عُزلوا في جانبٍ آخر، ونقلوا إلىٰ المدينة أيضاً حيث أُنزلوا في دار إحدىٰ النساء من بني النجار، وكان ينزل فيها الوفود عادةً، وكان عدد الرجال تسعمائة مُقاتلٍ، والنساء والأطفال يقاربون ذلك أو يزيدون قليلاً، وقد يصلون إلىٰ الألف.

وقد ذكرنا أنه كانت في الجاهلية أحلاف اليهود وباقي سكان المدينة من الأوس والخزرج، وكان الأوس قد حالفوا بني قريظة، علىٰ حين حلف

---

(١) أسامة بن زيد بن حارثة، من كنانة عوف، كان أبوه زيد مولىٰ رسول الله ﷺ وأسامة: أبو محمد، صحابي جليل، ولد بمكة، ونشأ علىٰ الإسلام لأن أباه كان أول الناس إسلاماً. وُلد أسامة سنة سبعٍ قبل الهجرة، وكان رسول الله ﷺ يُحبّه حُبًّا جمًّا، وينظر إليه نظره إلىٰ سبطَيْه الحسنَ والحسين. هاجر مع النبيّ ﷺ إلىٰ المدينة، وأمّره رسول الله قبل أن يبلغ العشرين من عمره، وكان مُظفّراً موفّقاً. ولما توفي رسول الله انتقل أسامة إلىٰ وادي القرىٰ فسكنه، ثم انتقل إلىٰ دمشق أيام معاوية رضي الله عنه فسكن المزّة، ثم عاد فسكن المدينة فأقام بها إلىٰ أن مات سنة أربعٍ وخمسين للهجرة، وله في كتب الحديث (١٢٨) حديثاً.

الخزرج بني قينقاع وبني النضير. ولقد شفع الخزرج في حلفائهم حين أُجلوا عن المدينة كما مرّ معنا، وقد لعب آنذاك عبدالله بن أُبيّ بن سلول دوراً في ذلك حيث يُعدّ من وجهاء الخزرج وأعيانهم.

ولما رأىٰ الأوس بني قريظة في سجنهم، ذكروا قبول شفاعة الخزرج بحلفائهم عند رسول الله ﷺ، فذهب بعضهم إلىٰ الرسول عليه الصلاة والسلام، وقالوا له: يا رسول الله، إنهم كانوا موالينا دون الخزرج، وقد فعلت في موالي إخواننا بالأمس ما قد علمت، فقال لهم رسول الله ﷺ: «ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم؟». قالوا: بلىٰ. فقال رسول الله ﷺ: «فذاك سعد بن معاذ».

فطمع الأوس في أن ينجو بنو قريظة من القتل، علىٰ الرغم من معرفتهم بما ارتكبوه من جريمة شنعاء في حق المسلمين في الغدر بهم ونقض عهودهم، وأسرع عدد من الأوس إلىٰ سيدهم سعد بن معاذ يطلبون منه الرأفة بمواليه، وكان سعد جريحاً مما أصابه يوم الخندق، ومقيماً في خيمةٍ في المسجد النبوي، وتُشرف عليه (رُفيدة) إحدىٰ الصحابيات الجليلات، فحملوا سعداً إلىٰ رسول الله ﷺ علىٰ حمارٍ، ولما كلّموه في الرحمة والرفق بمواليه، أجابهم: لقد آنَ لسعدٍ أن لا تأخذه في الله لومة لائم. عندها يئس الأوس من الرفق ببني قريظة، وعلموا أن مصيرهم الإعدام لا محالة.

وصل سعد بن معاذ رضي الله عنه إلىٰ رسول الله ﷺ، فقال رسول الله للأنصار: «قوموا إلىٰ سيدكم فأنزِلوه»، فقاموا وأنزلوه ـ وهذا لأنه جريح ـ فقال له رسول الله ﷺ: «احكم فيهم يا سعد». فقال سعد: الله ورسوله أحق بالحكم، فقال عليه الصلاة والسلام: «قد أمرك الله أن تحكم فيهم».

وقف سعد، واتجه إلىٰ الأوس خاصةً، وإلىٰ من في المعسكر عامةً، وقال: عليكم بذلك عهد الله وميثاقه، أن الحكم كما حكمت، قالوا: نعم، ثم اتّجه إلىٰ الجهة التي فيها رسول الله ﷺ، وهو مطرق رأسه إجلالاً لرسول الله وإكباراً، وقال: وعلىٰ مَن هنا، وأشار بيده إلىٰ جهة رسول الله، فقال نبيّ الله عليه أفضل الصلاة والسلام: «نعم»، ثم اتجه إلىٰ بني قريظة

المسجونين، فقال لهم: أترضون بحكمي؟ فقالوا: نعم، ومع خوفهم الشديد، وارتجاف حواسهم كلها، فقد بقي عندهم أمل من الرجاء في العفو. واتجهت الأنظار نحو سعدٍ لا تكاد تتحرك شاخصة كأنها تريد أن تستخرج الكلمة من لسان سعد، فإذا هو يقول: أحكم في بني قريظة أن تُقتل الرجال، وأن تُسبىٰ النساء، وأن تكون أموالهم غنيمةً للمحاصرين لهم من المسلمين، وأن تكون ديارهم كلها للمهاجرين دون الأنصار.

فقال رسول الله ﷺ لسعد: «لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سماواتٍ». ثم أمر رسول الله ﷺ بحفر خنادق في سوق المدينة، وضُربت أعناق بني قريظة، جماعات جماعات، وأُلقيت جثثهم في الخندق، وكانوا إثر قتل كل جماعةٍ يوارون جُثثهم بالتراب. وكان بين القتلىٰ امرأة واحدة اسمها (مُزْنة) قتلت خلاّد بن سويد بحجر طاحون من فوق الحصن، وكان خلاّد يستظلّ في ظلّ الحصن أثناء الحصار، فعُدّت بين المقاتلين وقُتلت. ووُزّعت الغنائم بين المحاربين بعد استبقاء خمسها، كما وُزّعت السبايا.

وأمر رسول الله ﷺ، ألا يُفرّق بين الأم وولدها. فقيل: إلىٰ متىٰ؟ قال: «حتىٰ يبلغ الغلام، وتحيض الجارية».

أما سعد بن معاذ ﷺ فلم يلبث أن انفجر عليه جرحه، ومات شهيداً. وهكذا تحقّقت أُمنيته، وسُمع دعاؤه بألا يموت حتىٰ تقرّ عينه من بني قريظة، وذلك حين أُصيب يوم الخندق إذ قال ـ كما ذكرنا ـ: اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريشٍ شيئاً، فأبقني لها، فإنه لا قوم أحبّ إليَّ أن أُجاهدهم، من قومٍ آذوا رسولك، وكذّبوه، وأخرجوه، اللهم وإن كنت وضعت الحرب بيننا وبينهم فاجعلها لي شهادةً، ولا تُمتني حتىٰ تقرّ عيني من بني قريظة.

وكان قتل بني قريظة بعد غدرهم الذي قاموا به، ونقضهم العهد الذي فعلوه، فقتلهم يدلّ علىٰ حكمةٍ بالغةٍ، إذ أن كثيراً من الناس يطمع في رحمة المسلمين، وإنسانيتهم، وعدم حُبّهم لسفك الدماء، وعفوهم عند المقدرة، والظنّ بهم خيراً بعد أن يقعوا في قبضتهم، وكان هذا ما يُشجّعهم علىٰ القيام بأعمالٍ ضدّ المسلمين ثم يرجون العفو.

وهذا ما كان يطمع به بنو قريظة، إلا أن سعد بن معاذ ﷺ، حين

حكم عليهم هذا الحكم كان يشعر أن غدرهم لو نجح لعصف بالكيان الإسلامي كاملاً، لذا كان معهم حازماً، وهذا ما يجب أن يعرفه المسلمون وأعداؤهم علىٰ سواء أن الحكمة قد تكون في الشدّة، وأن للعطف موضعه، وأن للحزم موضعه أيضاً، وأن الأعداء حينما يتمادون في غيِّهم لا بُدّ من أخذهم بالشدّة، والضرب علىٰ أيديهم بقوةٍ ولو أدّىٰ الأمر إلىٰ إبادتهم جميعاً كما أُبيد بنو قريظة الذين كان إعدامهم درساً لمن عاش أيامهم، ولمن يعيش من بعدهم. وكان القضاء علىٰ بني قريظة الانتهاء من العدوّ الداخلي، والاتجاه نحو العدوّ الخارجي.

قتل سلام بن أبي الحقيق:

كان من الذين حزّبوا الأحزاب سلّام بن أبي الحُقَيق، وهو من زعماء يهود بني النضير الذين أقاموا في بلدة خيبر اليهودية بعد أن أجلاهم رسول الله ﷺ عن المدينة المنوّرة. وقد خرج خمسة رجال من المدينة من الأنصار من الخزرج بأمر رسول الله ﷺ إلىٰ خيبر، وقتلوا هذا الطاغية في بيته ليعلم الطغاة أن أيدي المسلمين بإمكانها أن تصل إليهم، وتنال منهم، ولو كانوا داخل بيوتهم، أو في منأى من الأرض، حتىٰ لا يعودوا إلىٰ معاداة المسلمين، والعمل ضدّهم، وضدّ دعوتهم.

إسلام ريحانة:

كان رسول الله ﷺ قد اصطفىٰ لنفسه من سبايا بني قريظة (ريحانة بنت عمرو بن خُنافة، إحدىٰ نساء بني عمرو بن قريظة) فكانت عند رسول الله ﷺ، حتىٰ توفي عنها، وهي في مِلكه، وقد كان رسول الله ﷺ عرض عليها أن يتزوجها، ويضرب عليها الحجاب، فقالت: يا رسول الله، بل تتركني في مِلكك، فهو أخفّ عليّ وعليك، فتركها. وقد كانت حين سباها قد تعصّت بالإسلام، وأبت إلا اليهودية، فعزلها رسول الله ﷺ، ووجد في نفسه لذلك من أمرها، فبينما هو مع أصحابه، إذ سمع وقع نعلين خلفه، فقال: إن هذا لثعلبة بن سَعْية يُبَشِّرُني بإسلام ريحانة، فجاءه فقال: يا رسول الله، قد أسلمت ريحانة، فسرّه ذلك من أمرها.

زواج رسول الله بزينب بنت جحش:

لقد كانت زينب بنت جحش بنت عمّة رسول الله ﷺ أميمة بنت عبد المطلب، وكان لها من طيب الأصل والجمال ما تفخر به على غيرها، وأراد رسول الله ﷺ أن يزوجها من مولاه زيد بن حارثة رضي الله عنه، فأبدت هي وأهلها جفاءً وتمنُّعاً من هذا الزواج، إذ وجدوا هذا الزوج غير كفءٍ لابنتهم الجميلة ذات الشرف والجاه، لأنه من الموالي، إلا أن الإسلام لا يعرف هذه الطبقات التي اعتاد الناس أن يُصنّفوا أنفسهم فيها.

يقول الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات].

لذا لم يقبل رسول الله ﷺ هذا التمنُّع منهم، وأصرّ على ذلك، ولم يكن لهم من الأمر شيء. يقول الله تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ [الأحزاب].

وتمّ زواج زيد بن حارثة رضي الله عنه من زينب بنت جحش رضي الله عنها.

وقضت حكمة الله سبحانه وتعالىٰ أن يلغي فكرة التبنّي، وكانت هذه الظاهرة شائعةً في الجاهلية، واستمرّت في الإسلام، حتىٰ أراد الله عز وجل أن يُلغي تلك الظاهرة التي تضرّ بكيان الأسرة، وما يتعلّق بذلك من إرثٍ وغيره.

وكان رسول الله ﷺ قد تبنّىٰ زيداً، لذا كانوا يدعونه زيد بن محمدٍ، فأنزل الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾﴾ [الأحزاب].

إلا أن الحياة الزوجية لم تستقم بين زيد وزينب رضي الله عنهما ولم يطيقاها. إذ كانت زينب تتباهىٰ بأسرتها، ومكانتها، وبجمالها، وترىٰ في زوجها مولىً لا

مكانة له فكانت أمامه فأصبح يشعر بالإهانة والمذلّة، ويرىٰ الفراق للزوجة بل وهي ترىٰ ذلك وخاصةً بعد أن أُبْعِدَ عنه اسم (زيد بن محمد)، فاستشار زيد رضي الله عنه رسول الله ﷺ في طلاق زينب رضي الله عنها، وبيّن له الأسباب الداعية إلىٰ ذلك، فطلب منه رسول الله أن يتريّث ويصبر فعسىٰ أن تعود الأمور إلىٰ طبيعتها. مع العلم أن الله سبحانه وتعالىٰ قد أخبر رسوله بأنه سيتزوج زينب بعد أن يطلقها زيد وتنقضي عِدّتها، غير أن رسول الله ﷺ كان يخشىٰ إظهار ذلك لأن الناس سيقولون: إن محمداً قد تزوج امرأة مُتبنّاه، وكان هذا مُحرّماً في الأعراف التي كانت سائدةً يومذاك إذ يعدُّون المُتبنَّىٰ كابن المتبنّي أي يعدُّون زيداً كأنه ابن رسول الله، بل كان يُسمّىٰ بناءً علىٰ ذلك (زيد بن محمد)، ولم يُحرّمه الإسلام بعد ذلك إذ أمر الله سبحانه وتعالىٰ أن يُطلّق زيد زوجته زينب، وأن يتزوّجها رسول الله محمد بعد أن تنقضي عِدّتها. يقول الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾﴾ [الأحزاب]. وهكذا أُلغي التبنّي، وتزوّج رسول الله ﷺ بابنة عمّته زينب بنت جحش رضي الله عنها.

وفُرِضَ الحجاب كما فُرِضَ الحجّ في هذه الآونة.

أما العدوّ الثالث فكان الأعراب، فأراد رسول الله ﷺ أن يُؤدّبهم قبيلةً قبيلةً ما داموا مُتفرّقين، حتىٰ لا يُفكّروا أبداً في الإغارة علىٰ المدينة بعد ذلك، وحتىٰ لا يُفكّروا في التجمع وتأليف الأحزاب في محاولاتٍ للهجوم علىٰ المدينة المنوّرة والعمل للقضاء علىٰ الإسلام، وجهّز لذلك السرايا، وسار في الغزوات، ومنها:

١ ـ **سرية محمد بن مسلمة**: أرسله في بداية السنة السادسة للهجرة في ثلاثين راكباً لشنّ غارةٍ علىٰ بني بكر بن كلاب، الذين كانت منازلهم إلىٰ الشمال الشرقي من المدينة وعلىٰ بُعد مائتين وثمانين كيلومتراً علىٰ طريق البصرة، وقد استطاع أن يفاجئهم في ديارهم، فقتل عشرةً من رجالهم، وفرّ

الباقون، ورجع محمد بن مسلمة إلىٰ المدينة ومعه الغنائم من الأنعام والأغنام، وأثناء عودته أسر ثُمامة بن أُثال[1] أحد وجهاء بني حنيفة في نجدٍ، وبقي ثُمامة ثلاثة أيام في المدينة أسيراً، وقد رفض أن يُسلم، ثم طلقه رسول الله ﷺ بعد أن أكرمه، ثم عاد ثُمامة فأسلم، وثبت حين ارتدّ قومه.

٢ ـ **غزوة بني لحيان:** غزا رسول الله ﷺ بني لحيان الذين قتلوا عاصم بن ثابت[2] في ماء الرجيع، بعد أن أظهر أنه يريد الشام، وقد كان مع رسول الله ﷺ مائة راكبٍ، ووصل إلىٰ ماء الرجيع شمال غربي مكة وشمال شرقي جُدّة وعلىٰ بُعد ثمانين كيلومتراً من المدينتين. فتفرّق بنو لحيان في الجبال، فأرسل وراءهم من يُطاردهم، فلم يعثروا علىٰ أحدٍ، كما أرسل بعض أصحابه إلىٰ عسفان لكي يعلم أهل مكة بهذه الغزوة فيقع الرعب في نفوسهم، ثم عاد مع أصحابه إلىٰ المدينة.

٣ ـ **غزوة الغابة:** أغار عُيينة بن حصن في أربعين راكباً علىٰ الغابة، التي تبعد أربعين كيلومتراً عن المدينة إلىٰ جهة الشرق، والتي يوجد فيها عشرون من الإبل لرسول الله ﷺ، فاستاقها من راعيها وفرّ، فخرج رسول الله ﷺ في أثره بعد أن أرسل له من يُشاغله حتىٰ تصل النجدة، ولكنه نجا غير أن المسلمين خلصوا أكثر الإبل التي سُرقت.

٤ ـ **سرية عُكاشة بن مِحْصَن[3]:** كان بنو أسد شمال شرقي المدينة

---

(١) ثُمامة بن أُثال بن النعمان اليمامي، أبو أمامة، من بني حنيفة، صحابي، سيد أهل اليمامة، له شِعر، وثبت علىٰ الإسلام عندما ارتدّ أهل اليمامة في فتنة مسيلمة الكذاب، ولحق بالعلاء بن الحضرمي في جمعٍ ممن ثبت معه، فقاتل المرتدين من أهل البحرين، وقُتل سنة اثنتي عشرة للهجرة.

(٢) عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح قيس بن عصمة الأنصاري الأوسي أبو سليمان: صحابي، من أوائل الأنصار السابقين، شهد بدراً، وأُحداً مع رسول الله، واستشهد يوم الرجيع سنة ٤ للهجرة، ورثاه حسّان بن ثابت رضي الله عنه.

(٣) عكاشة بن مِحْصَن بن حرثان الأسدي، من بني غنم: صحابي من أمراء السرايا، شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، قُتِل في حروب الرِّدّة بـ(بزاخة) بأرض نجد، قتله طليحة بن خويلد الأسدي سنة اثنتي عشرة للهجرة.

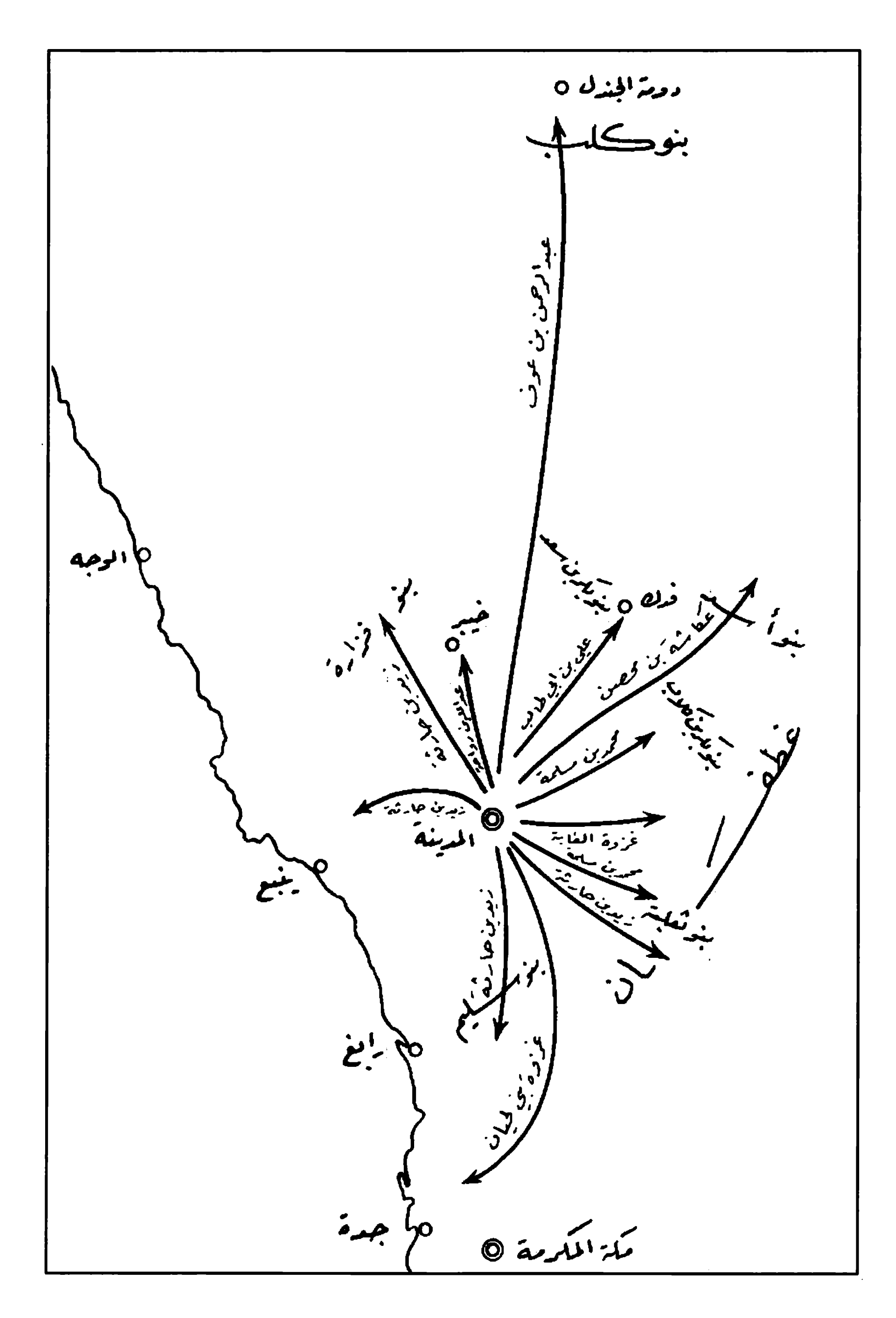
يُؤذون من ببلادهم من المسلمين، فأرسل لهم رسول الله ﷺ عُكاشة بن محصن في أربعين راكباً ليُغير عليهم، فلما علموا هربوا من وجه عُكاشة، وغنم المسلمون في هذه السرية مائةً من الإبل.

٥ ـ **سرية محمد بن مسلمة (الثانية)**: أرسل رسول الله ﷺ محمد بن مسلمة في عشرةٍ من المسلمين للإغارة علىٰ الأعراب الذين يقيمون قرب المدينة، وقد بلغه أنهم يريدون الإغارة علىٰ إبل المسلمين هناك، فكمن الأعراب لسرية المسلمين، وتمكّنوا من قتلهم، ولم ينجُ منهم إلا أمير السرية محمد بن مسلمة ظناً منهم أنه قد قتل، فعاد إلىٰ المدينة، فأرسل إليهم رسول الله ﷺ أبا عبيدة بن الجراح رضي الله عنه ليثأر منهم، فلما علموا به، فرُّوا من وجهه.

٦ ـ **سرية زيد بن حارثة**: بعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة علىٰ رأس سريةٍ للإغارة علىٰ بني سُليم الذين كانوا مع الأحزاب، فلما وصل إلىٰ ديارهم، تفرّقوا، وفرُّوا من أمامه، وعادت السرية بالغنائم من الأنعام والأغنام.

٧ ـ **سرية زيد بن حارثة (الثانية)**: بعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة علىٰ رأس مائةٍ وسبعين راكباً، ليعترض قافلةً آيبةً من الشام في طريقها إلىٰ مكة، واستطاع زيد رضي الله عنه أخذ القافلة، وأسر رجالها، وفيهم أبو العاص بن الربيع زوج زينب بنت رسول الله ﷺ، ولم يكن قد أسلم بعد، فاستجار بزوجته زينب رضي الله عنها، فأجارته، فقال رسول الله ﷺ: «المسلمون يد واحدة يُجير عليهم أدناهم، وقد أجرنا من أجرت». وردّ رسول الله ﷺ إليه ماله كله، فسار إلىٰ مكة، فأعطىٰ الأمانات، وأدّىٰ لكل رجلٍ ماله، ورجع إلىٰ المدينة مسلماً.

٨ ـ **سرية زيد بن حارثة (الثالثة)**: وانطلق زيد بن حارثة رضي الله عنه علىٰ رأس خمسة عشر مقاتلاً للإغارة علىٰ بني ثعلبة الذين قتلوا أصحاب محمد بن مسلمة، فلما رآهم بنو ثعلبة ظنُّوا أنهم طليعة لجيشٍ إسلامي كبير، ففرُّوا، وتركوا حيواناتهم، فاستاقها المسلمون، وعادوا بها إلىٰ المدينة.



دومة الجندل
بنو كلب
عبد الرحمن بن عوف
الوجه
خيبر
فدك
المدينة
ينبع
رابغ
جدة
مكة المكرمة
غزوة الغابة
زيد بن حارثة
محمد بن مسلمة
عكاشة بن محصن
علي بن أبي طالب
بنو سليم

مصور رقم (١١)

٩ ـ **سرية زيد بن حارثة (الرابعة)**: كان زيد بن حارثة في تجارةٍ في الشام، فلما عاد تعرّض له بنو فزارة المقيمون في وادي القرىٰ، فأخذوا تجارته، وكادوا يقتلونه، فلما وصل إلىٰ المدينة، أرسله رسول الله ﷺ مع رجاله للإغارة علىٰ بني فزارة المعتدين، فسار إليهم حتىٰ داهمهم، وأحاط بهم، وقتل منهم عدداً كبيراً.

١٠ ـ **سرية عبدالرحمٰن بن عوف**: أرسل رسول الله ﷺ عبدالرحمٰن بن عوف في سبعمائة مقاتل إلىٰ بني كليب، في دومة الجندل شمالي جزيرة العرب إلىٰ الشمال الشرقي من المدينة المنوّرة وعلىٰ بُعد سبعمائة كيلومتر منها، فلما وصل إليهم دعاهم للإسلام مدة ثلاثة أيام، وفي اليوم الرابع أسلم رئيسهم الأصبغ بن عمرو، وكان نصرانياً، ثم ًأسلم، وأسلم أكثر قومه، ومن بقي منهم علىٰ عقيدته قبِل بدفع الجزية.

١١ ـ **سرية علي بن أبي طالب**: بعث رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب ﷺ، في مائة مقاتلٍ لغزو بني سعد بن بكر بجهات فَدَك، لأنه وصل إلىٰ رسول الله ﷺ خبر مفاده أنهم يجمعون جموعهم لمعاونة اليهود في خيبر؛ لمحاربة المسلمين مقابل بعض ثمار خيبر من التمر، فسار عليّ ﷺ وفي طريقه قبض علىٰ جاسوس للأعداء في طريقه إلىٰ خيبر لعقد المعاهدة، فأمّنه، وقد دلّه علىٰ قومه، فساروا إليهم، وفي الطريق أخذوا الحيوانات، وقد هرب رعاتها، وخوّفوا قومهم، ففرُّوا، وقد استغنوا عن حيواناتهم، وعاد المسلمون بها وعددها خمسمائة بعيرٍ وألف شاة.

١٢ ـ **سرية عبدالله بن رواحة**(١): لما قُتل سلام بن أبي الحقيق، ولّىٰ يهود خيبر عليهم أُسَير بن رِزام، فأراد أن يتفق مع غطفان كلها لمحاربة

---

(١) عبدالله بن رواحة بن ثعلبة الأنصاري الخزرجي، أبو محمد: صحابي، يُعدّ من الأمراء والشعراء الراجزين. كان في الجاهلية يجيد الكتابة. شهد العقبة مع السبعين من الأنصار. وكان أحد النقباء الاثني عشر. وشهد بدراً، وأُحُداً، والخندق، والحديبية. واستخلفه رسول الله ﷺ علىٰ المدينة في إحدىٰ غزواته، وصحبه في عُمْرَة القضاء، وكان أحد الأمراء في غزوة مُؤتة سنة ٨ للهجرة، واستشهد فيها.

رسول الله ﷺ، فوصل الخبر إلىٰ المدينة، فبعث رسول الله ﷺ عبدالله بن رواحة في ثلاثين راكباً من الأنصار، فعرضوا علىٰ أسير بن رزام أن يسير إلىٰ المدينة، فيُولِّيه رسول الله ﷺ علىٰ خيبر فيكون عاملاً لرسول الله ﷺ علىٰ اليهود فيها، ويترك ما عزم عليه من الحرب، ويعيش عندها بسلام، فوافق أسير علىٰ ذلك.

كان هدف رسول الله ﷺ أن ينتهي من الجبهة الشمالية التي قوامها اليهود، ليلتفت إلىٰ الجبهة الجنوبية التي قوامها قريش.

سار أسير بن رزام إلىٰ المدينة مع ثلاثين من اليهود، كل يهوديٍّ رديف لمسلم، فلما كانوا في الطريق ندم أسير بن رزام علىٰ ما فعل، ورأىٰ أن يقتل المسلمين، فمدّ يده إلىٰ سيف عبدالله بن رواحة يريد انتزاعه منه، وقتله به، فقال له عبدالله بن رواحة: أغدراً يا عدوّ الله! ثم نزل عن فرسه وقتله، وقام المسلمون علىٰ من معهم من اليهود، وكل قتل رديفه، فقتلوهم جميعاً.

١٣ ـ أرسل أبو سفيان صخر بن حرب رجلاً ليغدر برسول الله ﷺ في المدينة المنوّرة، ولكنه كُشِف أمره، وأسلم الرجل، وأرسل رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضمريّ[1] ورفيقاً له ليقتلا أبا سفيان جزاءً له، فلما وصلا إلىٰ مكة طافا بالبيت قبل القيام بالمهمة، فعرفهما أهل مكة، فلم يجدا بُدًّا من الهرب.

١٤ ـ جاء إلىٰ رسول الله ﷺ في المدينة جماعة من قبيلة عكل وعُرينة، وأظهروا الإسلام، وبايعوا رسول الله ﷺ، ولكن لم يوافقهم جوّ المدينة، فأصابهم المرض، فأرسلهم رسول الله ﷺ مع راعٍ وإبلٍ إلىٰ خارج

---

(١) عمرو بن أمية بن خويلد بن عبدالله الضمري، صحابي شجاع، اشتهر في الجاهلية، وشهد مع المشركين بدراً وأُحُداً. ثم أسلم. وحضر بئر معونة فأسرته بنو عامر، وأطلق سراحه عامر بن الطفيل، وعاش أيام الخلفاء الراشدين، وشهد وقائع كثيرة علت بها شهرته في البسالة، ومات بالمدينة سنة ٥٥ للهجرة في خلافة معاوية بن أبي سفيان. وله عشرون حديثاً.

المدينة، فعوفوا، وكان جزاء الإحسان أن قتلوا الراعي، واستاقوا الإبل فأرسل رسول الله ﷺ في أثرهم كرز بن جابر الفهري مع عشرين فارساً، فلحقوا بهم، وقبضوا عليهم جميعاً، وأعادوهم إلىٰ المدينة، فأمر رسول الله ﷺ أن يُمثّل بهم كما مثّلوا بالراعي، كمعاملة بالمثل حتىٰ لا يطمع المشركون في رحمة المسلمين.

لقد كانت أخبار هذه الغزوات والسرايا تصل إلىٰ الأعراب وإلىٰ أكثر سكان الجزيرة العربية، فهاب الأعراب المسلمين، وعرف سكان جزيرة العرب مكانة المسلمين وقوتهم، واعترفوا بهم كقوةٍ في المنطقة، وأصبح كل إنسانٍ يريد أن يتعرّف علىٰ هذا الدين الجديد، وبهذا تنتشر الدعوة، ويعلم أنه إذا دخل في الإسلام فإن هناك من يحميه، وإذا هاجر إلىٰ المدينة فقد وصل إلىٰ مأمنه.

صلح الحديبية:

رأىٰ رسول الله ﷺ أن العدوّ الداخلي في المدينة قد انتهىٰ أمره، وأن جوّ المدينة قد خلص من كل شائبةٍ ظاهرةٍ، وأن الأعراب لا يمكنهم في تلك الظروف القيام بعملٍ حربيٍّ، وأن الخطر إنما يأتي من جبهتين وهما:

الجبهة الجنوبية، حيث قريش العدوّ الأول، وبإمكانها القيام بحركةٍ وخاصةً إذا حرّضها ماكر.

الجبهة الشمالية، حيث اليهود في خيبر، ولا يمكنهم التحرُّك وحدهم، ولكن عندهم إمكانية التحريض، والعمل علىٰ تأليف الأحزاب، وهذه طريقتهم المعروفة، ومكرهم الكبير.

ويجب أن يكون عمل المسلمين علىٰ إحدىٰ هاتين الجبهتين لنتخلّص من إحداهما ثم نلتفت إلىٰ الثانية. وما دامت الجبهة الشمالية لا يمكنها الحركة لذا اتجه المسلمون نحو الجنوب، وإن من الأفضل أن يكون البدء والعمل علىٰ الجبهة الجنوبية... إذ لو تحرّكوا نحو الشمال ربما كان هجوم قريشٍ من الجنوب، مستغلّةً خلو المدينة من جيشها وانصرافه إلىٰ تأديب اليهود الذين لا يمكنهم الهدوء وترك الناس في راحةٍ، بل لا بدّ من إشعال نار الحرب ورمي القبائل بعضها مع بعضٍ.

رأىٰ رسول الله ﷺ في نومه أنه دخل وأصحابه البيت الحرام آمنين مُحلّقين رؤوسهم ومُقصّرين، فأخبر المسلمين أنه يريد العُمْرَة، وفي العُمْرَة عبادة، وفيها جسّ لنبض قريشٍ ومعرفة لأحوالها، وفيها اعتراف ضمني من قريشٍ بالمسلمين الذين دخلوا عليها مكة، وفيها إظهار لقوة المسلمين الذين جاؤوا إلىٰ قاعدة قريشٍ لا يهابون مَن فيها، وفيها نصر للمسلمين بين الأعراب، وفيها تعظيم لبيت الله كسائر العرب، البيت الذي بناه أبواهم إسماعيل وإبراهيم عليهما السلام، فهم علىٰ الحنيفية السمحاء، وليسوا بصابئين كما يزعم مشركو قريش، هذا إضافةً إلىٰ إشعار المستضعفين من المسلمين والقائمين في مكة بقرب الخلاص وبداية الفرج.

واجتمع الأنصار والمهاجرون حول رسول الله ﷺ، للخروج إلىٰ العُمْرَة، وأبطأ عليه الأعراب الذين استنفرهم، وظنُّوا ألا ينقلب الرسول والمؤمنون إلىٰ أهليهم أبداً، وادّعىٰ الأعراب أنهم شغلتهم أموالهم وأهلوهم، وطلبوا الاستغفار من رسول الله ﷺ لهم.

قال الله تعالىٰ: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَاۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢاۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾﴾ [الفتح].

وخرج المسلمون وعددهم ألف وخمسمائة رجلٍ، وخرج مع رسول الله ﷺ زوجته أم سلمة هند بنت أبي أمية رضي الله عنها. وولّىٰ رسول الله ﷺ علىٰ المدينة عبدالله بن أم مكتوم[1]، وأرسل العيون أمامه ليأتوه بأخبار قريشٍ، وأحرم من

---

(١) عبدالله بن أم مكتوم: عبدالله بن قيس بن زائدة بن الأصم بن رواحة القرشي العامري. وأمه هي: عاتكة بنت عامر بن مخزوم بن يقظة المخزومية. من السابقين المهاجرين. وكان ضريراً مُؤذِّناً لرسول الله ﷺ مع بلال، وسعد القرظ، وأبي محذورة.

هاجر بعد غزوة بدرٍ بقليل. وقيل: استشهد في القادسية سنة خمس عشرة للهجرة في شهر شوال.

ذي الحليفة، وساق الهدي أمامه، دلالةً علىٰ أنه لا يريد الحرب، وسار نحو مكة، حتىٰ إذا كان بـ(عسفان) لقيه بشر بن سفيان، فقال له: يا رسول الله، هذه قريش، قد سمعت بمسيرك، فخرجوا ومعهم العُوذ المطافيل[1]، قد لبسوا جلود النمور، وقد نزلوا بـ(ذي طوىٰ)، يُعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبداً، وهذا خالد بن الوليد في خيلهم قد قدّموها إلىٰ (كُراع الغميم).

فقال رسول الله ﷺ: «يا ويح قريش! لقد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلُّوا بيني وبين سائر العرب، فإن هم أصابوني كان الذي أرادوا، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة، فما تظنّ قريش، فوالله لا أزال أُجاهد علىٰ الذي بعثني الله به، حتىٰ يُظهره الله، أو تنفرد هذه السالفة».

ثم قال رسول الله ﷺ: «مَن رجل يخرج بنا علىٰ طريقٍ غير طريقهم التي هم فيها؟».

فسار بهم رجل من بني أسلم في طريقٍ ذات أحجارٍ، ثم سلك بهم رسول الله ﷺ طريقاً حتىٰ خرج من (ثنيّة المُرار)، وهناك بركت ناقة رسول الله ﷺ فلم تتحرّك، فقال الناس: خلأت القصواء، فقال رسول الله ﷺ: «ما خلأت، وما ذلك لها بخُلُق، ولكن حبسها حابسُ الفيل عن مكة». ثم قال: «والذي نفسي بيده، لا يسألونني خِطّةً يعظّمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها».

ثم زجر رسول الله ﷺ ناقته، فعدل بسيره حتىٰ نزل بأقصىٰ الحديبية علىٰ حفرةٍ قليلة الماء، فقال للناس: «انزلوا»، فقالوا: يا رسول الله، ليس بالوادي ماء فننزل عليه، فأخرج سهماً من كِنانته، فأعطاه رجلاً من أصحابه، فنزل به في قليب من تلك القُلَب فغرزه في جوفه، فجاش بالرَّواء.

ولما جلس رسول الله ﷺ وأصحابه هناك جاءهم بُديل بن ورقاء الخزاعي[2] مع رجالٍ من قومه، فسألوا رسول الله ﷺ ما الذي جاء به؟

---

(١) العوذ المطافيل: يعني خرجوا بأبنائهم ونسائهم، والاصطلاح استعارة من الإبل التي ولدت حديثاً، والإبل التي معها أولادها.

(٢) بديل بن ورقاء بن عمرو بن ربيعة بن عبد العزّىٰ بن ربيعة الخزاعي. أسلم يوم فتح مكة.

فأخبرهم أنه لا يريد حرباً، وإنما جاء مُعتمراً ومُعظّماً لبيت الله، فرجعوا إلىٰ قريشٍ وأخبروهم بما قال محمد ﷺ، فاتهموهم لأن بني خُزاعة كانوا نصحة لرسول الله ﷺ، لا يكتمون عنه خبراً من أخبار مكة، وقالت قريش: وإن كان جاء ولا يريد حرباً، فوالله لا يدخلها علينا عنوةً أبداً، ولا تتحدّث بذلك عنا العرب. ثم عادت قريش فأرسلت مِكْرَز بن حفص بن الأحنف[١]، فكان أمره كأمر بديل. ثم بعثت الحُلَيس بن علقمة[٢]، وهو يومئذٍ سيد الأحابيش، فلما رأىٰ الهديَ عاد إلىٰ قريشٍ قبل أن يصل إلىٰ رسول الله ﷺ إعظاماً لما رأىٰ. وعندما سمع ما لم تسمع به قريش غضب، وقال: يا معشر قريشٍ، والله ليس علىٰ هذا حالفناكم، ولا علىٰ هذا عاقدناكم، أيُصدّ عن بيت الله من جاء مُعظماً له! والذي نفس الحُلَيس بيده لتُخَلُّنَّ بين محمدٍ وبين ما جاء له، أو لأُنَفِّرَنَّ الأحابيش نفرة رجلٍ واحدٍ، فبدؤوا يسترضونه. وبعثوا إلىٰ رسول الله ﷺ عروة بن مسعود الثقفي[٣]، فجاءه فجلس بين يديه، ثم قال: يا محمد أجمعت أوشاب الناس، ثم جئت إلىٰ بيضتك لِتَفُضَّها بهم، إنها قريش قد خرجت معها العُوذ المطافيل، قد لبسوا جلود النمور يُعاهدون الله لا تدخلها عليهم عنوةً أبداً. وأيم الله لكأني بهؤلاء قد انكشفوا عنك غداً. فقال أبو بكرٍ

---

(١) مكرز بن حفص بن الأحنف من بني عامر بن لؤي، من قريش: شاعر جاهلي، من الفُتّاك. أدرك الإسلام، وقَدِم المدينة لما أسر المسلمون سهيل بن عمرو يوم بدر، فقال لهم: اجعلوا رجليَّ في القيد مكان رجليه حتىٰ يبعث إليكم بالفداء، ففعلوا ذلك، وبعث سهيل بالفداء، فأُطلق مكرز، وقال في ذلك شعراً.

(٢) الحليس بن علقمة الحارثي، من بني الحارث بن عبد مناة بن كنانة، سيد الأحابيش ورئيسهم يوم أُحُدٍ، وكان مع مشركي قريشٍ. والأحابيش: بنو المصطلق من خُزاعة، وبنو الهون من خُزيمة، اجتمعوا عند جبل حُبشي بأسفل مكة، وحالفوا قريشاً فسُمُّوا أحابيش قريش. ولم يُسلم، ومات سنة سبعٍ للهجرة.

(٣) عروة بن مسعود بن معتب الثقفي: صحابي معروف، كان كبيراً في قومه بالطائف. ذكر أنه المراد بقول الله تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الزخرف]. ولما أسلم استأذن رسول الله ﷺ أن يرجع إلىٰ قومه يدعوهم للإسلام، فقال: أخاف أن يقتلوك. قال: لو وجدوني نائماً ما أيقظوني! فأذِن له، فرجع، فدعاهم إلىٰ الإسلام، فخالفوه، ورماه أحدهم فقتله، وذلك سنة تسعٍ للهجرة.

الصديق ﷺ له: امصُص بظْر اللات، أنحن نُكشف عنه؟ قال: مَن هذا يا محمد؟ قال: «ابن أبي قحافة»، قال: أما والله لولا يدٌ كانت لك عندي لم أكافئك بها لأجبتك، ولكن هذه بها، وجعل عروة يتناول لحية رسول الله ﷺ وهو يُكلّمه، فجعل المغيرة بن شُعبة[1] يقرع يده، ويقول له: اكفف يدك عن وجه رسول الله ﷺ قبل أن تصل إليك، فيقول له عروة: ويحك! ما أفظّك وأغلظك! فتبسّم رسول الله ﷺ، فقال له عروة: مَن هذا يا محمد؟ قال: «هو ابن أخيك المغيرة بن شُعبة». قال: أي غدرٍ، وهل غسلت سوأتك إلا بالأمس، (ذلك أن المغيرة بن شعبة كان قد قتل قبل إسلامه ثلاثة عشر رجلاً من بني مالك، فدفع عروة ديتهم عنه، حتىٰ أصلح الأمر بعد هياج الحيين). ثم رجع إلىٰ قريشٍ فقال لهم: يا معشر قريش، إني قد جئت كسرىٰ في ملكه، وقيصر في ملكه، والنجاشي في ملكه. وإني والله ما رأيت مَلِكاً في قوم مثل محمدٍ في أصحابه، ولقد رأيت قوماً لا يُسلّمونه، فَرَوا رأيكم.

وبعث رسول الله ﷺ خراش بن أمية الخزاعي إلىٰ قريشٍ، ليُخبر أشرافهم عن سبب مجيء محمدٍ وأصحابه إلىٰ البيت، وأنهم ما جاؤوا إلا معتمرين، فعقروا به الجمل، وأرادوا قتله، فمنعته الأحابيش، فخلّوا سبيله حتىٰ رجع إلىٰ رسول الله ﷺ.

وبعثت قريش خمسين مقاتلاً من رجالها، يجولون حول معسكر

---

(١) المغيرة بن شعبة بن أبي عامر بن مسعود الثقفي: ولد سنة عشرين قبل الهجرة فهو أصغر من رسول الله ﷺ بثلاث وثلاثين سنة، أبو عبدالله: أحد دُهاة العرب وقادتهم وولاتهم. صحابي، يقال له (مغيرة الرأي) وُلد بالطائف، وسافر مع جماعةٍ من بني مالك إلىٰ مصر، واتجه إلىٰ الإسكندرية، ووفد علىٰ المقوقس، ثم رجع إلىٰ الحجاز. ولما ظهر الإسلام تردّد في قبوله إلىٰ أن كانت سنة خمسٍ للهجرة فأسلم، وشهد الحديبية، واليمامة، وفتوح الشام، وذهبت عينه باليرموك، وشهد القادسية، ونهاوند، وهمدان، وغيرها. ولاّه الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ علىٰ البصرة ففتح عدة بلاد، وعزله، ثم ولاّه الكوفة، وأقرّه الخليفة عثمان بن عفان ﷺ علىٰ الكوفة، ثم عزله، واعتزل الفتنة بين علي ومعاوية ﷺ وحضر مع الحكمين، ثم ولاّه معاوية الكوفة، ولم يزل فيها حتىٰ مات سنة خمسين للهجرة، وهو أول من وضع ديوان البصرة، وللمغيرة (١٣٦) حديثاً.

المسلمين، علّهم يصيبون أحداً، فقبض المسلمون عليهم، وسيقو إلىٰ رسول الله ﷺ، فعفا عنهم، مع أنهم قد رموا العسكر بالحجارة والنبال

ودعا رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليبعثه إلىٰ قريش، فيخبرها بالذي جاء له رسول الله ﷺ، فقال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله، إني أخاف قريشاً علىٰ نفسي، وليس بمكة من بني عدي بن كعب أحد يمنعني، وقد عرفت قريش عداوتي لها، وغلظتي عليها، ولكني أدلك علىٰ رجلٍ أعز بها مني، عثمان بن عفان. فدعا رسول الله ﷺ عثمان بن عفان رضي الله عنه، فأرسله إلىٰ أبي سفيان وأشراف قريش، يُخبرهم بالذي جاء له رسول الله ﷺ.

خرج عثمان بن عفان رضي الله عنه إلىٰ مكة، وفي الطريق التقىٰ بـ(أبان بن سعيد بن العاص)(1)، فأجاره، وسار معه حتىٰ دخل مكة، فأتىٰ أبا سفيان وعظماء قريش، وبلّغهم رسالة رسول الله ﷺ، وقالت قريش لعثمان بن عفان رضي الله عنه، إن شئت فطُف بالبيت، فقال رضي الله عنه: ما كنت لأفعل حتىٰ يطوف به رسول الله ﷺ. وتأخّر عثمان عن العودة، وشاع خبر بأن قريشاً قتلت عثمان.

وبلغ رسول الله ﷺ خبر ما أُشيع، فقال: «لا نبرح حتىٰ نناجز القوم». ودعا إلىٰ البيعة، فكانت بيعة الرضوان، وبايع الناس جميعاً. ولم يتخلّف إلا (الجدّ بن قيس).

قال الله تعالىٰ: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾﴾ [الفتح].

ثم ظهر أن شائعة مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه غير صحيحةٍ.

---

(١) أبان بن سعيد بن العاص الأموي، أبو الوليد، صحابي من ذوي الشرف، كان في البدء شديد العداوة للإسلام، ثم أسلم سنة سبعٍ للهجرة، وبعثه رسول الله ﷺ سنة تسع للهجرة عاملاً علىٰ البحرين فبقي فيها حتىٰ توفي رسول الله، فجاء إلىٰ المدينة، ولقيه أبو بكرٍ رضي الله عنه، فلامه علىٰ قدومه، فقال: آليت لا أكون عاملاً لأحدٍ بعد رسول الله، وأقام إلىٰ أن كانت غزوة أجنادين، فحضرها أبان واستشهد بها وذلك سنة ثلاث عشرة للهجرة.

وأرسلت قريش سهيل بن عمرو ليُصالح المسلمين علىٰ ألا يدخلوا مكة عامهم هذا، فجاء سهيل بن عمرو إلىٰ رسول الله ﷺ، وتمّ الصلح بعد محادثاتٍ، ولم يبقَ إلا الكتابة. فوثب عندها عمر بن الخطاب، فأتىٰ أبا بكرٍ، فقال: يا أبا بكر، أليس برسول الله؟ قال: بلىٰ. قال: أوَلسنا بالمسلمين؟ قال: بلىٰ. قال: أوَليسوا بالمشركين؟ قال: بلىٰ. قال: فعلامَ نُعطي الدنيّة في ديننا؟ قال أبو بكر: يا عمر، إلزم أمره، فإني أشهد أنه رسول الله. قال عمر: وأنا أشهد أنه رسول الله.

ثم أتىٰ عمر إلىٰ رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله ألستَ برسول الله؟ قال: «بلىٰ». قال: أوَلسنا بالمسلمين؟ قال: «بلىٰ». قال: أوَليسوا بالمشركين؟ قال: «بلىٰ». قال: فعلامَ نُعطي الدنيّة في ديننا؟

قال: «أنا عبد الله ورسوله، لن أخالف أمره، ولن يُضيّعني». فكان عمر يقول: ما زلت أتصدّق، وأصوم، وأُصلي، وأُعتق، من الذي صنعت يومئذٍ مخافة كلامي الذي تكلّمت به، حتىٰ رجوت أن يكون خيراً.

ثم دعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فكتب الصلح، ونصّ علىٰ ما يلي:

١ ـ أن تضع الحرب أوزارها بين الطرفين مدة عشر سنواتٍ، يأمن فيهن الناس، ويكفّ بعضهم عن بعضٍ.

٢ ـ أن من يأتي محمداً من قريشٍ دون إذن وليّه يردّه إليهم.

٣ ـ من جاء قريشاً ممن مع محمدٍ لم يردُّوه عليه.

٤ ـ ألا يكون بين الطرفين عيبة مكفوفة، ولا إسلال ولا إغلال، أي: لا تظهر عداوة، ولا خيانة، ولا سرقة خفية.

٥ ـ من أحب من القبائل أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريشٍ وعهدهم دخل فيه.

فقالت خزاعة: نحن في عقد محمدٍ وعهده، وقالت بنو بكرٍ: نحن في عقد قريشٍ وعهدهم.

٦ ـ أن يرجع المسلمون عن مكة هذا العام، ويأتوا في عام قادم، ويمكثوا في مكة ثلاثة أيامٍ، وليس معهم إلا سلاح الراكب، السيوف في القُرب.

ولقد كان في هذا الصلح فائدة للمسلمين كبيرة، فالهدنة فسحت المجال للدعوة، وأعطت الفرصة ليتفرّغ المسلمون للانتهاء من الجبهة الشمالية والتخلّص من خطر اليهود نهائياً، أما إعادة من جاء مسلماً دون إذن وليه فإن من مصلحة المسلمين أن يكون لهم عيون بين المشركين يخبرونهم بكل خبرٍ، ويرسلون إليهم خبر كل كيدٍ يحاول المشركون أن يكيدوهم به. هذا بالإضافة إلىٰ ما يمكن أن يكون لهم من تأثيرٍ علىٰ معارفهم وأقربائهم وما يكون من سلوكهم، فانتشار الإسلام لا يكون بطريقةٍ واحدةٍ، وإنما بعدة طرقٍ، منها الدعوة، ومنها التأثير في السلوك، ومنها القوة.

وأما عدم إعادة قريش من جاءهم مرتدًّا، فإنا نكره أن يكون بيننا عيون لأعدائنا، وبالأصل فلا خير فيمن يرتدّ، بل لو بقي في صفوفنا لوجب قتله رِدَّةً (لارتداده).

وكذلك فإن في هذا الصلح اعترافاً صريحاً من المشركين بالمسلمين بوضعهم وقوتهم، ولقد حرص المسلمون علىٰ ذلك مدةً ليست بالقصيرة، ولربما كان ذلك منذ أن وصل رسول الله ﷺ إلىٰ المدينة مُهاجراً، وأسّس دولته فيها. وكان من هذا الاعتراف أن دخلت قبائل في حلفٍ مع المسلمين مثل خزاعة علىٰ الرغم من قرب منازلها من ديار قريشٍ.

وأما ما كانوا سيستفيدونه من العُمْرَةِ، فإنه سيتمّ في العام المقبل. ولكن المسلمين آنذاك لم يُدركوا أبعاد هذا الصلح لذا بدا منهم ما بدا من عمر بن الخطاب ﷺ، ولربما حدثت بعض الأحداث زادت من هذا الشعور أو أوجدته، إذ بينما كان رسول الله ﷺ يكتب كتاب الصلح هو وسهيل بن عمرو، وقد انتهىٰ من الاتفاق كل شيءٍ، إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن

عمرو[1] يرسف بالقيود إلىٰ رسول الله ﷺ، فقام سهيل إلىٰ ابنه أبي جندل يضربه علىٰ وجهه، ويجذبه جذباً شديداً ليردّه إلىٰ قريش، ويقول: يا محمد لقد انتهت القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا، قال رسول الله ﷺ: «صدقت». وجعل أبو جندل يصرخ بأعلىٰ صوته: يا معشر المسلمين، أَأُرَدُّ إلىٰ المشركين يفتنوني في ديني؟ فزاد ذلك الناس إلىٰ ما بهم، فقال رسول الله ﷺ: «يا أبا جندل؛ اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، إنا عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً، وأعطيناهم علىٰ ذلك، وأعطونا عهد الله، وإنا لا نغدر بهم». وأسرع عمر بن الخطاب رضي الله عنه نحو أبي جندل، ومشىٰ إلىٰ جانبه، وصار يقول له: اصبر، ولكنه يُدني منه السيف، فكأنه يقول له: تناوله، واضرب به رأس أبيك سهيل بن عمرو، ثم أنجُ بنفسك إلىٰ جانب المسلمين. وهكذا كانت عهود المسلمين لا تنقضها أمور نفسية أو عواطف أو مصالح دنيوية وإنما يُسْتَمسك بها ما تمسّك بها الآخرون.

وتمّ عقد الصلح، وما علىٰ المسلمين بعده إلا الحِلّ والرجوع إلىٰ المدينة، فطلب رسول الله ﷺ من أصحابه الحِلّ، فتوانوا جزعاً مما حدث، فدخل رسول الله ﷺ إلىٰ خيمته وفيها زوجته أم سلمة رضي الله عنها، فقال: «يا أم سلمة، هلك المسلمون».

فقالت: وما صنعوا؟ فقال: «أمرتهم فما أطاعوا، طلبت منهم أن يحلُّوا فلم يفعلوا». فقالت رضي الله عنها: لو فعلت أمامهم لاتّبعوا.

فخرج رسول الله ﷺ فحلق رأسه، ونحر هديه، فتسابق المسلمون إلىٰ

---

(١) أبو جندل بن سهيل بن عمرو بن عبد شمس بن عبد وُدّ بن نصر بن حِسل بن عامر بن لؤي بن غالب بن فهر العامري القرشي، واسمه العاص.

كان من خيار الصحابة، ولما أسلم حبسه أبوه وقيّده، فلما كان يوم صلح الحديبية هرب يحجل في قيوده، وأبوه حاضر بين يدَي النبيّ ﷺ لكتاب الصلح. فقال: هذا أول من أقاضيك عليه يا محمد. فقال: هبه لي، فأبىٰ، فردّ وهو يصيح ويقول: أَأُرَدّ إلىٰ الكفر؟ ثم إنه هرب، ثم خلص، وهاجر، وجاهد، ثم انتقل إلىٰ جهاد الشام، وتوفي شهيداً في طاعون عمواس سنة ثماني عشرة للهجرة.

ذلك مُحلّقين رؤوسهم ومُقصّرين، وكل يُسرع إلىٰ هديه فينحره.

وعاد رسول الله ﷺ وأصحابه إلىٰ المدينة، وما إن وصلوا إليها حتىٰ أتاهم أبو بصير، عتبة بن أسيد بن جارية[1]، وكان ممن حُبس في مكة التي كان فيها عدد من أمثاله كالوليد بن الوليد[2]، وسلمة بن هشام[3]، وعيّاش بن أبي ربيعة[4]، وما إن وصل أبو بصير حتىٰ جاء في أثره رجل من بني قومه عامر بن لؤي، ومعه مولىٰ، وقد قدما إلىٰ رسول الله ﷺ، بكتاب من الأخنس بن شريق، وزهر بن عبد عوف. فقال رسول الله ﷺ: «يا أبا بصير، إنا قد أعطينا القوم ما قد علمتَ، ولا يصلح لنا في ديننا الغدر، وإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، فانطلق إلىٰ قومك». قال: يا رسول الله، أتردّني إلىٰ المشركين يفتنوني في

---

(١) عتبة بن أَسِيد بن جارية بن أسيد بن عبدالله بن غِيرَة بن عوف بن ثقيف، أبو بصير: حليف بني زهرة، فلما أُعيد إلىٰ قريشٍ، فرّ، وانضمّ إلىٰ جماعةٍ يُؤذون قريشاً. ومات بعد أن وصل إليه كتاب رسول الله ﷺ، فدَفنه أبو جندل مكانه، وصلّىٰ عليه.

(٢) الوليد بن الوليد بن المغيرة بن عبدالله بن عمرو بن مخزوم، أخو خالد بن الوليد، من أشراف قريش في الجاهلية، ومن أجوادهم، كان مع المشركين يوم بدرٍ، وأسره المسلمون، وفداه أخواه خالد وهشام بمالٍ وفير، ورجعا به، فأسلم. فقيل له: هلاّ كان ذلك قبل أن تُفتدىٰ؟ فقال: ما كنت لأُسلم قبلَ أن افتدىٰ، ولا تقول قريش اتبع محمداً فراراً من الفداء. وحبسه أخواه بمكة، فأفلت منهما، حيث التحق بأبي بصير قائد جماعة العيص، وبعد أن أعيت الحيلة قريشاً طلبت من رسول الله ﷺ قبولهم في المدينة، فانتقلوا إليها. ولحق بالنبيّ ﷺ وشهد عمرة القضية ومات بالمدينة سنة سبع للهجرة، وفيه تقول أم المؤمنين أم سلمة هند بنت أبي أمية بن المغيرة ابنة عمّ الوليد بن الوليد:

يا عين فابكي للوليد ... بن الوليد بن المغيرة
كان الوليد بن الوليد ... أبو الوليد فتىٰ العشيرة

(٣) سلمة بن هشام، أخو أبي جهل، من السابقين للإسلام، هاجر إلىٰ الحبشة، ثم رجع إلىٰ مكة فحبسه أخوه، وكان رسول الله ﷺ يدعو له، ثم هرب مهاجراً بعد غزوة الخندق (الأحزاب)، واستشهد في أجنادين سنة أربع عشرة للهجرة، وذُكر في مرج الصفّر.

(٤) عيّاش بن أبي ربيعة بن المغيرة بن عبدالله بن عمرو بن مخزوم القرشي المخزومي، ابن عمّ خالد بن الوليد، وأخو أبي جهلٍ لأمه. كان من السابقين للإسلام، هاجر الهجرتين إلىٰ الحبشة وإلىٰ المدينة، وخدعه أبو جهل فرجع من المدينة إلىٰ مكة وكان رسول الله ﷺ يدعو له.

ديني! قال: «يا أبا بصير، انطلق، فإن الله تعالىٰ سيجعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً». فانطلق معهما، حتىٰ إذا كانوا بـ(ذي الحُليفة)، أخذ سيف العامري، وقتله به، وهرب المولىٰ راجعاً إلىٰ رسول الله ﷺ وكذا رجع أبو بصير، وقال: يا رسول الله، وفتْ ذمتك، وأدّىٰ الله عنك، أسلمتني للقوم، وقد امتنعتُ بديني أن أُفتن، أو يُعبث بي، فقال رسول الله ﷺ: «ويل أمه مِسْعر حربٍ لو كان معه الرجال».

وخرج أبو بصير حتىٰ نزل العيص علىٰ ساحل البحر بين مكة والمدينة علىٰ طريق قريش التي كانوا ينتقلون عليها إلىٰ الشام، وخرج بعض المستضعفين من مكة إلىٰ أبي بصير، فاجتمع عنده سبعون منهم، يقتلون من مشركي قريشٍ من وجدوا منهم، ويأخذون من العير ما التقوا بها، حتىٰ ضاقت قريشٌ بهم ذرعاً، وكتبت إلىٰ رسول الله ﷺ ترجوه أن يؤويهم، وتسأله ذلك بأرحامها، فاستدعاهم رسول الله ﷺ، فقدموا المدينة، وأقاموا بها.

وجاءت إلىٰ رسول الله ﷺ بالمدينة أم كُلثوم بنت عقبة بن أبي مُعَيط[1]،

---

(١) أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، القرشية الأموية، لها صحبة.

والدها عقبة من مقدمي قريش في الجاهلية. كان شديد الأذىٰ للمسلمين. أسره المسلمون يوم بدر، وقتلوه ثم صلبوه، وهو أول مصلوب في الإسلام.

أسلمت ابنته أم كلثوم، وهاجرت، وبايعت، غير متزوجة. خرجت مهاجرة في سنة سبع في الهدنة التي كانت بين رسول الله ﷺ وبين كفار قريش إلى المدينة، فتبعها أخواها الوليد وعُمارة ليردّاها فلم ترجع.

فلما قدمت المدينة تزوجها زيد بن حارثة، وبعد أن قُتل زيد شهيداً في غزوة مؤتة سنة ثمانٍ للهجرة، تزوجها الزبير بن العوام، فولدت له زينب، ثم فارقها فتزوجها عبدالرحمٰن بن عوف، فولدت له إبراهيم وحُميداً، ثم مات عنها سنة اثنتين وثلاثين للهجرة، فتزوجها عمرو بن العاص، فمكثت عنده شهراً وماتت.

وأم كلثوم بنت عقبة هي أخت عثمان بن عفان لأمه، وأمهما أروىٰ بنت كريز بن ربيعة. وبعد صلح الحديبية جاء أخواها يطلبانها، فأبىٰ رسول الله ﷺ أن يردّها إليهما، وهي أول من هاجر إلىٰ المدينة بعد هجرة رسول الله ﷺ. ولا تُعرف قرشية هاجرت من بين أبويها مسلمةً مهاجرةً إلىٰ الله ورسوله إلا أم كلثوم بنت عقبة، خرجت من مكة وحدها، وصاحبت رجلاً من خُزاعة. وبقيت حتىٰ قدمت في الهدنة.

فخرج أخواها (عمارة)[1] و(الوليد)[2] ابنا عقبة، حتىٰ قدما المدينة ليردّاها وفق صلح الحُدَيبية، فرفض رسول الله ﷺ ذلك.

غزوة خيبر:

رجع رسول الله ﷺ من الحُدَيبية في أواخر شهر ذي القعدة من لسنة السادسة للهجرة، وأقام في المدينة ما يقرب من شهرٍ ونصف، ثم أمر بالاستعداد للمسير إلىٰ بلدة خيبر، ولم يُوَرِّ رسول الله ﷺ في حركته هذه، وكان أهل خيبر لا يشكّون في أنه سيسير إليهم عندما تتهيّأ له الفرصة المناسبة بعد أن فعلوا ما فعلوه من تحريضٍ علىٰ غزو المدينة المنوّرة، وجمع الأحزاب في غزوة الخندق.

---

(١) عمارة بن عقبة بن أبي معيط: أسلم يوم الفتح. وأقام بالكوفة، وكانت له مكانة، ومن ولده: الوليد بن عمارة، ومدرك بن عمارة.

(٢) الوليد بن عقبة بن أبي معيط، أبو وهب: والٍ من فتيان قريش، وشعرائهم، وأجودهم، فيه مجون، ولهو، أسلم يوم فتح مكة، وبعثه رسول الله ﷺ علىٰ صدقات بني المصطلق، ثم ولاّه الخليفة عمر رضي الله عنه صدقات بني تغلب، وولاّه الخليفة عثمان رضي الله عنه الكوفة سنة خمسٍ وعشرين للهجرة، بعد سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه. وهو أخو عثمان بن عفان رضي الله عنه لأمه، وأقام والياً بالكوفة حتىٰ سنة تسعٍ وعشرين للهجرة إذ شهد عليه جماعة عند عثمان رضي الله عنه بشرب الخمر، فعزله. ودعا به إلىٰ المدينة، فجاء، فحدّه، وحبسه. ولما قُتل عثمان رضي الله عنه رحل الوليد إلىٰ الجزيرة الفراتية فأقام بها، واعتزل الفتنة، لكنه رثىٰ عثمان رضي الله عنه وحرّض معاوية علىٰ الأخذ بالثأر، ومات بالرقّة سنة إحدىٰ وستين للهجرة. ونزلت فيه الآية الكريمة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ۝٦﴾ [الحجرات]. وذلك أن رسول الله ﷺ بعثه علىٰ صدقات بني المصطلق، وكان بينه وبينهم عداوة في الجاهلية، فلما سمع القوم تلقّوه علىٰ الرحب والسعة تعظيماً للّه ولرسوله، فحدّثه الشيطان أنهم يريدون قتله، فهابهم، فرجع من الطريق إلىٰ رسول الله ﷺ، وقال: إن بني المصطلق قد منعوا صدقاتهم وأرادوا قتلي، فغضب رسول الله ﷺ، وهمّ أن يغزوهم، فبلغ القوم رجوعه فأتوا رسول الله ﷺ، وقالوا: سمعنا برسولك، فخرجنا نتلقّاه ونُكرمه، ونُؤدّي إليه ما قبِلنا من حق الله تعالىٰ، فبدا له في الرجوع، فخشينا أن يكون إنما ردّه من الطريق كتاب جاءه منك بغضبٍ غضبته علينا، وإنا نعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله، فأنزل الله سبحانه وتعالىٰ الآية التي ذكرناها سابقاً. وجاء أنه الوليد قد رجع، وقال لرسول الله ﷺ: ارتدُّوا، فبعث رسول الله إليهم خالد بن الوليد، فلما دنا منهم بعث عيوناً ليلاً فإذا هم يُنادون للصلاة ويُصلُّون، فأتاهم خالد فلم يرَ منهم إلا طاعةً وخيراً، فرجع إلىٰ النبيّ ﷺ فأخبره، فنزلت الآية.

وأراد الأعراب أن يسيروا معه في هذه الغزوة، وهم الذين تخلّفوا عنه يوم الحديبية، وظنّوا أن لن ينقلب الرسول والذين آمنوا معه إلىٰ أهليهم أبداً.

قال الله تعالىٰ: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾﴾ [الفتح].

وادّعوا يومذاك أنهم قد شغلتهم أموالهم وأهلوهم، فلما عاد المسلمون من الحديبية ظافرين، وأرادوا التوجُّه إلىٰ خيبر، رغب الأعراب بالمشاركة في هذا المسير، وما شكّوا أنهم سيحصلون علىٰ مغانم كثيرةٍ يأخذونها، إلا أن الرسول ﷺ رفض أن يصحب معه إلا من سار إلىٰ الحديبية، إذ هؤلاء الأعراب لم تكن غايتهم الجهاد في سبيل الله، ولا صحبة رسول الله ﷺ، ولا قتال أعداء الله، وإنما المغانم فقط.

ولننظر إلىٰ الوضع في المدينة قبل أن يتحرّك الجيش نحو خيبر، لقد ساء المنافقين تحرّكُ المسلمين نحو خيبر، وعلموا أن وضع اليهود سينتهي، وسينتهي معه كل قاعدةٍ يمكن أن يستندوا عليها، لذا فقد أخبر رأس المنافقين عبدالله بن أُبيّ بن سلول يهود خيبر بتحرُّك المسلمين، وشجّعهم علىٰ الثبات والمقاومة. وكان في المدينة أيضاً بعض اليهود علىٰ شكل أُسَرٍ أو مجموعاتٍ صغيرةٍ لم يشاركوا في غدر بني قريظة، لذا لم يتعرّض لهم المسلمون، وإنما تركوهم يعيشون في كنفهم آمنين مطمئنين علىٰ أملاكهم، وأموالهم، وأعراضهم، في ذِمّة الله وذِمّة رسوله وعهده. وكانت حالة هؤلاء اليهود المادية جيدة، وأكثر المسلمين يستدين منهم. وما أن شعر هؤلاء اليهود برغبة المسلمين في غزو خيبر حتىٰ ثار حقدهم، وبدت ضغائنهم، وظهرت عصبيتهم، علىٰ الرغم من قلتهم، وحياتهم في أمنٍ وطمأنينةٍ، وأن ثروتهم إنما جُمعت تحت رعاية المسلمين، وفي ظلّ حمايتهم، فأخبروا يهود خيبر بتحرّكات المسلمين أولاً، وأرادوا إضعاف معنويات المسلمين بالتحدُّث عن قوّة يهود خيبر، ثم رغبوا في إحراج المسلمين بطلب ديونهم والسرعة بالتأدية. فقد روىٰ الواقدي: أن أحد جند المسلمين إلىٰ خيبر، قال: فلما تجهّزنا نريد خيبر، لم يبقَ أحد من يهود المدينة له علىٰ أحدٍ من المسلمين حق إلا لزمه، وكان لأبي الشحم أحد اليهود عند عبدالله بن أبي

حدرد الأسلمي خمسة دراهم في شعيرٍ أخذه لأهله، فلزمه، فقال: أجِّلني فإني أرجو أن أقدم عليك فأقضيك حقك ـ إن شاء الله ـ إن الله ﷻ قد وعد نبيّه خيبر أن يُغْنِمَهُ إياها، وكان عبدالله بن أبي حدرد ممن شهد الحديبية، فقال: يا أبا الشحم، إنا نخرج إلىٰ ريف الحجاز (يعني خيبر) في الطعام والأموال، فقال أبو الشحم: أتحسب أن قتال خيبر مثل من تلقون، من الأعراب، فيها ـ والتوراة ـ عشرة آلاف مقاتل، قال ابن أبي حدرد: أي عدوّ الله تُخوّفنا بعدوّنا وأنت في ذِمّتنا وجوارنا، والله لأرفعنّك إلىٰ رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله، ألا تسمع إلىٰ ما يقول هذا اليهودي، وأخبرته بما قال أبو الشحم، فسكت رسول الله ﷺ، ولم يرجع إليه شيئاً، إلاّ أني رأيت رسول الله ﷺ يُحرّك شفتيه بشيءٍ لم أسمعه، فقال اليهودي لرسول الله ﷺ: يا أبا القاسم، هذا قد ظلمني، وحبسني حقي، وأخذ طعامي، قال رسول الله ﷺ: «أعطه حقه».

قال عبدالله: فخرجت فبعت أحد ثوبَيْ بثلاثة دراهم، وطلبت بقية حقه فقضيت حقه، ولبست ثوبي الآخر، وكانت عليّ عمامة فاستدفأت بها، وأعطاني سلمة بن أسلم ثوباً آخر في ثوبين مع المسلمين، ونفلني الله خيراً، وغنمت امرأةً بينها وبين أبي الشحم اليهودي قرابة فبعتها منه بمالٍ.

تحرّك الجيش الإسلامي نحو خيبر، وعدده ألف وخمسمائة مقاتلٍ، ومنهم مائتا فارس، وقد أمن الجبهات الأخرىٰ، فهناك هدنة مع قريش. والأعراب لا يستطيعون القيام بعملٍ بعد الغزوات والسرايا التي سارت إلىٰ كل جهةٍ مُنطلقةً من المدينة، ويهود المدينة ليسوا سوىٰ أفرادٍ لذا فلن يوضعوا بالحساب ـ كما سبق أن قلنا: إن الوضع الداخلي في المدينة قد خلا من كل شائبةٍ أي: ذات قوةٍ ـ ولما كان وضع المنافقين واليهود في المدينة ـ كما علمنا ـ لا بدّ لهم من إعلام يهود خيبر، وقد فعلوا، لذا أعلن رسول الله ﷺ إنه قاصد خيبر، ولم يُورِّ كعادته.

وصلت أخبار المدينة إلىٰ خيبر، وبدأ اليهود بالاستعداد، والتجؤوا إلىٰ حصونهم، وأخلوا الحصون الأمامية من النساء والأطفال، فنقلوهم إلىٰ الحصون الخلفية التي ملؤوها بالمؤن والعتاد حساباً لكل طارئٍ. أما القتال

فقد اختلفوا فيه، فبعضهم رأىٰ أن يقاتلوا كعادتهم من وراء الحصون، حتىٰ يملّ المسلمون من الحصار فينسحبوا فاشلين، ورأىٰ بعضهم الآخر أن يواجهوا المسلمين في العراء حتىٰ إذا دعت الحاجة رجعوا إلىٰ حصونهم، ورأىٰ بعضهم أن يُسرعوا فيغزوا المدينة قبل أن يتحرّك المسلمون منها، ويستنجدوا باليهود في (فَدَك) و(تَيْماء) و(وادي القرىٰ)، والأعراب من أهل الشِّرْك حيث إن المسلمين عدوّ مشترك لهم جميعاً، ولكن فكرة القتال داخل الحصون هي التي غلبت، وإن كانت طلبات النجدة قد حصلت علىٰ الموافقة، وبالفعل فقد جاءت نجدات لا تقلّ عن ألف مقاتلٍ من غطفان وبطونها فزارة وبني أسد، وكانوا بقيادة عيينة بن حصن الفزاري، وطليحة بن خويلد الأسدي، وفي الوقت نفسه فقد وعدوا بتجهيز أربعة آلاف مقاتل تكون سنداً وقت الطلب. ودخلت الفرقة الأولىٰ مع اليهود في حصونهم، فكان عدد الذين دخلوا الحصون أحد عشر ألفاً من المقاتلين. ولكن بعض الأعراب قد رفضوا نجدة يهود خيبر، ومنهم بنو مُرّة الذين شاركوا في غزوة الأحزاب، وهم الآن يرفضون الاشتراك بالقتال، بل ونصحوا غيرهم بعدم تورطّهم في مساندة اليهود الذين سيغلبون حسبما سمعوا من أحبار اليهود أنفسهم، إلا أن النصح لم يفد هؤلاء الأعراب، وأصرُّوا علىٰ البقاء بجانب حلفائهم اليهود، كما أن رسول الله ﷺ حرص علىٰ ألا يشترك الأعراب بمناصرة اليهود خوفاً علىٰ جنده من الحصار فيما إذا تحرّك الأعراب خلف المسلمين بعد مغادرتهم المدينة، واقترابهم من خيبر، واتصل بزعماء الأعراب بواسطة الرسل، ولكن ذلك لم يفد.

سار جيش المسلمين نحو خيبر، تتقدّمهم جماعة من الاستطلاع بإمرة عبّاد بن بشر أحد قادة الحرس النبوي وذلك خوفاً من كمائن العدوّ، ولكشف الطريق، والقبض علىٰ الجواسيس قبل أن يتعرّفوا علىٰ الجيش الإسلامي. وأثناء تحرُّك الجيش نحو الشمال اندفعت وراءه قوة الأعراب المؤلفة من أربعة آلاف مقاتل، ولكنها لم تلبث أن ولّت الأدبار باتجاه ديارها إذ خطر لها أن يكون في بلادها قوات تسوق الذراري والأنعام ورجالها عنها بعيدون.

وربما يتساءل بعض الناس كيف خاطر رسول الله ﷺ بجيشه الذي لا يزيد علىٰ الألف وخمسمائة مقاتل بالسير إلىٰ خيبر وفيها أحد عشر ألف من المقاتلين، تحميهم حصونهم، وتجمع أبنيتهم الأقوات الكثيرة، وفوق كل هذا أربعة آلاف من المقاتلين الأعراب الذين يمكنهم أن يتحرّكوا خلف الجيش الإسلامي، ويجعلوه محصوراً بين قوتين أقلها أكثر من ضعفه، وأكثرها تزيد علىٰ ستة أضعافه، وأن حركة الجيش كله ستكون فوق أرض العدوّ، وأكثر المسلمين يجهلونها؟ والواقع فإن كل المعارك التي خاضها المسلمون أول عهدهم لم تكن لينطبق عليها التقويم والتقدير العسكري، فهي كلها خاسرة بالحساب العسكري، ولكنها نجحت جميعها، وكانت نتيجتها النصر المؤزّر، بل نستطيع أن نقول: إن أكثرها كان معارك حاسمة، والسبب في ذلك المعنويات العالية في القتال التي كان يتمتع بها المسلمون، فثقتهم بنصر الله وتأييده تلعب الدور الرئيسي، وشجاعتهم بل واندفاعهم في القتال من أجل كسب النصر أو الحصول علىٰ الشهادة في سبيل الله كانت السبب الثاني في غلبتهم لأعدائهم، ثم هناك عدم تفكيرهم إلا في الحرب، وترك كل ما يجول في أذهانهم من أمور الدنيا، وجعل القتال خالصاً في سبيل الله لإعلاء كلمة الله. وهناك عبقرية القائد العسكرية، والرعب الذي يتملّك نفوس أعدائهم، وحرص خصومهم علىٰ الدنيا، كل هذه الأمور لعبت دورها في تلك المعارك. ونصر الله وتأييده يكفيان لتأمين نصر أفرادٍ علىٰ الدنيا ومن فيها وإن كان استعدادهم ودخولهم المعركة بقوة أهل الأرض مع أقوىٰ العتاد وأحسن الاستعداد. وما كانت معركة خيبر إلا إحدىٰ هذه المعارك وصورةً عنها.

وصل رسول الله ﷺ مع جيشه إلىٰ ضواحي خيبر فبات هناك ليلته، وفي الصباح توجّه إلىٰ خيبر ـ كعادته في عدم الهجوم ليلاً ـ وأرسل علي بن أبي طالب ﷺ، فدعا أهل خيبر إلىٰ الإسلام، فلم يقبلوا، فبدأ الهجوم الإسلامي، وكانت خيبر قسمين: القسم الأول يُمثّل خط الدفاع الأول، وفيه خمسة حصون: ثلاثة منها في منطقةٍ تُسمّىٰ (النطاة)، وإثنان في منطقةٍ تُسمّىٰ (الشقّ). والقسم الثاني: يُمثّل خط الدفاع الثاني، وفيه ثلاثة حصون.

بدأ الهجوم الإسلامي من الناحية الشمالية حتىٰ لا يهرب اليهود باتجاه إخوانهم في تيماء، ووادي القرىٰ، وفدك، ونحو بلاد الشام، وكان الهجوم باتجاه منطقة (النطاة)، وقد لقي المسلمون مقاومةً عنيفةً، حتىٰ فتح اليهود عدّة مراتٍ أبواب الحصون، واندفعوا نحو المسلمين يقاتلونهم، حتىٰ إذا رُدُّوا علىٰ أعقابهم دخلوا الحصون، وأغلقوا عليهم الأبواب. وقد أُصيب عدد من المسلمين يومذاك بجراحٍ نتيجة رمي نبال اليهود من داخل الحصون، فوجد المسلمون أن موقعهم كان غير مناسبٍ إذ كانوا عُرضة للنبال فالمكان مكشوف، والحصون مرتفعة تطل علىٰ معسكر المسلمين بسهولة، إضافةً إلىٰ أن المعسكر وجد في منطقةٍ موبوءةٍ بين النخيل، الأمر الذي استدعىٰ إلىٰ تغيير مكان المعسكر في الليل بعد أن أتمُّوا نهارهم الأول في القتال.

قاوم اليهود في (النطاة) مقاومةً عنيفةً، وخاصةً أمام أول الحصون وهو حصن (ناعم) الذي لم يخضع حتىٰ قُتل قادة المدافعين عنه، وهم: (مرحب) وأخواه (الحارث أبو زينب) و(ياسر)، وبعد ذلك اقتحمه المسلمون بقيادة علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

ثم انتقل المسلمون لحصار الحصن الثاني في منطقة (النطاة) بقيادة الحُباب بن المنذر، وقد تمّ الاستيلاء عليه بعد قتالٍ عنيفٍ، وقد قتل فيه سلاّم بن مشكم، وحصل المسلمون منه علىٰ غنائم كثيرة، فرّجت عنهم ما كانوا فيه من ضائقة، هذا بالإضافة إلىٰ الأسلحة الكثيرة التي حصلوا عليها منه.

أما الحصن الثالث فقد قاوم مدةً، ثم قطع المسلمون المياه عنه بعد أن عرفوا منابعها من أحد اليهود، فاضطر اليهود للخروج منه والقتال بضراوةٍ، ولكنهم هُزموا، ودخل المسلمون الحصن، وبذا انتهت منطقة النطاة كلها.

وفتح المسلمون حصون منطقة (الشقّ) بعد قتالٍ عنيفٍ، وأخذوا منها السبايا، ومنهن صفية بنت حُييّ بن أخطب، وكانت زوجة كنانة بن أبي الحُقَيق، ثم تزوّجها رسول الله ﷺ بعد أن أعتقها.

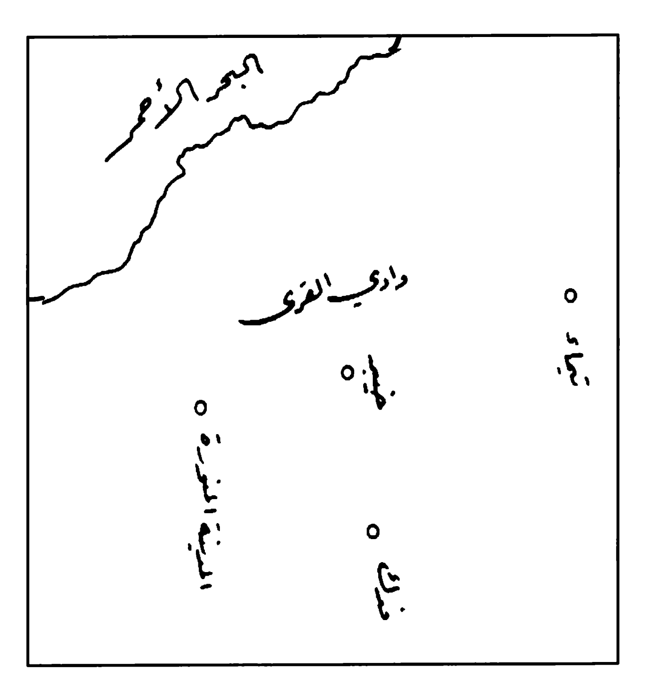
وزحف المسلمون إلىٰ الشطر الثاني من خيبر، ودخلوا الحصن الأول، فانهارت معنويات اليهود، واستسلموا، واتفقوا مع رسول الله ﷺ علىٰ أن يُخلي اليهود الحصون كلها، ويسلموا ما فيها إلىٰ المسلمين إضافةً إلىٰ أسلحتهم، وأن يُجلوا عن خيبر إلىٰ الشام، وأن يأخذوا من الأموال ما يمكن حمله، وأن يدلّوا علىٰ كنوزهم، وألا تُسبىٰ الذراري علىٰ الرغم من أنّ البلاد تُعدّ قد فتحت عنوةً إذ انهارت كل مقاومةٍ لليهود، ولكن رسول الله ﷺ قد تسامح معهم. ثم سمح رسول الله ﷺ لليهود بالبقاء في خيبر ليعملوا أُجراء في الأرض مقابل جزءٍ من المحصول يتفق عليه الطرفان، واتفقوا علىٰ أن يكون لهم نصف الثمار، ويحق للمسلمين أن يُخرجوا اليهود من خيبر في أي وقتٍ شاؤوا.

وبعد الغزوة أهدت زينب بنت الحارث زوجة سلاّم بن مشكم شاةً مذبوحةً مسمومةً لرسول الله ﷺ، وما إن تناول منها قليلاً حتىٰ شعر أنها مسمومة، فمنع أصحابه عن متابعة الأكل منها، فمات منهم من مات، وبقي رسول الله ﷺ يُعاني من أثر السمّ حتىٰ توفي عليه الصلاة والسلام بعد أربع سنواتٍ، وكانت زينب متأثرةً لقتل أبيها الحارث، وعمّيْها ياسر، ومرحب، وزوجها سلاّم بن مشكم، وقد قُتلت بعد اعترافها، وكان قتلها قصاصاً بموت (بِشر بن البراء) الذي مات مسموماً بالشاة. وقد استشهد من المسلمين في خيبر ستة عشر رجلاً، وقُتل من اليهود ثلاثة وتسعون رجلاً.

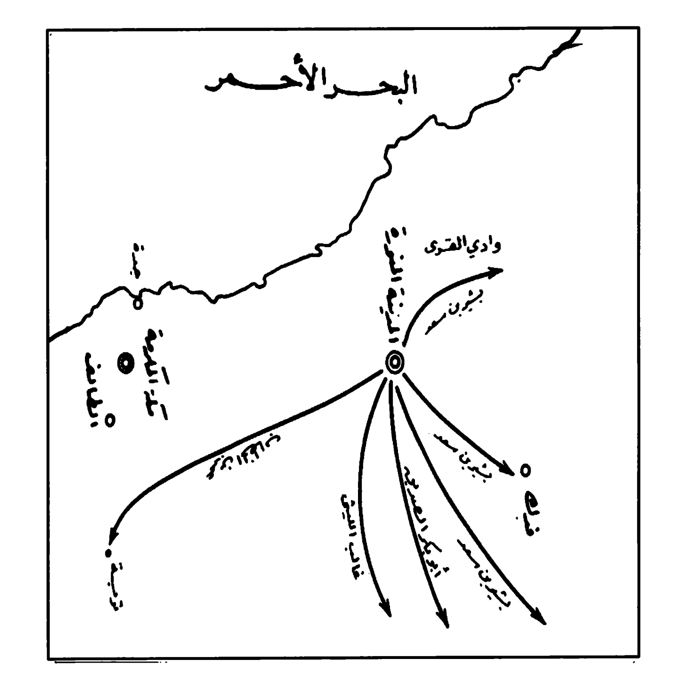
وبعد انتهاء المعارك في خيبر، وصل إلىٰ خيبر جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه من مهاجري الحبشة، وقد فرح رسول الله ﷺ بقدوم جعفر فرحاً شديداً.

الصلح مع أهل فَدَك:

عندما سار رسول الله ﷺ إلىٰ خيبر أرسل رسولاً له إلىٰ يهود فَدَك، يدعوهم إلىٰ الإسلام، فماطلوا بالجواب بانتظار نتيجة الحرب في خيبر، فلما وصل إليهم خبرها، صالحوا رسول الله ﷺ علىٰ نصف الأرض دون أن يسير إليهم. وقد بقوا في بلدهم حتىٰ أجلاهم الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع يهود خيبر إلىٰ الشام.



مصور رقم (١٢)



مصور رقم (١٣)

قتال يهود وادي القرىٰ:

كانت جماعات من اليهود تُقيم في وادي القرىٰ، ولها حصون ومناعة، وقوة لا بأس بها، فلما انتهىٰ رسول الله ﷺ من خيبر سار إليهم، وقبل أن يدعوهم إلىٰ الإسلام حاولوا الهجوم علىٰ المسلمين، ومع ذلك وجّه إليهم النداء حقناً للدماء، فأسرعوا بالحرب، واستمرّ القتال يوماً مبارزة، وقد قُتل منهم كل من برز للقتال. وفي اليوم الثاني بدأ الهجوم الإسلامي، فاستسلم اليهود، فعقد معهم صلحاً يقضي ببقائهم في أرضهم والعمل فيها مقابل نصف الثمار، ولم يسلب أحد منهم إذا صدر عفو عام عنهم.

وربما فعل رسول الله ﷺ هذا مع يهود خيبر، وفَدَك، ووادي القرىٰ حتىٰ يستثمروا الأرض، فلا تبقىٰ دون استثمار فيما إذا أجلوا عنها، إذ لم يكن يرغب عليه الصلاة والسلام أن يشتغل المسلمون بالأرض، ويخلدوا إليها، ويتركوا الدعوة، والفتوحات، والجهاد في سبيل الله.

يهود تيماء:

وتيماء بلدة تقع شمال المدينة، وتبعد عنها ٣٧٥ كيلومتراً، وعندما وصل خبر اليهود في شمال المدينة إلىٰ يهود تيماء، أرسلوا إلىٰ رسول الله ﷺ يطلبون قبول الجزية منهم، وعدّهم ذميين في ظلّ الدولة الإسلامية، فوافق رسول الله ﷺ علىٰ ذلك، وأخذ منهم الجزية. وعندما أجلىٰ الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه اليهود من قراهم إلىٰ الشام لم يُجلِ أهل تيماء، باعتبارهم ذميين، وأبقاهم في بلدهم.

وأراد بنو فزارة قطع الطريق علىٰ رسول الله ﷺ أثناء عودته من خيبر، عسىٰ أن يحصلوا علىٰ بعض المغانم مما غنمه المسلمون في خيبر، وفدك، ووادي القرىٰ، إلا أن رسول الله ﷺ أعلن استعداده

لملاقاتهم، فانهارت معنوياتهم، وأصابهم الخوف، وولّوا هاربين.

المسلمون بعد فتح خيبر:

أصبحت قوة المسلمين بعد فتح خيبر أكبر قوةٍ في الجزيرة العربية، ولكن القبائل العربية التي اعتادت الإغارة علىٰ ما حولها، وتعوّدت الكرّ والفرّ، لم تعترف تماماً بهذه القوة، وتترك ما اعتادت عليه، بل غرّها أبناؤها وكثرة أفرادها، والجشع في المغانم، والطمع في زيادة القوة، وفكّرت بالإغارة علىٰ المسلمين، وخاصةً القبائل الكبيرة أمثال هوازن، وغطفان وغيرها، لذا فكّر رسول الله ﷺ بإرسال السرايا والغزوات إليها لإخضاعها.

أرسل رسول الله ﷺ سريةً استطلاعيةً عدد أفرادها ثلاثون رجلاً بإمرة عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلىٰ ديار قبيلة هوازن في (تَرَبَة) إلىٰ الجنوب من المدينة وعلىٰ بُعد أكثر من أربعمائة كيلومتراً إلىٰ الشرق من الطائف وعلىٰ بُعد مائةٍ وخمسةٍ وعشرين كيلومتراً. وكان علىٰ هذه السرية أن تسير ضمن ديار قبائل لا تزال كلها علىٰ الوثنية، وتُعادي الإسلام وأهله. فسار عمر رضي الله عنه بأفراد سريته إلىٰ حيثُ وُجِّه غير وَجِلٍ ولا خائفٍ حتىٰ وصل إلىٰ (تَرَبَة)، وعندما سمعت هوازن القبيلة الكبيرة بهذه السرية فرّت من وجهها، فعادت السرية إلىٰ المدينة دون أن تجد شيئاً، وكأن هذه الحركة كانت استعراضيةً، ولكنها إن دلّت علىٰ شيءٍ فإنما تدلّ علىٰ ما أصبح عليه المسلمون من قوةٍ.

وسار أبو بكر الصديق رضي الله عنه علىٰ رأس حملةٍ إلىٰ ديار بني كلاب بن بكر في نجد، فغنم، وسبىٰ، وطارد الأعداء، ثم عاد.

وبعث رسول الله ﷺ بشير بن سعد(١) إلىٰ بني مُرّة حول بلدة فَدَك في

---

(١) بشير بن سعد بن ثعلبة بن الجلاس، الخزرجي الأنصاري: صحابي، شهد بدراً، واستعمله النبيّ ﷺ علىٰ المدينة في عمرة القضاء. وكان يكتب بالعربية في الجاهلية، وهو أول من بايع أبا بكرٍ الصديق رضي الله عنه بالخلافة من الأنصار، وقُتل يوم (عين التمر)، وكان مع خالد بن الوليد رضي الله عنه في منصرفه من اليمامة.

ثلاثين راكباً، فقُتلوا جميعاً، ولم ينجُ منهم سوىٰ جنديٍّ واحدٍ، وأمير السريّة حيث أثخنته الجراح، فظنوا أنه قد قُتل، ثم استطاع بعد ذلك العودة إلىٰ المدينة.

وتوجّه غالب بن عبدالله الليثي[1] علىٰ رأس مائةٍ وثلاثين مقاتلاً إلىٰ شرق المدينة، وقد استطاع قتل الكثير من الأعراب، وأخذ الغنائم من الإبل والأغنام، ولم يقع بيده أحد من الأسرىٰ، وفي هذه السرية التقىٰ أسامة بن زيد برجلٍ كان ضمن معسكرِ المشركين، فرفع أسامة السيف عليه، فقال ذلك الرجل، وهو مرداس بن نهيك: أشهد أن لا إلٰه إلا الله، إلا أن أسامة اعتقد أن هذا الرجل ما نطق بالشهادة إلا خوفاً من القتل، فأجهز عليه وقتله. وعند عودة السرية، أخبر رسول الله ﷺ، فأجرىٰ تحقيقاً مع أسامة الذي قال: إن مرداس لم ينطق بالشهادة إلا خوفاً من القتل، فقال رسول الله ﷺ: «هلا شققت علىٰ قلبه».

وانطلقت حملة إلىٰ وادي القرىٰ لتأديب القبائل التي عليها عيينة بن حصن، وقد عمل علىٰ تجميعها للإغارة علىٰ المدينة. وكانت الحملة بإمرة بشير بن سعد، فهزم الأعداء، واستاق الأنعام، وأخذ أسيرين فأسلما.



(١) غالب بن عبدالله بن مسعر الكلبي الليثي: قائد، صحابي، من الولاة. بعثه رسول الله ﷺ سنة خمسٍ للهجرة في ستين راكباً إلىٰ الكديد، فظفر، وأرسله سنة ثمانٍ للهجرة ومعه مائتا مقاتلٍ إلىٰ فَدَك فعاد غانماً. وبعثه عام الفتح أمامه ليُسهل له الطريق إلىٰ مكة، ويكون (عيناً) له، وشهد القادسية، وقتل (هرمز) ملك الباب. وولاّه زياد بن أبيه علىٰ خراسان في خلافة معاوية سنة ٤٨ للهجرة، وتوفي في تلك السنة.

عُمْرَةُ القَضَاءِ

كان العام قد استدار علىٰ صلح الحديبية، وأهلّ شهر ذي القعدة من العام السابع للهجرة، فسار رسول الله ﷺ مع ألفَيْ مسلمٍ ليؤدُّوا العُمْرة. وقد أخذوا معهم السلاح الكامل، ومائتَيْ فرس بقيادة محمد بن مسلمة احتساباً لكل طارئٍ، وأحرم رسول الله ﷺ والمسلمون من باب المسجد حيث ساروا عن طريق الفرع بعيدين عن ذي الحليفة، فلما وصلوا إلىٰ مرّ الظهران، وصلت أخبارهم إلىٰ قريشٍ فأرسلت رسلها، فقالوا لرسول الله ﷺ: يا محمد لِمَ جئت بهذه الأسلحة إلىٰ قومك، تريد أن تغدر بهم، وما عرفنا هذا عنك صغيراً ولا كبيراً؟ فقال لهم: «لن أدخل عليهم بها». فعادت الرسل إلىٰ قريش، وأخبرتهم بالذي كان. أما قريش فقد شقّ عليها أن ترىٰ محمداً وصحبه داخل مكة، لذا فقد أخلوها، وصعدوا إلىٰ الجبال المحيطة بها، أما رسول الله ﷺ فقد ترك السلاح والخيل خارج الحرم، وعندها مائتا مسلم يحمونها، وسار مع البقية نحو البيت، فأدُّوا مناسك العمرة، وصعد بلال علىٰ ظهر الكعبة فأذّن بذلك الدعاء السماوي، فتأثّرت قريش تأثُّراً بليغاً، ثم إن رسول الله ﷺ أرسل مائتَيْ مسلم إلىٰ مرّ الظهران ليحموا السلاح والخيل ليتمكّن حماتها الأوائل من تأدية العمرة، ففعلوا، وبعد ثلاثة أيام من دخول المسلمين مكة، خرجوا منها حسب بنود صلح الحديبية. وقد كان لعُمرة القضاء أثر في نفوس بعض الأفراد لما شاهدوه من نظامٍ ومن قوةٍ.

إسلام خالد بن الوليد:

لما كان لبعض الشخصيات أثر في التاريخ من ناحية القدوة أو المعارك

التاريخية الحاسمة كان لا بُدّ من بحث الأمور التي غيّرت مجرىٰ حياتهم. وخالد بن الوليد ﷺ من هذه الشخصيات، وقد غيّر دخوله في الإسلام مجرىٰ حياته، ولما كان له دور في قيادة الجيوش الإسلامية كان لا بُدّ من دراسة دخوله في هذا الدين، هو وأمثاله.

لقد كان خالد بن الوليد أحد فرسان قريش المعروفين؛ بل قائد فرسانها في المعارك التي يشترك فيها بلا منازع، وأبوه الوليد بن المغيرة أحد أثرياء قريش وزعمائها، ومن الذين وقفوا في وجه الدعوة الإسلامية بكل إمكاناتهم، ومن الذين كانت لهم مكانة عالية في الجاهلية حتىٰ رأىٰ أن يكون هو الذي ينزل عليه القرآن.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ۝٣١ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝٣٢﴾ [الزخرف].

والقريتان: هما مكة والطائف. والرجل الذي من مكة هو الوليد بن المغيرة المخزومي والد خالد، والرجل الذي من الطائف هو حبيب بن عمرو بن عمير الثقفي.

وقد توفي الوليد بن المغيرة في مكة، وهو مشرك، وذلك قبل غزوة بدرٍ، وبموت الوليد برز ابنه خالد كقائد لفرسان قريش، وقد اشترك مع المشركين في قتال المسلمين يوم أُحُدٍ، ويوم الأحزاب، وفي الحديبية ثم اعتنق الإسلام، وقد روىٰ ﷺ قصة إسلامه، فقال: لما أراد الله بي ما أراد من الخير قذف في قلبي الإسلام، وحضرني رشدي، فقلت: قد شهدت هذه المواطن كلها علىٰ محمدٍ ﷺ، فليس في موطن أشهد، إلا أنصرف، وأنا أرىٰ في نفسي أني موضع في غير شيءٍ، وأن محمداً سيظهر، فلما خرج رسول الله ﷺ إلىٰ الحديبية خرجت في خيلٍ من المشركين، فلقيت رسول الله ﷺ في أصحابه بـ(عسفان)، فقمت إزاءه (مقابلاً له)، وتعرّضت له، فصلّىٰ بأصحابه الظهر أمامنا، فهممنا أن نُغير

عليهم، ثم لم يُعزم لنا ـ وكانت فيه خيرة ـ فاطلع علىٰ ما في أنفسنا من الهمّ به، فصلّىٰ بأصحابه صلاة العصر صلاة الخوف، فوقع ذلك منا موقعاً، وقلت: الرجل ممنوع، وعدل عن سير خيلنا وأخذ ذات اليمين، فلما صالح قريشاً بالحديبية ودافعته قريش بالرواح قلت في نفسي: أيّ شيءٍ بقي؟ أين أذهب إلىٰ النجاشي! فقد اتبع محمداً وأصحابه عنده آمنون، فأخرج إلىٰ هرقل فأخرج من ديني إلىٰ نصرانيةٍ أو يهوديةٍ، فأُقيم في عجم، فأُقيم في داري بمَن بقي. فبينما أنا في ذلك إذ دخل رسول الله ﷺ في عُمْرة القضيّة، فتغيّبت، ولم أشهد دخوله، وكان أخي الوليد بن الوليد، قد دخل مع النبيّ ﷺ في عُمرة القضيّة، فطلبني فلم يجدني، فكتب إليّ كتاباً فإذا فيه: بسم الله الرحمٰن الرحيم. أما بعد؛ فإني لم أرَ أعجب من ذهاب رأيك عن الإسلام، وعقلك عقلك! ومثل الإسلام جهله أحد؟ وقد سألني رسول الله ﷺ عنك وقال: «أين خالد؟» فقلت: يأتي الله به، فقال: «مثله جهل الإسلام؟». ولو كان جعل نكايته وجدّه مع المسلمين كان خيراً له، ولقدّمناه علىٰ غيره، فاستدرك يا أخي ما قد فاتك من مواطن صالحةٍ. قال: فلما جاءني كتابه نشطت للخروج وزادني رغبةً في الإسلام، وسرّني سؤال رسول الله ﷺ عني، وأرىٰ في النوم كأني في بلادٍ ضيقةٍ مجدبةٍ فخرجت في بلادٍ خضراء واسعةٍ، فقلت: إن هذه لرؤيا، فلما أن قدمت المدينة قلت لأذكرنّها لأبي بكر، فقال: مخرجك الذي هداك الله للإسلام، والضيق الذي كنت فيه من الشرك، قال: فلما أجمعت الخروج إلىٰ رسول الله ﷺ، قلت: مَن أُصاحب إلىٰ رسول الله ﷺ؟ فلقيت صفوان بن أمية، فقلت: يا أبا وهب، أما ترىٰ ما نحن فيه، إنما نحن كأضراس، وقد ظهر محمد علىٰ العرب والعجم فلو قدمنا علىٰ محمدٍ واتّبعناه فإن شرف محمدٍ لنا شرف، فأبىٰ أشدّ الإباء فقال: لو لم يبقَ غير ما اتبعته أبداً. فافترقنا، وقلت: هذا رجل قُتل أخوه، وأبوه في بدرٍ، فلقيت عكرمة بن أبي جهل، فقلت له مثل ما قلت لصفوان بن أمية، فقال لي مثل ما قال صفوان بن أمية، قلت: فاكتم عليّ، قال: لا أذكره. فخرجت إلىٰ منزلي، فأمرت براحلتي فخرجت بها

إلىٰ أن لقيت عثمان بن طلحة[1]، فقلت: إن هذا لي صديق فلو ذكرت له ما أرجو، ثم ذكرت من قُتل من آبائه فكرهت أن أُذكّره، ثم قلت: وما عليّ وأنا راحل من ساعتي فذكرت له ما صار الأمر إليه، فقلت: إنما نحن بمنزلة ثعلبٍ في حِجرٍ، لو صُبّ فيه ذَنُوب من ماءٍ لخرج، وقلت له نحواً مما قلت لصاحبيّ فأسرع الإجابة، وقلت له: إني غدوت اليوم، قال: وأنا أريد أن أغدو، وهذه راحلتي بـ(فخّ) مُناخة، قال: فتواعدنا أنا وهو موقع (يأْجُج) إن سبقني أقام وإن سبقت أقمت عليه، قال: فأدلجنا سَحَراً، فلم يطلع الفجر حتىٰ التقينا في (يأجُج)، فغدونا حتىٰ انتهينا إلىٰ (الهدة) فنجد عمرو بن العاص فيها، قال: مرحباً بالقوم.

فقلنا: وبِكَ. فقال: إلىٰ أين مسيركم؟ فقلنا: وما أخرجك؟ فقال: وما أخرجكم؟ قلنا: الدخول في الإسلام، واتباع محمدٍ ﷺ. قال: وذاك الذي أقدمني.

فاصطحبنا جميعاً حتىٰ دخلنا المدينة فأنخنا بظهر (الحَرّة) ركابنا، فأُخْبِر بنا رسول الله ﷺ فسُرّ بنا. فلبست من صالح ثيابي، ثم عمدت إلىٰ رسول الله ﷺ، فلقيني أخي، فقال: أسرع فإن رسول الله ﷺ قد أُخْبِر بك فسُرَّ بقدومك، وهو ينتظركم، فأسرعنا المشي فاطلعت عليه فما زال يبتسم إليّ حتىٰ وقفت عنده، فسلّمت عليه بالنبوة، فردّ عليّ السلام بوجهٍ طلقٍ، فقلت: إني أشهد أن لا إلـٰه إلا الله وأنك رسول الله، فقال: «تعال»، ثم قال رسول الله ﷺ: «الحمد للّه الذي هداك، قد كنت أرىٰ لك عقلاً رجوت أن لا يُسلمك إلاّ إلىٰ خير». قلت: يا رسول الله، إني قد رأيت ما كنت أشهد من تلك المواطن عليك معانداً للحق، فادعو الله أن يغفر لي.

فقال رسول الله ﷺ: «الإسلام يجبّ ما قبله». قلت: يا رسول الله، علىٰ ذلك. قال: «اللهم اغفر لخالد بن الوليد ما أوضع فيه من صدٍّ عن

---

(١) عثمان بن طلحة بن أبي طلحة عبدالله القرشي العبدري، من بني عبد الدار، صحابي. كان حاجب البيت الحرام، أسلم مع خالد بن الوليد في هدنة الحديبية، وشهد فتح مكة، فأعطىٰ رسول الله ﷺ إليه وإلىٰ ابن عمّه شيبان بن عثمان بن أبي طلحة مفتاح الكعبة، ثم سكن المدينة ومات بها سنة اثنتين وأربعين للهجرة.

سبيل الله». قال خالد: وتقدّم عثمان وعمرو فبايعا رسول الله ﷺ. قال خالد: وكان قدومنا في شهر صفر سنة ثمانٍ للهجرة. قال: والله ما كان رسول الله ﷺ يعدل بي أحداً من أصحابه فيما حزبه[1].

إسلام عمرو بن العاص:

وقال عمرو بن العاص رضي الله عنه عن إسلامه: كنت للإسلام مجانباً معانداً. حضرت معركة بدرٍ مع المشركين فنجوت، ثم حضرت أُحُداً فنجوت، ثم حضرت الخندق فنجوت، فقلت في نفسي: كم أوضع؟ والله ليظهرنّ محمد علىٰ قريش، فلحقت بمالي بالرهط وأقللت من الناس ـ أي من لقائهم ـ فلما حضرت الحديبية، وانصرف رسول الله ﷺ في الصلح، ورجعت قريش إلىٰ مكة، جعلت أقول: يدخل محمد في العام المقبل بأصحابه، ما مكة ولا الطائف بمنزل، ولا شيء خير من الخروج، وأنا بعدُ ناءٍ عن الإسلام، وأرىٰ لو أسلمت قريش كلها لم أُسلم، فقدمت مكة وجمعت رجالاً من قومي، وكانوا يرون رأيي، ويسمعون مني، ويقدّمونني فيما نابهم. فقلت لهم: كيف أنا فيكم؟ قالوا: ذو رأينا ومدرهنا[2] في يُمن نفسه وبركة أمره، قال، قلت: تعلمون أني والله لا أرىٰ أمر محمد أمراً يعلو الأمور علواً منكراً، وإني قد رأيت رأياً، قالوا: وما هو؟ قلت: نلحق بالنجاشي فنكون معه، فإن يظهر محمد كنا عند النجاشي، نكون تحت يد النجاشي أحب إلينا من أن نكون تحت يد محمد، وإن تظهر قريش فنحن مَن قد عرفوا.

قالوا: هذا الرأي.

قال: قلت: فاجمعوا ما نهديه له ـ وكان أحبّ ما يُهدىٰ إليه من أرضنا الأَدَم ـ فحملنا أَدَماً كثيراً، ثم خرجنا حتىٰ قدمنا علىٰ النجاشي، فوالله إنا لعنده إذ جاءه عمرو بن أمية الضَّمري، وكان رسول الله ﷺ قد بعثه بكتابٍ كتبه يزوجه أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان، وفي شأن جعفر بن أبي طالب وأصحابه، ويدعوه فيه إلىٰ الإسلام، فدخل عليه، ثم خرج من عنده، فقلت لأصحابي:

---

(١) «البداية والنهاية». ابن كثير: ٢٣٨/٤ ـ ٢٤٠.

(٢) المدره: السيد الشريف والمقدم في اللسان واليد.

هذا عمرو بن أمية، ولو قد دخلت على النجاشي، فسألته إياه، فأعطانيه، فضربت عنقه، فإذا فعلت ذلك سُرّت قريش، وكنت قد أجزأت عنها حين قتلت رسول محمدٍ، فدخلت على النجاشي، فسجدت له كما كنت أصنع، فقال: مرحباً بصديقي، أهديتَ لي من بلادك شيئاً؟ قلت: نعم أيها الملك، أهديت لك أَدَماً كثيراً، ثم قدّمته، فأعجبه، وفرّق منه شيئاً بين بطارقته، وأمر بسائره، فأُدخل في موضع، وأمر أن يُكتب ويُحتفظ به. فلما رأيت طيب نفسه، قلت: أيها الملك، إنيِّ قد رأيت رجلاً خرج من عندك، وهو رسول عدوٍّ لنا، قد وترنا، وقتل أشرافنا وخيارنا، فأعطنيه، فأقتله، فغضب من ذلك ورفع يده فضرب بها أنفي ضربةً ظننت أنه كسره، فابتدر منخراي، فجعلت أتلقى الدم بثيابي، فأصابني من الذلّ ما لو انشقت بي الأرض دخلت فيها فَرَقاً منه، ثم قلت: أيها الملك، لو ظننت أنك تكره ما قلت ما سألتك، قال: فاستحيى وقال: يا عمرو تسألني أن أُعطيك رسول من يأتيه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى، والذي كان يأتي عيسى لتقتله؟

قال عمرو: فغيّر الله قلبي الذي كنت عليه، وقلت في نفسي: عرف هذا الحق العرب والعجم، وتُخالف أنت، ثم قلت: أتشهد أيها الملك بهذا؟

قال: نعم أشهد به عند الله يا عمرو، فأطعني واتّبعه، فوالله إنه لعلى حق، وليظهرنّ على من خالفه، كما ظهر موسى على فرعون وجنوده.

قلت: أتبايعني له على الإسلام؟

قال: نعم، فبسط يده فبايعني على الإسلام، ثم دعا بطستٍ فغسل عني الدم، وكساني ثياباً ـ وكانت ثيابي قد امتلأت بالدم فألقيتها ـ ثم خرجت على أصحابي، فلما رأوا كسوة النجاشي سُرُّوا بذلك، وقالوا: هل أدركت من صاحبك ما أردت؟

فقلت لهم: كرهت أن أكلمه من أول مرّةٍ، وقلت: أعود إليه.

فقالوا: الرأي ما رأيت.

قال: ففارقتهم، وكأني أعمد إلى حاجةٍ، فعمدت إلى موضع السفن، فأجد سفينة قد شحنت، قال: فركبت معهم، ودفعوها حتى انتهوا إلى

الشعيبة، وخرجت من السفينة ومعي نفقة، فابتعت بعيراً، وخرجت أريد المدينة، حتىٰ مررت علىٰ (مرّ الظهران)، ثم مضيت حتىٰ كنت بـ(الهدّة)، فإذا رجلان سبقاني قليلاً، يريدان منزلاً، أحداهما داخل الخيمة، والآخر يمسك الراحلتين، قال: فنظرت فإذا خالد بن الوليد، قلت: أين تريد؟

قال: محمداً، دخل الناس الإسلام، فلم يبقَ أحد به طمع، والله لو أقمت لأُخذ برقابنا كما يُؤخذ برقبة الضبع في مغارتها.

قلت: وأنا والله أريد محمداً، وأردت الإسلام، فخرج عثمان بن طلحة فرحب بي فنزلنا جميعاً في المنزل، ثم اتفقنا حتىٰ أتينا المدينة، فما أنسىٰ قول رجلٍ لقيناه ببئر أبي عتبة يصيح: يا رباح يا رباح يا رباح، فتفاءلنا بقوله وسُرِرْنا، ثم نظر إلينا فأسمعه يقول: قد أعطت مكة المقادة بعد هذين، وظننت أنه يعنيني ويعني خالد بن الوليد، وولّىٰ مدبراً إلىٰ المسجد سريعاً، فظننت أنه بشّر رسول الله ﷺ بقدومنا، فكان كما ظننت. وأنخنا بالحرّة، فلبسنا من صالح ثيابنا، ثم نودي بصلاة العصر، فانطلقنا حتىٰ اطلعنا عليه، وإن لوجهه تهلّلاً، والمسلمون حوله قد سُرُّوا بإسلامنا، فتقدّم خالد بن الوليد فبايع، ثم تقدّم عثمان بن طلحة فبايع، ثم تقدّمت فوالله ما هو إلا أن جلست بين يديه فما استطعت أن أرفع طَرْفي حياءً منه. قال: فبايعته علىٰ أن يغفر لي ما تقدّم من ذنبي، ولم يحضرني ما تأخّر، فقال: «إن الإسلام يجبّ ما قبله، والهجرة تجبّ ما كان قبلها».

قال عمرو: فوالله ما عدل بي رسول الله ﷺ وبخالد بن الوليد أحداً من أصحابه في أمرٍ حَزَبه منذ أسلمنا، ولقد كنا عند أبي بكرٍ بتلك المنزلة، ولقد كنت عند عمر بتلك الحالة، وكان عمر علىٰ خالد كالعاتب[1].

إسلام خزاعة:

أسلمت قبيلة خزاعة كافةً، وكانت قد دخلت في حلف رسول الله ﷺ في صلح الحديبية، ولكن لم تلبث أن اعتنقت الإسلام بعد الصلح بقليل.

---

(١) «البداية والنهاية»: ابن كثير. الجزء الرابع.

دعوة الملوك والأمراء إلى الإسلام

وجد رسول الله ﷺ أن الوقت قد أصبح مناسباً لدعوة الحكام إلىٰ الإسلام، سواء أكانوا داخل الجزيرة العربية أم خارجها، فاليهود قد انتهوا من الساحة، وقريش في هدنة معه، أما الأعراب فلا بُدّ من غزو ديارهم باستمرار، لأنهم اعتادوا علىٰ شنّ الغارات، فإن لم يغزهم قطعوا الطرق، أو قاموا بشنّ الغارات علىٰ من جاورهم، أو علىٰ مناطق المدينة بالذات.

وقد كتب رسول الله ﷺ الرسائل إلىٰ الحكام، وبعثها مع رسلٍ له، فأرسل:

١ ـ دِحْية بن خليفة الكلبي[١] إلىٰ هرقل ملك الروم.

٢ ـ عبدالله بن حُذافة السهميّ[٢] إلىٰ كسرىٰ ملك الفرس.

٣ ـ عمرو بن أمية الضَّمري إلىٰ النجاشي ملك الحبشة.

---

(١) دحية بن خليفة بن فروة بن فضالة الكلبي: حضر كثيراً من الوقائع، كان يُضرب به المثل في حسن الصورة، شهد اليرموك وكان قائد فرقة، ثم نزل دمشق، وسكن المِزّة، وتوفي سنة خمسٍ وأربعين للهجرة.

(٢) عبدالله بن حذافة بن قيس السهمي القرشي، أبو حذافة: صحابي من المسلمين الأوائل، بعثه النبيّ ﷺ إلىٰ كسرىٰ، وهاجر إلىٰ الحبشة، وشهد بدراً، وأسره الروم في خلافة عمر رضي الله عنه، ثم أطلقوه، وشهد فتح مصر، وتوفي سنة ٣٣ للهجرة في أيام عثمان بن عفان رضي الله عنه.

٤ ـ حاطب بن أبي بلتعة[١] إلىٰ المقوقس حاكم مصر.

٥ ـ العلاء بن الحضرمي[٢] إلىٰ المنذر بن ساوي حاكم البحرين.

٦ ـ سَلِيط بن عمرو[٣] إلىٰ هوذة بن علي الحنفي أمير منطقة اليمامة.

٧ ـ شجاع بن وهب الأسدي[٤] إلىٰ الحارث بن أبي شمّر الغسّاني أمير الغساسنة في حوران.

٨ ـ المهاجر بن أبي أمية المخزومي[٥] إلىٰ الحارث الحِميري حاكم اليمن.

٩ ـ عمرو بن العاص السهمي إلىٰ ملكَيْ عُمان جيفر بن جُلُندي، وعبد بن جُلُندي.

---

(١) حاطب بن أبي بلتعة اللخمي، صحابي، ولد سنة ٣٥ قبل الهجرة، فهو أصغر من رسول الله ﷺ بثماني عشرة سنة. شهد الوقائع كلها مع رسول الله ﷺ، وكان من أشدّ الرماة بين الصحابة، وكانت له تجارة واسعة بعثه رسول الله ﷺ بكتاب الدعوة إلى الإسلام، إلى المقوقس صاحب الإسكندرية. وتوفي في المدينة سنة ثلاثين للهجرة، وكان أحد فرسان قريش وشعرائها في الجاهلية.

(٢) العلاء بن عبدالله الحضرمي، صحابي، أصله من حضرموت، سكن أبوه مكة، فولد العلاء فيها، ولاّه رسول الله ﷺ البحرين سنة ٨ للهجرة، وجعل له جباية الصدقة، وأقرّه أبو بكر ﷺ بعد وفاة رسول الله ﷺ ثم أقرّه عمر ﷺ، إلىٰ البصرة فمات في الطريق سنة ٢١هـ، وهو أول مسلم ركب البحر.

(٣) سليط بن عمرو بن عبد شمس، القرشي، العامري أخو سهيل بن عمرو، وهاجر سليط وامرأته أم يقظة بنت علقمة، فولدت له هناك سليط بن سليط.

(٤) شجاع بن وهب بن ربيعة الأسدي، من بني غنم: صحابي، شجاع، من أمراء السرايا، شهد المشاهد كلها، وقُتل شجاع يوم اليمامة سنة اثنتا عشرة للهجرة.

(٥) المهاجر بن أبي أمية سهيل المخزومي القرشي: صحابي، والٍ، من القادة، شهد بدراً مع المشركين، وقُتل يومئذٍ أخواه هشام ومسعود كافرين، وأسلم، وكان اسمه الوليد فسمّاه رسول الله ﷺ المهاجر. وتخلّف المهاجر عن معركة تبوك سنة تسع للهجرة، وقد عتب عليه رسول الله، ثم رضي عنه، واستعمله أميراً علىٰ صدقات كِنده، وبعَثه أبو بكر ﷺ لقتال من بقي من المرتدين في اليمن (الأسود العنسي) فتولّىٰ إمارة صنعاء سنة إحدىٰ عشرة للهجرة، وسار نجدةً لقتال المرتدين في حضرموت، وتوفي سنة ١٢هـ.

وقد أسلم ملك البحرين المنذر بن ساوي.

وأسلم ملك الحبشة النجاشي الذي كان عهده بالمُلك حديثاً، إذ توفي النجاشي الذي سبقه والذي كان قد أسلم على يد جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه.

وأسلم ملكا عُمان ابنا جُلُندي.

وأسلم حاكم اليمن الحارث الحميري، وأخواه.

وخاف على مُلكه كل من هرقل ملك الروم، والمقوقس حاكم مصر.

أما كسرى ملك الفرس فقد مزّق كتاب رسول الله ﷺ فمزّق الله دولته، بينما عامله على اليمن (باذان) فقد اعترف بنبوة محمدٍ ﷺ وأسلم.

وأما الحارث بن أبي شمّر الغسّاني حاكم حوران فقد هدّد بغزو المدينة.

وأسلم جبلة بن الأيهم، وهو أحد أمراء الغساسنة إذ جاءه كتاب خاص من رسول الله ﷺ.

وأما أمير اليمامة هوذة بن علي الحنفي، فقد اشترط أن يجعل له رسول الله ﷺ الأمر من بعده.

سرية غالب بن عبدالله:

أرسل رسول الله ﷺ سريةً بإمرة غالب بن عبدالله إلى بني المُلوَّح، وهم فخذ من بني الليث من كنانة، ومنازلهم على ساحل البحر جنوب منازل بني غفار، وقد أدّت هذه السرية غرضها بنجاحٍ على الرغم من أن عددها لا يصل إلى العشرين مُقاتلاً، إذ قتلوا بعضَ الأعداء، وأخذوا الأغنام، ولما جاءت جموع القبيلة، فصَل بينهم السيل، ورجعت السرية إلى المدينة آمنةً لم يصب أحد منها بأذًى.

سرية شجاع بن وهب:

وبعث رسول الله ﷺ شجاع بن وهب علىٰ رأس سريةٍ تضمّ أربعةٍ وعشرين مقاتلاً إلىٰ قبيلة هوازن شرق الطائف، ففزع المشركون عندما وصلت إليهم أخبار هذه السرية، وظنُّوا أن عددها كبير، ولم يتوقّعوا أن يسير هذا العدد القليل هذه المسافة الطويلة، لذا فقد هرب أفراد قبيلة هوازن، وتركوا بعض النساء فذهبن سبايا بأيدي أفراد هذه السرية الذين استاقوا الأغنام أمامهم أيضاً.

وجاء وفد من هوازن معلنين إسلامهم، وكلموا رسول الله ﷺ في إطلاق سراح السبايا، فكلم السرية في ذلك فوافقوا، وأُطلق سراح السبايا.

سرية كعب بن عمير[1]:

بعث رسول الله ﷺ أربعة عشر رجلاً للدعوة إلىٰ الإسلام في جهات بلاد الشام الجنوبية بإمرة كعب بن عمير، فاعتدىٰ عليهم الغساسنة، وقتلوا أفراد السرية جميعاً بعد معركةٍ حاميةٍ بين الطرفين.



(١) كعب بن عمير الغفاري: من كبار الصحابة، بعثه النبيّ ﷺ أميراً علىٰ سرية فقتل ومن معه فيها، وذلك سنة ثمانٍ للهجرة.

غزوة مُؤتة

كان الروم يسيطرون على بلاد الشام، ومصر، وسواحل إفريقية الشمالية كلها، هذا إضافةً إلى بلاد الأناضول وغيرها، وكانوا ينظرون إلى العرب نظرة ازدراءٍ واحتقارٍ، إذ يسمعون بغارات بعضهم على بعضٍ في سبيل السلب والنهب، وأخذ شيءٍ من الغنائم من العدوّ في سبيل الرزق، مع علمهم بفقر جزيرتهم وجدبها، وإذا جاءتهم سنوات عجاف انطلقوا إلى أطرافها يُغيرون عليها. وكثيراً ما كان الروم يكلون إلى عملائهم الغساسنة ردّ تلك الغارات دون الحاجة إلى شُغل أنفسهم بها أو التفكير بأمرها.

عندما انطلقت الدعوة الإسلامية لم تتغيّر نظرة الروم بادئ ذي بدء، فلما طُرد اليهود من المدينة المنوّرة، ووصل بعضهم إلى بلاد الشام، ثم وصلت كتب رسول الله ﷺ إلى الملوك والأمراء فآمن من آمن، وخاف على مُلكه من خاف، ومنهم ملكهم هرقل، وعاملهم على مصر وهو المقوقس. ولولا الخوف على الملك والحرص على المصالح لغدت دولتهم تتبع المدينة المنوّرة عاصمة المسلمين، فحقد لذلك المتعصّبون من أتباع الكنيسة، وكادت قلوبهم تتميّز من الغيظ، فأوغروا صدور عملائهم الغساسنة، وأوعزوا إليهم أن يقضوا على أي أثرٍ يصل إلى جهاتهم من قِبل المسلمين، ولهذا فقد قتل الغساسنة دعاة المسلمين الأربعة عشر رجلاً الذين كانوا مع كعب بن عمير، وكذا فإن شرحبيل بن عمرو الغسّاني أحد أمراء الملك الغساني الحارث بن أبي شمّر قد قتل الحارث بن عمير الأزدي[1]

---

(١) الحارث بن عمير الأزدي: صحابي، بعثه رسول الله ﷺ إلى ملك بُصرى بكتاب فقُتل عندما عُرف أنه رسول النبيّ محمد، وذلك سنة ثمانٍ للهجرة، وإثر ذلك كانت غزوة مؤتة.

رسول النبي محمد ﷺ، عندما التقىٰ به في مؤتة، إذ سأله عن قصده، فقال: الشام، فقال: لعلك من رُسل محمدٍ؟ قال: نعم، أنا رسول رسول الله ﷺ، فأمر به فقُيّد، ثم قتله صبراً.

هذا إضافةً إلىٰ تهديد الملك الغسّاني الحارث بن أبي شمّر بغزو الجزيرة، واحتلال المدينة، لهذا كله أراد رسول الله ﷺ أن يُعطي الروم وعملاءهم الغساسنة معاً صورةً حقيقيةً عن المسلمين بأنهم لم يغزوا للغنائم، ولم يُقاتلوا للسلب والنهب، وإنما للدعوة إلىٰ الله، وأن قوتهم تختلف عن قوة القبائل البدوية المتنقلة التي هي في ذهن الروم، وأن قتال العقيدة ليس كقتال الكرّ والفرّ، وليس كالقتال من أجل التراب، والديار، والمنازل، والأملاك أو الأعشاب والمياه، وما إلىٰ ذلك من مطالب الدنيا ومغرياتها.

لهذا أرسل رسول الله ﷺ جيشاً قوامه ثلاثة آلاف مقاتلٍ، وجعل عليه زيد بن حارثة الذي قاد عدداً من السرايا، وأبدىٰ كثيراً من فنون الشجاعة والحرب، وقال: «فإن أُصيب فالأمير جعفر بن أبي طالب»، وكان قد جاء من الحبشة. «وإن أُصيب فالأمير عبدالله بن رواحة، ثم يختار المسلمون من شاؤوا».

ولما أرادوا الحركة ودّع الناس أمراء رسول الله ﷺ وسلّموا عليهم، فلما وُدِّع عبدالله بن رواحة بكىٰ، فقالوا: ما يُبكيك يا بن رواحة؟ فقال: أما والله ما بي حبّ الدنيا، ولا صبابة بكم، ولكني سمعت رسول الله ﷺ يتلو آيةً من كتاب الله ﷻ يذكر فيها النار ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾﴾ [مريم] فلست أدري كيف لي بالصَّدَر بعد الورود، فقال المسلمون: صَحِبكم الله ودفع عنكم، وردّكم إلينا صالحين.

فقال عبدالله بن رواحة:

لكنني أسأل الرحمٰن مغفرةً	وضربةً ذات فَرْغ تقذف الزبدا
أو طعنةً بيدَيْ حرّانَ مُجْهِزَةً	بحربةٍ تُنفِذ الأَحشاء والكبِدا
حتىٰ يُقال إذا مرُّوا علىٰ جدثي	أرشده الله من غازٍ وقد رشدا

وأتىٰ عبدالله بن رواحة رسول الله ﷺ فودّعه، ثم قال:

فثبّتَ الله ما آتاك من حَسَنٍ ... تثبيت موسىٰ ونَصْراً كالذي نُصِروا
إني تفرّستُ فيك الخير نافلةً ... الله يعلم أني ثابتُ البَصَرُ
أنت الرسول فمن يُحرَم نوافلَه ... والوجهَ منه فقد أزرىٰ به القدرُ

ثم خرج القوم، وخرج رسول الله ﷺ، حتىٰ إذا ودّعهم وانصرف عنهم، قال عبدالله بن رواحة:

خَلَف السلام علىٰ امرئٍ ودّعته ... في النخل خير مشيِّعٍ وخليلِ

وكان في هذا الجيش خالد بن الوليد، وهذا أول بعثٍ سار فيه خالد إذ لم يكن قد مضىٰ علىٰ إسلامه أكثر من ثلاثة أشهرٍ، إذ وصل إلىٰ المدينة في غرّة شهر صفر من السنة الثامنة للهجرة، وكان هذا البعث في شهر جمادىٰ الأولىٰ من السنة نفسها.

انطلق الجيش الإسلامي، ووصلت أخباره إلىٰ عامل الروم علىٰ بلاد الشام الجنوبية شرحبيل بن عمرو الغسّاني، فأخبر الروم وبدأ بجمع المقاتلين من القبائل العربية التابعة للروم، وأرسل أخاه (سدوس) طليعةً له مع خمسين مقاتلاً من أجل استطلاع الأخبار عن الجيش الإسلامي غير أن (سدوس) قد وقع بأيدي المسلمين في وادي القرىٰ وقُتل، فخاف شرحبيل بعد مقتل أخيه خوفاً شديداً وطلب النجدة من الروم، وكان يومذاك ملكهم في بيت المقدس.

وجاءت نجدة الروم، وكان قوامها مائة ألف مقاتل إذ أيقن أن الأمر جدّ، وما اعتادوا أن يطلب عملاؤهم نجدةً منهم لردّ غارةٍ عربيةٍ إذ أنهم يكفونهم ذلك، بل قد لا يحتاجون إلىٰ حشد الجيوش واستنفار لقبائل المؤيدة، أما وقد طلبوا النجدة المستعجلة مع ما كانوا قد جمعوه من قبائلهم وأحلافهم وزاد عددهم علىٰ المائة ألف مقاتل، وأنجدهم الروم بقوة مثلها بقيادة تيودور أخي الملك هرقل، وهذا يعني أن الأمر لخطير.

وصلت أخبار قوة الروم وعملائهم إلىٰ الجيش الإسلامي، وكان قد وصل إلىٰ مدينة (مَعان) في جنوبي شرقي الأردن اليوم، فوقف الجيش للتشاور، فرأىٰ فريق منهم إعلام المدينة المنوّرة، وطلب المدد، وانتظار الجواب، ورأىٰ فريق آخر ضرورة ملاقاة العدوّ، فالجهاد لا يتوقّف علىٰ العدد، ولا علىٰ عدد الأعداء فكم من فئةٍ قليلةٍ غلبت فئةً كثيرةً بإذن الله. وأنهم إن انتظروا فقد لا يُمهلهم عدوّهم، فإما العودة وهي ليست بالحساب، وإما ملاقاة الأعداء، وكان عبدالله بن رواحة القائد الثالث علىٰ رأس الفريق الثاني، وقد قال: (إن الذين تكرهون للذي خرجتم تطلبون، وما نُقاتل الناس بعددٍ، ولا قوةٍ، ولا كثرةٍ، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، والله لقد رأيتنا يوم بدرٍ ما معنا إلا فَرسان، ويوم أُحُدٍ فرس واحد، فانطلقوا بنا فإنما هي إحدىٰ الحُسنيين إما ظهور عليهم فذلك الذي وعدنا نبينا، وليس لوعده خُلف، وإما الشهادة فنلحق بالإخوان نرافقهم في الجنان). وبعد هذه الكلمة ثارت حماسة المسلمين للقتال، وأصدر قائدهم زيد بن حارثة أمره بالتحرُّك لملاقاة الأعداء.

كان جيش الروم وعملائهم يتألف من مائة ألفٍ من الروم بقيادة تيودر أخي هرقل، ومائة ألفٍ من الغساسنة والعرب المتنصِّرة بقيادة مالك بن رافلة البلوي، ومع هذا الجيش العرمرم عشرات من الخيل تزيد علىٰ الخمسين ألفاً. أما الجيش الإسلامي فلم يكن يزيد علىٰ ثلاثة آلافٍ.

وصل الجيش الإسلامي إلىٰ بلدة مؤتة فتحصّن بها خوفاً من التطويق، أما الروم فقد توقّعوا أن يُبيدوا الجيش الإسلامي إبادةً تامّةً خلال ساعةٍ أو ساعاتٍ قلائل، أو يضطروه إلىٰ الاستسلام، ولكنهم رأوا غير ما توقّعوا فقد وجدوا رجالاً يندفعون إلىٰ القتال دون مبالاةٍ، وكأنه لا شيء أمامهم، أو كأنهم يحصدون حقولاً من القمح تمايلت سنابلها ولا حامي لها ولا حارس، وقد استمرّت المعركة سبعة أيام، وجد الروم خلال الأيام الستة الأولىٰ الأهوال كلها، وعانوا الشدائد، وشُدِهوا من الشجاعة البالغة لهؤلاء الذين يقاتلونهم، وكلما حاولوا اقتحام موقعٍ للمسلمين باؤوا بالفشل علىٰ

الرغم من كثرتهم الكبيرة، ورجعوا إلىٰ أماكنهم مُخلّفين عدداً كبيراً من القتلىٰ في ساحة المعركة. وظلّ المسلمون في صمودٍ تامّ. وفي اليوم السادس استشهد قائد المسلمين زيد بن حارثة بعد أن دخل صفوف الاعداء وقتل الكثير منهم كعادته في كل يوم من أيام المعركة، وفي اليوم السادس تناوشته رماح الأعداء فخرّ صريعاً، ولم يسقط اللواء من يده بل تناوله لقائد الثاني جعفر بن أبي طالب والذي كان يُقاتل بجانب زيد طيلة الأيام السابقة للمعركة، فقاتل قتالاً شديداً شُدِهَ منه الروم وكل من رآه. فكان يدفع جحافل الأعداء أمامه، وتسير كتائب المسلمين خلفه، ثم أقحم فرسه وسط جموع الخصم، ولكثرة الزحام وشدة الالتحام عجزت فرسه مع قوتها عن الحركة، فألقىٰ نفسه عنها، وعقرها، وقاتل مترجّلاً قتالاً لم يكد يسبقه أحد إليه، وأحاط به الروم من كل جهةٍ، وهو يُشتّت شملهم حيث اتجه حتىٰ أُنهك، وقُطعت يده اليمنىٰ التي تحمل الراية فأخذها باليسرىٰ فقُطعت، فاحتضنها بعضده خوفاً من أن تقع لأن وقوع الراية دليل هزيمة الجيش، وبوقوعها تنهار معنويات المقاتلين، ثم أثخنته الجراح فوقع شهيداً، وبه أكثر من تسعين ضربةً، منها ضربة رمحٍ قد أنفذته، وضربة سيف شطرته، وربما كانت بعد سقوطه.

وهو يقول:

يا حبَّذا الجنّةُ واقترابُها ... طيّبةً وبارداً شرابُها

والرومُ رومٌ قد دنا عذابُها ... كافرةٌ بَعيدةٌ أنسابُها

عليّ إذ لاقيتها ضِرابُها

وقال حسان بن ثابت يبكي جعفراً:

ولقد بكيت وعزَّ مهلكُ جعفرِ ... حِبُّ النبيّ علىٰ البريَّة كلّها

ولقد جزعتُ وقلتُ حين نُعيتَ لي ... من للجِلاد لدىٰ العُقاب وظلّها

بالبيض حين تُسلّ من أغمادها ... ضرباً وإنهالِ الرماح وعلّها

وقال حسان بن ثابت يبكي زيد بن حارثة وعبدالله بن رواحة:

عين جودي بدمعك المنزور | واذكري في الرخاء أهل القبورِ
واذكري مؤتة وما كان فيها | يوم راحوا في وقْعة التغوير
إنّ زيداً قد كان منّا بأمرٍ | ليس أمر المُكذّب المغرور
ثم جودي للخزرجي بدمعٍ | سيّداً كان ثم غير نزور
قد أتانا من قتلهم ما كفانا | فبحزنٍ نبيت غير شرور

ولما تسلّم عبدالله بن رواحة الراية، قال:

أقسمتُ يا نفسُ لتنزلنّه | لتنزلنّ أو لتُكْرَهِنّه
إن أجلب الناس وشدُّوا الرِّنّه | ما لي أراك تكرهين الجنّه
قد طال ما كنت مطمئنّه | هل أنتِ إلا نطفةً من شنّه

فاستبسل في القتال حتىٰ لقي مصرعه كسابقَيْه، وسقط لواء المسلمين علىٰ الأرض، فضعفت المعنويات، وبدأ بعض المسلمين بالتراجع، إلا أن قُطبة بن عامر الأنصاري قد رفع اللواء، وأخذه منه ثابت بن أقرم، وبدأ يصيح في الناس، فثابوا إلىٰ رشدهم، وطلب من المسلمين أن يعملوا علىٰ اختيار قائدٍ لهم يرفع لهم اللواء، فاختاروه فأبىٰ، ولكنه أخذه وسلّمه إلىٰ خالد بن الوليد، فوافق وجوه الجيش، وكان اليوم السادس قد انتهىٰ، وأرخىٰ الظلام سدوله، ومنع الليل بعض الفريقين من بعض، وأثناء الليل نظم خالد الجيش من جديد، وفكّر في إنقاذ الموقف، فاختار كتائب من الفرسان، وطلب منها المرابطة خارج مؤتة، فإذا أصبح الصباح والتحم الناس جاء بعضها إثر بعضٍ مرتفعة أصواتها بالتكبير، وعدو الخيل يُثير النقع، ثم تشترك في المعركة كما أبدل مواقع فرق الجيش، إذ جعل الميمنة مكان الميسرة، والساقة بدل المقدمة. . .

ومع انبلاج الفجر عاد القتال، وشنّ خالد هجوماً معاكساً زلزل فيه الروم، فوجد المقاتلة الروم أمامهم غير الذين عرفوهم، فظنُّوا أن مدداً قد جاء للمسلمين فخافوا مغبة الأمر، ثم تتالت كتائب فرسان المسلمين تصل

إلىٰ ميدان المعركة وكأنها فرق جديدة وكبيرة حسبما يبدو من الغبار المرتفع والأصوات المتعالية، وزاد خوف الروم، وأيقنوا أن المدد قد وصل للمسلمين، واعتقدوا أنهم لا قبل لهم بقواتٍ إضافيةٍ كبيرةٍ، وقد أنهكتهم قوة صغيرة فكيف لهم بجموعٍ كثيرةٍ لم تعرف التعب بعد.

وصبر المسلمون يومهم السابع ببسالة، ولكن بشيءٍ كثيرٍ من التعب. وعندما جاء المساء وفصل الظلام بين الجيشين انسحب خالد بالجيش علىٰ شكل كتائب يحمي بعضها بعضاً أثناء التراجع، خوفاً من ملاحقة الروم ومطاردتهم، وعندهم الإمكانات الضخمة إذ عندهم من سلاح المطاردة خمسون ألفاً من الفرسان، إلا أن الروم قد أيقنوا أن هذا الانسحاب إنما هو مكيدة حربية بعد أن جاءتهم القوات الجديدة، وأنهم ينصبون الكمائن ليوقعوا الروم فيها، فأحجموا عن المطاردة، ونجا الجيش الإسلامي الصغير بهذه الخطة.

وعلم رسول الله ﷺ بما حدث، وأخبر المسلمين، وعندما عاد الجيش ظنّ بعض الناس أن الجنود قد فرُّوا من المعركة، فقذفوهم بوابلٍ من الكلمات حتىٰ برأهم رسول الله ﷺ مما أُلصق بهم، وأثنىٰ عليهم وعلىٰ قتالهم.

وقد استشهد يوم مؤتة إثنا عشر مسلماً، أربعة من المهاجرين وثمانية من الأنصار، وهم:

من المهاجرين:

١ ـ جعفر بن أبي طالب. ٢ ـ زيد بن حارثة. ٣ ـ مسعود بن الأسود. ٤ ـ وهب بن سعد بن أبي سرح.

من الأنصار:

١ ـ عبدالله بن رواحة. ٢ ـ عبّاد بن قيس. ٣ ـ الحارث بن النعمان. ٤ ـ سُراقة بن عمرو بن عطية. ٥ ـ جابر بن عمرو بن زيد. ٦ ـ أبو كليب بن عمرو بن زيد. ٧ ـ عمرو بن سعد بن الحارث. ٨ ـ عامر بن سعد بن الحارث.

وقال شاعر ممن رجع من غزوة مؤتة:

كفىٰ حزناً أني رجعت وجعفر وزيـد وعـبـدالله فـي رَمْـسِ أَقْـبُـرِ
قضوا نحبهم لما مضوا لسبيلهم وخُـلِّـفْـتُ لـلـبلـوىٰ مع الـمـتـغيِّـرِ
ثـلاثـة رهـط قُـدّمـوا فـتـقـدّمـوا إلىٰ وِردِ مكروهٍ من الموت أحمرِ

وقيل شعر كثير في رثاء شهداء مؤتة.

إن قلّة الشهداء أمام عدوّ يفوقهم بأكثر من سبعٍ وستين مرةً، إذ كان المسلمون ثلاثة آلافٍ بينما كان الروم وأعوانهم مائتَيْ ألف فإن هذا ليدلّ علىٰ شجاعة المسلمين وتماسكهم، وتراصّهم، وتلاحمهم، ودليل صدق إخوتهم، إذ كانوا لا يتركون ثغرةً يمكن للعدوّ أن يدخل منها، هذا إضافةً إلىٰ شجاعتهم وإقدامهم أملاً بالشهادة، وإرضاءً للخالق، وإيماناً بما يقومون به. هذا إلىٰ جانب خوف أعدائهم منهم، ويجب ألا ننسىٰ ضعف الخصم وجبنه، ورهبته من هؤلاء الأبطال أمل الأمة، وطلاب الجنّة، وقدوة الخلف.

أما عدد قتلىٰ الأعداء فغير معروف لكثرته، وعدم مبالاة رفاقهم بهذا الأمر لشدّة خوفهم ورهبتهم في ميدان القتال.

معركة ذات السلال:

يبدو أن الروم قد شعروا بعد معركة مؤتة أن المسلمين قِلّة، إذ لم يستطيعوا جمع أكثر من ثلاثة آلاف مقاتلٍ يرسلونهم إلىٰ منطقة يزيد بعدها علىٰ ألف كيلومتر، إلىٰ دولةٍ بعيدةٍ واسعةٍ مترامية الأطراف تستطيع زجّ مئات الألوف، ولهذا فقد أوكل الروم مرةً ثانيةً إلىٰ عملائهم العرب غزو قاعدة المسلمين وحاضرتهم المدينة المنورة، وخاصة قبيلة قضاعة وبطونها المتعددة التي اشتركت في معركة مؤتة، وكانوا قوامها، وبعثوا إليها مائة مقاتلٍ، وقد لقي قائدهم مالك بن رافلة مصرعه في تلك المعركة. وبعد هذه الأوامر من الروم إلىٰ عملائهم من العرب المتنصّرة فقد بدأت قبيلة قضاعة تحشد جموعها، وتستنفر بطونها المتعددة، وهي علىٰ خوفٍ من القتال مع

المسلمين لما تعرف من حماستهم، ولما لقيت في مؤتة، ولكن لا بد من تنفيذ أوامر ساداتها الروم.

وصلت الأخبار إلىٰ رسول الله ﷺ عن جموع قبيلة قضاعة، فأراد أن يفاجئها قبل استكمال عدّتها، كما أن يبعث إليها بقوةٍ قليلةٍ تدلّ علىٰ قيمة قضاعة في نظر المسلمين، وأن الثلاثة آلاف مقاتلٍ من المسلمين الذين كانوا في مؤتة كان هدفهم الروم وليس قضاعة وغيرها من تلك القبائل الضاربة في تلك الجهات.

أرسل رسول الله ﷺ قوّةً تضمّ ثلاثمائة رجلٍ بإمرة عمرو بن العاص، ومعهم ثلاثون فارساً، وعمرو بن العاص لم يمضِ علىٰ إسلامه أكثر من أربعة أشهرٍ، ويكون قتاله هذا أول قتالٍ إسلاميٍّ يشترك فيه، وتكون هذه السرية علىٰ قلّة أفرادها من أفضل البعوث إذ تضمّ كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار السابقين في الإسلام، وفي هذه السرية تربية للمسلمين علىٰ السمع والطاعة للقائد ـ أيًّا كان ـ ما دام يجيد الفنّ الذي يقوم به. وعمرو بن العاص رضي الله عنه من المقاتلين من الدرجة الأولىٰ.

تحرّك الجيش الإسلامي في شهر جمادىٰ الآخرة من السنة الثامنة للهجرة، تحرّك من المدينة وسار حتىٰ دخل في أرض العدوّ، ونزل علىٰ ماء يُسمّىٰ ذات السلاسل، وجاءت المعلومات إلىٰ القائد عمرو بن العاص أن قوة العدوّ كبيرة لا يستطيع ملاقاتها بمن معه، لذا طلب المدَد من المدينة علىٰ جناح السرعة، وخرج من أرض العدوّ خشية الصدام قبل وصول المدد، كما منع إشعال النار وخاصةً في الليل علىٰ الرغم من البرد الشديد في تلك الأيام وتلك الجهات زيادةً في كتم الأخبار.

وصل المدد بإمرة أبي عبيدة عامر بن الجراح، ويضمّ مائتَيْ مقاتل، وبقي عمرو بن العاص هو القائد الأعلىٰ للجيش علىٰ الرغم من طلب بعضهم أن يكون أبو عبيدة هو القائد، ولكن أبا عبيدة رضي الله عنه لم يرَ الخلاف علىٰ القيادة في الظروف القائمة، ولا بأية حالٍ، ولا بأية ظرفٍ.

التحم الخصمان، ولكن قبيلة قضاعة عجزت عن مواجهة المسلمين،

فلم تصمد إلا قليلاً، ثم ولّت الأدبار علىٰ الرغم من كثرتهم، ومدّ الروم لهم بالسلاح والمال، وقد طاردهم المسلمون، ثم منع القائد المطاردة خوفاً من الكمائن.

رجع الجيش الإسلامي إلىٰ المدينة، ولم يُصب أحد من أفراده بأذىٰ، وكان قد سبقه عوف بن مالك الأشجعي[1] ليُخبر رسول الله ﷺ بما تمّ، فسُرّ رسول الله ﷺ سروراً كبيراً، وأقرّ تصرّفات القائد، وأثنىٰ علىٰ أبي عبيدة بن الجراح.



(١) عوف بن مالك الأشجعي: أسلم في السنة السادسة للهجرة، وشهد فتح مكة مع المسلمين، وكانت له راية أشجع، وآخىٰ رسول الله ﷺ بينه وبين أبي الدرداء، شهد فتوح الشام، وتوفي سنة ثلاثٍ وسبعين للهجرة في خلافة عبد الملك بن مروان.

فتح مكة المكرّمة

دخلت قبيلة خُزاعة إثر صلح الحديبية في حلف رسول الله ﷺ، ودخلت بنو بكرٍ في حلف قريشٍ، ثم لم تلبث خُزاعة أن اعتنقت الإسلام، وكان بين الحيين في الجاهلية ثارات، وبعد صلح الحديبية أُثيرت حوادث الجاهلية فهجمت بنو بكر علىٰ خُزاعة، وهي علىٰ ماء لها يُدعىٰ (الوتير)، وقتلوا منها رجلاً، واشتبك الحيّان، وأمدّت قريش حليفتها بني بكرٍ بالمال والسلاح، وعاونتهم بالرجال أثناء قتال الليل استخفاءً، حتىٰ اضطرت خُزاعة إلىٰ دخول الحرم، ولكن ذلك لم يمنعها من أعدائها الذين انتهكوا حرمة الحرم، فلجأت خُزاعة إلىٰ دار بُديل بن ورقاء الخزاعي، وما كان من خزاعة إلا أن استنجدت بإخوانها المسلمين الذين يُشكّلون معها أُمةً واحدةً. فأصحاب العقيدة الواحدة أُمة واحدة.

قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾ [الأنبياء].

وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾﴾ [المؤمنون].

خرج عمرو بن سالم الخزاعي حتىٰ قدِم علىٰ رسول الله ﷺ بالمدينة، وأخبره بما أصاب خزاعة، فقال له: «نُصرت يا عمرو بن سالم».

وخرج أيضاً بُديل بن ورقاء الخزاعي في نفرٍ من قومه، وقدموا المدينة، وأخبروا رسول الله ﷺ بما أُصيب منهم، وبمناصرة قريش لبني بكر.

وأرسلت قريش أبا سفيان صخر بن حرب إلىٰ المدينة ليؤكّد الصلح،

ويزيد في مدته، فالتقىٰ أبو سفيان وهو في طريقه إلىٰ المدينة مع بُديل بن ورقاء عائداً منها وذلك في عسفان، فلما وصل أبو سفيان إلىٰ المدينة دخل علىٰ ابنته أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان زوجة رسول الله ﷺ، فلما أراد أن يجلس علىٰ فراش رسول الله ﷺ طوته عنه، فقال: يا بنية ما أدري، أرغبتِ بي عن هذا الفراش أم رغبت به عني؟ قالت: بل هو فراش رسول الله ﷺ، وأنت رجل مشرك نجس، وما أُحب أن تجلس علىٰ فراش رسول الله ﷺ. قال: والله لقد أصابك يا بنيّة بعدي شرّ.

ثم خرج حتىٰ أتىٰ رسول الله ﷺ، فكلّمه، فلم يردّ عليه. ثم ذهب إلىٰ أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فكلّمه ليكلّم له رسول الله ﷺ، فقال: ما أنا بفاعل. ثم أتىٰ عمر بن الخطاب رضي الله عنه فكلّمه، فقال: أأنا أشفع لكم إلىٰ رسول الله ﷺ؟ فوالله لو لم أجد إلا الذرّ لجاهدتكم به.

ثم خرج فدخل علىٰ علي بن أبي طالب رضي الله عنه وعنده زوجته فاطمة بنت رسول الله ﷺ، وعندها ابنها الحسن بن علي بين يديها، فقال: يا علي، إنك أمسّ القوم بي رحماً، وإني قد جئت في حاجةٍ، فلا أرجعن كما جئت خائباً، فاشفع لي إلىٰ رسول الله. فقال: ويحك يا أبا سفيان! والله إذا عزم رسول الله ﷺ علىٰ أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه. فالتفت إلىٰ فاطمة، فقال: يا ابنة محمد، هل لك أن تأمري ابنك هذا فيُجير بين الناس، فيكون سيد العرب إلىٰ آخر الدهر؟ قالت: والله ما بلغ بنيّ أن يُجير بين الناس، وما يُجير أحد علىٰ رسول الله ﷺ. قال: يا أبا الحسن، إني أرىٰ الأمور قد اشتدّت عليّ، فانصحني، قال: والله ما أعلم لك شيئاً، يُغني عنك شيئاً، ولكنك سيد بني كِنانة، فأقم، فأجِرْ بين الناس، ثم إلحق بأرضك، قال: أوَترىٰ ذلك مغنياً عني شيئاً؟ قال: لا والله، ما أظنّه، ولكني لا أجد لك غير ذلك.

فقام أبو سفيان في المسجد، فقال: أيها الناس، إني قد أجرت بين الناس. ثم ركب بعيره فانطلق، فلما قدِم علىٰ قريش، قالوا: ما وراءك؟ قال: جئت محمداً فكلمته، فوالله ما ردّ علي شيئاً، ثم جئت ابن أبي قحافة، فلم أجد فيه خيراً، ثم جئت ابن الخطاب، فوجدته أعدىٰ العدوّ،

ثم جئت عليًا فوجدته ألين القوم، ولقد أشار عليّ بشيءٍ صنعته، فوالله ما أدري هل يغني ذلك شيئاً أم لا؟ قالوا: وبِمَ أمرك؟ قال: أمرني أن أُجيرَ بين الناس، ففعلت، قالوا: فهل أجاز ذلك محمد؟ قال: لا، قالوا: ويلك! والله إن زاد الرجل علىٰ أن لعب بك، فما يغني عنك ما قلت. قال: لا والله، ما وجدت غير ذلك.

وعندما جاء عمرو بن سالم الخزاعي إلىٰ رسول الله ﷺ ـ كما سبق أن قلنا ـ وقف عند رسول الله ﷺ في المسجد، وهو جالس بين ظهراني الناس، فقال:

يا ربِّ إني ناشدٌ محمدا	حِلف أبينا وأبيه الأتلدا[1]
قد كنتم وُلْداً وكنّا والِدا	ثُمَّتَ أسلمنا فلم ننزع يدا[2]
فانصر هداك الله نصراً أعتدا	وادعُ عباد الله يأتوا مددا
فيهم رسول الله قد تجرّدا	إنْ سِيم خسفاً وجهه تَرَبَّدا
في فيلقٍ كالبحر يجري مُزبدا	إنّ قريشاً أخلفوك الموعدا
ونقضوا ميثاقك المؤكّدا	وجعلوا لي في كَداءٍ رُصّدا
وزعموا أنْ لست أدعو أحدا	وهم أذلّ وأقلّ عددا
هم بيّتونا بالوَتير هُجّدا	وقتلونا رُكّعاً وسُجّدا

فقال رسول الله ﷺ: «نُصرت يا عمرو بن سالم». ثم عرض لرسول الله ﷺ سحاب من السماء، فقال: إن هذه السحابة لتستهلّ بنصر بن كعب.

أخبر رسول الله ﷺ المسلمين بما عزم عليه من السير إلىٰ مكة، وأمر بالتهيؤ لذلك، وقال: «اللهم خذ العيون والأخبار عن قريشٍ حتىٰ نبغتها في بلادها».

---

(١) الأتلد: القديم.

(٢) يريد أن بني عبد مناف أمهم من خُزاعة، وكذلك قصي بن كلاب أمه: فاطمة بنت سعد الخزاعية.

وخاف حاطب بن أبي بلتعة علىٰ أهله في مكة، فأراد أن يُصانعهم، فأرسل إليهم كتاباً يُعلمهم بمسير رسول الله ﷺ إلىٰ مكة، بعث الكتاب مع امرأةٍ مقابل شيءٍ يُؤدّيه لها، فجعلت الكتاب في شعرها، وضفرت عليه ضفائرها، وانطلقت به، وأُخبر رسول الله ﷺ بذلك من السماء، فبعث في أثر المرأة علي بن أبي طالب، والزبير بن العوام رضي الله عنهما، فأدركاها بـ(ذي الحليفة)، فسألاها فأنكرت، ففتشا رحلها فلم يجدا شيئاً، فهدّداها، وأعلماها أن رسول الله ﷺ لم يكذب، فأخرجت الكتاب من ضفائرها، فجاءا به إلىٰ رسول الله ﷺ، الذي سأل حاطباً عن سبب فعله هذا، فقال: يا رسول الله، أما والله إني لمؤمن بالله ورسوله، ما غيّرت ولا بدّلت، ولكني كنت امرأً ليس لي في القوم من أهلٍ ولا عشيرةٍ. وكان لي بين أظهرهم ولد وأهل، فصانعتهم عليهم. فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: يا رسول الله، دعني فلأضرب عنقه، فإن الرجل قد نافق، فقال رسول الله ﷺ: «وما يدريك يا عمر، لعل الله اطلع علىٰ أصحاب بدرٍ يوم بدرٍ، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم».

خرج رسول الله ﷺ من المدينة لعشرٍ خلون من شهر رمضان من السنة الثامنة للهجرة، خرج صائماً والمسلمون، حتىٰ إذا كانوا بـ(الكديد) أفطروا. وخرج العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه مع أهله من مكة مهاجراً مسلماً، والتقىٰ برسول الله ﷺ بـ(الجُحفة) بالقرب من (رابغ)، فتابع عيال العباس إلىٰ المدينة، وصحب العباس المسلمين في طريقهم إلىٰ مكة.

والتقىٰ رسول الله ﷺ في الطريق بين المدينة ومكة بابن عمه أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وابن عمته عاتكة وهو عبدالله بن أبي أمية المخزومي أخو أم المؤمنين هند أم سلمة بنت أبي أمية، فأسلما أيضاً. وعند هذا اللقاء التمسا الدخول إلىٰ رسول الله ﷺ، فكلّمته أم سلمة رضي الله عنها فيهما، فقالت: يا رسول الله، ابن عمّك، وابن عمتك وصهرك، قال: «لا حاجة لي بهما، أما ابن عمي فهتك عرضي، وأما ابن عمتي وصهري فهو الذي قال لي في مكة ما قال». فلما وصل الخبر إليهما بذلك، وكان مع ابن عمه أبي سفيان بن الحارث ابن له. فقال: والله ليأذننّ لي أو لآخذنّ

بيدي ابني هذا، ثم لنذهبنّ في الأرض حتىٰ نموت عطشاً وجوعاً، فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ رقّ لهما، ثم أذِن لهما فدخلا عليه، فأسلما. وأنشد أبو سفيان بن الحارث قوله في إسلامه، واعتذر إليه مما كان قد مضىٰ منه فقال:

لعَمْرُك إني يوم أحمل رايةً ... لِتَغْلِبَ خيلَ اللات خيلُ محمدِ
لكالمُدلج[1] الحيران أظلم ليله ... فهذا أواني يوم أُهدىٰ وأَهتدي
هداني هادٍ غير نفسي ونالني ... مع الله من طرّدتُ كلَّ مطرّدِ
أصدّ وأنأىٰ جاهداً عن محمد ... وأدّعي وإن لم أنتسب من محمدِ
هُمُ ما هُمُ من لم يقل بهواهم ... وإن كان ذا رأي يُلَمْ ويُفنّدِ[2]
أُريد لِأُرضيَهم ولستُ بلائطٍ[3] ... مع القوم ما لم أُهدَ في كل مقعدِ
فقل لثقيفٍ لا أُريدُ قتالَها ... وقل لثقيفٍ تلك غَيْرىٰ أو عدي
فما كنتُ في الجيش الذي نال عامراً ... وما كان من جرّا[4] لساني ولا يدي
قبائل جاءت من بلادٍ بعيدة ... نزائع جاءت من سهامٍ وسُرْدَدِ

وصل رسول الله ﷺ مرّ الظهران (وادي فاطمة)، قال العباس بن عبد المطلب: فقلت: واصباح قريش، والله لئن دخل رسول الله ﷺ مكة عنوةً قبل أن يأتوه فيستأمنوه، إنه لهلاك قريشٍ إلىٰ آخر الدهر. قال: فجلست علىٰ بغلة رسول الله ﷺ البيضاء، فخرجت عليها حتىٰ جئت الأراك، فقلت: لعلّي أجد بعض الحطّابة أو صاحب لبنٍ أو ذا حاجةٍ يأتي مكة فيخبرهم بمكان رسول الله ﷺ، ليخرجوا إليه فيستأمنوه قبل أن يدخلها عليهم عنوةً. قال: فوالله إني لأسير عليها، وألتمس ما خرجت له. إذ سمعت كلام أبي سفيان صخر بن حرب، وبُديل بن ورقاء وهما يتراجعان، وأبو سفيان يقول: ما رأيت كالليلة نيراناً قطّ ولا عسكراً، قال: يقول بديل:

---

(١) المُدْلج: السائر في الليل.
(٢) يُفنّد: يكذب.
(٣) اللائط: الملصق.
(٤) من جرّا: من جرّاء لساني.

هذه والله خُزاعة حمشتها الحرب (هيّجتها). قال: يقول أبو سفيان: خزاعة أذلّ وأقلّ من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها، قال: فعرفت صوته، فقلت: يا أبا حنظلة، فعرف صوتي، فقال: أبو الفضل؟ قلت: نعم، قال: ما لك؟ فداك أبي وأمي، قال: قلت: ويحك يا أبا سفيان، هذا رسول الله في الناس، واصباح قريش والله. قال: فما الحيلة؟ فداك أبي وأمي، قال: قلت: والله لئن ظفر بك ليضربنّ عنقك، فاركب في عجز هذه البغلة حتىٰ آتي بك رسول الله ﷺ فأستأمنه لك، قال: فركب خلفي، ورجع صاحباه، قال: فجئت به، كلما مررت بنارٍ من نيران المسلمين، قالوا: مَن هذا؟ فإذا رأوا بغلة رسول الله ﷺ وأنا عليها، قالوا: عمّ رسول الله ﷺ علىٰ بغلته، حتىٰ مررت بنار عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: مَن هذا؟ وقام إليّ، فلما رأىٰ أبا سفيان علىٰ عجز الدابة، قال: أبو سفيان عدوّ الله! الحمد للّه الذي أمكن منك بغير عقدٍ، ولا عهدٍ، ثم خرج يشتدّ نحو رسول الله ﷺ، وركضت البغلة فسبقته بما تسبق الدابة البطيئة الرجل البطيء. قال: فنزلت عن البغلة، ودخلت علىٰ رسول الله ﷺ، ودخل عليه عمر رضي الله عنه، فقال: يا رسول الله، هذا أبو سفيان قد أمكن الله منه بغير عقدٍ ولا عهدٍ، فدعني فلأضرب عنقه، قال: قلت: يا رسول الله، إني قد أجرته، ثم جلست إلىٰ رسول الله ﷺ فأخذت برأسه، فقلت: والله لا يناجيه الليلة دوني رجل، فلما أكثر عمر في شأنه، قال: قلت: مهلاً يا عمر، فوالله لو أنه كان من رجال بني عدي بن كعب ما قلت هذا، ولكنك قد عرفت أنه من رجال بني عبد مناف، فقال: مهلاً يا عباس، فوالله لإسلامُك يوم أسلمت كان أحبّ إلي من إسلام الخطاب لو أسلم، وما بي إلا أني قد عرفت أن إسلامك كان أحبّ إلىٰ رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب لو أسلم، فقال رسول الله ﷺ: «اذهب به يا عبّاس إلىٰ رحلك، فإذا أصبحت فائتني به»، قال: فذهبت به إلىٰ رحلي، فبات عندي، فلما أصبح غدوتُ به إلىٰ رسول الله ﷺ، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «ويحك يا أبا سفيان، ألم يأنِ لك أن تعلم أنه لا إلٰه إلا الله؟» قال: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إلٰه غيره لقد أغنىٰ عني شيئاً

بعد. قال: «ويحك يا أبا سفيان! ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟» قال: بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، أما هذه فإن في النفس منها حتىٰ الآن شيئاً. فقال له العباس: ويحك! أسلِم واشهد أن لا إلٰه إلا الله وأن محمداً رسول الله قبل أن تُضرب عنقك. قال: فشهد شهادة الحق، فأسلم، قال العباس: قلت: يا رسول الله، إن أبا سفيان يحبّ هذا الفخر، فاجعل له شيئاً، قال: «نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن دخل بيته وأغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن»، فلما ذهب لينصرفَ، قال رسول الله ﷺ: «يا عباس، احبسه بمضيق الوادي عند خَطْم الجبل (مضيق الجبل)، حتىٰ تمرّ به جنود الله فيراها»، قال: فخرجت حتىٰ حبسته بمضيق الوادي حيث أمرني رسول الله ﷺ أن أحبسه.

ومرّت القبائل علىٰ راياتها أمام أبي سفيان. كلما مرّت قبيلة قال: يا عبّاس مَن هذه؟ فأقول: سُليم، فيقول: ما لي ولسُليم، ثم تمرّ القبيلة، فيقول: يا عبّاس مَن هؤلاء؟ فأقول: مُزينة، فيقول: ما لي ولمُزينة حتىٰ نفدت القبائل، ما تمرّ به قبيلة إلا يسألني عنها، فإذا أخبرته بهم، قال: ما لي ولبني فلان، حتىٰ مرّ رسول الله ﷺ في كتيبته الخضراء، وفيها المهاجرون والأنصار ﷺ، لا يُرىٰ منهم إلا الحَدق من الحديد، فقال: سبحان الله يا عبّاس مَن هؤلاء؟ قلت: هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار، قال: ما لأحدٍ بهؤلاء قِبَلٌ ولا طاقة، والله يا أبا الفضل، لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً، قال: قلت: يا أبا سفيان، إنها النبوة. قال: فنِعْمَ إذن. قال: قلت: النجاء إلىٰ قومك، حتىٰ إذا جاءهم صرخ بأعلىٰ صوته: يا معشر قريشٍ، هذا محمد جاءكم فيما لا قِبَل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، فقامت إليه زوجته هند بنت عتبة، فأخذت بشاربه، فقالت: اقتلوا الحَميت[1] الدسم[2] الأحْمس[3]، قُبِّح من طليعة

---

(١) الحميت: الزِّق.

(٢) الدسم: السمين الضخم.

(٣) الأحمس: الذي لا خير فيه.

قوم، قال: ويلكم لا تغرنّكم هذه من أنفسكم، فإنه قد جاءكم ما لا قِبل لكم به، فمَن دخل دار أبي سفيان فهو آمن. قالوا: قاتلك الله وما تُغني عنا دارك؟ قال: ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن. فتفرّق الناس إلىٰ دورهم وإلىٰ المسجد. وبهذا فقد استأمن قومه، ودخل رسول الله ﷺ دون قتالٍ، واتجه إلىٰ ذي طوىٰ، واضعاً رأسه تواضعاً للّه سبحانه وتعالىٰ علىٰ ما أكرمه به من الفتح، حتىٰ إن لحيته لتكاد تمسّ واسطة الرحل.

وفي ذي طوىٰ قسّم رسول الله ﷺ الجند. فسار الزبير بن العوام رضي الله عنه بقسمٍ من الجيش، وكان علىٰ الميسرة، ودخل مكة من (كُدَى).

وانطلق سعد بن عبادة رضي الله عنه بقسم آخر من الجيش، ودخل مكةَ من (كَدَاء).

ثم أخذ علي بن أبي طالب رضي الله عنه الراية.

ودخل خالد بن الوليد رضي الله عنه مكة من أسفلها، وكان علىٰ الميمنة.

وسار أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه بين يدَي رسول الله ﷺ من (أذاخر) حتىٰ نزل أعلىٰ مكة. وضربت له هناك قبة.

ولم يلقَ المسلمون أية مقاومة أثناء دخولهم مكة سوىٰ ما كان من بعض الرجال الذين تعرّضوا لخالد بن الوليد رضي الله عنه في (الخَنْدَمة)، وعليهم عكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو وغيرهم، وكان بين الطرفين مناوشات فرّ المشركون علىٰ أثرها، وكان ممن فرّ حماس بن قيس، ودخل بيته، وقال لامرأته: أغلقي عليّ الباب، قالت: فأين ما كنت تقول؟ فقال:

إنكِ لو شهدت يوم الخندمه	إذ فرّ صفوان وفرّ عكرمه
أبو يزيد قائم كالمُوتمه	واستقبلهم بالسيوف المسلِمه
يقطعن كل ساعدٍ وجمجمه	ضرباً فلا يُسمع إلا غمغمه
لهم نَهيتٌ خلفنا وهمهمه	لم تنطقي في اللوم أدنىٰ كلمه

وكان رسول الله ﷺ قد أمر المسلمين ألا يُقاتلوا إلا من قاتلهم إلا إشخاصاً سمّىٰ لهم منهم:

سعد بن عبدالله بن أبي سرح، وعكرمة بن أبي جهل، وعبدالله بن خطل، والحويرث بن نُقيد، ومِقْيس بن حُبابة، وكعب بن زهير، والحارث بن هشام، وزهير بن أبي أمية، وصفوان بن أمية، وهبيرة بن أبي وهب المخزومي، وهبّار بن الأسود، ووحشي (قاتل الحمزة)، وهند بنت عتبة (زوجة أبي سفيان)، وقينتان لـ(عبدالله بن خطل).

أما سعد بن عبدالله بن أبي سرح فكان قد أسلم، ثم ارتدّ، وافترىٰ الكذب، وفرّ إلىٰ قريش، فعندما دخل رسول الله ﷺ مكة أمر بقتله، فهرب إلىٰ عثمان بن عفان رضي الله عنه، وكان أخاه في الرضاعة، فغيّبه قليلاً، ثم استأمن له من رسول الله ﷺ فأمّنه فأسلم، وحسُن إسلامه. وولاّه عمر بن الخطاب رضي الله عنه وعثمان بن عفان رضي الله عنه، وكان من الولاة المعروفين، والقادة المشهورين في قتال الروم.

وأما عكرمة بن أبي جهل فقد فرّ إلىٰ اليمن عندما دخل رسول الله ﷺ مكة، وأسلمت زوجته أم حكيم بنت الحارث بن هشام مع أبيها، وهي ابنة عمه، واستأمنت له عند رسول الله ﷺ، وخرجت في طلبه إلىٰ اليمن، والتقت به، وعادت معه إلىٰ رسول الله ﷺ، فأسلم، وحسُن إسلامه، وخرج مجاهداً في سبيل الله، وكان من الأبطال في فتح بلاد الشام واستشهد في معركة اليرموك سنة ١٣ للهجرة.

وأما عبدالله بن خطل فقد كان مسلماً، فقتل رجلاً مسلماً، وفر إلىٰ قريش مرتدًا، فعندما دخل المسلمون مكة قتلوه بأمرٍ من رسول الله ﷺ. وكان له قينتان تُغنّيان له بهجاء رسول الله ﷺ، وهما اللتان أمر رسول الله ﷺ بقتلهما، وتُسمّىٰ إحداهما (فَرْتَنىٰ).

وأما الحويرث بن نُقيد، فكان يؤذي رسول الله ﷺ بمكة، وآذىٰ أهله بعد هجرته عليه الصلاة والسلام إلىٰ المدينة. لذا كان مصيره القتل عند فتح مكة.

وأما مِقْيَس بن حُبابة فقد كان مسلماً فقتل رجلاً أنصارياً، وهرب إلىٰ قريش مرتداً، وقد قُتل، وإن حُكم المرتدّ هو القتل.

وأما كعب بن زهير بن أبي سُلمة، فقد كان شاعراً يهجو رسول الله ﷺ، ففرّ، ثم جاء إلىٰ المدينة معتذراً، وأنشده قصيدته:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول ... مُتيّم إثرها لم يُفدَ مكبول

ويقول فيها:

نُبّئتُ أن رسول الله أوعدني ... والعفو عند رسول الله مأمول
مهلاً هَداك الذي أعطاك نافلة الـ ... قرآن فيها مواعيظٌ وتفصيل
لا تأخذني بأقوال الوشاة ولم ... أُذنب ولو كثُرت فيّ الأقاويل
إن الرسول لنورٌ يُستضاء به ... وصارمٌ من سيوف الله مسلول
في فتيةٍ من قريشٍ قال قائلهم ... ببطن مكة لما أسلموا زُولوا
زالوا، فما زال أنكاسٌ ولا كُشُفٌ ... يوم اللقاء ولا سودٌ معاذيل
فقلت: خلُّوا طريقي لا أباً لكم ... فكل ما قدّر الرحمٰن مفعول
كل ابن أُنثىٰ وإن طالت سلامتُه ... يوماً علىٰ آلةٍ حدباءُ محمول

فعفا عنه رسول الله ﷺ فأسلم.

وأما الحارث بن هشام وزهير بن أبي أمية المخزوميان فقد التجآ إلىٰ أم هانئ فاختة بنت أبي طالب، وكانت عند هبيرة بن أبي وهب المخزومي فأمّنتهما، ثم أسلما بعد أن عفا عنهما رسول الله ﷺ، وكان الثاني منهما، وهو زهير بن أبي أمية هو ابن عمة رسول الله ﷺ عاتكة بنت عبد المطلب.

وأما صفوان بن أمية فقد هرب إلىٰ جُدّة يريد أن يركب البحر إلىٰ اليمن، فأخذ له الأمان من رسول الله ﷺ عُمير بن وهب، ولحق به إلىٰ جُدّة فعاد به، وأسلم صفوان، وكانت زوجته فاختة بنت الوليد أخت خالد بن الوليد، وقد أخذت له الأمان أيضاً من رسول الله ﷺ بعد أن أسلمت.

وأما هبيرة بن أبي وهب المخزومي ـ وكان زوج أم هانئ فاختة بنت أبي طالب بن عبد المطلب ـ فقد فرّ، وبقي كافراً حتىٰ مات، وقد تأثّر من إسلام زوجته أم هانئ.

وأما هبّار بن الأسود فقد جاء إلىٰ رسول الله ﷺ وهو في الجعرانة فأسلم.

وكذا أسلم وحشي، وهند بنت عتبة يوم الفتح.

وبعد أن هدأت أوضاع الناس في مكة طاف رسول الله ﷺ حول الكعبة، ثم دعا عثمان بن طلحة ففتح له باب الكعبة فدخل إليها فأزال ما بها من صور، وحطّم ما فيها من أصنام، ثم أعاد المفتاح إلىٰ عثمان بن طلحة، وأبقىٰ السدانة معه. ثم وقف رسول الله ﷺ علىٰ باب الكعبة، وقال:

«لا إلـٰه إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ألا كلّ مأثرةٍ أو دم أو مالٍ يُدّعىٰ فهو تحت قدمَيْ هاتين، إلا سِدانة البيت وسقاية الحاج، ألا وقتيل الخطأ شبه العمد بالسوط والعصا، ففيه الدِّية مُغلّظة، مائة من الإبل، أربعون منها في بطونها أولادها. يا معشر قريش، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية، وتعظّمها بالآباء، والناس من آدم وآدم من تراب». ثم تلا: «﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات]».

ثم قال: «يا معشر قريش، ما ترون أني فاعل فيكم؟» قالوا: خيراً، أخ كريم وابن أخٍ كريم. قال: «اذهبوا فأنتم الطلقاء».

وجلس رسول الله ﷺ في المسجد فبايعه الرجال، ولما تمّت بيعة الرجال بايعته النساء علىٰ أن لا يُشركن بالله شيئاً، ولا يسرقن، ولا يزنين، ولا يقتلن أولادهن، ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن، ولا يعصين في معروف، فبايعهن، واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم.

قال الله تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَـٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ۙ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [الممتحنة].

ثم أمر رسول الله ﷺ، بلالاً بأن يُؤذّن علىٰ ظهر الكعبة.

وأقام رسول الله ﷺ بمكة بعد فتحها تسعة عشر يوماً يقصر فيها الصلاة، وولّىٰ عليها عتّاب بن أُسيد[1].

وفي اليوم الخامس من إقامته بمكة أرسل رسول الله ﷺ خالد بن الوليد رضي الله عنه، علىٰ رأس ثلاثين فارساً لهدم هيكل (العزّىٰ)، وهو أكبر صنمٍ لقريشٍ، ومكانه ببطن (نخلة).

كما أرسل رسول الله ﷺ عمرو بن العاص رضي الله عنه، لهدم صنم (سُواع) ومكانه علىٰ بُعد ثلاثة أميال من مكة، وهو أعظم صنم لهُذيل.

كما بعث سعد بن زيد الأشهلي علىٰ رأس عشرين فارساً لهدم صنم (مناة)، وهو صنم لبني كلب وخزاعة، ومكانه علىٰ جبلٍ يُعرف باسم (السلل) علىٰ ساحل البحر الأحمر شمال مدينة جُدّة بمائة وسبعين كيلومتراً.

كما بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد رضي الله عنه، إلىٰ بني جُذيمة في تهامة داعياً، ولم يرسله مقاتلاً، ولكنه قتل من القوم، ولما علم رسول الله ﷺ بذلك بعث إليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ليوقف القتل ففعل.

كان فتح مكة في شهر رمضان من السنة الثامنة للهجرة. وكان جميع من شهد الفتح من المسلمين عشرة آلاف: سبعمائة من بني سُليم، وأربعمائة من بني غفار، وأربعمائة من أسلم، وألف وثلاثة رجالٍ من مُزينة، والباقي وهو سبعة آلاف وخمسمائة مقاتلٍ من المهاجرين والأنصار، وحلفائهم، ومن قبائل تميم وقيس.

---

(١) عتاب بن أسيد بن أبي العيص بن أمية بن عبد شمس، أبو عبدالرحمٰن: والٍ أموي قرشي مكي، من الصحابة. كان شجاعاً عاقلاً، من أشراف العرب في صدر الإسلام، أسلم يوم فتح مكة، واستعمله النبيّ ﷺ عليها عند مخرجه إلىٰ حُنين سنة ثمانٍ للهجرة، وكان عمره إحدىٰ وعشرين سنةً، وأقرّه أبو بكر رضي الله عنه، ثم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وبقي إلىٰ أواخر خلافة عمر رضي الله عنه، وقد توفي في أواخر خلافة عمر رضي الله عنه، وذلك في أوائل سنة ٢٣ للهجرة.

غزوة حُنين

بعد فتح مكة وإقبال الناس علىٰ الإسلام أخذت قبيلة هوازن وقبيلة ثقيف العزّة بالإثم، وقالوا: فلنغزهم قبل أن يغزونا، وأجمع سادة القبيلتين علىٰ ذلك، وجعلوا أمرهم لمالك بن عوف النصري، وانضمّت إليهم قبائل كثيرة منهم بنو سعد بن بكر قبيلة حليمة السعدية التي أرضعت رسول الله ﷺ، وانطلقوا وقد أخذوا معهم نساءهم، وأبناءهم، وأموالهم ليُعينهم ذلك علىٰ الثبات والمقاومة ـ حسب رأيهم ـ.

وعلم رسول الله ﷺ بما تفعل هوازن وثقيف، فرأىٰ أن يسير إليهم قبل أن يداهموه في مكة، ويستبيحوا حرمتها، فإن رجالاً ربما لم يدخل الإيمان في قلوبهم بعد، فينقلبوا عليه، أو لا يرون القتال حيث يجب. فسار إليهم ومعه اثنا عشر ألفاً من المقاتلين، منهم ألفان من أهل مكة، والباقون ممن خرجوا معه من المدينة لفتح مكة.

وأُعجب المسلمون يومئذٍ بكثرتهم فلم تُغْنِ عنهم شيئاً، إذ أن القوة ليست بالكثرة، كما أنها ليست بالسلاح وحده، وإنما بالروح المعنوية لدىٰ المقاتلين، وبالإيمان بالمبدأ الذي يقاتلون في سبيله.

قال الله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [التوبة].

وأثناء سير المسلمين إلىٰ عدوّهم خرج لمقدمتهم كمين، كان قد كمن لهم في مضيق الوادي وعلىٰ جنباته ففاجؤوهم قبل أن ينبلج الفجر، وقابلوا خيلهم بوابلٍ من النبل فتقهقرت الخيل وولّت الأدبار، وفوجئ المسلمون بذلك فأصابهم ذعر شديد، فتفرقوا من غير نظامٍ، وثبت رسول الله ﷺ ومعه جماعة من أصحابه وأهل بيته، منهم:

أبو بكر الصديق؛ وعمر بن الخطاب؛ وعلي بن أبي طالب، ابن عمّ رسول الله ﷺ؛ والعباس بن عبد المطلب، عمّ رسول الله ﷺ؛ والفضل بن العباس، ابن عمّ رسول الله ﷺ؛ والمغيرة بن الحارث بن عبد المطلب، ويكنىٰ أبا سفيان، ابن عمّ رسول الله ﷺ؛ وربيعة بن الحارث، ابن عمّ رسول الله ﷺ؛ وجعفر بن المغيرة بن الحارث، ابن عمّ رسول الله ﷺ؛ ومتعب بن أبي لهب، ابن عمّ رسول الله ﷺ؛ وأسامة بن زيد بن حارثة؛ وأيمن بن عبيد؛ وعدد من المهاجرين والأنصار.

أما حديثو العهد بالإسلام من قريشٍ فقد قالوا: لا تنتهي هزيمتهم دون البحر، وأسرّها بعضهم، وأعلنها بعضهم الآخر، وصمد رسول الله ﷺ بمن معه للأعداء، وهو يقول:

«أنــــا الــــنــــبــــي لا كــــذب   أنــا ابــن عــبــد الــمــطــلــب»

ثـم أمـر عـمـه الـعـبـاس رضي الله عنه ـ وكـان جـهـوري الـصـوت ـ أن يُـنـادي بالمسلمين، فصار رضي الله عنه يصرخ بأعلىٰ صوته: يا معشر الأنصار، يا أصحاب بيعة الرضوان، فأقبل الناس نحوه، وثابوا إلىٰ رشدهم، وعادوا إلىٰ رسولهم، فاجتمع حوله عدد كبير، وأنزل الله سكينته عليهم، وأنزل جنوداً لم يروها شدّت من عزيمتهم، وكرّ المسلمون علىٰ أعدائهم، ففرّت هوازن وثقيف من أمامهم، ولم يلتفت أفرادهم إلىٰ النساء والذراري الذي قدِموا بهم لذلك، وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون، وقد جمعوا الأنعام، وأخذوا النساء والذراري.

وشعر الذين كانوا حديثي عهدٍ بالإسلام بتأييد الله ورعايته للمسلمين،

وتغيّرت فكرتهم، وحسُن إسلامهم، علىٰ حين ساروا في البداية مع الجيش من أجل الغنائم، وكانوا سبب الهزيمة من قبل إذ لم يكونوا مؤمنين، وكان نصر المسلمين وهزيمتهم عندهم سواء، فكانوا عدداً في الجيش من غير فائدةٍ، بل سبباً في الفرار حيث لا يجدون داعياً للثبات، وعلىٰ هذا فليس من الفائدة أن يدخل في عداد الجيش أفراد لا يؤمنون بالإسلام ولا يدينون به، ولذا فإن أهل الكتاب لا يُقاتلون في صفوف المسلمين، وإنما يدفعون الجزية من أجل حمايتهم.

وجمع رسول الله ﷺ الغنائم في الجعرانة، وكانت ما يقرب من أربعة وعشرين ألف بعيرٍ، وأربعين ألف شاةٍ، وأربعة آلاف أوقية من الفضة، وتفرّق المشركون فذهب قسم منهم إلىٰ الطائف، وفيهم مالك بن عوف النصري[1] سيّد القوم، وتجمّع قسم منهم في نخلة، وعسكر قسم منهم في وادٍ يُعرف باسم (أوطاس).

أرسل رسول الله ﷺ أبا عمرو الأشعري في سريةٍ لقتال الذين تجمّعوا في (أوطاس) من المشركين، فقاتلهم وشتّت شملهم، واستشهد هو أثناء القتال نتيجة سهمٍ أصابه، فتولّىٰ أمر السريّة بعده ابن أخيه أبو موسىٰ الأشعري[2].

---

(١) مالك بن عوف بن سعد بن يربوع النصري: صحابي من أهل الطائف، كان قائد المشركين يوم حنين، قاد قبيلة هوازن كلها لحرب رسول الله ﷺ، وكان من الجرّارين (ولم يكن يُسمّىٰ الرجل جرّاراً حتىٰ يرأس ألفاً) ثم أسلم، وكان من المؤلّفة قلوبهم، وشهد القادسية وفتح دمشق. وكان شاعراً، رفيع القدر في قومه، استعمله رسول الله ﷺ عليهم، فكان يُقاتل ثقيفاً قبل أن يُسلموا. ونزل في دمشق بعد فتحها، وتوفي سنة عشرين للهجرة).

(٢) أبو موسىٰ الأشعري: عبدالله بن قيس بن سليم بن حضار بن حرب، أبو موسىٰ، من بني الأشعر، من قحطان: صحابي، ولد في زبيد باليمن سنة إحدىٰ وعشرين قبل الهجرة، وقدم مكة عند ظهور الإسلام وأسلم، وهاجر إلىٰ الحبشة، واستعمله رسول الله ﷺ علىٰ زبيد وعدن، وولاّه الخليفة عمر البصرة سنة ١٧هـ، وأقره عثمان ثم عزله فانتقل إلىٰ الكوفة، فولاّه عليها، وكان أحد الحكمين في الفتنة، ورجع بعدها إلىٰ الكوفة، وتوفي فيها سنة ٤٤هـ. وكان حسن الصوت في التلاوة، وله (٣٥٥) حديثاً في كتب الحديث.

غزوة الطائف

سار رسول الله ﷺ بمن معه من المسلمين إلىٰ الطائف، فتحصّنت فيها ثقيف ومن معها من هوازن، وجمعوا في الحصون ما يكفيهم من الأقوات، ومن داخل الحصون أمطروا المسلمين بوابل من النبال، فأصيب عبدالله بن أبي بكرٍ، وفُقئت عينِ أبي سفيان صخر بن حرب، واستُشهد سعيد بن سعيد بن العاص بن أُميّة، وعبدالله بن أبي أميّة ابن عمة رسول الله ﷺ (عاتكة).

واستمرّ الحصار ثمانية عشر يوماً، وضرب المسلمون الحصون بالمنجنيق، وحاولوا اقتحامها بدبابتين ففشلوا، واضطروا إلىٰ فكّ الحصار، ودعا رسول الله ﷺ لثقيف، فقال: «اللهم اهدِ ثقيفاً، وأتِ بها مسلمين».

ورجع رسول الله ﷺ ومن معه من المسلمين إلىٰ الجِعْرانة حيث جُمعت الغنائم والسبايا من حُنين. فجاءه وفد من هوازن يطلب منه أن يمنّ عليهم بإعتاق سبايا هوازن ففعل. وأرسل إلىٰ مالك بن عوف النصري، وكان قد بقي مع ثقيفٍ في الطائف بأنه إن جاء منَّ عليه بإعتاق أهله وإعطائهم له، وفوق ذلك مائة من الإبل، فجاء وأسلم. ثم وزّع الغنائم بعد أن رفع خمسها فأعطىٰ المؤلفة قلوبهم، والذين يطمع في إسلامهم، فأعطىٰ:

أبا سفيان صخر بن حرب، ومعاوية بن أبي سفيان، ويزيد بن أبي سفيان، وحكيم بن حزام، والأقرع بن حابس، والعباس بن مرداس، وعيينة بن حصن، وسهيل بن عمرو، وصفوان بن أمية، والحارث بن الحارث بن كلدة، وغيرهم كثير...

وجد بعض الأنصار في أنفسهم شيئاً عندما أعطىٰ رسول الله ﷺ تلك العطايا لقريش وقبائل العرب، ولم يكن للأنصار منها شيء، ثم كلّم سعد بن عبادة رضي الله عنه رسول الله ﷺ في هذا الأمر، فطلب منه أن يجمعهم له، ففعل. فأتىٰ رسول الله ﷺ إليهم، فحمد الله وأثنىٰ عليه بما هو أهله، ثم قال: «يا معشر الأنصار، ما مقالة بلغتني عنكم، وجِدَةٌ وجدتموها عليّ في أنفسكم؟ ألم آتكم ضُلاّلاً فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله، وأعداءً فألّف الله بين قلوبكم؟».

قالوا: بلىٰ يا رسول الله أمنَّ وأفضل. ثم قال: «ألا تجيبوني يا معشر الأنصار؟». قالوا: بِمَ نجيبك يا رسول الله؟ للّه ولرسوله المنّة والفضل.

قال رسول الله ﷺ: «أما والله لو شئتم لقُلتم، فَلَصَدقْتُمْ ولَصُدِّقْتُمْ: أتيتنا مُكذَّباً فصدّقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فآويناك، وعائلاً فآسيناك، أوَجدتم عليَّ يا معشر الأنصار في أنفسكم لُعاعة[1] من الدنيا تألّفت بها قوماً ليُسلموا، ووكلتكم إلىٰ إسلامكم، ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب النّاسُ بالشاة والبعير، وترجعوا برسول الله إلىٰ رحالكم؟ فوالذي نفس محمدٍ بيده لولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار، ولو سلك الناس شِعباً وسلك الأنصار شِعباً، لسلكتُ شِعب الأنصار. اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار».

ومن الجِعْرانة دخل رسول الله ﷺ مكة معتمراً، ثم رجع إلىٰ المدينة، فوصل إليها لثلاثٍ بقين من شهر ذي القعدة من السنة الثامنة للهجرة، واستخلف علىٰ مكة عتّاب بن أُسَيْد، وخلّف معه معاذ بن جبل[2]، يُفقّه الناس في الدين، ويُعلّمهم القرآن.

---

(١) اللعاعة: بقلة خضراء ناعمة شبّه بها زهرة الدنيا ونعيمها.

(٢) معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس الأنصاري الخزرجي، أبو عبدالرحمٰن: صحابي جليل، من علماء الأمة بالحلال والحرام. وهو أحد الستة الذين جمعوا القرآن في عهد النبي ﷺ: ولد سنة عشرين قبل الهجرة، وأسلم، وهو فتًى، وآخىٰ رسول الله ﷺ بين معاذ بن جبل وجعفر بن أبي طالب. وشهد العقبة مع الأنصار السبعين، وشهد بدراً، وأُحُداً، والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ. وبعثه رسول الله ﷺ بعد غزوة تبوك =

وفي المدينة المنوّرة جاء وفد قبيلة (صداء) إلىٰ رسول الله ﷺ، فأسلموا، وأرسل رسول الله ﷺ عيينة بن حصن في خمسين فارساً من الأعراب لقتال بني تميم الذين حالوا دون مسير بشر بن سفيان العدويّ رسول رسول الله ﷺ إلىٰ بني كعب بن خزاعة لأخذ صدقاتهم، فقاتل عيينة بن حصن بني تميم، وأسر منهم أحد عشر رجلاً، وعشرين امرأةً وثلاثين صبياً، فجاء في أثرهم إلىٰ المدينة وفد بني تميم الذي يضمّ عطارد بن حاجب(١)، والزبرقان بن بدر(٢)، وعمرو بن الأهتم(٣). ثم أسلموا، وبقوا مدةً في المدينة ليتفقهوا في الدين.

كما أرسل رسول الله ﷺ الوليد بن عقبة بن أبي معيط لأخذ صدقات بني المصطلق، فجاؤوا لاستقباله، فظنّ أنهم جاؤوا مقاتلين، فرجع خائفاً، وأخبر رسول الله ﷺ خبرهم، فبعث إليهم خالد بن الوليد رضي الله عنه فوجدهم علىٰ إسلامهم.

وعلم رسول الله ﷺ أن الأحباش قد جاؤوا في مراكب لهم للهجوم

= قاضياً ومرشداً لأهل اليمن. وبعث كتاباً يقول فيه: «إني بعثت لكم خير أهلي»، فبقي في اليمن إلىٰ أن توفي رسول الله ﷺ، وولي أبو بكر رضي الله عنه، فعاد معاذ إلىٰ المدينة، ثم كان مع أبي عبيدة بن الجراح في فتح الشام، ولما أصيب أبو عبيدة في طاعون عمواس، استخلف معاذاً، وأقرّه عمر بن الخطاب، فمات في ذلك العام سنة ١٨ للهجرة، وكان رضي الله عنه من أكثر الناس سماحةً، وله (١٥٧) حديثاً في كتب الحديث.

(١) عطارد بن حاجب بن زرارة التميمي، خطيب، من سراة بني تميم، وفد علىٰ كسرىٰ في الجاهلية، ولما ظهر الإسلام، وفد علىٰ النبيّ ﷺ، فكان خطيبه، واستعمله علىٰ صدقات بني تميم، وارتدّ بعد وفاة رسول الله ﷺ، وتبع سجاح، ثم عاد إلىٰ الإسلام، وتوفي سنة ٢٠ للهجرة.

(٢) الزبرقان بن بدر التميمي السعدي: صحابي من رؤساء قومه، قيل: اسمه الحصين ولُقّب بالزبرقان وهو من أسماء القمر، ولاّه رسول الله ﷺ صدقات قومه، فبقي إلىٰ أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكُفّ بصره في آخر عمره، وكان شاعراً فصيحاً، وتوفي في خلافة معاوية رضي الله عنه سنة ٤٥ للهجرة.

(٣) عمرو بن سنان بن سمي التميمي، أبو ربعي: أحد سادات الشعراء والخطباء. وفد علىٰ النبيّ ﷺ وأسلم، ولقي إكراماً وحفاوةً، وهو من أهل نجد. ولما تكلم بين يدَي النبيّ ﷺ أعجبه كلامه، فقال: «إن من البيان لسحراً». ولُقّب أبوه بالأهتم لأن ثنيته هُتمت، وتوفي عمرو سنة ٥٧ للهجرة. و«مما قال:

لعمري ما ضاقت بلاد بأهلها ... ولكن أخلاق الرجال تضيق

علىٰ ميناء الشعيبة (جُدّة)، فأرسل إليهم علقمة بن مجزر[1] في ثلاثمائة رجلٍ، ففرّ الأحباش، وعاد علقمة، وأثناء الطريق أمر بعض القوم أن يسرعوا، وولّىٰ عليهم عبدالله بن حُذافة السهمي، وكان رجلاً ذا دعابةٍ، فأوقد لجماعته ناراً، وقال لهم: ألستم مأمورين بطاعتي؟ قالوا: نعم، قال: عزمت عليكم إلا ما تواثبتم في هذه النار، فقال بعضهم: ما أسلمنا إلا فراراً من النار، وهمّ بعضهم بذلك طاعةً للأمير، فمنعهم عبدالله، وقال لهم: ما كنت إلا مازحاً! فلما ذكروا ذلك لرسول الله ﷺ قال: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق».

وفي شهر ربيع الأول من السنة التاسعة للهجرة أرسل رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب رضي الله عنه، علىٰ رأس خمسين فارساً لهدم صنمٍ لقبيلة طيئ، يُدعىٰ (الفلس)، فسار إلىٰ هناك فهدم الصنم، وأحرقه، وحارب الذين يعبدونه، وانتصر عليهم، وأخذ الإبل والأغنام غنيمةً للمسلمين، كما أخذ السبايا، وكانت بينهن سفانة بنت حاتم الطائي.

ولما عاد علي بن أبي طالب رضي الله عنه بغنائمه إلىٰ المدينة طلبت سفانة من رسول الله ﷺ أن يمنّ عليها، فأجابها، فدعت له، وكان مما قالته له: شكرتك يد افتقرت بعد غنى، ولا ملكتك يد استغنت بعد فقر، وأصاب الله بمعروفك مواضعه، ولا جعل لك إلىٰ لئيمٍ حاجة، ولا سُلب كريم نعمة إلا وجعلك سبباً لردّها عليه.

وكانت معاملة رسول الله ﷺ هذه لسفانة سبباً لإسلام أخيها عدي بن حاتم الطائي، الذي كان قد اختفىٰ عندما رأىٰ المسلمين يقصدون بلاده. وعندما رجعت جاءها أخوها فسألها عن رأيها في رسول الله ﷺ، قالت: أرىٰ أن تلحق به سريعاً، فإن يكن نبياً فللسابق إليه فضل، وإن يكن ملكاً فأنت. ثم جاء عدي إلىٰ المدينة، فالتقىٰ برسول الله، فسأله عن اسمه، فقال: عدي بن حاتم، فأخذه إلىٰ بيته فأكرمه، وأسلم. وكان من قبل نصرانياً.

---

(١) علقمة بن مجزر بن الأعور الكناني المدلجي: قائد من الصحابة، شهد اليرموك، وحضر الجابية، وكان عاملاً للخليفة عمر علىٰ حرب فلسطين، ومات سنة ٢٠ للهجرة غريقاً في طريقه لغزو الحبشة، علىٰ رأس جيشٍ بعث به الخليفة عمر.

غزوة تبوك

يبدو أن السرايا التي كان يبعثها رسول الله ﷺ إلىٰ الجهات المختلفة لم تكن لتشمل المسلمين كلهم، وإن الأمة المسلمة أمة مجاهدة لا يمكن أن تتوقّف عن الجهاد أبداً، حتىٰ ينتهي الظلم ويخبت الكفر عن سطح الأرض كلها، لذا كان لا بدّ من الإعداد لغزوة شاملة تضمّ غالبية المسلمين لكي يبقىٰ كل مسلم علىٰ استعدادٍ دائم للحركة والانتقال من ميدانٍ إلىٰ ميدانٍ، وحتىٰ لا تميلً النفوس إلىٰ الدعةً والفتور، وترغب في الاستقرار والرخاء، وكانت غزوة تبوك في وقتٍ كان الناس فيه في عُسرةٍ من جدب الأرض، وقلّة الإنتاج، وضعف الأمطار، فنقص العشب، وهذا ما يجعل الاستعداد للجهاد صعباً، كما جاءت الغزوة في وقتٍ زاد فيه الحرّ واشتدّ، وأينعت الثمار، وكانت الرغبة في الظلال، الأمر الذي يجعل النفوس تميل إلىٰ الراحة، وتطلب هناء العيش في البساتين تحت الظلال والفواكه المدلاة، وجانب المياه، ولهذا كانت النفوس المريضة تطلب عدم القتال، وترغب عنه، بينما تستعلي النفوس المؤمنة علىٰ ما في هذه الدنيا من متاعٍ زائل، وتطلب النعيم المقيم في الآخرة وترغب فيه.

ويبدو أن الروم قد تغيّر عليهم وضع عرب الجزيرة وحروبهم بعد أن دان هؤلاء العرب بالإسلام، وبعد أن رأوا قتالهم في غزوة مؤتة، وبعد أن سمعوا عن قتالهم في معركة ذات السلاسل ضدّ قبيلة قضاعة وفروعها وحلفائها. ووجد الروم أنه لم يعد يجدي معهم تكليف حلفائهم من العرب المتنصرة وعملائهم من الغساسنة، في تأديب عرب الجزيرة المسلمين؛ بل لا بدّ من أن يمدّوهم بالجند ويدعموهم بالسلاح، لهذا بدؤوا في حشد الجموع والاستعداد لغزو المدينة.

وعلم رسول الله ﷺ بخبر الروم وحشدهم، فأمر المسلمين بالاستعداد والتهيؤ للقتال، وقد مضىٰ عليهم وهم ماكثون في المدينة بعد أن عادوا من مكة أكثر من ثمانية أشهرٍ، إذ أقاموا من شهر ذي لحجة السنة الثامنة للهجرة إلىٰ شهر رجب في السنة التاسعة للهجرة. كما استنفر أهل مكة والقبائل الأخرىٰ، وأخبرهم أنه يريد الروم، وكان من عادته ﷺ أنه إذا أراد جهةً لم يذكرها بل يكني عنها، إلا ما كن في هذه الغزوة إذ بيّنها للناس، لبُعد المسافة، وقسوة الواقع، وقوة العدوّ الذي يقصده، وكثرة عدده ليتأهّب الناس لذلك، ويأخذوا عِدّتهم، واستعدادهم الكامل.

وحثّ رسول الله ﷺ الموسرين لتجهيز الناس، فدفع عثمان بن عفان رضي الله عنه عشرة آلاف دينار، وقدّم ثلاثمائة بعيرٍ، وخمسين فرساً، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم ارضَ عن عثمان فإني راضٍ عنه».

وقدّم أبو بكر الصديق رضي الله عنه ماله كله وهو أربعة آلاف درهم، فسأله رسول الله ﷺ: «هل أبقيت لأهلك شيئاً؟» فأجاب: أبقيتُ لهم الله ورسوله.

وقدّم عمر بن الخطاب رضي الله عنه نصف ماله. وقدّم عبدالرحمٰن بن عوف، رضي الله عنه مائة أوقيةٍ من فضة. وقدّم العباس، وطلحة رضي الله عنهما مالاً كثيراً.

وكذلك الموسرون كلهم أمثال عاصم بن عدي وغيره، إذ لم يكن مسلم ليبخل الذي لا يعدّه أكثر من وسيلةٍ يستعين بها علىٰ مرضاة الله، وهو خير عملٍ يعمله في هذه الحياة الدنيا إنما هو الجهاد في سبيل الله، لذا يجود بماله كله، وعندما يقوم بذلك لا يعتقد أنه عمل عملاً كبيراً، بل يعتقد أن هذا واجبه، وأنه مقتضىٰ إيمانه أن يجود بماله ونفسه. وعندما يضمّ المجتمع أمثال هؤلاء الرجال لا يمكن أن يكون فيه المحتاج، كما ينعدم الضعف الذي ينتاب الأمة لقلة ما تملك. ولكن عندما تتغيّر المفهومات، وتتبدّل المقاييس، ويصبح همّ

الإنسان جمع المال وخزنه للمباهاة، والخوف في المستقبل من الأزمات التي قد تعترض الموسرين، الذين ينتظرون أن يرتقي إليها غيرهم، الذين جاؤوا بدعم لتأدية مهمةٍ انتهت وانتهىٰ معها دورهم، فيجمعون المال في مصارفَ بعيدةٍ دون النظر إلىٰ مصدر المال أجاء عن طريق مشروع أم غير مشروع، وعندما يكون هذا تتخلّف الأمة، وتنتابها الأمراض، وتقلّ المشروعات، وتعمّ الفوضىٰ، وتسير البلاد عند ذلك إلىٰ الوراء، وهذا ما أصاب أمتنا ويُصيبها لأنها تخلّت عن نظامها الذي أراده الله لها.

وجاء نفر من فقراء الأنصار يطلبون من رسول الله ﷺ أن يحملهم، فقال: «لا أجد ما أحملكم عليه». فتولُّوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون، فجهّز عثمان بن عفان ثلاثة منهم، وجهّز العباس اثنين آخرين، وجهّز يامين بن عمرو اثنين أيضاً.

قال الله تعالىٰ: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [التوبة].

سار رسول الله ﷺ بالمسلمين ويقرب عددهم من الثلاثين ألفاً، وقد ولّىٰ علىٰ المدينة محمد بن مسلمة، وخلف علي بن أبي طالب علىٰ أهله،

وتخلّف المنافقون برئاسة كبيرهم عبدالله بن أُبيّ بن سلول، وعتذر الأعراب، وكلهم يتوقّع هزيمة المسلمين أمام الروم، وهم يرون المسلمين على ما هم عليه من الفقر، والضعف، والقلّة، ولكن إذا كانوا فقراء بما في أيديهم فإنهم أغنياء بقلوبهم، أقوياء بالله، أقوياء بإيمانهم، ولن يُهزم جمع هذه صفاتهم، وفيهم أمثال صحابة رسول الله ﷺ من الإيمان، والجود، والشجاعة، وطاعة الله ورسوله، واعتذر الجد بن قيس خوف الفتنة من نساء بني الأصفر، كما تخلّف نفر قليل من المسلمين منهم أبو خيثمة، وكعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع، ثم لحق أبو خيثمة بالركب قبل وصوله إلى تبوك.

قال الله تعالى: ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُواْ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾﴾ [التوبة].

كان اللواء بيد أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وراية المهاجرين بيد عبدالله بن الزبير، وراية الأوس بيد أُسَيْد بن حُضير، وراية الخزرج بيد الحُباب بن المُنذر، وكان حرس الجيش بإمرة عبّاد بن بشر.

ولما مرّ رسول الله ﷺ بالحِجْر (مدائن صالح) غطّىٰ ثوبه علىٰ وجهه، واستحثّ راحلته، ثم قال: «لا تدخلوا بيوت الذين ظلموا إلا وأنتم باكون، خوفاً من أن يصيبكم مثل ما أصابهم».

وكان أبو خيثمة قد خرج من المدينة في طلب رسول الله ﷺ، حتىٰ أدركه حين نزل تبوك، قال الناس: هذا راكب علىٰ الطريق مُقبل، فقال رسول الله ﷺ: «كن أبا خيثمة»، فقالوا: هو والله أبو خيثمة. فلما أناخ أقبل فسلّم علىٰ رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: «أولىٰ لك يا أبا خيثمة»[١]. فأخبر رسول الله ﷺ الخبر، فقال له رسول الله ﷺ: «خيراً»، ودعا له بخير.

ولما انتهىٰ رسول الله ﷺ إلىٰ تبوك أتاه يوحنّا بن رؤبة صاحب أيلة[٢]. فصالح رسول الله ﷺ وأعطاه الجزية.

وجاء أيضاً إلىٰ رسول الله ﷺ أهالي جرباء[٣]، وأهالي أذرح[٤] فصالحوا وأدُّوا الجزية، فكتب لهم رسول الله ﷺ كتاباً، فهو عندهم.

كتب رسول الله ﷺ ليوحنّا بن رُؤبة:

«بسم الله الرحمٰن الرحيم: هذه أَمَنَةٌ من الله، ومحمد النبيّ رسول الله ليوحنّا بن رؤبة وأهل أيلة، سفنهم وسيّارتهم في البر والبحر: لهم ذمّة الله، وذمّة النبيّ محمد، ومن كان معهم من أهل الشام، وأهل اليمن، وأهل البحر، فمن أحدث منهم حدثاً، فإنه لا يحول ماله دون نفسه، وإنه طيّب

---

(١) أولىٰ لك: كلمة تهديد: تعني الويل لك.

(٢) أيلة: مدينة كانت مكان العقبة اليوم.

(٣) جرباء: مدينة في شرقي الأردن اليوم، تقع جنوب شرقي مدينة عمان علىٰ بُعد خمسين كيلومتراً منها، في طرف البلقاء.

(٤) أذرح: مدينة تقع في جنوبي منطقة الأردن اليوم في منطقة الشراة، بينها وبين جرباء مسافة قصيرة.

لمن أخذه من الناس، وإنه لا يحلّ أن يُمنعوا ماءً يَردونه، ولا طريقاً يريدونه من برٍّ أو بحرٍ».

وأرسل رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلىٰ دومة الجندل[1]، وكان ملكها (أُكَيْدِرُ بن عبد الملك)، وكان نصرانياً، وقد خرج ومعه نفر من أهله، فيهم أخ له يقال له: حسّان خرجوا لصيد البقر الوحشي، وما أن خرجوا حتىٰ تلقّتهم خيل خالد بن الوليد، فقتل حسان، وأُخذ أُكَيْدِرُ أسيراً فسار به خالد بن الوليد إلىٰ رسول الله ﷺ، فحقن دمه، وصالحه علىٰ الجزية فرجع إلىٰ بلده دومة الجندل.

ولما لم يجد رسول الله ﷺ أثراً للروم ترك تبوك بعد أن أمضىٰ ثمانية عشر يوماً فيها، ورجع إلىٰ المدينة.

وصل رسول الله ﷺ إلىٰ المدينة، فوجد أن المنافقين قد شيّدوا مسجداً ضراراً لتفريق جماعة المسلمين، وطلبوا من رسول الله ﷺ بعد أن وصل إلىٰ المدينة أن يُصلّي فيه، ولما سألهم عن سبب بنائه: حلفوا بالله إن أرادوا إلا الحسنىٰ، والله يشهد إنهم لكاذبون، فأمر الرسول بهدمه فهُدم.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾ [التوبة].

---

(١) دومة الجندل: في شمالي المملكة العربية السعودية قرب بلدة (سكاكا) وإلىٰ الغرب منها وعلىٰ بُعد خمسين كيلومتراً منها.

وجاء المخلّفون يعتذرون لرسول الله ﷺ عن تخلُّفهم بأقوالٍ كاذبةٍ، فقبل رسول الله ﷺ علانيتهم، ووكّل ضمائرهم إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ، واستغفر لهم.

وجاء الثلاثة الذين خُلِّفوا عن رسول الله ﷺ وهم من المؤمنين: كعب بن مالك، وهلال بن أُميّة، ومُرارة بن الربيع مُقِرِّين بذنوبهم.

قال كعب بن مالك: ما تخلّفت عن رسول الله ﷺ في غزوةٍ غزاها قطّ، غير أني كنت قد تخلّفت عنه في غزوة بدرٍ، وكانت غزوةً لم يُعاتب الله ورسوله أحداً تخلّف عنها، وذلك أن رسول الله ﷺ إنما خرج يريد عير قريشٍ، حتىٰ جمع الله بينه وبين عدوّه علىٰ غير ميعادٍ، ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ العقبة، وحين تواثقنا علىٰ الإسلام، وما أُحبُّ أن لي بها مشهد بدرٍ، وإن كانت غزوة بدرٍ هي أكثر ذكرىٰ بين الناس.

قال كعب: كان من خبري حين تخلّفت عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك أني لم أكن قطّ أقوىٰ ولا أيسر مني حين تخلّفت عنه في تلك الغزوة، ووالله ما اجتمعت لي راحلتان قطّ حتىٰ اجتمعتا في تلك الغزوة. وكان رسول الله ﷺ قلّما يريد غزوةً يغزوها إلا ورّىٰ بغيرها، حتىٰ كانت تلك الغزوة، فغزاها رسول الله ﷺ في حرٍّ شديدٍ، واستقبل سفراً بعيداً، واستقبل غزو عدوٍّ كثيرٍ خطيرٍ، ذي قوةٍ وخبرةٍ، فجلّىٰ للناس أمرهم ليتأهّبوا لذلك أُهْبَتَهُ، وأخبرهم بوجهته التي يريد، والمسلمون من أتباع رسول الله ﷺ كثير، لا يجمعهم كتاب حافظ.

قال كعب: فقلّ رجل يريد أن يتغيّب إلا ظنّ أنه سيخفىٰ له ذلك، وما لم ينزل فيه وحي من الله، وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار، ورُغبت الظلال، فالناس إليها صُعْر، فتجهّز رسول الله ﷺ، وتجهّز المسلمون معه، وجعلت أغدو لأتجهّز معهم، فأرجع ولم أقضِ حاجةً، فأقول في نفسي: أنا قادر علىٰ ذلك إن أردت، فلم يزل ذلك

يتمادىٰ بي حتىٰ شمّر الناس بالجدّ، فأصبح رسول الله ﷺ غادياً، والمسلمون معه، ولم أقضِ من جهازي شيئاً، فقلت: أتجهّز بعده بيوم أو يومين، ثم ألحق بهم، فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهّز، فرجعت ولم أقضِ شيئاً، ثم غدوت فرجعت ولم أقضِ شيئاً، فلم يزل ذلك يتمادىٰ بي، حتىٰ أسرعوا، وتفرّط الغزو، فهممت أن أرتحل فأدركهم، وليتني فعلت، فلم أفعل، وجعلت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ، فطفت فيهم، يحزنني أني لا أرىٰ إلا رجلاً مغموصاً عليه في النفاق، أو رجلاً ممن عذر الله من الضعفاء. ولم يذكرني رسول الله ﷺ، حتىٰ بلغ تبوك. فقال، وهو جالس بين القوم في تبوك: «ما فعل كعب بن مالك؟» فقال رجل من بني سَلَمة: يا رسول الله، حبسه بُرداه، والنظر في عِطْفِه، فقال له مُعاذ بن جبل: بئس ما قلت! والله يا رسول الله ما علمنا منه إلا خيراً، فسكت رسول الله ﷺ.

فلما بلغني أن رسول الله ﷺ قد توجّه قافلاً من تبوك، حضرني بثّي، فجعلت أتذكر الكذب وأقول: بماذا أخرج من سخط رسول الله ﷺ غداً، وأستعين على ذلك بكل ذي رأيٍ من أهلي. فلما قيل: إن رسول الله ﷺ قد أظلّ قادماً، زاح عني الباطل، وعرفت أني لا أنجو منه إلا بالصدق، فأجمعت أن أصدقه، وصبّح رسول الله ﷺ بالمدينة، وكان إذا قَدِم من سفرٍ بدأ بالمسجد، فركع فيه ركعتين، ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المخلّفون، فجعلوا يحلفون له ويعتذرون، وكانوا بضعةً وثمانين رجلاً، فيقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم وأيمانهم، ويكل سرائرهم إلىٰ الله تعالىٰ، حتىٰ جئت، فسلّمت عليه، فتبسّم تبسّم المغضب، ثم قال لي: «أقبل إليّ»، فجئت أمشي حتىٰ جلست بين يديه، فقال لي: «ما خلّفك؟ ألم تكن ابتعت ظهرك (راحلتك)؟» قال: قلت: يا رسول الله، والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا، لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذرٍ، ولقد أُعطيت جدلاً، لكن والله لقد علمت لئن حدّثتك اليوم حديثاً كذباً لترضينّ عني،

وليوشكنّ الله أن يُسْخِطُكَ عليّ، ولئن حدّثتك حديثاً صدقاً تجد عليّ فيه، إني لأرجو عُقباي من الله فيه، ولا والله ما كان لي عذر، والله ما كنت قطّ أقوىٰ ولا .أيسر مني حين تخلّفت عنك، فقال رسول الله ﷺ: «أما هذا فقد صدقت فيه، فقُم حتىٰ يقضيَ الله فيك». فقمت، فسار معي رجال من بني سَلَمة، فاتّبعوني، فقالوا لي: والله ما علمناك كنت أذنبت ذنباً قبل هذا، ولقد عجزتَ أن لا تكون اعتذرت إلىٰ رسول الله ﷺ بما اعتذر به إليه المخلّفون، قد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله ﷺ لك، فوالله ما زالوا بي حتىٰ أردت أن أرجع إلىٰ رسول الله ﷺ فأكذّب نفسي، ثم قلت لهم: هل لقي هذا أحد غيري؟ قالوا: نعم، رجلان قالا مثل مقالتك، وقيل لهما مثل ما قيل لك، قلت: مَن هما؟ قالوا: مرارة بن الربيع العَمْري، من بني عمرو بن عوف، وهلال بن أُميّة الواقفي، فذكروا لي رجلين صالحين، فيهما أسوة، فصمتُّ حين ذكروهما لي، ونهىٰ رسول الله ﷺ عن كلامنا نحن الثلاثة، من بين من تخلّف عنه، فاجتنبنا الناس، وتغيّروا لنا، حتىٰ تنكّرت لي نفسي والأرض، فما هي بالأرض التي كنت أعرف، فلبثنا علىٰ ذلك خمسين ليلةً، فأما صاحباي فاستكانا، وقعدا في بيوتهما، وأما أنا فكنت أشبّ القوم وأجلدهم، فكنت أخرج وأشهد الصلوات مع المسلمين، وأطوف بالأسواق، ولا يُكلّمني أحد، وآتي رسول الله ﷺ فأُسلّم عليه، وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي: هل حرّك شفتيه بردّ السلام عليّ أم لا؟ ثم أُصلّي قريباً منه فأُسارقه النظر، فإذا أقبلت علىٰ صلاتي نظر إليّ، وإذا التفتُّ نحوه أعرض عني، حتىٰ إذا طال ذلك عليّ من جفوة المسلمين، مشيتُ حتىٰ تسوّرت حائط أبي قتادة، وهو ابن عمّي، وأحبّ الناس إليّ، فسلّمت عليه، فوالله ما ردّ عليّ السلام، فقلت: يا أبا قتادة أُنشدك بالله: هل تعلم أني أُحبّ الله ورسوله؟ فسكت، فعدت فناشدته، فسكت عني، فعدت فناشدته، فقال: الله ورسوله أعلم. ففاضت عيناي، ووثبت فتسوّرت الحائط، ثم غدوت إلىٰ السوق، فبينما أنا

أمشي بالسوق إذ نَبَطيّ يسأل عني من نَبَط الشام، ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة، يقول: من يدلّ علىٰ كعب بن مالك؟ قال: فجعل الناس يشيرون له إليّ، حتىٰ جاءني. فدفع إليّ كتاباً من ملك غسّان، وكتب كتاباً في سَرَقَةٍ من حرير، فإذا فيه: (أما بعد، فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوانٍ ولا مَضيعةٍ، فالحق بنا نواسِك)، قال: قلت حين قرأتها: وهذا من البلاء أيضاً، قد بلغ بي ما وقعت فيه أن طمع فيّ رجل من أهل الشرك، قال: فعمدت بها إلىٰ تنورٍ فسجرته بها. فأقمنا علىٰ ذلك حتىٰ إذا مضت أربعون ليلةً من الخمسين، إذا رسولُ رسولِ الله يأتيني، فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك، قال: قلت: أُطلّقها أم ماذا؟ قال: لا، بل اعتزلها ولا تقْرَبها، وأرسل إلىٰ صاحبيّ بمثل ذلك، فقلت لامرأتي: الحقي بأهلك فكوني عندهم حتىٰ يقضي الله في هذا الأمر ما هو قاضٍ، قال: وجاءت امرأة هلال بن أُميّة إلىٰ رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، إن هلال بن أُميّة شيخ كبير ضائع لا خادم له، أفتكره أن أخدمَه؟ قال: «لا، ولكن لا يقربنّك»، قالت: والله يا رسول الله ما به من حركةٍ إليّ، والله ما زال يبكي منذ أن كان من أمره ما كان، إلىٰ يومه هذا، ولقد تخوّفت علىٰ بصره.

قال كعب بن مالك: فقال لي بعض أهلي: لو استأذنت رسول الله لامرأتك، فقد أَذِنَ لامرأة هلال بن أُميّة أن تخدمه، قال: فقلت: والله لا أستأذنه فيها، لا أدري ما يقول رسول الله ﷺ لي في ذلك، إذا استأذنته فيها، وأنا رجل شاب.

قال: فلبثنا بعد ذلك عشر ليالٍ فكَمُلَ لنا خمسون ليلةً من حين نهىٰ رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا، ثم صلّيت الصبح، صبح الليلة الخمسين، علىٰ سطح بيتٍ من بيوتنا، علىٰ الحال التي ذكر الله منا، قد ضاقت علينا الأرض بما رحُبت، وضاقت عليّ نفسي، وقد كنت أقمت خيمةً علىٰ جبل (سَلْع)، فكنت أكون فيها، إذ سمعت صوت صارخٍ أوفىٰ علىٰ ظهر جبل سلع، يقول بأعلىٰ صوته: يا

كعب بن مالك، أبشر، قال: فخررت ساجداً، وعرفت أن قد جاء الفرج.

قال: وآذن رسول الله ﷺ الناس بتوبة الله علينا حين صلّىٰ الفجر، فذهب الناس يبشّروننا، وذهب نحو صاحبيّ مُبشّرون، وركض إليّ رجلٌ فرساً، وسعىٰ ساعٍ من أسلم، حتىٰ أوفىٰ علىٰ الجبل، فكان الصوت أسرع من الفرس، فلمّا جاءني الذي سمعت صوته يُبشّرني، نزعت ثوبيّ، فكسوتهما إيّاه بشارةً، والله ما أملك يومئذٍ غيرهما، واستعرت ثوبين فلبستهما، ثم انطلقت أتيمّم رسول الله ﷺ، وتلقّاني الناس يُبشّرونني بالتوبة، يقولون: لِتَهْنِكَ توبة الله عليك، حتىٰ دخلت المسجد، ورسول الله ﷺ جالس وحوله الناس، فقام إليّ طلحة بن عبيدالله فحيّاني وهنّأني، ووالله ما قام إليّ رجل من المهاجرين غيره، قال: فكان كعب بن مالك لا ينساها لطلحة.

فقال كعب بن مالك: فلما سلّمت علىٰ رسول الله ﷺ قال لي، ووجهه يَبرُق من السرور: «أبشر بخير يوم مرّ منذ ولدتك أُمُك»، قال: قلت: أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله؟ قال: «بل من عند الله»، قال: وكان رسول الله ﷺ إذا استبشر كأن وجهه قطعة قمرٍ. قال: وكنا نعرف ذلك منه.

قال: فلما جلست بين يديه، قلت: يا رسول الله، إن من توبتي إلىٰ الله ﷻ أن أنخلع من مالي، صدقةً إلىٰ الله وإلىٰ رسوله، قال رسول الله ﷺ: «أمسك عليك بعض مالك، فهو خير لك». قال: قلت: إني مُمسك سهمي الذي بخيبر، وقلت: يا رسول الله، إن الله قد نجّاني بالصدق، وإن من توبتي إلىٰ الله أن لا أُحَدِّث إلا صدقاً ما حييت، والله ما أعلم أحداً من الناس أبلاه الله في صِدْق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ ذلك أفضل مما أبلاني الله، والله ما تعمّدت من كذبةٍ منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ إلىٰ يومي هذا، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقي.

قال كعب: فوالله ما أنعم الله عليّ نعمة قطّ بعد أن هداني للإسلام، كانت أعظم في نفسي من صدقي لرسول الله ﷺ يومئذٍ، أن لا أكون كذبته، فأهلِك كما هلك الذين كذبوا، فإن الله تبارك وتعالىٰ قال في الذين كذبوه حين أنزل الوحي أقسىٰ ما قال لأحدٍ، قال تعالىٰ: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [التوبة].

قال: وكنا خُلِّفنا نحن الثلاثة عن أمر هؤلاء الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا له فعذرهم، واستغفر لهم، وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتىٰ قضىٰ الله فيه ما قضىٰ، فبذلك قال الله تعالىٰ: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [التوبة].

والثلاثة الذين خُلِّفوا هم ـ كما ذكرنا ـ: كعب بن مالك، وهلال بن أُميّة، ومرارة بن الربيع.

وقال كعب بن مالك: (وليس الذي ذكر الله من تَخْليفنا لتخلُّفنا عن الغزوة ولكن لتخليفه إيانا وإرجائه أمرنا عمن حلَف له، واعتذر إليه، فقَبِل منه).

ولننظر إلىٰ المجتمع الإسلامي من خلال هذه الغزوة، ومن خلال حديث كعب بن مالك هذا، فنرىٰ المجتمع المطيع الذي يعرف كل فردٍ فيه حدوده، ويعرف مسؤولياته، فلا يحتاج إلىٰ مراقبٍ يُراقب أعماله، وإنما هو يراقب نفسه، ويخشىٰ الله في كل عملٍ يقوم به، فثلاثون ألفاً لهم قائد واحد يرجعون إليه في أمورهم كلها، يُرشدهم

فيسمعون، ويأمرهم فيُطيعون، ولا يُراقب أيّ عملٍ يقوم به أيّ فردٍ، بل يُراقب الفرد نفسه ويُحاسبها علىٰ كل ما تقوم به، ويُحذِّرها من أيّة مخالفةٍ، ويُذكّرها من الحساب في نهاية المطاف يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتىٰ الله بقلب سليم. ولنقارن هذا المجتمع مع مجتمعٍ في هذا العصر الذي ابتعد عن منهجِ الله لنرىٰ أن ثلاثين ألف جُندي يحتاجون إلىٰ خمسمائة ضابط صفٍّ وألف ضابط، وكل منهم يُراقب الجند، ومع ذلك فالوضع لا يستقيم، فسرقات، وتصرّفات، وأوضاع، وغيات، وتخلُّفات و... هذا من جهةٍ، ومن جهةٍ ثانيةٍ فإن ثلاثين ألفاً انطلقوا للغزو دون إنذارٍ، وساروا من تلقاء أنفسهم مجرد أن طلب منهم قائدهم رسول الله ﷺ الاستعداد والتهيؤ للقتال. ولننظر إلىٰ المجتمع بعد المعركة، فعندما طلب منهم رسول الله ﷺ مقاطعة أولئك الثلاثة الذين تخلّفوا، قاطعوهم جميعاً في السرّ والعلانية حتىٰ أقرب الناس، إليهم، وأحبّهم إلىٰ نفوسهم، حتىٰ ذاق هؤلاء المخلّفون عاقبة أمرهم، بل أكثر من ذلك، طلب منهم أن يعتزلوا نساءهم، فوافقوا، وهذا أمر خفيّ لا يعلمه إلا الله، ويمكن للمرء أن يُبدي الالتزام، ويمتنع عن التنفيذ سرًّا، ولكن كان يعلم أن الله مُطّلع عليه، ولا تخفىٰ عليه خافية. وهكذا يخشىٰ الله، فيُنفِّذ أوامر الله، وغير المسلم يخشىٰ أوامر السلطان فيتهرّب منها علىٰ حين غفلةٍ منه، لأن السلطان لا يستطيع أن يطّلع عليه. والمسلم يُنفِّذ ما يؤمر به رغبةً لا رهبةً، وطمعاً لا خوفاً، وقد لاحظنا كيف ضرب كعب بن مالك بمغريات الغساسنة في أشدّ الساعات حرجاً بالنسبة له، وفي أكثر الأوقات التي يمكن أن يقوم بها بردِّ فعلٍ ضدّ مقاطعة المجتمع له. وأخيراً يمكن أن نلاحظ الدولة التي تطمئن من منهجها وتطبيقه، وتعرف رعاياها وما هم عليه من الطاعة فتسمح حتىٰ لأعدائها أن يدخلوا كأفراد إلىٰ عاصمتها، أما اليوم فأجهزة الأمن بأعدادها الكثيرة لا تُراقب الأشخاص فحسب بل المجتمع حتىٰ لا ينفلت أفراد منه ويتّصلوا بالخصوم حتىٰ بالخارج، فكيف هم إذا وجدوا في الداخل وما ذلك إلا لما تعلمه

من أعمالها و... وحتىٰ مراقبة الرعايا غدت هي السائدة لا مراقبة الأعداء.

وفد الطائف:

ولما رجع رسول الله ﷺ من تبوك جاءه وفد من الطائف، وكان عروة بن مسعود أحد وجهاء ثقيف قد تبع رسول الله ﷺ، إثر انصرافه من الطائف، وأدركه قبل أن يصل إلىٰ المدينة، فاعتنق الإسلام، وطلب من رسول الله ﷺ أن يرجع إلىٰ قومه بالإسلام، فقال له: «إنهم قاتلوك»، فقال عروة: يا رسول الله، أنا أحبّ إليهم من أبصارهم، وكان محبَّباً ليهم ومطاعاً، فلما جاءهم بالإسلام رموه بالنبال وقتلوه. وبعد مدةٍ شعروا بضعفهم أمام ما حولهم من الأعراب التي دانت بالإسلام، فأرسلوا وفداً إلىٰ رسول الله ﷺ، فأسلم الوفد، وولّىٰ عليهم رسول الله عثمان بن أبي العاص، وكان أصغرهم سنًّا، وأحرصهم علىٰ الفقه، ولما رجعوا أرسل إليهم رسول الله ﷺ أبا سفيان والمغيرة بن شُعبة لهدم اللات صنم ثقيف، فهدموه، وأسلمت ثقيف.

حجّ أبي بكرٍ الصديق رضي الله عنه:

وفي أواخر شهر ذي القعدة من السنة التاسعة للهجرة أرسل رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق رضي الله عنه ليحجّ بالناس، فسار معه ثلاثمائةٍ من المسلمين، وقد ساقوا الهدي معهم، وما أن خرجوا حتىٰ نزلت أوائل سورة التوبة (براءة)، فأرسل رسول الله ﷺ عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه ليتلوها علىٰ المسلمين فقرأها عليهم في مِنىٰ يوم النحر، وفيها نبذ عهود المشركين الذين لم يوفوا بها، وإتمام عهد المشركين الذين لم يُظاهروا علىٰ المسلمين، ولم يغدروا بهم إلىٰ مدتهم، ثم عدم حجّ مشرك بعد هذا العام، وعدم طواف عريان بالبيت، كما كانت عادة الجاهليين. وكان أبو بكر رضي الله عنه هو الذي يُصلّي بالناس، وعليّ رضي الله عنه، يقتدي به.

وفي شهر ذي القعدة من هذا العام توفي في المدينة رأس المنافقين عبدالله بن أُبيّ بن سلول، وتخلّص منه المسلمون.

الوفود:

بعد غزوة تبوك بدأت الوفود تصل إلىٰ المدينة من مختلف الجهات، ومن أكثر القبائل العربية الضاربة في جزيرة العرب وما حولها.

فقد جاء وفد بني عامر، وفيهم: عامر بن الطفيل، وأربد بن قيس، وجبّار بن سلْمىٰ، وهم رأس الوفد، وقد أرادوا الغدر برسول الله ﷺ، وأثناء الطريق مات عامر بن الطفيل بالطاعون، وأصابت صاعقة أربد بن قيس فأحرقته بعد عودته إلىٰ دار قومه بيومين، ومات جبّار بن سلمىٰ.

وأقبل وفد بني سعد بن بكر بإمرة ضِمام بن ثعلبة فأسلم، وعندما عاد إلىٰ قومه دعاهم إلىٰ الإسلام، فأسلموا جميعاً، ما تخلّف منهم رجل واحد.

وجاء وفد بني عبد القيس بإمرة الجارود بن عمرو، وكان نصرانياً فأسلم، وحسُن إسلامه، وعندما ارتدّ من قومه بعض من أسلم وقت الردّة، بقي علىٰ إسلامه.

وقدِم وفد بني حنيفة، وفيهم مُسيلمة الكذّاب، فأسلموا، فلما رجعوا إلىٰ بلادهم اليمامة تنبّأ عدوّ الله مُسيلمة، وارتدّ معه أكثر قومه.

وقدِم وفد طيئ، وفيهم: زيد الخيل، فأسلموا، وسمّىٰ رسول الله ﷺ سيّدهم زيد الخيل (زيد الخير)، ولكن لم يلبث أن توفي.

وجاء فروة بن مُسيك المُرادي من شمالي اليمن فأسلم، واستعمله رسول الله ﷺ علىٰ (مُراد) و(زبيد) و(مذحج) كلها، وبعث معه خالد بن

سعيد بن العاص، ليكون على الصدقات، فكان معه في بلاده حتى توفي رسول الله ﷺ.

وجاء وفد من (زبيد) بإمرة عمرو بن معدي كرب، فأسلم، وتبع فروة إلا أن عمراً ارتدّ حين ارتدّت العرب.

ووفد الأشعث بن قيس على رأس وفدٍ من كِندة تضمّ ثلاثين رجلاً فأسلموا.

ووفد على رسول الله ﷺ وفد من الأزد من عسير، وعليهم صُرَد بن عبدالله الأزدي، فأسلموا، وقد جعل رسول الله ﷺ صُرَد بن عبدالله على من أسلم من قومه، فرجعوا وقاتلوا قومهم، وحاصروهم في مدينة جُرَش، ثم تركوهم، فلحقوا بهم، فقاتلوهم قتالاً شديداً، ثم خرج وفد من جُرَش إلى رسول الله ﷺ فأسلموا.

وجاء وفد إلى رسول الله ﷺ يحمل كتاب ملوك حِمْير يخبرونه فيه بإسلامهم، وترك ما كانوا يعبدون من دون الله، وأرسل إليهم رسول الله ﷺ مُعاذ بن جبل إلى الكورة العليا من اليمن، وبعث أبا موسى الأشعري إلى الكورة السفلى منها، وأوصاهما. وقد بقي مُعاذ بن جبل حتى توفي رسول الله ﷺ، وقدم أبو موسى الأشعري مكة ورسول الله في حجة الوداع.

وجاء وفد من نجران يضمّ ستين راكباً، وكانوا من النصارى، ورضوا بدفع الجزية، وعادوا إلى بلادهم.

وجاء رسول من فروة بن عمرو الجُذامي عامل الروم على العرب في معان وما حولها، جاء إلى رسول الله ﷺ، يُعلمه بإسلام فروة بن عمرو، ويُقدّم له هديته، ولما بلغ الروم إسلام فروة بن عمرو أخذوه، وسجنوه، ثم قتلوه.

وقدم وفد من همدان (في إيران جنوب غربي طهران) إلى المدينة، وأعلنوا إسلامهم لرسول الله ﷺ.

وقدِم وفد ثعلبة، ووفد بني سعد بن هذيم من قضاعة، ووفد بني أسد وفيهم ضرار بن الأزور، وطلحة بن عبدالله الذي ادّعىٰ النبوة فيما بعد، ووفد بني عذرة، ووفد بلي، ووفد بني مُرّة، ووفد خولان باليمن، ووفد بني محارب، ووفد بني عبس، ووفد غسّان.

وبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلىٰ بني الحارث بن كعب في نجران، فدعاهم فاستجابوا فرجع إلىٰ المدينة مع وفدٍ منهم بناءً علىٰ رأي رسول الله ﷺ.



حِجّةُ الوَدَاعِ

تجهّز رسول الله ﷺ للحجّ في أوائل شهر ذي القعدة من السنة العاشرة للهجرة، وأمر الناس بالتهيؤ لذلك، وولّىٰ علىٰ المدينة أبا دُجانة سِماك بن خَرَشَة، وانطلق من المدينة يوم السبت لخمسٍ بقين من شهر ذي القعدة، وكان معه جمع غفير يقرب من التسعين ألفاً، ولما وصل إلىٰ مكة دخلها من كِداء، وفي اليوم التاسع من شهر ذي الحجة توجّه إلىٰ عَرَفَة، وأرىٰ الناس مناسكهم، وعلّمهم سُنَنَ حَجِّهم، وخطب في الناس خطبةً بيّن فيها كثيراً من تعاليم الدين الإسلامي، وكان مما قاله بعد أن حمد الله وأثنىٰ عليه: «أيها الناس، اسمعوا مني أُبيِّن لكم، فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا، أيها الناس، إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم إلىٰ أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا. في شهركم هذا، في بلدكم هذا، ألا هل بلّغت؟ اللهم فاشهد. فمن كانت عنده أمانة فليؤدّها إلىٰ من ائتمنه عليها.

وإن ربا الجاهلية موضوع، وإن أول ربا أبدأ به ربا عمّي العباس بن عبد المطلب. وإن دماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث. وإن مآثر الجاهلية موضوعة غيرَ السدانة والسقاية. والعمد قود، وشبه العمد ما قُتل بالعصا والحجر، وفيه مائة بعير، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية.

أيها الناس، إن الشيطان قد يئس أن يُعبد في أرضكم هذه، لكنه رضي أن يُطاع فيما سوىٰ ذلك مما تحقرون من أعمالكم.

أيها الناس، إن النسيء زيادة في الكفر، يُضَلُّ به الذين كفروا يُحلونه

عاماً ويُحرِّمونه عاماً ليواطئوا عدّة ما حرّم الله، فيُحِلّوا ما حرّم الله، ويُحرِّموا ما أحلّ الله، وإن الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق الله السماوات والأرض، وإن عدّة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السماوات والأرض، منها أربعة حُرُم، ثلاث متواليات، وواحد فرد: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب الذي بين جمادىٰ وشعبان، ألا هل بلّغت؟ اللهم فاشهد.

أيها الناس، إن لنسائكم عليكم حقاً، ولكم عليهن حق ألاّ يوطئن فُرُشَكم غيركم، ولا يُدخِلنِ أحداً تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم، ولا يأتين بفاحشةٍ، فإن فعلن فإن الله أَذِن أن تعضلوهنّ وتهجروهنّ، وتضربوهنّ ضرباً غير مُبرّحٍ، فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهنّ وكسوتهنّ بالمعروف، وإنما النساء عندكم عوان، ولا يملكن لأنفسهنّ شيئاً، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهنّ بكلمات الله، فاتقوا الله بالنساء، واستوصوا بهنّ خيراً، ألا هل بلّغت؟ اللهم فاشهد.

أيها الناس، اعقلوا قولي، فإني قد بلّغت، وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به، فلن تضلُّوا أبداً، أمراً بيِّناً، كتاب الله وسُنّة نبيّه.

أيها الناس، اسمعوا قولي واعقلوه، تعلمون أن كل مسلم أخ للمسلم، وإنما المؤمنون إخوة، ولا يحلّ لامرئٍ مال أخيه إلا عن طيِّب نفسٍ منه، فلا تَظْلِمُنّ أنفسكم، ولا تَرْجِعُنّ بعدي كفّاراً يضرب بعضكم رقاب بعض. ألا هل بلّغت؟ اللهم فاشهد.

أيها الناس، إن ربّكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم، وآدم من ترابٍ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، ليس لعربيٍّ فضل علىٰ أعجميٍّ ولا لأبيض علىٰ أسود إلا بالتقوىٰ، ألا هل بلّغت؟ اللهم فاشهد، فليبلّغ الشاهد منكم الغائب.

أيها الناس، إن الله قد قسّم لكل وارثٍ نصيبه من الميراث، ولا تجوز وصيّة لوارثٍ. والولد للفراش، وللعاهر الحجر. مَن ادّعىٰ لغير أبيه أو تولّىٰ

غير مواليه فعليه لعنة الله، والملائكة، والناس أجمعين، لا يقبل منه صرف ولا عدل. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

وفي هذا اليوم أنزل الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [المائدة].

وبعد أن أدّىٰ رسول الله ﷺ مناسك الحج، وأقام في مكة عشرة أيامٍ رجع إلىٰ المدينة المنورة.

جيش أسامة بن زيد:

أقام رسول الله ﷺ بالمدينة المنورة بعد حجته ـ وهي الحجة الوحيدة التي حجّها رسول الله ﷺ ـ بقية شهر ذي الحجة، وشهر المحرم، وفي الرابع من شهر صفر من السنة الحادية عشرة للهجرة جهّز جيشاً بإمرة أسامة بن زيد رضي الله عنهما، وأمره أن يصل إلىٰ تخوم منطقة البلقاء في جنوبي بلاد الشام (جنوبي الأردن اليوم)، وكان في هذا الجيش عدد من كبار الصحابة أمثال: أبي بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وأبي عبيدة بن الجراح، وسعد بن أبي وقّاص رضي الله عنهم جميعاً، مع أسامة بن زيد رضي الله عنه. ولم يكن ليتجاوز الثامنة عشرة من عمره بعد. ولم ينطلق هذا الجيش لمرض رسول الله ﷺ.



وفاة رسول الله ﷺ

شعر رسول الله ﷺ بالتعب بعد عودته من حِجّة الوداع في أواخر شهر صفر من السنة الحادية عشرة للهجرة.

وفي اليوم التاسع والعشرين من شهر صفر شهد رسول الله ﷺ جنازةً في البقيع، فلما رجع، وهو في الطريق، أصابه صداع في رأسه، وارتفعت حرارته، فعصّب رأسه بعصابةٍ، ورجع إلىٰ بيت عائشة رضي الله عنها، وأخذ يدور علىٰ نسائه، وزاد وجعه في بيت ميمونة بنت الحارث رضي الله عنها، فدعا نساءه فاستأذنهن في أن يمرض في بيت عائشة رضي الله عنها، فأَذِنَّ له أن يكون حيث شاء، فانتقل إلىٰ بيت عائشة، يمشي بين الفضل بن العباس وعلي بن أبي طالب عاصباً رأسه تخطّ قدماه حتىٰ دخل بيتها، فقضىٰ عندها آخر أسبوعٍ من حياته.

وكانت عائشة رضي الله عنها تقرأ بالمعوذات والأدعية التي حفظتها من رسول الله ﷺ، وتنفث بذلك عليه، وتمسحه بيده رجاء البركة.

وارتفعت حرارة بدنه ﷺ، واشتدّ عليه الوجع يوم الأربعاء في السابع من شهر ربيع الأول أي قبل وفاته بخمسة أيام. فقال: «أريقوا عليّ سبع قرب ماءٍ من آبارٍ شتّىٰ حتىٰ أخرج إلىٰ الناس فأعهد إليهم»، فأقعدوه في مخضبٍ، وصبُّوا عليه الماء، حتىٰ طفق يقول: «حسبكم حسبكم».

أحسّ رسول الله ﷺ بخفّةٍ بعد صبّ الماء عليه، فدخل المسجد ـ وهو معصوب الرأس ـ حتىٰ جلس علىٰ المنبر، وخطب الناس، والناس مجتمعون

حوله، فقال: «لعنة الله علىٰ[1] اليهود والنصارىٰ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد». ثم نزل فصلّىٰ الظهر، ثم رجع فجلس علىٰ المنبر، فوصىٰ بالأنصار قائلاً: «أوصيكم بالأنصار، فإنهم كَرْشي وعَيبَتي، وقد قضوا الذي عليهم، وبقي الذي لهم، فاقبلوا من مُحسنهم، وتجاوزوا عن مُسيئهم». وفي رواية أخرىٰ: «إن الناس يكثرون، وتقلّ الأنصار، حتىٰ يكونوا كالملح في الطعام، فمن ولي منكم أمراً يضرّ فيه أحداً أو ينفعه فليقبل من محسنهم، ويتجاوز عن مسيئهم».

ثم قال في آخر خطبةٍ له: «إن عبداً خيّره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا ما شاء، وبين ما عنده، فاختار ما عنده». قال أبو سعيد الخدري: فبكىٰ أبو بكرٍ ﷺ، وقال: فديناك بآبائنا وأمهاتنا. فعجبنا له، فقال الناس: انظروا إلىٰ هذا الشيخ، يخبر رسول الله ﷺ عن عبدٍ خيّره الله بين أن يؤتيه زهرة الدنيا، وبين ما عنده، وهو يقول: فديناك بآبائنا وأمهاتنا، فكأن المخيَّر هو رسول الله ﷺ، وكان أبو بكر ﷺ أعلمنا به.

ثم قال رسول الله ﷺ: «إن أمنّ الناس عليّ في صحبته وماله أبو بكر، ولو كنت متخذاً خليلاً غير ربي لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن إخوةً في الإسلام ومودته، لا يبقين في المسجد باباً إلا سُدّ إلا باب أبي بكر».

وفي يوم الخميس قبل الوفاة بأربعة أيام (٨ ربيع الأول سنة ١١هـ)، وقد اشتدّ به ﷺ الوجع، قال: «هلُّموا أكتب إليكم كتاباً لن تضلُّوا بعده» ـ وفي البيت رجال بينهم عمر ـ فقال عمر: قد غلب عليه الوجع، وعندكم القرآن، حسبكم كتاب الله. فاختلف أهل البيت، فمنهم من يقول: قرِّبوا يكتب لكم رسول الله ﷺ، ومنهم يقول غير ذلك، فلما كثُر اللغط والاختلاف، قال رسول الله ﷺ: «قوموا عني».

وأوصىٰ ذلك اليوم بثلاث:

ـ أوصىٰ بإخراج اليهود والنصارىٰ من جزيرة العرب.

---

(١) في رواية: قاتل الله.

ـ وأوصىٰ بإجازة الوفود بنحو ما كان يجيزهم.

ونسي الراوي الثالثة ولعلها:

ـ الوصية بالاعتصام بالكتاب والسنّة.

أو إنفاذ جيش أسامة.

أو هي «الصلاة وما ملكت أيمانكم».

ورسول الله ﷺ مع ما كان به من شدّة المرض كان يصلّي بالناس جميع صلواته حتىٰ كان ذلك اليوم ـ يوم الخميس قبل الوفاة بأربعة أيام ـ وقد صلّىٰ بالناس ذلك صلاة المغرب، فقرأ فيها سورة المرسلات.

وعند العشاء زاد ثقل المرض بحيث لم يستطع الخروج إلىٰ المسجد، قالت عائشة رضي الله عنها: فقال النبي ﷺ: «أصلّىٰ الناس؟» قلنا: لا يا رسول الله، وهم ينتظرونك، قال: «ضعوا لي ماءً»، ففعلنا، فاغتسل، فذهب لينوء[1] فأُغمي عليه، ثم أفاق، فقال: «أصلّىٰ الناس؟» ووقع ثانياً وثالثاً كما وقع في المرة الأولىٰ من الاغتسال، ثم الإغماء عندما أراد أن ينوء، فأرسل إلىٰ أبي بكرٍ أن يُصلّي بالناس، فصلّىٰ أبو بكر تلك الأيام صلاة في حياته ﷺ.

ويوم السبت أو الأحد وجد النبي ﷺ في نفسه خِفّةً، فخرج بين رجلين لصلاة الظهر، وأبو بكر يصلّي بالناس، فلما رآه أبو بكر حاول أن يتأخّر، فأومأ إليه: بأن لا يتأخّر، قال: أجلساني إلىٰ جنبه، فأجلساه إلىٰ يسار أبي بكر، فكان أبو بكر يقتدي بصلاة رسول الله ﷺ، ويُسمع الناس التكبير.

وقبيل يوم من الوفاة ـ يوم الأحد ـ أعتق رسول الله ﷺ غلمانه، وتصدّق بسبعة دنانير كانت عنده، ووهب للمسلمين أسلحته. وفيه استعارت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها الزيت للمصباح من جارتها، وكانت درع رسول الله ﷺ مرهونةً عند يهودي علىٰ ثلاثين صاعاً من الشعير.

---

(١) ينوء: يقوم مُثقلاً.

ولما راجعت عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا النبيّ ﷺ ثلاث أو أربع مراتٍ، ليصرف الإمامة عن أبي بكرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، حتىٰ لا يتشاءم به الناس، فأبىٰ، وقال: «إنكنّ صواحب يوسف. مروا أبا بكرٍ فليُصلِّ بالناس».

وآخر يوم من حياة رسول الله ﷺ روىٰ أنس بن مالك: أن المسلمين بينما هم في صلاة الفجر (يوم الإثنين ١٢ ربيع الأول من السنة الحادية عشرة للهجرة) وأبو بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يصلي بهم، لم يُفاجئهم إلا رسول الله ﷺ كشف ستر حجرة عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، فنظر إليهم، وهم في صفوف الصلاة، ثم تبسّم يضحك، فنكص أبو بكر علىٰ عقبيه ليصل إلىٰ الصف، وظنّ أن رسول الله ﷺ يريد أن يخرج للصلاة. فقال أنس: وهمّ المسلمون أن يفتتنوا في صلاتهم فرحاً برسول الله ﷺ، فأشار إليهم رسول الله ﷺ بيده أن أتمُّوا صلاتكم، ثم دخل الحجرة، وأرخىٰ الستر.

ثم لم يأتِ علىٰ رسول الله ﷺ وقت صلاة أخرىٰ.

ولما ارتفع الضحىٰ دعا النبيّ ﷺ فاطمة، فسارّها بشيءٍ فبكت. ثم دعاها، فسارّها بشيءٍ فضحكت. قالت عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: فسألناها عن ذلك، فيما بعد، فقالت: سارّني النبيّ ﷺ أنه يُقبض في وجعه الذي توفي فيه، فبكيت، ثم سارّني فأخبرني أني أول أهله يتبعه فضحكتُ[1].

وبشّر النبي ﷺ فاطمة بأنها سيدة نساء العالمين.

ورأت فاطمة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ما برسول الله ﷺ من الكرب الشديد الذي يتغشّاه، فقالت: واكرباه، فقال لها: «ليس بأبيك كرب بعد اليوم»[2].

ودعا الحسن والحسين ابنَيْ ابنته فاطمة، فقبّلهما، وأوصىٰ بهما خيراً.

ودعا زوجاته فوعظهنّ وذكّرهنّ.

وبدأ الوجع يشتدّ ويزيد، وقد ظهر أثر السمّ الذي بخيبر، حتىٰ كان

---

(١) البخاري: ٦٣٨/٢.

(٢) البخاري: ٦٤١/٢.

يقول: «يا عائشة، ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلت بخيبر، فهذا أوان وجدت انقطاع أبهري من ذلك السمّ»(١).

وأوصىٰ الناس، فقال: «الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم»(٢). وكرّر ذلك مراراً.

وبدأ الاحتضار فأسندته عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا إليها، وكانت تقول: إنّ من نِعَم الله عليّ أن رسول الله ﷺ توفي في بيتي، وفي يومي، وبين سَحْري ونحري، وأن الله جمع بين ريقي وريقهِ عند موته.

دخل عبدالرحمٰن بن أبي بكر، وبيده السواك، وأنا مسندة رسول الله ﷺ، فرأيته ينظر إليه، وعرفت أنه يُحبّ السواك، فقلت: آخذه لك؟ فأشار برأسه أن نعم، فتناولته، فاشتدّ عليه، وقلت: أُلَيِّنُهُ لك، وأشار برأسه أن نعم. فَأَمَرّه. وكان بين يديه ركوة فيها ماء فجعل يُدخل يديه في الماء فيمسح بهما وجهه، ويقول: «لا إلٰه إلا الله إن للموت لسكرات»(٣).

وما عدا أن فرغ من السواك حتىٰ رفع يده أو إصبعه، وشخص بصره نحو السقف، وتحرّكت شفتاه، فأصغت إليه عائشة، وهو يقول: «مع الذين أنعمت عليهم من النبيين، والصديقين، والشهداء، والصالحين، اللهم اغفر لي وارحمني، وألحقني بالرفيق الأعلىٰ، اللهم الرفيق الأعلىٰ». وكرّر الكلمة الأخيرة ثلاثاً، ومالت يده، ولحق بالرفيق الأعلىٰ. إنا للّه وإنا إليه راجعون.

وقع هذا الحادث حين اشتدّت الضحىٰ من يوم الاثنين ١٢ ربيع الأول سنة ١١ للهجرة. وقد تمّ له ﷺ ثلاث وستون سنة.

وتسرّب النبأ الفادح، وأظلمت علىٰ المدينة أرجاؤها وآفاقها. قال أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: ما رأيت يوماً قط كان أحسن ولا أضوأ من يوم دخل

---

(١) البخاري: ٢/٦٣٧.

(٢) مسند الإمام ٦/٢٩٠، وابن ماجه: (١٦٢٥).

(٣) البخاري: ٢/٦٤٠.

علينا فيه رسول الله ﷺ، وما رأيت يوماً كان أقبح ولا أظلم من يوم مات فيه رسول الله ﷺ. رواه الدارمي.

ولما مات رسول الله ﷺ قالت فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: يا أبتاه، أجاب رباً دعاه. يا أبتاه، في جنّة الفردوس مأواه. يا أبتاه إلىٰ جبريل ننعاه.

وُلد رسول الله ﷺ: الاثنين ١٢ ربيع أول سنة ٥٣ قبل الهجرة (٢٠ نيسان سنة ٥٧١م).

بُعث رسول الله ﷺ: الاثنين ١٧ رمضان سنة ١٣ قبل الهجرة.

وصل رسول الله ﷺ إلىٰ قباء: الاثنين ١٢ ربيع أول قبل تسعة أشهرٍ من دخول السنة الأولىٰ للهجرة.

توفي رسول الله ﷺ: الاثنين ١٢ ربيع أول سنة ١١ للهجرة.

موقف عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

وقف عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ وقد أخرجه الخبر عن وعيه ـ يقول: إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله ﷺ قد توفي، وإن رسول الله ﷺ ما مات، لكن ذهب إلىٰ ربه، كما ذهب موسىٰ بن عمران عَلَيْهِ السَّلَامُ إلىٰ ربه، فغاب عن قومه أربعين ليلةً، ثم رجع إليهم بعد أن قيل قد مات، ووالله ليرجعن رسول الله ﷺ، فليُقطِّعَنّ أيدي رجال وأرجلهم يزعمون أنه مات.

وأقبل أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ علىٰ فرسٍ من مسكنه بـ(السنح) حتىٰ نزل فدخل المسجد، فلم يُكلّم الناس حتىٰ دخل علىٰ عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فتيمّم رسول الله ﷺ، وهو مُغشّى بثوبِ حَبِرَةٍ، فكشف عن وجهه، ثم أكبّ عليه، فقبّله وبكىٰ، ثم قال: بأبي أنت وأمي، لا يجمع الله عليك موتتين، أما الموتة التي كتب الله عليك فقد متّها، ثم لن تُصيبك بعدها موتة أبداً.

ثم خرج أبو بكر، وعمر يكلم الناس، فقال: اجلس يا عمر، فأبىٰ عمر أن يجلس، فأقبل الناس إلىٰ أبي بكر، وتركوا عمر، فقال أبو بكر: أما بعد، من كان منكم يعبد محمداً ﷺ فإن محمداً قد مات، ومن كان منكم يعبد الله فإن الله حيّ لا يموت. قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ

خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [آل عمران].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: والله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتىٰ تلاها أبو بكرٍ، فتلقاها منه الناس كلهم، فما أسمع بشراً من الناس إلا يتلوها.

قال ابن المسيّب: قال عمر: والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكرٍ تلاها فعَقِرْتُ حتىٰ ما تُقلّني رجلاي، وحتىٰ أهويت إلىٰ الأرض حين سمعته تلاها، علمت أن النبيّ ﷺ قد مات.

الخلافة:

ووقع الخلاف في أمر الخلافة قبل أن يقوموا بتجهيزه ﷺ، فجرت مناقشات، ومجادلات، وحِوار، وردود بين المهاجرين والأنصار في سقيفة بني ساعدة، وأخيراً اتفقوا علىٰ خلافة أبي بكرٍ رضي الله عنه، ومضىٰ في ذلك بقية يوم الإثنين حتىٰ دخل الليل، وشُغل المسلمون عن جهاز رسول الله ﷺ، حتىٰ كان آخر الليل ـ ليلة الثلاثاء ـ مع الصبح، وبقي جسده المبارك علىٰ فراشه مُغشّى بثوبٍ حَبِرَةٍ، قد أغلق دونه الباب أهلُه.

ويوم الثلاثاء غسّلوا رسول الله ﷺ، من غير أن يُجرّدوه من ثيابه، وكان القائمون بالغسل: العباس، وعلي بن أبي طالب، والفضل بن العباس، وقُثم بن العباس، وأسامة بن زيد، وأوس بن خولي، وشقران. فكان العباس، والفضل، وقُثم يُقلبونه، وأسامة وشقران يُصبّان الماء، وعلي يُغسّله، وأوس أسنده إلىٰ صدره.

ثم كفّنوه في ثلاثة أثوابٍ بيضٍ سحولية من كُرْسُفٍ، ليس فيها قميص، ولا عمامة، أدرجوه فيها إدراجاً[(١)].

(١) متفق عليه، «صحيح البخاري»: ١٦٩/١، «صحيح مسلم»: ٣٠٦/١. سحولية: نظيفة: نسبةً إلىٰ مدينة في اليمن تُسمّىٰ سحول. الكرسف: القطن.

واختلفوا في موضع دفنه، فقال أبو بكر رضي الله عنه: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما قُبض نبيّ إلا دُفن حيث يُقبض»، فرفع أبو طلحة فراش الذي توفي عليه، فحفر تحته، وجعل القبر لحداً.

ودخل الناس الحجرة أرسالاً عشرةً عشرةً، يصلُّون على رسول الله ﷺ، ولا يؤمّهم أحد، وصلّى عليه أولاً أهل عشيرته، ثم المهاجرون، ثم الأنصار، وصلّت عليه النساء بعد الرجال، ثم صلّى عليه الصبيان.

ومضى في ذلك يوم الثلاثاء كاملاً، حتى دخلت ليلة الأربعاء، فقالت عائشة رضي الله عنها: ما علمنا بدفن رسول الله ﷺ، حتى سمعنا صوت المساحي في جوف الليل من ليلة الأربعاء الرابع عشر من شهر ربيع الأول من السنة الحادية عشرة للهجرة.

قالت فاطمة بنت رسول الله ﷺ رضي الله عنها:

اغبرَّ آفاقُ السماءِ وكُوِّرَتْ ... شمسُ النهارِ وأَظلمَ العصرانِ
فالأرضُ من بعدِ النبيّ كئيبةٌ ... أسفاً عليه كثيرة الرَّجفانِ
فليبكهِ شرقُ البلادِ وغربُها ... ولتبكه مُضرٌ وكلُّ يَمانِ
وليبكه الطور المعظّم جوّه ... والبيت ذو الأستار والأركانِ
يا خاتم الرسل المبارك ضوؤه ... صلّى عليك مُنزلُ القرآنِ

وقال أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب (ابن عمّ رسول الله):

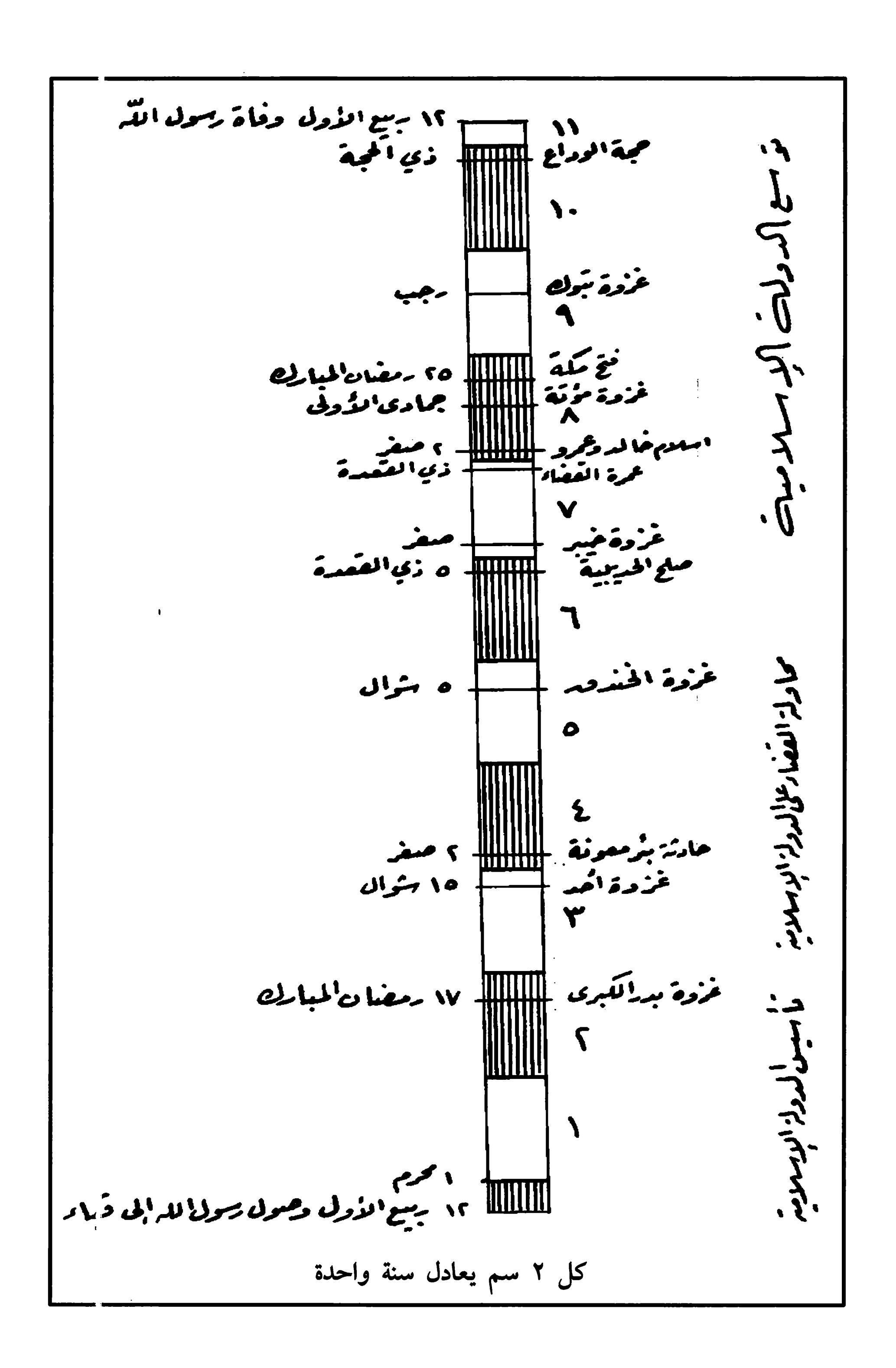
أَرِقْتُ فباتَ ليلي لا يزولُ ... وليلُ أخي المصيبةِ فيه طولُ
وأسعدني البكاءُ وذاك فيما ... أُصيب المسلمون به قليلُ
لقد عظمت مصيبتنا وجلّت ... عشية قيل قُبض الرسولُ
وأضحتْ أرضنا مما عراها ... تكاد بنا جوانبها تميلُ
فقدنا الوحيَ والتنزيل فينا ... يروح به ويغدو جبرئيلُ
وذاك أحقّ ما سالت عليه ... نفوس الناس أو كادت تسيلُ
نبيٌّ كان يجلو الشكَّ عنّا ... بما يوحى إليه وما يقولُ

ويـهـديـنـا فـمـا نـخـشـىٰ ضـلالاً   عـلـيـنـا والـرسـول لـنـا دلـيـلُ
أفـاطـم إن جـزعـت فـذاك عـذر   وإن لـم تـجـزعـي ذاك الـسـبـيـل
فـقـبـر أبـيـك سـيّـد كـلِّ قـبـرٍ   وفـيـه سـيّـد الـنـاس الـرسـول

وقال حسّان بن ثابت:

ما بـال عـينـكَ لا تـنـام كـأنـمـا   كُحِلَتْ مآقيها بِكُحْلِ الأَرْمَدِ
جزعاً علىٰ المهدي أصبح ثاوياً   يا خيرَ مَنْ وَطِئَ الحصىٰ لا تبعدِ
وجهي يقيكَ الترْبَ لهفي ليتني   غُيّبْتُ قبلك في بقيع الغرقدِ
بـأبـي وأمـي مـن شـهـدتُ وفـاتَـهُ   في يوم الاثنين النبيّ المهتدي
فـظـلِلْـتُ بـعـد وفـاتـه مُـتَـبَـلِّـداً   مُـتَـلَـدِّداً يـا لـيـتـنـي لـم أُولـدِ
أَأُقيم بَعْدَك بالمدينة بينهم   يا ليتني صُبِّحْتُ سمَّ الأسودِ
أوْ حَـلّ أمـرُ الله فـيـنـا عـاجـلاً   في روحة من يومنا أو من غدِ
فتقومُ ساعتُنا فنلقىٰ طيِّباً   محضاً ضرائبه كريم المحتدِ
يا بِكْرَ آمنةَ المبارك بِكْرُها   وَلَدَتْهُ مُحْصنةٌ بِسَعْدِ الأسعدِ
نوراً أضاءَ علىٰ البريةِ كلِّها   من يُهْدَ للنور المبارك يهتدي
يا ربِّ فاجمعنا معاً ونبيّنا   في جنّةٍ تثني عيون الحُسَّدِ
في جنّة الفردوس فاكتبها لنا   يا ذا الجلال وذا العُلا والسؤددِ
واللّهِ أسمع ما بَقيتُ مهالكِ   إلا بكيت علىٰ النبي محمدِ
يا ويح أنصار النبي وَرَهْطِهِ   بعد المُغيب في سواء المَلْحَدِ
ضاقت بالأنصار البلاد فأصبحوا   سُوداً وجوهُهُمُ كلون الإثمِدِ
ولـقـد ولـدنـاه وفـيـنـا قـبـره   وفضول نعمته بنا لم نجْحَدِ
والله أكـرمـنـا بـه وهَـدَىٰ بـه   أنصاره في كل ساعة مشهدِ
صلّىٰ الإلٰه ومن يحف بعرشه   والطيّبون علىٰ المبارك أحمدِ

ولحسّان بن ثابت شعر كثير في رثاء رسول الله ﷺ والبكاء عليه.



كل ٢ سم يعادل سنة واحدة

خاتم الأنبياء والمرسلين

صلى الله عليه وسلم

الجزء الثالث

قضت حكمة الله سبحانه وتعالىٰ أن يُهبط عبده آدم عليه السلام من الجنة إلىٰ الأرض في منطقةٍ متوسطةٍ من الأرض حتىٰ تبقىٰ هذه المنطقة قاعدةً لبني آدم حيثما انتقلوا، وليكون أنبياء الله ورسله شهداء علىٰ البشر من بني آدم.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ...﴾ [البقرة: ١٤٣].

أُهبط آدم عليه السلام في أرضٍ (دحنا) بين مكة والطائف. وقيل: في الهند ثم انتقل إلىٰ الصفا قرب مكة، وأُهبطت حواء في منطقة المروة، وقيل: في منطقة جُدّة. وكان اللقاء في عرفات بين آدم وحواء عليهما السلام، وبذا كانت جزيرة العرب المهد الأول للبشر، وكان الزواج، وكانت الولادة، وكانت الزيادة، وكانت هذه المنطقة مقرّ الأمة الوسط التي سيكون أبناؤها شهداء علىٰ الناس.

وبعث الله الأنبياء والرسل جميعاً لهذه الأمة الوسط، التي هي في المكان الوسط في جزيرة العرب، والعراق، والشام، وشمالي مصر. ولا يوجد نبي واحد أو رسول واحد خارج هذه المنطقة الوسط. وعدد الأنبياء والرسل خمسة وعشرون، أسماؤهم معروفة وأماكن بعثتهم معروفة، بل لا يوجد خلاف في ذلك، ولا تباين في رأي، بل الأمر بالإجماع:

١ ـ بُعث آدم عليه السلام في جزيرة العرب في منطقة مكة.

٢ ـ بُعث إدريس عليه السلام في جزيرة العرب في منطقة مكة.

٣ ـ بُعث نوح عليه السلام في جنوبي بلاد العراق في منطقة بابل.

٤ ـ بُعث هود عليه السلام في جزيرة العرب في منطقة الأحقاف.

٥ ـ بُعث صالح عليه السلام في جزيرة العرب في وادي القرىٰ شمال المدينة ٣٢٠ كيلومتر. مدائن صالح.

٦ ـ بُعث إبراهيم الخليل عليه السلام في جنوبي العراق، منطقة بابل، ثم هاجر إلىٰ بلاد الشام، وأقام في مدينة الخليل في منطقة فلسطين.

٧ ـ بُعث إسماعيل عليه السلام في جزيرة العرب في منطقة مكة، وإن كان قد وُلد في مدينة الخليل في فلسطين.

٨ ـ بُعث إسحاق عليه السلام في بلاد الشام، منطقة فلسطين في مدينة الخليل.

٩ ـ بُعث يعقوب عليه السلام في بلاد الشام، منطقة فلسطين في مدينة الخليل.

١٠ ـ بُعث يوسف عليه السلام في بلاد مصر.

١١ ـ بُعث لوط عليه السلام في بلاد الشام، في منطقة فلسطين والأردن.

١٢ ـ بُعث شُعيب عليه السلام في جزيرة العرب في بلاد مدين والأيكة (تبوك).

١٣ ـ بُعث أيوب عليه السلام في بلاد الشام في منطقة حوران.

١٤ ـ بُعث ذو الكفل (بشر بن أيوب) عليه السلام في بلاد الشام.

١٥ ـ بُعث يونس عليه السلام في بلاد العراق في (نينوىٰ) شرق الموصل.

١٦ ـ بُعث موسىٰ عليه السلام في بلاد مصر.

١٧ ـ بُعث هارون عليه السلام في بلاد مصر.

١٨ ـ بُعث إلياس عليه السلام في بلاد الشام، في لبنان منطقة بعلبك.

١٩ ـ بُعث اليسع عليه السلام في بلاد الشام.

٢٠ ـ بُعث داود عليه السلام في بلاد الشام، في منطقة فلسطين.

٢١ ـ بُعث سليمان عليه السلام في بلاد الشام، في منطقة فلسطين.

٢٢ ـ بُعث زكريا عليه السلام في بلاد الشام، في منطقة فلسطين.

٢٣ ـ بُعث يحيىٰ عليه السلام في بلاد الشام، في منطقة فلسطين.

٢٤ ـ بُعث عيسىٰ عليه السلام في بلاد الشام، في منطقة فلسطين.

٢٥ ـ بُعث محمد عليه السلام في جزيرة العرب، في منطقة مكة.

وبهذا كانت هذه المنطقة التي بُعث فيها أنبياء الله ورسله محطّ أنظار العالم ومهوىٰ أفئدته، وهذا ما أثار أحقاد أولئك الذين ارتحلوا إلىٰ مناطق نائيةٍ عن هذا الموطن، وبنوا فيها مساكنهم، وزرعوا فيها أُسس ما يحتاجونه لطعامهم، وأشادوا فيها ما يستفيدون منه لقوام حياتهم وبذا ارتبطوا فيها، وبقيت أنظارهم تتجه نحو مهد البشرية موطن أنبياء الله ورسله، وتحقد قلوبهم علىٰ أهل تلك البقاع لما فيها من خير بموطن الأنبياء والرسل، ومركز الأديان والدعوات، ومكان التقدير والاحترام. وتُوجّه الأحقادُ أهلها لاستعمار نواحي مهد البشرية، وموطن الديانات السماوية، واستغلال أرضها، وفرض النفوذ والسلطان علىٰ أهلها، والسيطرة علىٰ كل من يرجع إليها.

وقضت حكمة الله سبحانه وتعالىٰ أن يكون خاتم الأنبياء والمرسلين من مكة المكرمة، إذ هي الموقع الأول لأبي البشرية آدم عليه السلام، حيث تتجه الأنظار إليه، وتعود أفكار أولي الرأي نحوه حيث بدء الخلق وما في ذلك من حكمةٍ وآيةٍ في الروح، والفكر، والخلق، والخاتمة، والحساب.

وكذلك فإن مكة المكرمة فيها البيت الأول الذي وضعه إبراهيم الخليل وولده إسماعيل عليهما السلام للناس، بأمر الله سبحانه وتعالىٰ، فكان مثابةً للناس، ومهوىٰ الأفئدة، يؤمه في كل عام جماعات وجماعات.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ [البقرة].

وقضت حكمة الله سبحانه وتعالىٰ أن يستجيب دعاء إبراهيم عليه السلام، وأن يبعث من ذرية إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام خاتم الأنبياء والمرسلين محمداً عليه السلام، في مكة المكرمة إذ كانت مهوىٰ أفئدة العرب، وتأتيها

وفودهم في كل عام في الشهر القمري الأخير (شهر ذي الحجة).

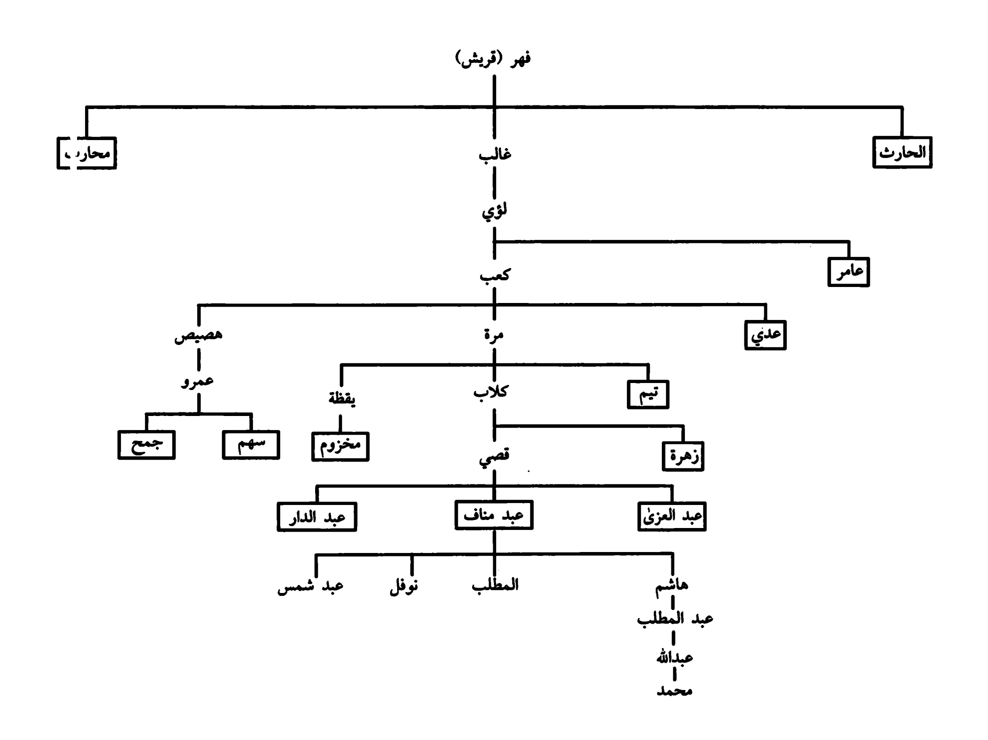
وكانت في مكة المكرمة قبيلة قريشٍ، وكانت لها مكانتها بين قبائل العرب الأخرىٰ، لسيادتها علىٰ مكة ملتقىٰ الوفود، ولمركزها التجاري، ولتاريخها البشري حيث هي مقرّ أبي البشرية آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

كانت قبيلة قريشٍ تُقيم في مكة، وتمتهن التجارة، وتقوم برحلةٍ إلىٰ الشام في فصل الصيف، وتقوم برحلةٍ ثانيةٍ إلىٰ اليمن في فصل الشتاء.

قال الله تعالىٰ: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ۝٢ فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ۝٣ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ۝٤﴾ [قريش].

وكانت قبيلة قريشٍ تضمّ اثني عشر بطناً (فرقةً أو فرعاً). وهذه البطون هي:

١ ـ الحارث. ٢ ـ محارب. ٣ ـ عامر. ٤ ـ عدي. ٥ ـ زهرة ٦ ـ تَيْم. ٧ ـ عبد الدار. ٨ ـ مخزوم. ٩ ـ سَهم. ١٠ ـ جُمَح. ١١ ـ عبد العزّىٰ. ١٢ ـ عبد مناف.



وكانت هذه البطون تختلف بعضها مع بعضٍ علىٰ السيادة، وعلىٰ التجارة، وعلىٰ التفاهم والاتفاق مع القبائل الأخرىٰ أو علىٰ الصراع معها. لذا اقتضت الحكمة ألا يكون خاتم الأنبياء والرُسل رأس أحد هذه البطون، حتىٰ لا يكون النزاع والصراع بين رؤوس هذه البطون علىٰ السيادة والمكانة؛ بل كان الابن الرابع لرأس أحد هذه البطون وهو بطن عبد مناف.



وفوق هذا كان ﷺ يتيماً، غافلاً، فقيراً.

قال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝٥ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ۝١١﴾ [الضحىٰ].

وبُعث خاتم الأنبياء والمرسلين فما كان سادة البطون يُنازلونه ويُهاجمونه، فهم حسب أعرافهم أعلىٰ مكانةً وأرفع منزلةً، وإنما كانوا يُحرّضون عليه أفراداً، ويرسلون إليه آخرين، وهم لا يلتفتون إليه، مع أن قوله ذو بيانٍ، وتصرّفه بحكمةٍ واتزانٍ، وما يُردّده من قول الرحمٰن لا يمكن أن يأتي به إنسان، وتقف أمامه الأعيان.

وأدّىٰ خاتم الأنبياء والرُسل الرسالة، وأدّىٰ الأمانة، ونصح للأمة، وانتشرت الدعوة ـ بإذن الله ـ. ووجد أمامه أمور لا بدّ من حلٍّ لها، منها:

لقد كان عليه الصلاة والسلام يلتقي بالرجال يدعوهم إلىٰ الله، ويرسم لهم الطريق المستقيم، ويكون هو القدوة الصحيحة لهم، فيلبُّون الدعوة، ويؤمنون بالله، ويقبلون الإسلام ديناً لهم، ثم يعملون هم لأداء واجبهم والدعوة إلىٰ دينهم. أما النساء فلا يصحّ اللقاء بهنّ ودعوتهنّ، والخلوة بهنّ، فعمله سيكون قدوةً لعمل المسلمين فيما بعد. وكان رسول الله ﷺ قد تزوّج بخديجة بنت خويلدٍ رضي الله عنها، إذ كان الزواج قبل البعثة بخمسة عشر عاماً، فعرفته بحق فآمنت، وكانت تتكلّم عما عرفت من زوجها وصدقه، واستقامته، وجلاء أموره، ووضوحها، ودليل ذلك إقبال الرجال الصادقين، المخلصين، الواعين علىٰ دعوته، وإسلامهم، وحمل الدعوة، والعمل لها، والجهاد في سبيلها بكل ما يملكون وما يستطيعون عمله، لذا أخذ الإسلام يدخل في قلوب بعض النساء، ويرين فيه الخير العميم، والعمل الصحيح. وتصل بعض الأخبار إلىٰ رسول الله ﷺ، فيدخل السرور إلىٰ قلبه، ويجد الخير في عمل السيدة خديجة رضي الله عنها.

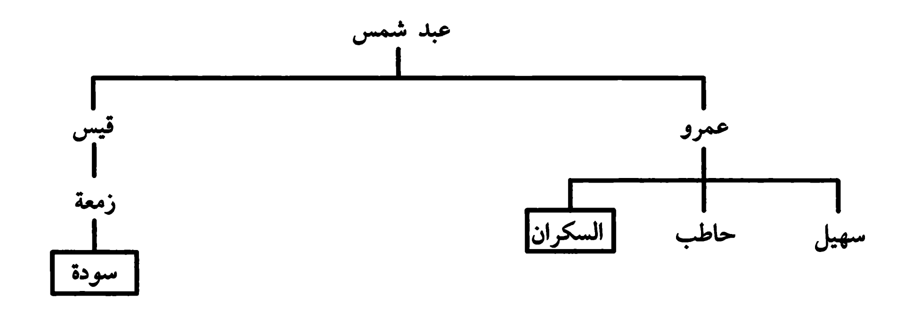
رأىٰ رسول الله ﷺ، تعدّد الزوجات عسىٰ أن يُؤدّين الواجب في إبلاغ الرسالة إلىٰ النساء، وقد رأىٰ صحة ذلك بما قامت به خديجة بنت خويلد رضي الله عنها. ورأىٰ أن يكنَّ ذات سنٍّ متقدّمةٍ نسبيًّا ليكنّ علىٰ معرفةٍ بالحياة الزوجية والعائلية والالتزام بالطاعة.

وإن الحياة التي قضاها رسول الله ﷺ بالدعوة قد ألزمته بذلك؛ لتأمين حياة المسلمات اللواتي حلّت بهن مصائب ولا حلّ لهن إلا بالزواج.

الزواج من سودة بنت زمعة:

سودة أكبر سناً من رسول الله ﷺ بخمس سنواتٍ، إذ ولدت سنة ثمان وخمسين قبل الهجرة. وقد تزوجت ابن عمّ أبيها السكران بن عمرو، وأسلما، وهاجرا إلىٰ الحبشة في الهجرة الثانية وذلك في السنة السابعة للبعثة

النبوية، وبعد مدةٍ رجعا من الحبشة مع فريقٍ ممن هاجر إذ بلغهم أن أهل مكة قد دخلوا في الإسلام، فلما عادوا عرفوا أن الخبر غير صحيح، وتوفي زوجها السكران بن عمرو ﵁، فبقيت دون معيلٍ، وهي من أشراف قريشٍ الذين منهم سهيل بن عمرو، أخو زوجها السكران بن عمرو، وكان سهيل بن عمرو من أشدّ الذين وقفوا في وجه الإسلام، فهي شريفة، وأسلمت، وخالفت قبيلتها وأسرتها، فلا بد للمسلمين من أن يرعوا شؤونها، وأفضل شيءٍ زواجها، إذ لا تستطيع أن تعيش بين أقاربها الذين قد يفتنونها عن دينها، ورسول الله ﷺ لا يمكن أن يطلب من أحد المسلمين أن يتزوجها إذ قاربت الخامسة والخمسين من العمر، كما لم تكن علىٰ درجةٍ من الجمال تُشجّع الىٰ الزواج منها، فكان لا بد من أن يضمّها إليه ﷺ، وخاصةً أن زوجته خديجة بنت خويلد ﵂، كانت قد توفيت قبل شهرٍ، فهو بحاجةٍ إلىٰ زوجةٍ ترعىٰ شؤونه، فتزوجها.



وهي أول من تزوّج بها بعد خديجة ﵂، وذلك قبل الهجرة بثلاث سنوات.

الزواج من زينب بنت جحش:

وأبوها جحش بن رئاب من حلفاء بعض بطون قبيلة قريش. وأمها أميمة بنت عبد المطلب عمّة رسول الله ﷺ، وزينب أصغر من رسول الله ﷺ بعشرين سنة.

أسلمت زينب رَضِيَ اللهُ عَنهَا في بدء الدعوة إلىٰ الإسلام، كما أسلم عدد من إخوتها، وهاجرت إلىٰ المدينة في وقتٍ قريب من هجرة رسول الله ﷺ.

بدأت الأنظار تتجه إلىٰ زينب لخطبتها إذ هي معروفة الأصل، موصوفة بالجمال، حسنة القوام، وزاد عمرها علىٰ الثلاثين. وقد رأىٰ رسول الله ﷺ أن يزوجها من مولاه زيد بن حارثة، وأخبر رسول الله ﷺ زيداً بذلك فسُرّ زيد كثيراً، وكان زيد رَضِيَ اللهُ عَنهُ من أوائل الذين أسلموا.

لم تقبل زينب وأسرتها الزواج من زيد، ولكن رسول الله ﷺ تابع الموضوع، ونزلت الآية الكريمة ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ [الأحزاب].

ويخبر رسول الله ﷺ زينب بما أنزل الله، فأذعنت للأمر، وأعلنت الطاعة والرضا، إذ كان يُدعىٰ زيد باسم سيّده رسول الله ﷺ، فيقال (زيد بن محمد). وبعد مرور سنة من الزواج نزلت الآية الكريمة ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ ...﴾ [الأحزاب: ٥]. فرجع اسم زيد (زيد بن حارثة). فشعرت زينب أن مكانة زيد قد تغيّرت بعد إلغاء مسألة التبنّي فرجعت إلىٰ ما كانت عليه من الترفع إن لم نقل زادت، وأخذ زيد يشعر بالضيق، فأخبر رسول الله ﷺ بذلك وأنه يريد طلاقها، وأنه قد عزم علىٰ ذلك، فأجابه رسول الله ﷺ: «أمسك عليك زوجك واتقِ الله».

ورأىٰ رسول الله ﷺ عزم زيد علىٰ الطلاق، كما رأىٰ رسول الله ﷺ أنه هو نفسه كان سبب الزواج، فمن الواجب الآن أن يُؤدّي دوراً في سعادة زينب رَضِيَ اللهُ عَنهَا، التي وافقته علىٰ الزواج من زيدٍ بعد ممانعةٍ، ثم إن أمر الله قد جاء، ولا بدّ من الالتزام.

وجاء زيد رَضِيَ اللهُ عَنهُ إلىٰ رسول الله ﷺ، وقال: يا رسول الله، إني أُريد أن أفارق صاحبتي، قال: «وما لك، أرابك منها شيء؟».

قال زيد رَضِيَ اللهُ عَنهُ: لا، والله ما رابني منها شيء يا رسول الله، ولا رأيت إلّا خيراً.

فقال له رسول الله ﷺ: «أمسك عليك زوجك واتقِ الله».

ولما أصرّ زيد رضي الله عنه على الطلاق، واستمرّت زينب رضي الله عنها في ترفُّعها. ورأىٰ رسول الله ﷺ أنه كان هو سبب الزواج، وأن نفسه قد مالت إليها لقرابتها منه، وما فيها من صفاتٍ طيّبة، وفوق هذا كله جاء أمر الله سبحانه وتعالىٰ بزواج رسوله محمدٍ ﷺ بزينب رضي الله عنها.

وأطلع زيد رضي الله عنه رسول الله ﷺ علىٰ النفرة التي نشأت من تعاظمها عليه، فأذن له في طلاقها، فطلّقها زيد، ولم يبقَ له فيها حاجة.

ولما انقضت عِدّةُ زينب رضي الله عنها، جرىٰ الحديث حول المرحلة الثانية، وهي زواج رسول الله ﷺ بزينب رضي الله عنها. وطلب رسول الله ﷺ من زيد رضي الله عنه أن يوصل لزينب المقدمة لذلك، فذهب إليها، وقال لها زيد: يا زينب، أبشري، أرسلني رسول الله ﷺ يذكرك.

أجابت زينب رضي الله عنها: ما أنا بصانعةٍ شيئاً حتىٰ يأتي أمر الله، ثم قامت إلىٰ مسجدها، ونزل قول الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿... فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾﴾ [الأحزاب].

وتزوج رسول الله ﷺ بزينب رضي الله عنها، وكان هذا الزواج المبارك في شهر ذي القعدة من السنة الرابعة للهجرة إثر غزوة بني المصطلق (المريسيع)، وكان عمرها رضي الله عنها يومذاك سبعاً وثلاثين سنةً.

وسألها رسول الله ﷺ يومذاك: ما اسمك؟ قالت: برّة. فسمّاها زينب.

الزواج من رملة بنت أبي سفيان:

ولدت رَمْلَة رضي الله عنها في مكة سنة خمسٍ وعشرين قبل الهجرة، فهي أصغر سنًّا من رسول الله ﷺ بثمان وعشرين سنةً.

تزوّج ابن عمّة رسول الله ﷺ عبيدالله بن جحش برملة بنت أبي سفيان.

وبُعث رسول الله ﷺ وأخذ يبلّغ الرسالة، ويُؤدّي الأمانة، وينصح للأمة، وبدأ أصحاب الفكر، والعقل، والوعي يدخلون في دين الله، وكان ممن دخل بالإسلام عمّة رسول الله ﷺ أميمة بنت عبد المطلب، وأبناؤها عبدالله بن جحش، وعبيدالله بن جحش، وعبد (أبو أحمد) بن جحش، وزينب بنت جحش، وحَمنة بنت جحش، وكذلك أسلمت زوجة عبيدالله رملة بنت أبي سفيان.

وصلت الأخبار إلىٰ أبي سفيان صخر بن حرب والد رَمْلَة أن ابنته (رملة) زوجة عبيدالله بن جحش قد اعتنقت الإسلام، فذهب إليها كي يثنيها عن همّتها، ويُبعدها عن الإسلام إذ كان هو يومذاك من أعداء الإسلام والمحاربين له بضراوةٍ، ولكن لم يُفلح إذ أجابته ابنته رملة بهدوءٍ وإيمانٍ: أشهد أن إلٰه إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله. ولم تزد كلمةً علىٰ ذلك. وحاول أبو سفيان أن يُذكّرها بمكانة أسرتها، ويرفعها علىٰ أسرة بني هاشم، ولكن لم يستفد من ذلك شيئاً فالإيمان في القلب راسخ، وفي النفس ثابت لا تُزحزحه مباهج الدنيا وزينتها ولا جمال الألفاظ وعذوبتها.

ووقف مشركو قريش في وجه الدعوة إلىٰ الإسلام، واتخذوا أساليب الضغط كلها من اضطهادٍ، وأذًى، وقتلٍ، وملاحقةٍ، فاضطرت فريق من المسلمين إلىٰ الهجرة إلىٰ الحبشة، وكانت هجرتهم علىٰ مرحلتين، وكان ممن هاجر في المرحلة الثانية عبيدالله بن جحش ومعه زوجته رملة بنت أبي سفيان، وكذلك إخوته.

أخذ عبيدالله بن جحش في الحبشة يتردد علىٰ الرهبان والقساوسة، ويطيل الجلوس عندهم، فجذبته مُغريات بعض الجلسات، ومالت نفسه إلىٰ بعض ما يدّعون. ولكن رملة رضي الله عنها بقيت محافظةً علىٰ عقيدتها ثابتةً علىٰ إيمانها.

كانت رملة يوم هجرتها حاملاً، وما أن استقرُّوا في الحبشة حتىٰ وضعت حملها، وكانت أُنثىٰ، فسمّتها (حبيبة)، وكُنّيت بها، واشتهرت بكنيتها (أم حبيبة).

رأت رملة في منامها في أحد الأيام أن شكل زوجها مُشَوّه وعلىٰ صورةٍ بشعةٍ، وهي تروي حلمها فتقول: رأيت في النوم كأن عبيدالله بن جحش زوجي بأسوإ صورةٍ وأكثرها تشويهاً ففزعت، وقلت: تغيّرت والله حاله، فإذا هو يقول حيث أصبح: يا أم حبيبة إني نظرت في الدين، فلم أرَ ديناً خيراً من النصرانية، وكنتُ قد دِنْتُ بها، ثم دخلت في دين محمدٍ، ثم قد رجعت إلىٰ النصرانية، فقلت: والله ما خير لك، وأخبرته بالرؤيا التي رأيتها له في المنام فلم يحفل بها.

وهكذا ارتدّ عبيدالله بن جحش عن الإسلام، واعتنق النصرانية، وحاول أن يردّ زوجته رَمْلَة بنت أبي سفيان عن الإسلام، ورغّبها فيما أضحىٰ يدين به، ولكن محاولاته كلها باءت بالفشل، وأبت أم حبيبة أن تُجيبه إلىٰ ما يريد، وصبرت صبر المؤمنين.

لم تقبل أم حبيبة رضي الله عنها أن تبقىٰ مع إنسانٍ كافرٍ، أو تُجالسه، أو تُحادثه، فكان لا بدّ من الفراق والانفصال عن هذا الزوج الذي ارتدّ عن دينه. واعتكفت أم حبيبة رضي الله عنها في منزلها، لا تستقبل أحداً، ولا تقوم بزيارة أحدٍ، إذ هي لا تستطيع الرجوع إلىٰ مكة إذ لا يزال أبوها (أبو سفيان) أحد رؤوس الكفر، حيث لا يمكن أن يتركها فيما لو رجعت حتىٰ ترتدّ عن الإسلام، ومن الصعب أن ترتحل إلىٰ المدينة فتعيش عالةً علىٰ أخت زوجها وهي أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها، فتوكلت علىٰ الله، وسلّمت أمرها له، وبقيت في الحبشة، تئن ألماً، وتبكي أسفاً، وتحمد الله الذي هداها للإسلام الذي تستمسك به، وتلتزم بل وتحرص علىٰ العمل له والدعوة إليه.

أما زوجها السابق عبيدالله بن جحش فبقي بعيداً، يعيش علىٰ معاقرة الخمرة، مُتمسكاً بنصرانيته التي مات عليها في الحبشة بعد مدةٍ قصيرةٍ.

وصلت أخبار رملة (أم حبيبة) رضي الله عنها إلىٰ رسول الله ﷺ، وعرف ارتداد زوجها ابن عمّته، وموته علىٰ النصرانية، وثبات رملة علىٰ دينها، والتزامها به، وحياتها مع ابنتها الصغيرة حبيبة، غريبةً عن ديارها، بعيدةً عن أهلها، لذا لا بد من إكرامها، وتحمُّل مسؤوليتها، فهي فرد من أُمته المسؤول

عنها. ورأىٰ عليه الصلاة والسلام أن أفضل إكرام لها الزواج منها لرعايتها وتأمين حاجاتها، ورفع مكانتها تقديراً لصدقها وإيمانها.

وكانت أم حبيبة رضي الله عنها تنتظر انتهاء عِدّتها عسىٰ أن يأتي الله بالفرج من عنده. وسمعت ذات يوم في منامها صوتاً يُناديها: يا أم حبيبة، يا أم المؤمنين، فنهضت خائفةً، ولكن سرعان ما عادت الصحوة إليها، وفسّرت ذلك بأنها ستكون زوجةً لرسول الله ﷺ، فحمدت الله، وسبّحته، وتوكّلت عليه. ولم يبقَ لانتهاء عِدّتها إلا بضعة أيامٍ.

دعا رسول الله ﷺ في المدينة عمرو بن أمية الضمري إليه، وطلب منه أن يسير إلىٰ الحبشة، ويقابل ملكها النجاشي، ويطلب منه أن يزوّجه رملة أم حبيبة بنت أبي سفيان، فانطلق، ولما وصل إلىٰ هناك اتجه إلىٰ النجاشي، وطلب منه ما أمره به رسول الله ﷺ. فوافق النجاشي، وبعث جاريته (أبرهة) إلىٰ رملة (أم حبيبة).

كانت أم حبيبة (رملة) تجلس وحدها، وبينما هي تُفكّر في وحدتها إذ بالباب يُقرع، وإذ برسول النجاشي جاريته (أبرهة) تدخل عليها، وتقول لها: إن الملك النجاشي يقول لك: إن رسول الله ﷺ كتب إليه أن يزوجك له.

شعرت أم حبيبة بالغبطة والسرور، وأحسّت بالفرح والسعادة، وأجابت: بَشّرك الله بخير.

قالت الجارية (أبرهة): يقول لك الملك: وكِّلي من يُزَوِّجك. فأرسلت أم حبيبة إلىٰ أحد أقاربها، وهو خالد بن سعيد بن العاص الأموي[1] رضي الله عنه، فوكلته.

---

(١) خالد بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي أحد السابقين إلىٰ الإسلام، وهاجر إلىٰ أرض الحبشة، وأقام بها بضع عشرة سنة، واستعمله رسول الله ﷺ علىٰ صنعاء، وقد هاجر مع جعفر بن أبي طالب من الحبشة إلىٰ المدينة أيام غزوة خيبر في شهر صفر من السنة السابعة للهجرة. وأمّره الخليفة أبو بكر الصديق رضي الله عنه علىٰ بعض الجيش في غزو الشام. واستشهد سنة أربع عشرة للهجرة في الشام في معركة مرج الصُفَّر أثناء قتال الروم.

ثم أعطت رملة (أم حبيبة) لجارية النجاشي سوارين من فضة، وخلخالين وخواتم من فضة أيضاً كانت في أصابعها بما بشّرتها.

وفي مساء ذلك اليوم الذي كانت فيه تلك البشرىٰ، أمر النجاشي من كان في الحبشة من المسلمين أن يحضروا، ومنهم جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه فحضروا، فوقف النجاشي قائماً، وقال: الحمد للّه الملك القدوس، السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبّار، وأشهد أن لا إلٰه إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، وأنه الذي بَشّر به عيسىٰ بن مريم، أما بعد:

فإن رسول الله ﷺ كتب إليّ أن أُزوِّجه أم حبيبة بنت أبي سفيان، فأجبت إلىٰ ما دعا إليه رسول الله ﷺ، وقد أصدقتها أربعمائة دينار.

ثم قام وكيل أم حبيبة خالد بن سعيد بن العاص رضي الله عنه، فقال: الحمد للّه أحمده، وأستعينه وأستنصره، وأشهد أن لا إلٰه إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدىٰ ودين الحق ليظهره علىٰ الدين كله ولو كره الكافرون، أما بعد: فقد أجبت إلىٰ ما دعا إليه رسول الله ﷺ، وزوّجته أم حبيبة بنت أبي سفيان، فبارك الله لرسوله ﷺ، وبارك الله لها.

ودفع النجاشي الدنانير إلىٰ خالد بن سعيد بن العاص فقبضها، ثم أراد المسلمون أن ينصرفوا، فقال لهم النجاشي: اجلسوا فإن سُنّة الأنبياء عليهم السلام إذا تزوّجوا أن يؤكل طعام علىٰ الزواج، فدعا بطعامٍ، فأكلوا ثم تفرّقوا.

وأسلمت الجارية (أبرهة)، وتروي أم حبيبة رضي الله عنها خبر هذه الجارية، فتقول: لما وصل إليّ المال، وهو مهري من النجاشي، أرسلتُ إلىٰ الجارية أبرهة التي بشّرتني، فأتت، فقلت لها: يا أبرهة، إني كنت قد أعطيتك ما أعطيتك بالأمس، ولا مال بيدي، فهذه الخمسون مثقالاً، فخذيها فاستعيني واستغني بها، ولكن الجارية أبت ذلك، وأخرجت حُقًّا[1] فيه كل ما كنت أعطيتها، فردّته إليّ، وقالت: عزم عليّ الملك ألا أرزأك شيئاً، وأنا التي أقوم علىٰ ثيابه ودهنه، وقد اتبعت دين محمدٍ رسول الله ﷺ،

---

(١) الحُقّ: وعاء يوضع فيه الطيب أو الحلي.

وأسلمت للّه ﷻ، وقد أمر الملك نساءه أن يبعثن إليك بكل ما عندهن من العطر. قالت أم حبيبة: فلما كان من الغد، جاءتني بعودٍ[1]، ووَرْسٍ[2]، وعنبرٍ، فقَدِمْتُ بذلك كله علىٰ رسول الله ﷺ، فكان يراه عليّ ولا يُنكره.

قالت الجارية أبرهة: يا أم حبيبة، إن حاجتي إليك أن تُقرئي رسول الله ﷺ مني السلام، وتُعلميه أني قد اتبعت دينه.

قالت أم حبيبة: ثم لطفت الجارية أبرهة بي، وكانت هي التي جهّزتني، وكانت كلما دخلت عليّ تقول: يا أم حبيبة، لا تنسي حاجتي إليك.

فلما قدِمتُ علىٰ رسول الله ﷺ أخبرته كيف كانت الخطبة، وما فعلتْ بي أبرهة، فتبسّم رسول الله ﷺ، وأقرأته منها السلام، فقال ﷺ: «وعليها السلام ورحمة الله وبركاته».

ولما بلغ أبا سفيان خبر زواج رسول الله ﷺ لأم حبيبة رملة بنت أبي سفيان، قال أبو سفيان: ذلك الفحل لا يُقرع أنفه.

عادت أم حبيبة مهاجرةً إلىٰ المدينة سنة سبعٍ من الهجرة مع ركب المهاجرين، وفيهم جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه ومن معه، وقد سُرّ رسول الله ﷺ بقدوم الغائبين.

جاء أبو سفيان إلىٰ المدينة ليُؤكِّد عقد صلح الحديبية، ويزيد مدة الهدنة بين الفريقين، فلما وصل أبو سفيان إلىٰ المدينة دخل علىٰ ابنته رملة (أم حبيبة) رضي الله عنها، فذهب ليجلس علىٰ فراش رسول الله ﷺ، فطوته عنه، فقال لها: يا بنيّة، ما أدري أرغبت بي عن هذا الفراش، أم رغبت به عني؟ قالت: بل هو فراش رسول الله ﷺ، وأنت مشرك نجس.

قال: والله لقد أصابك بعدي شرّ.

قالت: هداني الله للإسلام، وأنت يا أبتي سيّد قريش وكبيرها، كيف

---

(١) العود: نوع من الطيب.
(٢) الوَرْس: نبات أصفر يُتخذ من الزعفران.

يسقط عنك دخول في الإسلام، وأنت تعبد حجراً لا يسمع ولا يُبصر؟

قال: واعجباه، وهذا منك أيضاً؟ أأترك ما كان يعبد آبائي وأتبع دين محمد؟ ثم قام من عندها، ورجع إلىٰ قريشٍ يجرّ ذيول الخيبة.

واستعدّ رسول الله ﷺ وتجهّز، وتجهّز المسلمون لفتح مكة وساروا إليها، والتقىٰ العباس بن عبد المطلب، عمّ رسول الله ﷺ بأبي سفيان، فأخذه إلىٰ رسول الله، فأعلن إسلامه أمام رسول الله ﷺ، ووصل إلىٰ رملة (أم حبيبة) بنت أبي سفيان رَضِيَ اللهُ عَنْهَا الخبر بإسلام أبيها فسُرَّت سروراً بالغاً.

وتابع المسلمون بقيادة رسولهم الكريم السير إلىٰ مكة فدخلوها فاتحين، وأسلمت قريش، وعفا رسول الله ﷺ عما سبق منهم، وكُسرت شوكة الشرك.

وأخذت أم حبيبة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا تحفظ الآيات من كتاب الله، وأحاديث رسول الله ﷺ. وقد روت ٦٥ حديثاً، فهي رابع أمهات المؤمنين بالرواية بعد عائشة، وأم سلمة هند بنت أبي أمية، وميمونة بنت الحارث رضي الله عنهن جميعاً، وممن روىٰ عنها:

١ ـ أخوها الخليفة معاوية بن أبي سفيان رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا. ٢ ـ أخوها عنبسة بن أبي سفيان. ٣ ـ ابن أخيها عبدالله بن عتبة بن أبي سفيان. ٤ ـ ابن أختها أبو سفيان بن سعيد بن المغيرة. ٥ ـ عروة بن الزبير رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

وكانت رَضِيَ اللهُ عَنْهَا من العابدات الورعات. وأدركت خلافة أخيها معاوية رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وماتت في المدينة سنة أربعٍ وأربعين للهجرة، وبذا تكون قد عاشت تسعاً وستين سنةً.

تزوّج رسول الله ﷺ إحدىٰ عشرة زوجة، وهن:

١ ـ خديجة بنت خويلد رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

٢ ـ سودة بنت زمعة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

٣ ـ عائشة بنت أبي بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

٤ ـ حفصة بنت عمر رضي الله عنها.

٥ ـ أم سلمة هند بنت أبي أمية رضي الله عنها.

٦ ـ زينب بنت خزيمة رضي الله عنها.

٧ ـ زينب بنت جحش رضي الله عنها.

٨ ـ رملة أم حبيبة بنت أبي سفيان رضي الله عنها.

٩ ـ جويرية بنت الحارث رضي الله عنها.

١٠ ـ صفية بنت حيي بن أخطب رضي الله عنها.

١١ ـ ميمونة بنت الحارث رضي الله عنها.

كانت ثلاث منهنّ أكبر منه سِنًّا، وهنّ:

١ ـ خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، أكبر منه بخمس عشرة سنةً.

٢ ـ سودة بنت زمعة رضي الله عنها، أكبر منه بخمس سنواتٍ.

٣ ـ زينب بنت خزيمة رضي الله عنها، أكبر منه بأربع سنواتٍ.



سنوات الولادة

رسول الله ﷺ:	٥٣	قبل الهجرة.
١ ـ خديجة بنت خويلد رضي الله عنها	٦٨	قبل الهجرة.
٢ ـ سودة بنت زمعة رضي الله عنها	٥٨	قبل الهجرة.
٣ ـ عائشة بنت أبي بكر رضي الله عنها	٩	قبل الهجرة.
٤ ـ حفصة بنت عمر رضي الله عنها	١٨	قبل الهجرة.
٥ ـ أم سلمة هند بنت أبي أمية رضي الله عنها	٢٨	قبل الهجرة.
٦ ـ زينب بنت خزيمة رضي الله عنها	٥٧	قبل الهجرة.
٧ ـ زينب بنت جحش رضي الله عنها	٣٣	قبل الهجرة.
٨ ـ رملة أم حبيبة بنت أبي سفيان رضي الله عنها	٢٥	قبل الهجرة.
٩ ـ جويرية بنت الحارث رضي الله عنها	٩	قبل الهجرة.
١٠ ـ صفية بنت حُييّ بن أخطب رضي الله عنها	١٠	قبل الهجرة.
١١ ـ ميمونة بنت الحارث رضي الله عنها	٢٩	قبل الهجرة.



تأدية الأمانة

بُعث رسول الله ﷺ، قبل الهجرة بثلاث عشرة سنةً وبدأ يُؤدّي الأمانة، ويُبلّغ الرسالة، وينصح الأمة بالدعوة إلىٰ الله، وبيان الحق، ورسم الطريق الصحيح، والبُعد عن الجاهلية بعبادة الله وحده لا شريك له، وترك الأصنام والأوثان، وضرب الباطل وأهله، ومحاربة الظلم وطغيان أهله.

شعر رسول الله ﷺ أن الطريق أمامه طويل وشاق، محفوف بالمكاره، مليء بالأشواك، فيه مقاومة للنفس التي تنزع دائماً إلىٰ التحرُّر من القيود المفروضة عليها، وفيه مقارعة للمجتمع الذي يُفضّل مصلحته علىٰ كل شيءٍ، ويدور دائماً وراء أطماعه، وفيه خلاف مع المتنفذين الذين لا يريدون أن يقف أحد أمام رغباتهم الشخصية، ويحاربون كل من يريد أن يحدّ من سلطانهم أو يقف في وجه ظلمهم وطغيانهم. وشعر رسول الله ﷺ، بحلاوة الإيمان إذ حقق بعض النصر في دعوته فلبّىٰ الدعوة أولئك النفر الأوائل لِما عرفوا من أخلاقه وصدقه نتيجة قربهم منه، وصلتهم به. فأسلم:

ابن عمّه عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه. صديقه أبو بكر الصديق رضي الله عنه (عبدالله بن عثمان «أبي قحافة» بن عامر التيمي). عثمان بن عفان رضي الله عنه. الزبير بن العوام رضي الله عنه. عبدالرحمٰن بن عوف رضي الله عنه. سعد بن أبي وقّاص رضي الله عنه. طلحة بن عبيدالله رضي الله عنه.

زوجته خديجة بنت خويلد رضي الله عنها. وكان رسول الله ﷺ قد تزوج بها قبل البعثة بخمس عشرة سنة. وهي رضي الله عنها تفوقه سِنًّا بخمس عشرة سنة، وقد عرفت صدقه، وأخلاقه، وإيمانه، وحبّه للخير.

وإن من صدق نبوته ﷺ تلبية أهله، وأصدقائه، والمقرّبين منه، لدعوته فإنهم هم أكثر من يعرف حقيقته، ويعلم صدقه، وحبّه للخير. ولا يمكن أن يؤمن أحد بآخر يقول بالنبوة، ويدعو لها إلا إذا عُرف منه الصدق والأخلاق التي تُؤهّله لتلك المنزلة.

واستمرّ رسول الله ﷺ، في دعوةٍ سريةٍ مدة ثلاث سنواتٍ، إذ لا يستطيع أن يجهر في دعوته، إذ تخشىٰ الرؤوس علىٰ مواقعها، وتظنّ أنها الهدف. وقد لبّىٰ الدعوة في هذه المدة رغم سرّيتها ستون إنساناً يُعدُّون من كبار القوم وأعيانه رغم ادّعاء الأعداء وافتراء المغرضين بأن الذين لبُّوا دعوة الإسلام في مرحلته الأولىٰ كانوا من طبقة الفقراء والموالي والعبيد، وإن ذكر الأسماء يُدحض الكذب والافتراء. فالأشخاص هم:

أ ـ من بني الحارث:

١ ـ أبو عبيدة عامر بن عبدالله بن الجراح.

ب ـ من بني عامر:

٢ ـ أبو سبرة بن أبي رُهم. ٣ ـ حاطب بن عمرو. ٤ ـ حطّاب بن عمرو. ٥ ـ السكران بن عمرو. ٦ ـ سليط بن عمرو.

جـ ـ من بني عدي:

٧ ـ نعيم بن عبدالله. ٨ ـ سعيد بن زيد.

د ـ من بني تيم:

٩ ـ طلحة بن عبيدالله. ١٠ ـ عبدالله بن عثمان (أبو بكر الصديق).

هـ ـ من بني أسد:

١١ ـ الزبير بن العوام.

و ـ من بني هاشم بن عبد مناف:

١٢ ـ عليّ بن أبي طالب. ١٣ ـ جعفر بن أبي طالب.

ز ـ من بني المطلب بن عبد مناف:

١٤ ـ عبيدة بن الحارث.

ح ـ من بني أُمية:

١٥ ـ عثمان بن عفان. ١٦ ـ خالد بن سعيد بن العاص. ١٧ ـ عمرو بن سعيد بن العاص.

ط ـ من بني ربيعة:

١٨ ـ أبو حذيفة بن عتبة.

ي ـ من بني عبد الدار:

١٩ ـ مصعب بن عمير.

ك ـ من بني زُهرة:

٢٠ ـ عبدالرحمٰن بن عوف. ٢١ ـ المطلب بن أزهر. ٢٢ ـ سعد بن أبي وقّاص. ٢٣ ـ عمير بن أبي وقّاص.

ل ـ من بني مخزوم:

٢٤ ـ الأرقم بن أبي الأرقم. ٢٥ ـ عيّاش بن أبي ربيعة. ٢٦ ـ أبو سلمة عبدالله بن عبد الأسد.

م ـ من بني سهم:

٢٧ ـ خُنيس بن حُذافة.

ن ـ من بني جُمح:

٢٨ ـ حاطب بن الحارث. ٢٩ ـ عثمان بن مظعون. ٣٠ ـ السائب بن عثمان بن مظعون. ٣١ ـ عبدالله بن مظعون. ٣٢ ـ قُدامة بن عبدالله بن مظعون

وهؤلاء واحد وثلاثون مسلماً من سادة قريشٍ وأبنائهم.

ويُضاف لهم اثنتا عشرة امرأة من نسائهم وبناتهم وهن:

١ ـ خديجة بنت خويلد، أم المؤمنين زوجة رسول الله ﷺ. ٢ ـ أسماء بنت أبي بكر الصديق. ٣ ـ أسماء بنت عميس، زوجة جعفر بن أبي طالب. ٤ ـ أم أيمن، زوجة زيد بن حارثة. ٥ ـ فاطمة بنت الخطاب، زوجة سعيد بن زيد. ٦ ـ فاطمة بنت المجلل، زوجة حاطب بن عمرو. ٧ ـ فكيهة، زوجة حطاب بن عمرو. ٨ ـ رملة بنت أبي عوف، زوجة المطلب بن أزهر. ٩ ـ أمينة بنت خلف، زوجة خالد بن سعيد بن العاص. ١٠ ـ أسماء بنت سلامة، زوجة عيّاش بن ربيعة. ١١ ـ سُميّة زوجة ياسر، وهي أم عمار بن ياسر.

ويضاف إلىٰ هؤلاء الأعيان ثلاثة من قبائل أخرىٰ وهم:

١ ـ عامر بن ربيعة (من هذيل). ٢ ـ عبدالله بن مسعود (من هذيل). ٣ ـ مسعود القاريّ (من القارة).

وهناك من الموالي والحلفاء أربعة عشر رجلاً وهم:

١ ـ خبّاب بن الأرتّ (حليف بني زهرة). ٢ ـ صهيب بن سنان (حليف بني تيم). ٣ ـ عامر بن فهيرة (مولىٰ أبي بكر الصديق). ٤ ـ زيد بن حارثة (مولىٰ رسول الله). ٥ ـ ياسر (حليف بني مخزوم). ٦ ـ عمّار بن ياسر (حليف بني مخزوم). ٧ ـ واقد بن عبدالله (حليف بني مخزوم). ٨ ـ خالد بن البكير (حليف بني مخزوم). ٩ ـ عامر بن البكير (حليف بني مخزوم). ١٠ ـ عاقل بن البكير (حليف بني مخزوم). ١١ ـ إياس بن البكير (حليف بني مخزوم). ١٢ ـ عبدالله بن جحش (حليف بني عبد شمس).

١٣ ـ عبد بن جحش (حليف بني عبد شمس). ١٤ ـ بلال بن رباح (مولىٰ أُميّة بن خلف).

فأكثرية الذين دخلوا في الإسلام يوم كانت الدعوة سِرِّيةً إنما هم من وجهاء قريشٍ وأبنائهم، وليسوا من الأرقّاء والموالي وحلفاء القبائل كما اعتاد أن يتكلّم في ذلك كثير من الذين كتبوا في السيرة، ممن أخذ عن الأعداء والمستشرقين والذين لم يبحثوا في الأمر بدقةٍ، ولم يكتبوا بحكمةٍ.

وقد قدّمت أم المؤمنين خديجة بنت خويلد رضي الله عنها خدماتٍ للدعوة الإسلامية منها عامةً، ومنها خاصةً بين النساء بما تنقل عن زوجها رسول الله ﷺ، من صفاتٍ كريمةٍ، وأخلاقٍ حميدةٍ، وهذا ما يُشجّع علىٰ اعتناق الإسلام والالتزام بمبادئه. ولكن لم تلبث خديجة رضي الله عنها من أن توفيت وذلك قبل الهجرة بثلاث سنواتٍ، وبعد أن عاشت مع رسول الله ﷺ خمساً وعشرين سنةً زوجةً له.

عاش رسول الله ﷺ مدةً يذكر خديجة رضي الله عنها، وما قدّمت في سبيل الدعوة، ويطلب لها الرحمة والمغفرة، وأن الدعوة تحتاج إلىٰ عدة نسوٍ كي تتوسع، وأن الرجل من الصعب أن يقوم بدعوة النساء إذ لا تصحّ الخلوة بهنّ، ولا بدّ لهنّ مَن يكنّ علىٰ مقربةٍ دائمةٍ من رجلٍ داعيةٍ يأخذن منه ويتعلّمن، وينقلن إلىٰ زميلاتهنّ، وأهليهنّ حتىٰ تتسع الدعوة بين النساء ولم يمضِ شهر علىٰ وفاة خديجة رضي الله عنها، حتى توفي السكران بن عمرو رضي الله عنه، وكان قد رجع من الحبشة مع زوجته سودة بنت زمعة رضي الله عنها، فأخذ رسول الله ﷺ يُفكّر في هذه المسكينة التي بقيت دون معيل، وهي من أشراف قريش الذين منهم سهيل بن عمرو أخو زوجها السكران بن عمرو. وكان سهيل بن عمرو من أشدّ الذين وقفوا في وجه الإسلام، فهي شريفة، وأسلمت، وخالفت قبيلتها وأسرتها، فلا بدّ للمسلمين من أن يرعوا شؤونها، وأفضل شيءٍ زواجها، إذ لا تستطيع أن تعيش بين أقاربها المشركين الذين ربما فتنوها عن دينها، ورسول الله ﷺ لا يمكن أن يطلب من أحد من المسلمين أن يتزوجها إذ قاربت الخامسة والخمسين سنةً من

العمر، كما أنها لم تكن على درجةٍ من الجمال تُشجّع على الزواج، فكان لا بدّ من أن يضمّها إليه، كما أن زوجته خديجة بنت خويلد رضي الله عنها كانت قد توفيت قبل شهرٍ، فهو بحاجةٍ إلى زوجةٍ ترعى شؤونه، فتزوّجها ﷺ.

وهي أول امرأة تزوج بها بعد خديجة رضي الله عنها. وذلك قبل الهجرة بثلاث سنواتٍ.

وكذلك كان رسول الله ﷺ قد سعى لزواج ابنة عمته زينب بنت جحش رضي الله عنها من مولاه زيد بن حارثة رضي الله عنه، وذلك بعد إسلام زينب، ولكن الحياة الزوجية لم تستقم بين الطرفين لترفُّع زينب على زوجها، وكان الفراق، وكان الزواج بين رسول الله ﷺ وبين زينب ابنة عمته أُميمة بنت عبد المطلب.

وكان ابن عمّة رسول الله ﷺ عبيدالله بن جحش قد أسلم وزوجته رملة بنت أبي سفيان، وهاجرا إلى الحبشة، وبعد مدةٍ ارتدّ عبيدالله هناك عن الإسلام، والتزمت رملة بعقيدتها، وعاشت وحدها، فأرسل رسول الله ﷺ إلى النجاشي حاكم الحبشة يطلب منه أن يزوّجها إليه، وتمّ ذلك ـ كما مرّ معنا ـ وعادت رملة مهاجرةً إلى المدينة سنة سبعٍ من الهجرة، وكانت مع زوجها رسول الله ﷺ. وكانت من العابدات.

وهكذا تعدّدت زوجات رسول الله ﷺ. خوفاً عليهنّ من الفتنة والارتداد عن الإسلام فيما إذا ارتدّ أزواجهن أو ماتوا عنهنّ، أو فارقوهنّ فبقين بين مجتمعٍ عدوٍّ للإسلام ـ كما مرّ معنا ـ.

وكذلك في سبيل الدعوة للإسلام بين النساء، إذ تتعلّمن من رسول الله ﷺ الفقه وتُعلّمنه لصويحباتهنّ، وتحفظن الحديث وتروينه لهنّ، وتأخذن السلوك والأخلاق الإسلامية وتنقلنها و... ويمكن أن نأخذ مثلاً بما روين من حديثٍ:

روت عائشة رضي الله عنها: (٢٢١٠) حديث.

روت أم سلمة رضي الله عنها: (٣٧٨) حديثاً.

روت ميمونة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: (٧٦) حديثاً.

روت أم حبيبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: (٦٥) حديثاً.

روت حفصة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: (٦٠) حديثاً.

روت صفية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: (١٠) أحاديث.

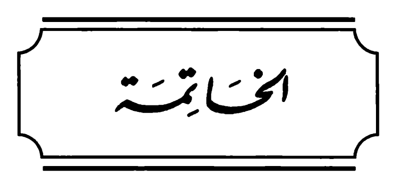
روت زينب بنت جحش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: (٩) أحاديث.

روت سودة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: (٥) أحاديث.

روت جويرية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: (٥) أحاديث.

كانت أمهات المؤمنين، رضي الله عنهن، يشعرن بما نِلن من شرفٍ بالزواج من سيّد الخلق رسول الله ﷺ، وبما سيُحقِّقن من فوزٍ بدخول الجنّة، وبما حصلن عليه من إيمانٍ، وبما أُبعدن عن مجتمعٍ وخاصةً تلك اللواتي مات أزواجهنّ، أو ارتدُّوا، أو فارقوهنّ، فأنقذهنّ رسول الله ﷺ بالزواج. لذا فقد رسخ الإيمان في القلوب، وثبت في النفوس، فحرصن على الالتزام، والدعوة إلىٰ ما آمنّ به، والعمل بما حرصن عليه، وأن يكنّ القدوة لكل مسلمٍ صادقٍ مخلصٍ مؤمنٍ بالله رب العالمين، ومن أرسل من أنبياء ورسلٍ. وقدْ حقّقن النجاح، والحمد للّه رب العالمين.





وأخيراً نرجو من الله ربّ العالمين أن نكون قد استفدنا بما كتبنا، وأن يستفيد مَن إليه قدّمنا وهدينا، وأن نحصل علىٰ الأجر، وننال الفوز يوم العرض الأكبر، فلهذا نسعىٰ، وإليه ندعو، ومن أجله نُجاهد.

وختاماً فالحمد للّه رب العالمين والصلاة والسلام علىٰ خاتم الأنبياء والمرسلين، وعلىٰ آله وصحبه أجمعين، ومن سار علىٰ دربه إلىٰ يوم الدين.



فهرس الأعلام المُترجَم لهم

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

